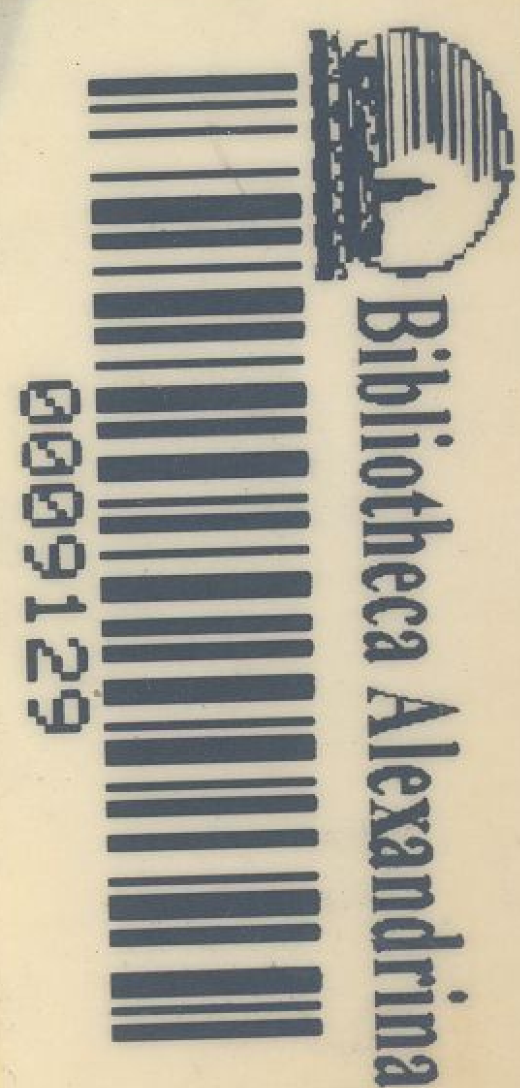
الحكيم بخيلا...



الأهرام
مركز الأهرام
للترجمة والنشر

الحكيم بخيلا ...

□ □ . . إلى أخى الاقتصادى الدولى د. رجائى الملاخ

أسأله لقد كنت أول من يؤلف عن الطاقة
والتنمية الاقتصادية عالميا فى أكثر من
٣٠ كتابا ومجلدا . ولكنك نسيت أكبر
اقتصادى فى عالم الفكر العربى :
أستاذنا توفيق الحكيم !! ؟

الطبعة الثانية
١٤٠٨ هـ - ١٩٨٨ م

الناشر : مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام - شارع الجلاء - القاهرة
تليفون ٧٤٨٢٤٨ - تلكس ٩٢٠٠٢ يوان

المحتويات

صفحة

صفحة

تحية ليست عابرة !

.. تحية الى : توفيق الحكيم .. المفكر الذى لايزال يعطى ويثرى الفكر العربى ، رغم أن شهادة ميلاده التى تركت لونها الأبيض الا قليلا .. تشير .. انه الى التسعين .. مازال يفكر ويتحـــرك كما يسرى مداد فكره ناضجا شابا : على ورق .. وخشبة مسرح وشريط سينما وتليفزيون وحوار مع جالسيه .. ليس فى صالون بيته الذى قد يكلفه كرما وضيافة واستضافة .. ولكن فى صالون « الأهرام » .. فى مكتبه الذى يجيئه حاليا ليس كل يوم كما كان يفعل ولكن كل خميس .. ثم تعود أخيرا ان يجيئه مرة كل خميسـين!! من مطلع خريف حتى أول صيف .

ان الحكيم .. مهما بلغ من العمر .. فمازال قلمه فتيا مقداما شـــابا جادا أو : ساخرا متهكما .. واحيانا ناســـكا متعبدا متأملا يكاد أن يصبح متصـــوفا .

عرف الحكيم كيف يتفرد بأدبه على جسر الحوار فى اطار توام حياته : الفن .

ولد توفيق الحكيم مع جيل العمالقة : .. ولمع بينهم .. وودعهم ، وكان مع العمر أطولهم :

أحمد شوقى (٦٤ سنة) .

طه حسين (٨٤ سنة) .

عباس محمود العقاد (٧٥ سنة) .

سلامة موسى (٧٣ سنة) .

وسبقهم احمد لطفى السيد وله من العمر ٩٤ سنة .

تحية الى الحكيم مع باقة تحمل مائة زهرة ومائة شمعة .. تتفتح مع عبق وضوء الوفاء والدعاء بأن يطيل الله حياته مائة عام وأكثر .

ك. الملاخ

٩٠

■■ سألنى الصحاب ؟

وماذا بعـــد كتابك عن [بيكاسو .. المليونير الصـــعلوك] ؟ .. و [قاهر الظـــلام] الذى أفردت فيـــه حياة بليغ العربيـــة طه حسين ؟ !

قلت لهم :

[الحكيم بخيلا] .. الا من الفكر طبعا !

أقدمه الى توفيق الحكيم : زهرة ود تشـــع عطرا والوانا .. لا ذهبا براقا له وهج ورنين فى عيد مولده .. وهو عيد ليس ككل عيد احتفل به من قبل . اقدمه له مع اشراقة شمس كل يوم جديد !!

لعل زهرتى تتوهج وسط ٩٠ شمعة .

تعلن أن ٩٠ سنة خطاها : الحكيم ، جسدا نابضـــا يفكر .. أعطى فيهـــا ومازال يعطى أدبا ومسرحا ، ولا يعطى مالا ، هو حريص عليه كل الحرص . !

ك. الملاخ

نحو الأزرق

□■□ .. مرة قالت لى أم كلثوم ، باسمة — وكنا نزور عاصمة بلد عربى لتشدو وتغنى — لحظة ان اشتد من حولنا زحام المعجبات والمعجبين ، بفنها ، وكاد وهو يموج بنا ان يضغطنا : .. **« هم الناس دول فاكرين ايه ؟. ان احنا بناكل ورد ، ونشم ورد ، ونشرب مية ورد .. على طول كده ورد . ورد . ورد . والا ايه .. ؟ ما احنا — ناس — زيهم . ! »** .

اذكر جملتها وقلمى يصاحب صفحات هذا الكتاب لعله يحيط بحياة : توفيق الحكيم ، عن قرب ، يحاول ان يمد مداده على ورق بين الظلال والأضواء ، التى لاحقت بعض سنوات عمره . مع النغم او الصمت . ومع الحركة او السكون . مع الحذر او الاندفاع الى حد التهور احيانا .. خلال طفولته وصباه ثم شبابه ورجولته ولا اقول كهولته التى لم تقرب بعد من شيخوخته . اذ انه مازال يفكر .. مغامراته وتأملاته وقضاياه ومعاركه الادبية والفكرية والاجتماعية .. ونسائياته .. وعداوته للمراة ؟ هل كان يتصنعها فى وقت كانت مصر تنادى فيه بأن تخرج حواء العربية من جحور الحريم . وان تخرج بملامحها من استار الحجاب . وان تخرج بعقلها الى نور الثقافة وشمس الفكر . ان حواء نصف المجتمع ، بل هى موجهة كل النشء فى بلاد الله . ان جهلت فقد جهلوا ، وان تنورت فقد وقفوا مع التقدم الانسانى — حيثما وجد — رافعى الراس . يضيفون الى الحضارة مشعلا .

فى لقاء معه عند زرقة بحر الاسكندرية: والحوار يربط جلستنا ــ والجرسون كلما لاح وحام من حولنا ، يدير توفيق الحكيم بصره الى الجانب الآخر . حتى لا يتورط ويطلب شيئا . الى ان حاصره الجرسون يمينا وشمالا . اشبه بمغازلة عصبية بين صائد وفريسته . فأصبح رأس توفيق الحكيم يتحرك الى الجانبين بسرعة « اتوماتيكية » ، مثل بندول ساعة ... او وكأنه يتطلع الى مباراة تنس حامية بين متنافسين قد تعادلا . كل هذا فى اتجاه مضاد لحركة الجرسون ، الذى أحس فأمعن فى البقاء الحركى !! الى أن حاصره تماما ثم تقدم اليه شجاعا . ومع هذا لم يفلح .. فان الحكيم صاح به وفى عصبية مصطنعة : **« عجيبة يا أخى .. حد طلبك ؟ .. يا سيدى لما نعوز حاجة حنصفق ونطلب . أيوه .. الله ! مش معقول كده ! احنا جايين نشرب حاجة .. والا نتكلم مع بعض ونقول حاجة . ؟ يا سيدى متشكرين . بعدين .. ايوه كده .. بعدين ! »** .

ويثبت رأس الحكيم ، بعد أن ذهب الجرسون : استراح وانبسطت اساريره . وفى لحظة الانسجام .. انسجام من نفد من الطلب والدفع . وحينئذ فاجأه حوارى :

... ــ كم من النساء احببت . ؟

ويرد الحكيم .. متذكرا الجزء الأول .. مدققا .. ساردا بقية اجابته سعيداً وهو يذكر أسماء بناته :

أحببت أربعا .. غير زوجتى وبناتى الثلاث : « ناجا » و « نورا » و « سوزى » وحفيداتى الأربع وبالطبع .. غير ابنى : اسماعيل ، وحفيدى.

سألته : والمال ؟

الحكيم : لا أكرهه . وانما أنا حريص عليه .

... : واسرافك ؟

الحكيم : مسرف جدا ولكن اسرافى من ورق وأعصاب وفكر وكلام . لى ٥٥ كتابا ومؤلفا وروايه ومسرحية وما أكثر مسرحياتى القصيرة التى تعدت الـ ٦٠ .

وعن الحسد والخزعبلات والخرافة يتحدث : **ت. الحكيم** على صفحات هذا الكتاب . وعصاه التى يتوكأ عليها وحماره الذى يجره خياله والذى يبدو لى أحيانا أنه حمار آخر غير ذلك الذى ركبه القصير المنتفخ **« سانكو بانزا »** يلهث به وراء سيده الرفيع الطويل **« دون كيشوت »** الذى يركب بدوره صهوة حصانه **« روسيناتى »** ، يبحثان عن المخاطر والبطولة الزائفة ويحاربان طواحين الهواء : .. هل من منازل ؟ . كما تخيل سيرفانتيس [٦٩ سنة] المؤلف الأسبانى الشاعر . الذى مات فى ذات السنة التى توفى فيها : وليم شكسبير [٥٢ سنة] من ٣٧٢ سنة .

وعن مغامراته فى الاسكندرية والدلنجات ــ بحيرة . والمحلة الكبرى ودسوق وأحياء القاهرة وازقتها وطنطا ورأس البر ومشاتى جبال الألب ورؤوسه البيضاء التى تكللها الثلوج وكأنها عروس تزف الى زرقة السماء ومغانى باريس ومفاتنها وشقراواتها تكلم : الحكيم . المسرح هناك واوبرا : « شمشون ودليله » التى رآها واستمع اليها اول مرة . وبنات الهوى وعلب

الليــل ، اهل الفن من رسامين ومصــورين وممثلين .. ومتاحف باريس واسواقها واجوائها والمجتمع وكيف اصابه الحب هناك عندما راح ليمــد فيها درجة الدكتوراه فاذا به يعود سليما فاقدا لها .

قال له قارىء كف يوما ما : « ان لمعة الشمس امامك . الشمس واضحة في كفك .. اقرا .. الا تصدقني تطلع ؟ وقد كان . ولكنه غضب منه عندما قال له ان مستقبله ليس في دواوين الحكومة وانمــا : كلام . كلام . كلام مكتوب وحوار وفكر .. وقليل من الفلوس ! .

توفيق الحكيم متزن جدا ولكن احيــانا هو على النقيض . هــل لبرج « **الميزان** » الذى ولد فيه صلة تقربه من « **العقرب** » ؟ البرج الذى يليه ..

ان الحكيم مر من قرن الى قرن من لمبة الجاز نمرة ٥ الى وهج الكهرباء والأضواء . من عربة الحنطور الى الطائرة . انه عبر ٥ اجيال من القرن التاسع عشر الى القرن العشرين . راى جدته ويسعد بأحفاده . انه بدأ حياته مع « **الموال** » وانتقل الى عالم « **التخت** » .. ثم طاب له أن يستمع الى كلاسيكيات السيمفوني والفيلاهارمونيكا .. ثم هــو اذا راح ليكتب في ركن بيته فان الكترونيات النغم .. تصــدح زاعقة في ذات بيته اذا ما الف ابنه الموسيقار نغما جديدا ؟ اى أنه تعايش من **عم زعبلاوى .. الى سلامة حجازي وسيد درويش .. الى بيتهوفن .. الى عمر خورشيد ، وازنافور وجوني هوليداى ، ومحمد عبد الوهاب وعبد الحليم حافظ وكمــال الطــويل وبليغ حمــدي ، وســمير صــبرى ، وهوليداى كنف ، وموريس جار وفرانسيس لاى ، وشيرلى باسى .**

وعن نجله تحدث : توفيق الحكيم كثيرا — في اجواء من المداعبــة — وله نظرية يخالف فيها ميدياس الذى نحكي اسطورته انه طلب من الله ونمنى ان يهبه ثروة طائلة . فمناه وقال له لكنك ستندم . فالح في الرجاء . وكان له ما توسل من أجله . فما كان الا ان يتحول اى شيء يلمســه الى ذهب واصبح ميدياس سعيدا . يقفز في جنون الفرح . ان اناملة اصــبحت مثل العصا السحرية . يلمس كل ما يصادفه فيتحول الى ذهب ... ذهب ... ذهب ... الى ثروة . لكن فجاة اقبلت عليه وحيدته . مشتاقة تنادى عليه. يفرد لها ذراعيه . حضنها . لمسها . تحولت في لمح البصر الى تمثال من ذهب . يهزها . يرجها . لا شيء ؟ ! .. لقــد أصبحت جمادا حلوا غاليا لا روح فيه ولا حركة !! بكى ميدياس طويلا وانتحب عويلا . لعــل ذهبــه يشترى به حياة ابنته . وحيدته . لعــل ثروته تفيده في ان يجعلها تنطق وتناديه كأى طفلة تنادى والدها الغلبان .. ويعود ويتطلع الى الســماء لاهثا في الرجاء . ملحا أن يفقــد كل ثروته وماله وجاهه ويصــبح معدما فقيرا كهذا الصعلوك الفقير الواقف متلمظا على باب حديقة قصر ميدياس . ينتظر خروجه للتحية ! ويضرب تعظيم ســلام .. وفي بطنه جوع وخواء وفي عينيه نظرة الرضا والقناعة . وندم ميدياس لحظة لا ينفع فيها الندم !.

اعدت على توفيق الحكيم ، الحكمة المقدسة :

... — ماذا لو ربح الانسان العالم كله وخسر نفسه وروحه وايمانه !؟

انى اذكر ايضا : « **تبت يدا ابى لهب وتب ، ما اغنى عنه ماله وما كسب** » .

قال ت. الحكيم : ولكنى لست ميدياسا .. ! ولا احب ان اكون مداسا لاستغلال آخرين !

واعود لاعرف فلسفة (البخل) عنده ، فيقول : **البخل الحقيقى هو اما : مرض . واما : هواية ! ولكنه على كل حال ليس شيئا طبيعيا .**

والبخل فى حقيقته وجوهره يفترض أن صاحبه ذو مال وفير ينتفى معه خوف العوز ، ومع ذلك يبقيه صاحبه مكنوزا خوفا عليـــه من الضياع او النقصان . كمن أعطى صحة جيدة وحبس نفسه فى حجرة مغلقة لا يتحرك منها خوف التعرض للمرض . انه اذن رجل مريض قبل ان يصاب بالوهم. أو انه يجـــد اللذة فى رؤية المال مكنوزا امامه . وهذا ما قاله احد البخلاء عندما سئل فى ذلك فأجاب : ان هوايته فى الحياة تأمل أمواله مكدسة كمن يتأمل لوحة فنية معلقة . وفى الحالين : البخيل رجـــل غير طبيعى . ولكن البخل يختلط أحيانا بالحرص . فالحريص لا يكنز ماله لمجرد كنزه . بل هو يحافظ عليه لهدف معقول ، اما لأنه يعمل حساب الغد الغادر عملا بالقول : « **القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود** » واما لانه يحب بطبعه أن يضـــع كل قرش فى محله بدقة وحساب يلفت نظر من يعمل بالقول المضـــاد وهو : « **اصرف ما فى الجيب يأتيك ما فى الغيب** » . هذا قول المتفائل بطبعه تفاؤلا ربما يصـــل الى حافة الاستهتار بالعواقب . فى حين ان القول الآخـــر : « **القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود** » ، هو قول المتشائم بطبعه تشاؤما ربما وصل الى حافة سوء الظن بالأيام .

انى أضـــع نفسى فى خانة « الحريص » وليس فى خانه « البخيل » لانى اولا لم أكن فى يوم من الأيام صاحب مال وفير . انما اكسب بقلمى وعرقى ما يفى فقط بالمستوى العادى او المعقول لحياة أديب فى بلادنا . وربمـــا كنت بطبعى أيضا معتدلا فى الانفاق والحرص على عدم الاسراف فى اى شيء مخافة أن اضطر الى زيادة دخلى بانتاج اعمـــال لا ارتضيها لنفسى . فأنا لا أريد أن أعود نفسى على البذخ او الترف .

ويتابع الحكيم : « **اذا أردتم أن تعرفوا هل انا بخيل حقا ؟ فاعطونى اولا المـــال الوفير والشيكات ذات الأرقام الخمســـة ، وانظروا بعد ذلك ماذا ســـافعل . أما الذين كتبت عليهم الأرقام الثلاثة فدعوهم يأكلون بهـــا . أما الأرقام الأربعة فهى لا تحدث لأمثالنا الأدباء والكتاب فى بلادنا الا سهوا من القدر أو تقديرا ممن احسنوا بنا الظن ، ولذلك نسرع بانفاقها فى شراء سيارة أو فى جهاز البنات ، أو مطالب ابناء أو بعزقتها فى الأسفار او فى شراء سندات الاستثمار . وكل هذا لا يدخل فى باب البخل ولا حتى فى باب الحرص . أما البخيل حقا فهو [بيكاسو] صاحب عشرات الملايين حسب ما جاء فى كتابك عنه [المليونير الصعلوك] . وهناك أيضا المليونير الصعيدى المصرى المعروف . ع. صاحب آلاف الأفدنة سابقا ومئات الألوف من الجنيهات سنويا ، ومع ذلك يركب الدرجة الثالثة فى القطار ، ولا يبدو الا فى مظهر الشحاذين . وذات يوم كان ذاهبا الى البنـــك الاهلى ليودع فيه مائة الف جنيه ، وعند الباب صادفه رجل ظن انه شحاذ فوضع فى كفه قرشا فأخذه وحمد الله ، وعندما سئل فى ذلك قال : « رزق من عند الله كيف ارفضه ؟ » هذا هو البخل . ! وهذا هو اكتناز المال بغير هدف او سبب الا أنه مرض**

او هوان . اما فلسفتى فى كل شىء فهى الاعتدال والتعادلية .. ولكن احيانا يأتى رد فعل عكسى فيطيح به فى الناحية الاخرى المضادة .. برغم حرصى وحســـابى ..

ولو تتبعنا الحكيم .. لوجدنا انه من النـــادر ان يترك عنوانه لاحـــد . الا فيما ندر واطمأن جدا جدا .. ان عنوانه مثل عنوان : سمكة فى المـــاء . هـــل لها مقر او مستقر معروف ؟ اتعرف لاى سمكة فى البحر رقما لمسكنها يطل على شارع معين ؟ !

هكذا توفيق الحكيم . الانطواء ؟ والبعد عن الناس فى وقت راحتـــه ؟ غنيمة ما بعدها غنيمة . ومن الغنائم المفيدة الا يدعو احدا الى بيتـــه . اعنى الى شقته . والدعوة تكلف . سواء أكانت فى قليلها تبدأ لتنتهى بتحيات وسلامات والله وحشتونا .. ثم بفنجان قهوة .. او كثيرها لتبدأ بحفـــل غداء او عشاء او سهرة يذوب فيها خمر الدان على نغمات الطرب والرقص على طبول والحان . ولكن خيالى « يشطح » فى تصـــورى كل هـــذا . او بعضـــه .

وحتى أكون عادلا ومعتدلا فى اتهامى هذا . فانه ــ توفيق ــ تعود ان يخطرنا بعنوانه فيما ندر .. ذلك بعـــد ان يعزل ويفرق الزمان ويبتعد مع العمر عن مسكنه . فى كتابه (زهرة العمر) مثلا .. يذكر انه بعد اكثر من ١٠ سنوات من تركه باريس ــ بعدما افترق عن الصحب هناك وابتعـــد كل الى طريق وانقطع القلم وسكت « البوسطجى » عن البريد ــ فاذا به يطالعنا بعنوانه هناك . ومع ذلك فهو حريص كل الحرص على ان يجعله مبتورا وبلا رقم : (باريس ــ شارع بلبور فى ...) يكتبه فى ركن أعلى رسائله . واذا ما كتب من مصر الى صديقه الباريسى .. اندريه وزوجته جيرمين وولدهمـــا جانو . فانه لا يكتب رقما لمنزله أيضـــا . ولا يذكر فى كتابه هذا الا (الاسكندرية فى ...) بلا رقم بيت او ذيل طريق او حى !

هـــل يود : توفيق الحكيم . الا يزعجه احد الى هذا الحـــد فى حياته الخاصة . اذا كان هذا فهو على حق كل الحق . فنما للناس والقراء صباحا فهو لهم . واما ما لتوفيق من راحة فهو له . لكن البعض ينصرفه هذا صلة بالبخل ؟ ام انه يريد ان يكون منزله ركنا للوحى لا يخـــرج منه غالبا بعد مشـــوار الصباح الا فى صباح يومه التالى .

على كل ليس من قبيـــل الشقاوة حين اذكر انه يقيم الآن ومنذ سنوات فى شقة تطل بدورها على نيل جاردن سيتى . على شاطىء نيل القاهرة .

وتوفيق الحكيم . اذا حضر من بيته لمكتبه فى (الاهرام) ويحضره ٦ أيام كل اســـبوع فانمـــا يأتى ماشيا . صحة . ربما ! وان كان بعض الخبثاء يشيرون الى خطاه بانها توفر له ما سيدفع اذا ما ركب سيارة اجرة ــ وكان هذا حتى ١٩٨٢ ــ طالما انه من الخير والاقتصـــاد الاستكانه ــ ممثلا او كاتبا ــ تحت سقف شقته كل مساء !

ومع هذا فاذا ما انتصف النهار واقترب من الثالثة بعد الظهر فانه يخطو الى خروج . فاذا ما اركبه صـــديق عابر .. فانه حريص على ان نتوقف

سيارة هذا الصاحب قبل كوبرى قصر النيل بمسـافة ، بحجة انه يود أن يتمشى [ناسيا أننـا فى عز وهج الشمس أحيانا .. أو لذعة برد] على رصيف النيل حتى يصل وحده وحيدا ، الى بيته حرصـا على الا يعـرف العنوان أحد . وكان هذا حتى ١٩٧٨ . !!

وطالما احكي واكتب عن **حرص الحكيم** فهناك أكثر من حكاية تقال وتروى : عندما مات أخى المهنـدس الزراعى لويس المـلاخ . مع مطـلع ١٩٧٢ فوجئت بين عديد البرقيات .. ببرقية تحملها الى سكرتيرة توفيق الحكيم . فضضتها فاندهشت أنها بخطه وبتوقيع امضائه الذى أعرفه جيدا . وليست صادرة عن مكتب برق أو بريد .. وانما شقاوة الحكيم فى انه حاكى وقلد اى برقية أخرى صادرة من جهة حكومية .. ذلك أنه كتب الى جوار عنوانى تاريخ الاصدار ثم ذكر عدد ما تحتويه من كلمات وانها صادرة سـاعة كذا والدقيقة كذا من مكتب الدور السادس بالأهـرام .. ثم كلمـات العزاء الرقيقة قبل توقيعه .. اعود والمح ان رقم عدد الكلمات الذى وجد لذة فى أن يضيفه فى خانة العدد كان ٢٧ كلمة . قلت والله انى لواحد من ظالمى توفيق الحكيم .. لقد أسرف وهو الحريص فى عدد الكلمات .. !! ولـكن طالما أن الأمر لا يكلفه مليما واحدا .. فقد بعث رسـولا عنه ببرقيته التى لم تكلفه الا أن يكتبها بنفسه وقلمه عاكسا شـعوره عليها فى الوقت الذى أبعد قروشـه عنها . فهذا ذكاء . ولكنه .. اسراف هنا وتقتير هناك .. ! وبينما أنا فى دهشتى .. اذ برنين التليفون وأعرف منه انه يريد ان يطمئن على وصـول برقيته . ويقابلنى معزيا . وكان أول ما ابتدرنى به .. انه تصرف هكذا حتى لا تضيع برقيته فى الطريق العادى المألوف !

... ـ هذا أسرع .. !

كدت أهمس اليه .. هذا بالقطع .. اوفر .. !

وابتسـمت قائلا لنفسى وفى نفسى : شر البلية ما يضحك . اذ تذكرت لحظتها حكاية حكاها لى نجيب محفوظ : ضمن حكايتين كان يدلل بهما على بخل صـديقه الودود : توفيق الحكيم . وكنت يومها أؤكد لنجيب أن توفيقا يجد لذة شخصية فى أن يعرف الناس عنه ذلك . أن يصفوه بالبخل لا لدرجة الشح ولكن الى حد الحـذر لدرجة انه اذا ما فتح محفظته التى يدفنها فى حرص شديد فى الجيب الداخلى لسترته بعد ان يؤكد تأمين عدم الوصـول اليها .. فأننا سنجد انه يطبق كل جنيه على حـدة .. بحيث لا يلتصق بزميل « جنيه » آخر مجاور له . ومع هذا فهو « يفركه » بأنامله حتى آخر لحظة وهو يدفع شيئا .. ولذتى أن ارى الوان وجهه تتغير حيث يزداد الأصفر .. وتختلج شفتاه فى اهتزاز وهما تهمسان بعـد ما بقى . حتى لا يحدث خطأ لا سمح الله . والانسان ليس « كومبيوتر » مهما كنا نعيش فى زمن حديث تعلو فيه جزئيات العلم الميكروسكوبية عن الخطأ !!

يومها سألنى نجيب محفوظ ؟ ألم تسمع حكاية توفيق مع التلغراف وقصته مع الموسى .. ؟ ثم أخذ الروائى فيه يسرد ويضحك ما شاء له الضحك . فقد كان ت. الحكيم يجلس الى ذات المائدة ولكن مشغولا بالحديث مع زائر قادم من بعيد .

نجيب محفوظ يحاول ان يهمس بتفاصيل ما يحكى حتى لا يسمعه الحكيم — والاحتياط واجب احيانا — بينمـــا تطلب نظرات نجيب محفوظ ان اعلى صوتى بعد أن وهن سمعه بعض الشيء . وأمواج البحــر تعلو وتهبط فى صخب وضجيج . وكأن البحر يقهقه ايضا .. !

... — **حكاية « التلغراف »** يا ســيدى .. اننــا — هو وانا وثروت اباظة ، قررنا أن نطلع فى اول ابريل الى الاسكندرية لتمضــية كم يوم . واتفقنا قبل ان نخطو ونتحرك ان نقسم كل التكاليف على ٣ سواء اكان هذا مصاريف نثرية أم لتغطية نفقات عشاء أو شراب . اى حاجة .. يعنى .. ! علمنا ونحن فى الاسكندرية .. ان صديقنا : انور احمــد .. إمه ماتت . قلنا نكتب كل واحد منا تلغرافا ونقسم المبلغ على ٣ . واذا بتوفيق الحكيم يعترض . تخطر له فكرة . « لا .. بلاش كل واحد .. احنا الثلاثة نشترك فى برقية واحدة .. امال .. ده اوفر » .. وافقنا على هذا الرأى الســديد **(وهنا افتح قوسا لاحكى ان نجيب محفوظ لا يفترق كثيرا فى الصــفحات الشحيحة الحميدة من ناحية البخــل والاسراف عن الحكيم** .. الذى يحكى عنه ، الا ان الاسترسال فى تأثره الاجتماعى الانفاقى بصديقه ليس له مكان فى هذا المقام ! وافضل لك ولى ان اقفل هذا القوس) واتفقنا على الجملة التى دونتها على ورق : **« أحسن الله عزاءكم »** . وذلك بعد تفاصيل العنوان مختزلة جدا وذيلناها بأسمائنا الثلاثة .

ولكن بعد جمع الكلمات وجدنا أن هنـــاك كلمة زيادة فمن الشهيد الذى سيدفعها طالما انها زادت على القســمة الصحيحة . فأوحى توفيق الحكيم بأن احذف الكلمة الاخيرة فصارت البرقية : **« احسن الله »** فقط . تصــور أن واحدا ماتت والدته فأكتب له ، **أحسن الله** . ولم يقتنع الحكيم واصررت انا على الأصول مضحيا بقرش زيادة .. والله من جيبى .. !

اسأله وحكاية : الموسى .. ؟

... — منظر ولقطة لا انساها تلك التى جمعتنى مع استاذ اللغة الألمانية محمود الدسوقى امام توفيق الحكيم . والحكاية دى منذ زمن بعيد نســبيا قبل اختراع امواس الحلاقة الجديدة التى لا تبلى سريعا . وجاء ذكر الحلاقة والحلاقين والامواس والذقون .. قال لحظتها ت. الحكيم : انه اســتطاع أن يبقى موسى حلاقة ذقنه اطول مدة ممكنة ٣ ايام يحلق بأحد الحدين .. ثم ٣ أخرى بالحد الثانى . ثم يقلبه الى حد يمين جديد وبعد ٣ ايام الى حد يسار الوجه الآخر ! ثم « يتخشن » الموسى ليعــود ويكرر عمليات الوجوه الاربعة ، ليستمر به اذا استطاع الى ذلك ســبيلا أن يبقيه طوال فصــل بحاله من الفصول الاربعة .. ! ثم ...

بينما نجيب محفوظ يحكى .. اجد من جديد — ولا حاجة لى فى ان افتح او اقفل قوسا — أن ملامحه تتابع دقة وصفه . ويبدو انه هو الآخر قــد تأثر واقتصد مالا وليس مهما وقتا . لدرجة انى تصــورت لحظتها الحكيم ونجيب محفوظ وقد بعثا من العصر الفرعونى . حيث استعان بهمـــا بعض اجدادى فى القدرة على التحنيط طالما هما فى ســبيل تحقيق ناجح لتخليد موسى حلاقة يصافح خدودهما وذقنيهما كل صباح !

ان توفيق الحكيم يجتاز — قرنين — تتوالد خلالهما النظريات ويتطور العلم وتدور فيه الآلات بصورة أسرع حتى ينطلق الانسان صاروخا الى القمر ويمشي عليه . ان النفس اصبحت تحلل للناس .. اصبحت علما يحاول الطبيب ان يحلل عقدها .

ان الكاتب المسرحي يسرح الى بعيد ليتخيل ويعقد مواقف قضيته الى « الحبكة » الى قمة الصراع بين الأضداد ثم يبحث عن الحل . ولكن على ورق أو تحت أضواء مسرح . مسرح الذهن . لا مسرح الفرجة .

ان للحكيم أكثر من نظرية « **التعادلية** » مثلا . واكثر من صيحة تجديد .. « **المسرواية** » مثلا حين يجمع المسرحية مع الرواية فى قالب فنى متجدد ! .

والحكيم يخاف ولكن من ماذا ؟ ما الذى يتشاءم منه ويهرب ؟

والحكيم يتفاءل ولكن .. ما الذى يجعله يقبل ويبتسم منشرح الصدر ؟

ان الأحلام تلعب دورا فى واقعه . سواء أكانت احلام ليل أم احلام يقظة .

انك ستجد بين ثنايا فصول الكتاب بعضا من كل هذا .

ان سرد فيلم أو شريط توفيق الحكيم معى طويل . طويل . عديد التفاصيل والحكايا . لا تحده سطور مقدمة . وربما كتبت عنه وعنها كتابا ثانيا يوما لو طال الزمان بأيامى ولياليى ان شاء ربى . فمعرفتى به على الورق ثم الحياة ، طالت نحو ٥٠ سنة . ولكن لماذا لا نرى معا شريط حياته هو ؟ فهى أطول وأمتع والون وانوع واعمق ، مثل الأفق المفتوح المنطلق بلا حد كالبحر ، .... كالأزرق .

وما أكثر الذى سيحكى عن حرص توفيق الحكيم على المال . كما ستحكى كلمات هذا الكتاب ، الذى قدمت له بأنى سأرسم فيه صورة للناس كما أرى : توفيق الحكيم ، وجيل أفكاره وفنه والمسرح فى بلادنا والموسيقى والنغم فى بلادهم وأسلوب عصره وسياسته واستقلاله وزمان قبله لحق به متأثرا .

واعود لأسأل نفسي .. هل من حقى ان اسرح واتوهم واتخيل ان تتحول سطور كتابى هذا الى زهرة اهديها الى حكيم مصر . او الى بخيل حكماء كتاب العرب المحدثين ؟

سألنى — ... عنوان كتابك عنى ؟

قلت له : [الحكيم بخيلا] .

ابتسم وقال ضاحكا سعيدا : يعنى برضه .. اوديب ملكا !

قلت له : انه تحية عيد ميلادك بعد ان طفت بالزمان اجيالا .

جاء من يحكى عنك ويقدم توفيق : الأديب الحكيم . الفنان المسرف . والانسان البخيل !



ابتسامة ما..

□■□ .. الأبيض والأسود .. يتجاوران . يكادان يتلامسان . يتناقضان : كل في حدود لونه المتباين . متفرقا على اصابع (البيانو) الذى يحتل صدارة الصالون المذهب المتواضع لبيت استاذى . الذى ازوره لاول مرة .

الأبيض والأسود .. لا يشدانى . لا يجذبانى . فان رتابة توزيعهما . تعودت عيناى على مثيلهما . بل ان انامل كثيرا ما داعبت أصابع بيانو في منزل اسرتى وقد تعودت ان اتجه اليه ـ صغيرا ـ احاول ان اتسلق مقعده ذا الثلاث الارجل لامنحه بعد استرضاء اختى في ان تعلمانى ما اسمع . ما تعزفانه من نغم . ونبدا اصابعى الصغيرة في محاولة متلعثمة النغمات ان تحاكى ما رايت . لا ما سمعت ! والنتيجة لا تصفيق طبعا . ولكن صوت والدتى من الداخل يناديني بان اكف عن هذا العبث الصخب والخبط .. او ان اعزف جيدا ! ولا اجد احسن من ان امد ذراعى لاطول غطاء « اصابع البيانو » الخشبى . لاقفله بسرعة وغالبا ما تصدر عنى صرخة زاعقة .. لانه ضغط على انامل التى انحشرت وانا احاول ان اهرول بسرعة جاريا لاهثا خارجا من صالون البيت . والكلب الابيض الصغير « لاكى » انتهزها فرصة ليهرول ورائى نابحا . انه كلب اخى الاصغر : رجائى . انه يحاول

أن يكون هو الآخر فنانا !! لم لا . ؟ متوهما أنه « باريتون » أو « تينور » اوبرا . . ولكن ركلة من قدمى لا تلحقه ، ادلف من باب الدار . . الى السلم وفى الحديقة متسع للعب العصارى وليكن مع كلب ! .

كبرت بعض الشىء . صرت على بداية مراهقة .

منتظرا الآن أستاذى فى صالون شقته . متطلعا جائلا بعينى السوداوين لاقتل الملل بعض الشىء . . ربما هو الفضول . . أن اعرف اكثر .

[**الأبيض والأسود**] على أصابع البيانو . . لا يشدانى بقدر ما تشدنى صورة فوتوجرافية داخل اطار صغير ، يعلو ويرتكن فوق مفرش مخملى منقوش يعلو سطح البيانو فى الصورة : الأبيض والأسود . . ينتشران فى غير تحديد على ملامح انسان واقف ، وقد ارتدى مسوح البياض . طاقيته بيضاء . وان بدت خلفيته سوداء تماما مثل شاربه الغزير الذى يؤكد انفا مرسوما بعض الشىء ، وشفاها عريضة غليظة بعض الشىء ، نفس : الأبيض والأسود ، موزعان فى عينى صاحب الصورة . . ما الغرابة فى هذا ؟ ولكنها ملاحظة طفل ينمو . وأخذت اشير الى زميلين جاءا معى من تلامذة المدرسة . كنا المبرزين فى جمعية الرسم .

بعد دقيقتين دخل استاذى . وقفت وكأنى تلميذ فى الفصل « **الفــه** » يحيط بى زميلاى . يبتسم المدرس . ما تلبث ابتسامته ان تتحول الى قهقهة لوقفتنا « **الزنهار** » . يفهمنا اننا لسنا فى الفصل ولكننا ضيوف . اتفضلوا. اجلسوا . العروسة حالا : ستراكم ! .

الأستاذ : كان مدرس الرسم .

مناسبة زيارتنا له . . انه دعانا لنشرب شربات فرح زواجه . . فقد ظل أعزب طويلا ثم قرر الزواج . . وطالما حدثنا اثناء اجتماعنا فى جمعية الرسم التى يشرف عليها . . عن لون خطيبته الخمرى وقدها المياس . وكان رساما هائما فى الحب ولا عجب . ولهذا لم يرسم الا لوحة واحدة فى حياته . . انصرف بكل وجدانه وخياله الى مالكة فؤاده وقلبه الولهان . فقد كانت الأيام الأولى من خطوبته **ورضاء** اهل العروس ان يزوجوه بابنتهم البكر !

جاء كوب الشربات . . يبدو لى ان الشغالة الصغيرة : وقفت اكثر من لحظة أمامى حاملة الصينية كوب الشربات الاحمر . . بعد أن قدمته لزميلى . . وانا ولا هنا . . ! مشدودا بصورة ذلك الانسان الذى يبدو وكأنه ، راهب ، سجين صومعة . اطار . قابع فوق البيانو . يبدو سارحا. متأملا ضائعا . . تائها وياللغرابة ايضا متنبها جدا .
الحكاية تلفت نظر استاذى . . « ما تشرب » ؟

الكوب فى يدى الآن ، ولكنه لا يتجه الى شفتى اللتين تتساءلان .

سألته عمن يكون هذا الذى يبدو راهبا ؟ هل هو راهب ايمان ؟ راهب متصوف ؟ أم راهب فكر ؟ .

ويرد استاذى — .. **انك على حق فى الثلاثة انه : توفيق الحكيم .**

كانت تلك اول مقابلة لى مع توفيق الحكيم . لا حوار .. انما تأمل .. انا اتأمل من قريب رجلا متأملا مفكرا الى بعيد . ولكن الرجل الذى اتأمله من ورق . انه صورة فوتوجرافية داخل اطار لامع !!

لم أكن قد رأيته من قبل .

بل لم اسمع باسمه من قبل .

وبديهى اننى لم اقرا له من قبل .

وسكت .

ودار حديث بين المضيف أستاذ الرسم العائد من بعثته فى لندن بنظريات تربوية حديثة — عن علم النفس الحديث ومن برع فيه امثال : « سيجموند فرويد » و « الفريد آدلر » .. واخذت اتحدث فى بساطة عن « رمبراندت » و « ويسلر » ، وكنت بلوحاتهما معجبا . والله يعلم اى عمق كان يحتويه كلامى حينئذ . كان يود لو ان شيئا من عمله يصل الينا : تلامذته الذين اصطفاهم فنا وقربهم اليه لعلهم يفلحون . ولا أدرى شيئا من ذلك الحديث الذى كانت تفرقه الثقافة والتجربة وسنوات العمر . ولا تقربه الا عقارب الساعة التى تدور ساعة .. وكل الذى أذكره .. انى كنت انطلع بين الصورة وفتحة الباب . لعل العروس المياسة القد والقوام التى تردد وصفها كثيرا على لسان معلمنا نهل .. ولكن مالها ومال صبيته الذين لا يزالون يسعون فى سراويلهم القصيرة . جاءت الشغالة آخر الأمر لتقول: ان الست تعبانة شوية ومش حتيجى . ووقف المدرس وكأنه قد استمع الى الجرس .. وتحية وسلام وخرجنا . انه اضعف من أن يرد لها طلبا . وأقوى علينا بعلمه وفنه وتوجيهه .

كان ذلك فى أواخر الثلاثينيات . وكنت مازلت احبو الى فتوة العمر . فتى يسعى فى بداية تعليمه الثانوى .

ونفترق — نحن الفنية الثلاثة — كل الى سبيل .

وانا على طريق العودة الى دارى أعود متمهلا .. وكانت ذاكرتى تعكس فيلما ملونا داخل نفسى وكأنى اكرر واستزيد مما حدث .. صور تتلاحق عما رأيت فى زيارتى التى لم ار فيها العروس . ولكن عينى تحومان من جديد الى كل أرجاء الصالون الصغير . لا يجذبهما الوان كسائه ولا زخرفة سجادته وانما : **« الأبيض والأسود »** .. الصامت على البيانو .. الذى لا يعزف أحد عليه فلا يصدح ليشجى اذنا . ونفسى تماما كالقلم فى جيب لا تمسه انامل فلا يعزف بالفكر ولا بالرأى . وانما اكثر واكثر تلك الصورة التى يختلط فيها اللونان ويتفارقان ويتباينان . يلونان ملامحه وكأنه راهب من رهبان القرون الوسطى ولكن عباءته بيضاء .. راهب اسود الشارب، يبدو كثيفا طويلا وليس مربعا مرسوما كالذى تعودنا ان نراه صفارا لشارلى شابلن .. ولا أعرف كيف امتزجت صورته مع هتلر .. بدا الطول

قليلا من هتلر فى صوره التى كانت تنشرها صحافة تلك الأيام قبيل الحرب العالمية الثانية . ولكن شعر راسه الذى يطل من تحت حافة القلنسوة البيضاء .. ليس ناعما مسترسلا مقصوصا فى قصة ترتمى على يسار الجبين مثل ذلك الزعيم الالمانى بزيه « الكاكى » وذراعه الممدودة فى تشنج بالتحية النازية الى أعلى ولكن يميل الى الامام .. واشارة : صليب معقوفة تلتف عند عضد ذراعه الأيمن . ثم تجهم ملامحه وكأنها قد قدت لا من صخر ولكن من فولاذ !! .

واخذت اقارن بعقلية صبى مراهق مازال يخطو الرصيف الى بيته قبيل مغيب شمس ذلك النهار .. بين :

[**حيرة**] ملامح توفيق الحكيم الطيبة وتناقضها فى تباين مثل ذلك الفارق **بين الأبيض والأسود** ، ولكن اللونين يكونان انسجاما معينا ، فى اتزان .

[**المسكنة**] وقد صاحبت شخصية الصعلوك الذى يريد ان يحيا فى مجتمع قاس ساخر طاحن لكل نبض .. وقد كست ملامح : شارلى شابلن.

[**القسوة**] الصارمة فى استعلاء توحى بها ملامح : ادولف هتلر .

ولحظتها أخذت « الحكيم » .. انيسا . وانتظرت مع كل الشوق لأرى فيلما جديدا لشارلى شابلن . اما هتلر فمالى به وبقسوته الغشوم .. انى اكره القوة لمجرد القوة . والسيطرة بلا عقل .

واسرعت الخطى .

أين كنت .. ؟ وحكيت عن العروس التى لم تحضر . وكأنها « البعبع » الذى سمعنا عنه كثيرا ولم نره حتى الآن . ثم اخذت اسهب واتحدث عن الرجل وشكله الذى رايته داخل اطار فوق البيانو ؟

عرفاه والداى .

واشترى لى والداى مؤلفاته التى كانت قد صدرت حتى وقتها : **« عودة الروح »** و **« أهل الكهف »** و **« شهر زاد »** .. فكانت بمثابة طاقة أو نافذة جديدة أطل منها على عالم فكر وحوار عقل وبسمة نفس وحكمة عمر لم اعشه ولن .. وأساطير وواقع وحكايات .. غير تلك الكتب الجيدة التى كنت قد التهمتها قراءة وفهما : عند تلك السن المبكرة .

كنت قد قرأت « البؤساء » بالعربية لفيكتور هوجو ، واعدت قراءتها عدة مرات و « النظرات » و « ماجدولين » للمنفلوطى و « الايام » و « حديث الأربعاء » و « مع المتنبى » لطه حسين و « النبى » و « عيسى » و « حديقة الله » لجبران خليل جبران و « كليوباترا » لاحمد شوقى وبعض صفحات من المفكر الساخر **برنارد شو** و **« قصة مدينتين » لديكنز** و **« نظرية النشوء والارتقاء » لداروين** ، وقبل كل هذا : **التوراة والانجيل والقرآن** .

ان الذى اقــراه لتوفيق الحــكيم يكاد يكون قريبــا من موليير وفولتير وشكسبير واحيانا فيه لذعة برنارد شو .. ولكن بلغة انسان العصر وتطوره وعلى قاعدة خضراء هي : مصر .

وقد ولدت وبلادنا تعاني من المستعمر فنزداد تعلقا بها وبخضرتها التى اعتلت لون علم بلادي ــ حينئذ ــ تتوسطه نجوم ثلاث بيضاء يضمها ويحنو بل وينحنى من حولها هلال أبيض وليد هو رمز صفاء ونقاء ســماء شرقنــا وايمانهــا .

وتمر سنوات زمن معدودة . ويزداد تعلقي بفكر توفيق الحكيم . اقبل على قراءة الجديد مما كتبه : « محمد » و « تحت شمس الفكر » و « الشعب » و « عهد الشيطان » و « براكسا : أو مشكلة الحكم » و « راقصة المعبد » و « نشيد الانشاد » و « حمار الحكيم » و « سلطان الظلام » ، و « من البرج العاجى » و « تحت المصباح الأخضر » وانتبعه كاتبا معلقا فى صحافتنــا .

كنت أقراه مع ما اقرأ عنه كل عطلة صيف . ولكنه كان مميزا ومفضــلا عندى بين من أقرأ .

وصورته تلك لا تبرح خيالى . وان كنت قد تعودت ان ارى له صورا اخرى وما اكثر ما كان ينشر بين الحين والحين عن بخل توفيــق الحــكيم واتعجب .. ؟ هذا الرجل الذى يسرف فى وضع افكاره على ورق لــكل الناس . ولا يبخل بها على أحد أو يحجبها لنفسه فقط حتى يتعايش بهــا منتهزا الفرصة مفتنما اللحظة .. لمــاذا يصرون على انه بخيل .. ؟ واذا كان هذا صحيحا .. فأى تناقض فى شخصيته ؟! .

مع توفيق الحكيم

□■□ .. أمتع من أن تقرأ توفيق الحكيم ، أن تجلس معه . أن تقرأ ملامح وجهه وهو يتحدث اليك . أصابع يديه العشر وهي تعبر الى الهواء قبل أن تنطق شفتاه . بريق عينيه وهو سارح في اللاشيء .. الى لا شيء .. وربما الى أفكاره .

ولماذا « ربما » ؟ .

فهو أغلب الأمر في دنياه يلهث وراء أشياء وخيالات ، هي بعض نسيج فكره الذي يسكبه على الورق أحيانا .

توفيق الحكيم ، عرفه أغلب الناس : عن بعد .. على بعد .. على الورق .. بين غلاف كتب أو تحت أضواء مسرح .

تخيلوه وهم يقرأون أفكاره .. وهم يتتبعون بنات أفكاره . التي يرى هو أن يغلفها بعناوين ، بعد أن راحت الكلمات المطبوعة تتجمع من حولها ، تلف لتطبع كلا منها في ثوب قشيب .

هذا ما رآه .. ويراه .. الناس .

ولكن كيف عرفته .. أنا ؟

نعود الى الوراء .

لنعد الى الوراء .. زمنا :

القاهرة : ايام الحرب العالمية الثانية ، وعلى وجه التحديد صيف ١٩٤٢ نعم كان قيظا . صيفا يلفحه هواؤه الساخن الحار . الملتهب بالحـرارة . بالأخبار المثيرة من كر وفر جنـود الحلفاء أمام او وراء جنـود المحور على حدودنا الغربية .. فى حرب كان اغلب المصريين يعتقدون انها حرب لا ناقة لنـا فيها ولا جمل .. ! ؟

القاهرة : لياليها كانت مزدحمة — رغم زرقة الفـوانيس واضـوائها الخافتة — عساكر . عساكر . عساكر . من كل جنس ولون .

من الهند جاءوا : تلتحى وجوههم السمراء الداكنة بلحى غريبة طـويلة سوداء تتجمع داخل شباك لا تراها العين . تلملمها الى فوق خيـوط من النايلون تشدها الى الراس .. الى ما تحت العمامة الهندية .

من استراليا جاءوا .. وجوههم حمراء كالنبيذ . ملامحهم الغليظة منحوتة تحت قبعاتهم الواسعة الغريضة الحواف . اجســادهم فارعة . قافـزة العضلات .. اقدامهم الضخمة تهوى بأحذيتهم ذات الرقاب الســـود . تقرقع . وهى تخطو وتدق فوق ارصفة القاهرة ..

وصبية واولاد يمسكون بصناديق « البوية » الصغيرة تستوقف فى شقاوة وبلا حوار .. لتمسح .. وما اكثر نوادر « البوهيجية » الصغار .. وهم يدهنون بأى شىء الا الورنيش .. ! يربط بعضهم رباط الحـذاء مع رباط فردة الحذاء الأخرى .. ويدق الجرس .. والعسكرى يدلى من عل الى الصغير القابع . قطعة فضيه . ليأخذ ما يريد ويعيد اليـه الفكة . ولـكن ما ان يطمئن الولد الشقى الى الرباط .. رباط « الفـردتين الموثق » .. حتى يأخذ صندوقه وذيله فى اسنانه ويطير فجأة بين الزحـام . ويصرخ صاحبنا — المربوط — صاحب الشلن الفضى . دون رجع للصدى .

ومواكب الجميلات المجندات فى جنـوب افريقيا بنهـادين .. يبتنين رغم ردائهن العسكرى الكاكى . انهن جميلات جدا جدا .. جدا . جئن ليروحن عن جفاف شباب الحلفاء .. !!

والحنان .. يبيعه ابن بلد فى فهلوة الشطارة . يلهث وراء عسكرى او ضابط طيب لا يرى من دنياه الا يومه او بعض مسائه .. منـاديا اياه .. صارخا اليه .. يقرص الكلب البلدى الوليد فى يده الاخرى .. كى يعـود ليلفت سمع من يجرى وراءه فيقف متنبها .. وهنا ينطق ابن البلد الفهلوى — حاملا ابتسامته — التى تغالب شفتيه . وفى لكنه عربية يكسرها كما شاء له ذكاؤه ، معتقدا انه يتحدث بالانجليزية .. « تشترى واحد كالب !! »

بينما زميل له يحاول ان يبيع اللذة فى همس .. عندما ينحنى . ولـكن بصوت دافىء مثير فيه تمثيل صنعة بائع الهوى . وكأنه يبـوح بسر الليـل وليلة حمراء مرتقبة .. « عاوز واحد بنت !! » .

وتتوه الكلمات والهمسات ومتعة اللذة المرتقبة والكلب الصـغير الجائع

الا من دفء قبضة يد بائعه .. تعلو به ذراعه فى الهـواء فوق الرؤوس ليعرضــه .. ثم اذا ما تعب يهبط بها الى جانبه .. ويهز الـكلب ذيله المرتعش .. بعد ان اخافته زعقة ابواق السيارات ورنين اجراس الترام ، وسط زحام القاهرة وضجيجها ، وكأننا فى برج بابل نسمع الى همهمة من لغات الارض كلها مجتمعة ، وكأنك وسط طبق سلطة بشرية .. عسكر .. عسكر .. عسكر .. من بلاد الاروام واليونان .. من فرنســا الحرة .. ومن بريطانيا وامبراطوريتها العجيبة الاشكال والاجناس — وقتئذ وقبـل ان ترى مغيب شمسها — .. شباب من نيوزيلاندة ومن باكستان وسيلان .. ووجوه ورطانة من جزر بحرنا الأبيض .. من مالطة وقبرص .. الى ابنــاء قارتنا السوداء .. الأفريكان .. فرسان الصحراء : جنود البدو وطرابيشهم المغربية والزر الأزرق السمين المهتز خلف رؤوسهم فى وقار .. وابناء طوال من بلاد العم سام .. وبنات هــوى وســكارى .. وامل زائغ من الموت مشدود الى القلق .. والكل رائح غاد لا يرى الا اللحظه التى يعيشها بكل حواسه . الغد : مكتوب على الجبين وربما لا تراه العين .. ! الكل يتحرك الى لا هدف الا الخروج لحظة .. خارج منطقة الدمار . الدم . الرصاص . القنابل . النار . الحطام . الدخان . حشرجة الصرخات . الموت والعدم . ثم .. ثم .. الذئاب تتصارع .. تحوم لتنهش . زواحف تكبر حتى تصغر الى النمل المتوحش .. وحدايات السماء تنقض على الجثث العفنــة .. الكل يتحرك بلا نظام . ربما هو نظام الحابل والنابل فى تيه غريب عجيب على أرصفة قلب القاهرة المظلمة الا من ضوء خافت ازرق تعلوه اغلب الأمر انفاس دخان ازرق يملأ الجو .. الذى تشقه اغانى الراديو .. تعلو وتعلو متضاربة مختلطة بأنباء نشرات الأخبار عن المعارك ..

واهبط من الترام عند محطة تقاطع اهم شارعين فى مصر — حينئــذ — طريقى فؤاد [٢٦ يوليو] وعماد الدين .. لانحنى الى اليمين .. ثم الى يمين .. لأعبر تقاطعه مع طريق عدلى .. ثم ادلف الى مقهى « الجمــال » .. كان منتدى ومطعما وصالونا .. لا يؤمه الا الكبار .. الكبار فى كل فن . الكبار فى الاسم . وكنت صغيرا . واكاد اكون متخرجا جديدا . مضى على نجاحى وحصولى على بكالوريوس العمارة فى كلية الفنون الجميلة .. أيام .

كنت على موعد ذلك المساء مع رجل اعتقد انه أدى لبلدى خدمة كبــرى عندما أخذ ينادى بأن يدعم جيش البلاد بمهندسين يلتحقون به ليـدافعوا عن طريق العلم والأرقام والحسابات الى جانب : الشجاعة وقوى الوطنية .. عن مصر .

الرجل كان ايضا وراء فكرة : دفع شباب الجامعات والمعاهد العليــا الى تكوين ضباط الاحتياط . وكان منظره غريبا .. عريض الكتفين ليس بالقصير ولا بالطويل كان جسده .. وانما ملامح وجهه الطيبة الخشنة المظهر التى لا تكاد تبدو فيها الا عينان ضيقتان وانف مفطوس وشعر حاجبيه الغــزير وذقنه الشعثاء منتشرة فى كل اتجاه مع شاربه الذى يغطى حتى شـــفتيه .

وما أن قربت من مجلسه .. حتى هب الرجل . وقف الطبيب د. محجوب ثابت ، وعصاه معه فى يده . يلوح بها فى الهواء .. فاردا ذراعيه .. مرحبا .. ناطقا باسمى ، مقدما اياى لجلساء بالقرب منه . كان يدق على صدرى بقبضـــته فخورا بأنى واحد من عشرات يرى فيهم ما يرى . « فرعونيــا

كما ترون ! . اتفضل يا ابنى .. آه نسيت .. الأساتذة : على باشا حسين .. احمد الصاوى محمد .. وتوفيق الحكيم .. و ..

ثم قدمنى مرة اخرى . « انه ايضا اول .. اول دفعة لضباط المهندسين الاحتيـــاط .. » .

وجلست بين الكبار . كان موعدى معه كى اجتمع به بين مجموعة يعتز بها من زملاء عمرى . من شباب الاحتياطى .. نتبادل الحديث معه احيـــانا .. وعلى احدنا أن يقرأ له بعض سطور الكتاب الذى يحمله — وغالبا كان بالانجليزية . كان نظره ضعيفا بعض الشىء . بدأ مع سنوات عمره يتلاشى. وكنا فى قمة صبا الشباب نرى حتى الشعرة فى عين النمله ! وكان الجو .. جو الحرب الذى التف بليالى صيف القاهرة وقتئذ معتما بعض الشىء كما قدمت .

كنا نجد فى صحبته : .. رائد بطولة وفكر .

لكن .. هذه المرة الاولى التى ارى فيها : توفيق الحكيم .. الذى قرات له من قبــل .

احمد الصاوى محمد .. اعرفه منذ زمن . منذ ٧ سنوات قبلهـــا . عندما حضر يوبيل السعيدية .. مدرستى الثانوية .. وهو احد خريجيها مع كوكبة من رجال الصحافة زملاء له سبقوه مثل : فكرى اباظة ومحمـــد التـــابعى . انها المرة الأولى التى يرانى فيها بعد أن طال « بنطلونى » . اذ كان قصيرا يوم رايته اول مرة ، وهو يفتتح معرض لوحاتى فى السعيدية فى ذلك اليـــوم .. ثم تصفح مجلة المدرسـه ، وكنت رسامها وسكرتير تحريرها وقتئـــذ . الى جوار وظيفتى الأولى التى لم اكن فى غنى عنها وهى : « تلمـــذتى » !! . ولحظتها امتدح احمد الصاوى محمد .. اسلوبى فى الرسم .. وقال لى .. « مر على فى .. « مجلتى » . ربما تجد مجالا اوسع لك فى النشر ! » .. وايامها كان احمد الصاوى محمد .. يصدر وينشر ارق مجلة فكر شاهدتها مصر الثقافية واكثرها اناقة واخراجا وهى مجلة « مجلتى » !

وتدور صور هذه الذكريات السريعة فى اقل من دقيقة واحدة . وانا ابتسم ابتسامة مكتومة متطلعة للصاوى — الذى كان رفيقا معى وترحيبـــه بى مشـــيدا بفنى كما يذكره — .. فقد تذكرت لحظتها .. كيف اصررت يوم يوبيل السعيدية على أن يوقع لى : احمد الصاوى محمد ، فى وقت تعـــود اغلب من كان فى عمرنا الفنى أن يحتفظ فيه بتوقيعات اللامعين ممن يقـــابلهم او يراهم على شاشة السينما او فوق خشبة المسرح او يقرأ لهم .. وكنت قارئا مستديما مستميتا لعموده اليومى : « ما قل ودل » : فى صدر « الأهرام » زمان . كان اول ما اقراه فى الجريدة .. ويومها تردد الصاوى لحظة ثم مد يده الى دفترى الصغير ثم مد يده مرة اخرى الى قلمى .. وبكلمات واضحة كبيرة الحروف كتب بيت شعر :

الا ليت الشـــباب يعـــود يوما   فأخبره بمـــا فعـــل المشيب

نظرت الى ما كتب .. وسألت نفسى : « شعر .. ؟ بيت شعر ؟ .. ولكن ماله .. ما للصاوى الذى لم تنبت شعرة بيضاء حول راسه بهـذا البيت !! ؟ » .. ولكنى كنت مهذبا . فلم يصاحب الصوت سؤالى ولا الحوار تساؤلى .. وانما اكتفيت بالصمت . هكذا تذكرت صورة الأمس البعيد .

ولكنى لحظتها فى منتدى مطعم « الجمال » .. ابتسمت للصاوى .. وفى ذهنى صورة اخرى .. لم أعد صغيرا بحيث يكتب لى ما خط وكتب .. على الأقل ان لم تكن قامتى طالت وتساوت الرؤوس والأكتاف .. فعلى الأقـل لقد طال « بنطلونى » .. مثله !! ولم اعد صبيا . !

الحكاية كلها فيلم سريع جدا . فكما ذكرت لم تطل الصور المتتابعة للذكرى القديمة بالمقابلة الحديثة اكثر من دقيقة واحدة . وعيناى تحـومان فيمن يجلس الى جواره . من ناس تعلو رؤوسهم طرابيش حمراء . بدت داكنـة الحمرة فى عتمة ذلك المساء . الاضاءة ضعيفة . الزجاج مدهون أزرق . الخشب الذى يكسو الحوائط : غامق اللون . لكن لمـاذا يضع الرجل الذى على يمينه شيئا مختلفا على راسه ؟ . ان هذا الشىء .. لفت نظـرى اليه اكثر من فضول فكرى عما قرات له . انه هو نفسه . ذاته . صـاحب الصورة التى كانت داخل اطار صغير يعلو البيانو !! نعم ما تغـير شىء الا اختفاء البياض . اعنى اللون الابيض . ثم أعود لأذكر سريعا اننا نمـر مرحلة حرب . والأزرق مضروب على كل ضوء درءا ودفعا لغارات طائرات الأعـداء ..

ما قراته له .. قراته . احسست به . نعم رايت صورا له من قبـل . ويآما قرات عنه هجمات اقلام عليه .. وهو يصول بفكرته الدائمـة وقتئذ — وقبل أن يهزمه الزواج ويضع سلاحه — كانوا يصفونه ويصف نفسه من خلال كلماته .. بأنه « عدو المراة » ! — عدوها الأول — لا يرى فيها ولها الا حدودا يجب أن لا تتعدى المطبخ وعمل صوانى الأكل والطعام ثم الى البيت والبيت فقط من اجل تربية الأطفال ورعاية الأولاد .. ورعاية الولد الكبير : الرجل . الزوج !! .. وذلك ردا — وقتئذ — على دعوة اخرى كانت تحمل لواءها هدى شعراوى .. الى تحرير المراة اينما كانت لتعمـل تحت الشمس وترتدى ما تريد .. مستقلة الراى والشخصية اذا امكن ؟ !

توفيق الحكيم .. لم يكن يرفع الطربوش معلنا حمرته .. فوق راسه .

هذا كان متوقعا من صوره العديدة التى رايتها له من قبل ، مما تعودت صحافتنا اليومية ومجلاتنا الاسبوعية وحولياتنا الشـهرية ان تنشرها له احيـانا .

ولكن أن اجده واراه هكذا من غير طربوش — فى الزحام — فى زحـام الجالسين .. فهذا الذى لفت نظرى .. وشد عينى .

كان شىء يغطى راسـه بعض الشىء ثم يتدلى الى يسار حتى يكاد يلامس اذنه اليسرى .. نعم قبعة [بيريه] لونها الأزرق يتلاشى مع عتمـة المكان وان كان استواؤها بعض الشىء قد حدده شعر راس : توفيق الحـكيم ، الذى راح يتمرد على [حبسته] داخل [البيريه] .. راح يقفـز خارجها

فى « فوضوية » فنية منطلقة ، فى حرية تمثل بعض افكار صاحبها .. الذى حرصت يداه على أن تتماسكا لحظات او بين الحين والحين بعصاه الغليظة (الجبيسة) القابعة بين قدميه ، اللتين التفتا من حولها تحددان اقامتها ، طوال الجلسة .

يبدو أن عيني توفيق الحكيم البارزتين بعض الشيء .. قد لاحظتا اهتمامى به . فما كان منه الا ان ابتسم مشجعا . ولما لم أبدأ الحديث ، اندمج هو فى حوار مع الشلة الجالسة .. ولكنه يتنبه الى .. الى ذلك الشاب الجديد على الجلسة الروتينية . صاحبة الأسماء الرنانة اللامعة .. وحوار الصاوى معى لم ينقطع .. فهو يسألنى — فى تلك اللحظة بالذات — عن اهتمامى بالفن والرسم والمعارض الفنية : .. هل هو مستمر ؟ .. اذ انه يذكر معرضا آخر للوحات لى عرضتها فى اول معرض خاص اقمته خارج كلية الفنون الجميلة — وكنت ما زلت طالبا فى سنتها الاعدادية . ! — أول سنوات عهدى بها وبأكاديمية دراسة الفن .. اقمته حينذاك فى قلب القاهرة .. قاعة « جولدنبرج » الطويلة كالسرداب الأبيض . وكانت تبدو كالدهليز الممتد الى بعيد من غير قرار .. يطل مدخلها على اشهر طرق العاصمة : شارع قصر النيل . وكانت تحتل مكان . « الصالون الأخضر » . هذه الأيام .

كان يعرض معى الفنان القصصى الراحل : كامل التلمسانى والشاعر الايطالى الفرنسى الثقافة المصرى المولد الراحل أيضا : جان موسكاتيللى : رئيس تحرير الايماج وقتئذ . كنت أصغرهم . اكاد اترك السادسة عشرة . وكان اهتمام احمد الصاوى محمد . بزيارة معرضنا .. أولا وبالدرجة الأولى، لمشاهدة لوحات كامل التلمسانى : السيريالية . لا لأنه كان اكبر منى بأكثر من ٦ سنوات . ولكن لأنه كان قد تعاون فنيا مع الصاوى .. عندما وقع فى خطأ حياته الأول وربما الأخير .. ذلك عندما لم يرض عن اخراج الكتاب العربى وطباعته واصالة ورقه . فأصبح ناشرا أيضا .. نعم ناشرا .. فضاع بين الادارة والمال الرائح والحبر المسكوب والمسروق بلا عودة مع الزيوت .. وثمن الورق بين هبوط وارتفاع تماما كالبورصة يتتبع اخباره .. هذا اذا وجده .. وايجار المخزون وأجور عمال تحضر وعمال تتمارض . !! كيف يصبح الفنان رجل اعمال ؟ اذا كان صاحب خيال !

هذه كانت المشكلة . ولم يكن حلها عند الصاوى الفنان بطبعه وهندامه وشعر رأسه المنفوش حول رأسه .. وذوقه فى الحديث وهدوء صوته الخافت اذا ما تكلم . ولهذا ارتبط بكامل التلمسانى الذى رسم له اغلفة كتبه التى كان ينشرها طابعا لها .. وأولها كان اسمه « المنبوذ » .. ومازلت اذكر غلافه الأحمر الأنيق وموضوعاته التى يحتويها . فقد ألفها انور كامل على ضوء أحمر ساخن . كانت مثيرة فى عالم يذيب فيه الشباب : هواه ! .. ويبدو أن اختيار العنوان كان صادقا مع مستقبله .. فبالطبع كانت (المصادرة) هى .. نصيب اول كتاب ينشره الناشر الصاوى . ! الذى كان متأثرا بأناقة طباعة باريس . ولا اقول اباحية الفكر فيها .

ولا أحد يعيب عليه . فقد حاول ولم ينجح ماديا .. ولو انه ترك الوحى للكثيرين من الشباب بعده يقلدون مدرسته . فللصاوى فضلان على الكلمة

العربية المطبوعة : انه من اوائل الذين مالوا الى الاختصار والايجاز ، موضوعيا ، والى الاستعانة بالفن المرسوم والاخراج الفنى .. مصاحبا المقال القصير أو الكتاب الأنيق .. هكذا كانت كتبه : « تاييس » . « الزنبقة الحمراء » . « حياة قلب » . « المراة لعبتها الرجل » و « التلميذة الخالدة » .

واعود الى المعرض .. كان فى حد ذاته صالونا لرجال الادب والفن .. فيه ائمة رجال الفن وقتئذ جاءوا ليروا حركة فنية ثائرة .. اعود فيها أنا الى تبسيط الماضى .. الى حضارتنا المصرية العتيقة اعصر خلاصتها لادماجها مع عناصر الحاضر متطلعا من خلال روح العصر ، الى خيال اعرض وأوسع .. والتلمسانى .. الى الاتجاهات السيريالية الجديدة والتكعيبية .. وموسكاتيللى يترك التأثيرية والتعبيرية الى الفوفيزم . كان خليطا وخلطا عجيبا .. ولكن حلقات كل منا تنقله للآخر ولا تصطدم به . وجاء يوسف كامل : عميد التأثيريين . وراغب عياد : عميد الفن الشعبى . ومحمود سعيد : فنان الاسكندرية الكبير . كان لامعا . ومحمد ناجى ومحمد حسن وعوض كامل فهمى وشفيق زاهر ومحمد يوسف همام وأحمد الحسينى وعبد الله جوهر وكامل مصطفى وعبد العزيز فهيم . عمداء كلية الفنون . وعديد من النقاد وعلى راسهم أحمد راسم ، وجاء كثيرون من شباب الفن : كنا نمثل لهم خطوة متطورة . لقد صحونا على صيحة بيكاسو العالمية لتحرير قوالب الفن . وكانت صرخته الفنية : لوحته « جرنيكا » التى عبر فيها قبل معرضنا بسنتين عن مأساة الحرب الأهلية فى بلاده : اسبانيا .. كانت حديث أهل الفن فى بلادى .. فقد بدات صحوة تعليم الفنون تنبثق فى مصر قبيل معرضنا بإثنتين وثلاثين سنة .. بعد ان نامت مع حقب الزمان طويلا ، عندما انشأ يوسف كمال اول معهد للفنون الجميلة فى مصر .. ثم كانت الصولة والجولة الأولى للأجانب الفنانين .. وبعدهم فراغ .. يأتى بعده فنانونا . هكذا كان وضعنا فى صالون القاهرة .. اكبر مظاهرة فنية كانت تقام مرة كل عام .. ثم معارض فردية متفرقة . لا رابط بينها . ولكن الشخصية المصرية بدات تنمو مع الأيام .

لكن زائرا كان له شأن : .. حضر معرضنا . لا لمنصبه ولا للأدب : .. جاء ؟

ورايت والدىَّ فى الركن . ركن المعرض . ذلك المساء .. يرقباننى بمزيج من العطف والفخر .. وانا اتجه الى الزائر الاديب . الى د. طه حسين .. ثم أمر معه ، متمهلا . متوقفا عند كل لوحة .. شارحا له اتجاهى ثم ما احاوله فى كل لوحة من موضوع والوان اسكبها . انى لا انسى نظرة والدتى لحظتها — الحنان كله — ولا ابتسامات والدى وافتخاره بى واخوتى .. ولا دهشة زملاء واساتذة لى واصدقاء كانوا فى المعرض يتجولون .

كان المعرض مزيجا من البشر غير اتجاهات لوحاته . فقد كنا ثلاثة . وكان هناك على الاقل ٣ نماذج من الناس والتخصصات . كان موسكاتيللى صحفيا وشاعرا كما قدمت . اما كامل التلمسانى فقد كان طالبا مداوما لا يتخرج من كلية الطب البيطرى . اذ ظل يكرر دراسته فى سنته الأخيرة : البكالوريوس .. بلا عد ولا حساب . فانصرافه الى الفن والادب .. جعل

مجموعه هزيلا .. فالفن المرسوم والمكتوب كان شاغله الأول .. والسينما ايضا بدات تجره ليصبح سيناريستا يجالسه المخرجون : نطين عبد الوهاب وكمال الشيخ وصلاح أبو سيف وغيرهم . يفيدون من معلوماته . وقراءاته الواسعة . سخريته اللاذعة . خبرته واطلاعه . عيبه أنه كان يتحدث ويعطى ما عنده .. أكثر مما يعمل ويأخذ !

وافيق من سرحتي .. التي لم تأخذ زمنا أكثر من ثوان .. ولكن فيلم ذكريات الصبا لهث فيها بخيالات وأسماء وأحداث .. ذكرنى بما فات وكان . لمحة عن صحوة الفن فى بلادنا .

وأذكر سؤال الصاوى الذى وجهه الى .. فيم اذا كنت ما أزال مع الفن كما كان عهده بى ؟

ارد على احمد الصاوى محمد : اعتقد .

هنا يومىء توفيق الحكيم .. يطل بأذنيه على حوارنا .

ويلتفت الصاوى الى عينى : توفيق الحكيم وملامحه المتسائلة .. عمن هذا الشاب — الذى هو انا — المهتم به ؟

ويتحول ازدواج الحوار الى ثلاثة . كلماتهم تجدل نسيج جلستنا ، بينما انشغل د. محجوب ثابت فى حديث مع زميل صديق حضر ، ليتابع القراءة له ..

الصاوى : .. نسيت أعرفكم ببعض [ثم اشار الى .. وبقية من « سيجاريللو » محروق اسمر ملتهب الطرف فى يده] .. الأستاذ كمال الملاخ .. دا من فنانينا الشبان .. الحقيقة له اسلوب فنى كويس . انا لسه فاكره [ثم سكت هنيهة .. ونظر الى ليقول ، مشيرا الى الاتجاه الآخر] .. طبعا .. الكاتب الكبير .. توفيق الحكيم .. غنى عن التعريف .. والا ايه ؟

ثم تضاحك الاثنان . بينما انا أحاول الابتسام مع كل فضولى .. احاول ان احلل ضحكة كل منهما مع نسيج الفضول ، كيف يضحك الكبار .. خاصة أن ذاكرتى ما زالت تعى تلك الحملة الصحفية التى قام بهـا قلم احمد الصاوى محمد عند عرض فيلم (رصاصة فى القلب) الذى مثله للسينما وغناه : الموسيقار محمد عبد الوهاب منذ شهور عن رواية لتوفيق الحكيم .. الذى رد الهجوم ايامها بأسنة الرماح .. كنت مندهشا فى صبا شبابى من تضاحكهما وانسجامهما لحظتها .. بينما كان المنقوش المحفور المذكور فى مخيلتى حربا لا هوادة فيها بينهما .

وفى ربيع العمر ، نتعلم فى كل لحظة . من كل نظرة . ومن كل كلمة مطبوعة نقرأها . وكل همسة نغم او حوار .. حتى كل ضحكة وابتسامة .. كل حركة .. حتى من النحل والنمل والزهر نتعلم . لو تأملنا وتعمقنا .

اننا فى هذا العمر الأخضر .. نحتوى . نعبىء النفس والروح . ننبهر بالموهبة .. ننهل من لمعة كل فكر .. نلتهب من كل حس .. نلتهم ما نقرأ .. نمتص ونرشف كالفراش من كل زهرة متفتحة .. جذابة اللون زكية الرائحة .. نفيد من كل شاردة أو واردة .. من كل تفاصيل واقع نحياه .. او .. خيال نتوهمه .. تتفاوت النسبة بيننا . كل حسب قدره المرســـوم . وبيئته . وموهبته .

فى فتوة شباب العمر .. نحيا اللحظة بكل دقائقها وثوانيها .. بكل حجمها وعمقها وثقلها .. بكل طولها وعرضها ، بعد اللهفة على ســطحها البراق .. حتى عصارتها وثمالتها . نعتصرها ونثمل منها قبل أن تعتصرنا الأيام وتذوبنا ثم تذرونا رمادا .. تهفو به نسمة الدنيا ، تهديه بدورها الى رياحها تلعب به وتلهو ، قبل أن تنساه ، فوق تراب ، ورفات من فاتونا . !

أعود من سرحتى . وافيق على صوت توفيق الحكيم .. يحدثنى :

.... ــ انت اذن .. بترسم .. والله عال قوى .. ده انت صحيح باين عليك فنان . شعرك . ملامحك بتقول كده . وما دام الصاوى بيقول عليك وبيمدح فيك .. تبقى كويس .

ثم يمد توفيق الحكيم يده اليمنى ، ليشير بأصبعين من اصابعه الخمس فى الهواء .. بينما ضمت أصابعه الخمس لليد اليسرى محتضنة انحنــاءة يد عصاه .. ليقول متابعا كلماته : .. يعنى ممكن ترسم كده .. الطبعــة الجديدة الثانية من كتابى « عصفور من الشرق » .. اى والله دى تبقى حاجة كويسة .. مش كده والا ايه ؟

ويأتى ضيف جديد على الجلسة ويجلس . يقتحم الحوار بلا استئذان . انه أكبر حجما وعمرا . وقطعا اكبر مركزا .. هكذا تصــورت الضيف . وينقطع الحوار . الذى بداه . وتوفيق الحكيم يحاول أن يصل ما انقطــع .. بكرة نتكلم فى الحكاية دى . أيوه بكرة اتفضل نتقابل .. ونتفق .

وحييت . وخرجت الى الطريق الازرق . ومضات شعلات كبريت تبدو فى عتمة جو الحرب وكأنها وهج . الحظ أن العود لا ينطفىء سريعــا ، ثم أتذكر أنه عود مـ نالشمع لا من الخشب ! لقــد قل الاستيراد .. المراكب معرضة للقنــابل والغرق . الغواصات تحوم فى البحر كأســماك القرش السود . تماما مثل هؤلاء الغانيات اللاتى يحمن حول عســاكر الحرب . على الرصيف امامى ! ومخمورون يترنحون .. يدلفون الى بارات انتشرت .. وصالونات حلاقة تعددت .. وبضاعة محرمة .. تباع فى الظــلام .. من شرابات نايلون . معلبات . حرائر بارشوت مسروق تصلح قمصــان . مسدسات !! . بطاطين .. سجائر .. علب شاى واحذية ! وســكاكين وشــوك وملاعق وكبــريت خشب وســلمون واناناس وحاجات وحاجات متباينة .. عديدة !

واركب الترام عائدا الى بيتى .

ولا اقابل توفيق الحكيم فى غدى . الغد طال . طال ٤ سنوات . انصرفت فيها الى الالتحاق بالتدريس فى كلية الفنون الجميلة . ومنهــا الى الآثار وأنتقل بين الشمال والجنوب . الكفور والقرى والنجــوع . الواحات . الصحراء . عظمة المــاضى . الخلود ينطقه حجر محفور ، والفن حريص عليه جدار ملون منقوش . ويزداد شغفى بآثار أجدادى . اشــعر بأنى نقطة فى

بحر لا قرار له ولا افق محدود . جائع فى عالم يزيده الصمت غموضا . انتى أصبحت عنيدا يريد ان يحل لغزا . لغز الزمان . لغز الحضارة . لغز طوله اكثر من ٧٠٠٠ سنة . مارد اسمر طويل . طوله طول مصر ارضا وسماء . وعمره عمر مصر زمنا . ومصر أم الدنيا . اذن فان عمره أطول من الدنيا ! وهكذا بدات اتعمق وادرس واعود الى الحكمة القديمة فى شعر محمد الهوارى : انا .. فى الصبح تلميذ وبعد الظهر نجار .

وهكذا بدات انتلمذ على يدى استاذ عالم المصريات الاكبر الفرنسى : دريتون . كان مديرى العام فى الصباح . اذ كنت مديرا لاعمال مصلحة الآثار . وكان استاذا فى معهد الآثار يعلمنى مع زملائه العلماء : جوكييه الروسى الابيض وفيكتتيف وسامى جبره . واقرأ فى بيتى كتب رجل احترمته وان باعدت الدسيسة بيننا طويلا من الوقت واعنى به عميد الاثريين : سليم حسن .

فناصبنى العداء ..

وناصبته الوفاء . وعلم القصة كلها واحس بمكائد من اخلص لهم عمره الاثرى ، فكان لى خير صديق فى عالم الآثار ، قبل ان يرحل واصبحت على ذكراه امينا وفيا . والحق لقد اعطى سليم حسن آثار بلدى الكثير من ضوء علمه ومعرفته .

وانتهى من دراستى واتخرج بعد ان نلت ماجستير الآثار وفقه اللغة المصرية ورحت استعد للدكتوراه .

وشاء قدرى ان اكون مثل القمر — غالبا مثل ما يبدو فى اواخر ايامه — اختفى كثيرا واظهر قليلا .. اختفى بعيدا فى اماكن نائية .. لاعود واظهر فى القاهرة ارى اسرتى والاصدقاء .. اشترى الجديد من الكتب . وارى الجديد من الأفلام ، والمسرحيات ، والمعارض .

ثم اعود لاذكر يوما حارا فى صيف ١٩٤٨ .

عائد من النوبة . من الشلال الأول . حيث كنت اعمل فوق جزيرة فيله — جنوب أسوان « ما بين خزانها وسدها العالى » — ارمم معابدها مثل : معبد ايزيس الكبير ، وهيكل تراجان الذى اشتهر فى التاريخ بأنه معبد « أنس الوجود » او : لؤلؤة النيل !

عائد الى القاهرة (هفنى) الشوق لأرى الأصدقاء . توجهت الى طريق قصر النيل . كان اليوم صهدا . مضيئا . كانت الساعة الرابعة بعد الظهر . ظلال فقط هى التى تحدد وتتحرك .. قليل من الناس . الاقدام مسموعة الوقع على الرصيف الخالى . اختفت صورة الزحام القديم وعتمة الحرب .. لقد انقضت . عقدوا الصلح فى اوربا منذ ٣ سنوات . فسكتت كل حاجة عندنا . الم نكن على حق ايام كنا نسمع انها حرب ليست لنا . ولا ناقة لنا فيها ولا جمل ! جاءوا من بعيد وراحوا . ولكننا بعض شباب نبحث عن استقلال مصر من بقايا للانجليز . نبحث عن كرامة مصر . كل بأسلوبه وعلى دربه وطريقته يفكر ويسير .

لقد اختفت مظاهر السوق السوداء . راحت الغانيات . (اتلمت) الرذيلة . وضحت الشمس . كبر الضوء . فلسفة اسر بها الى نفسى وهى تقارن بين صورتين : الأمس واليوم .

أصل الى بغيتى . الى ناصية الطريق عندما يتقاطع مع شارع شريف . مقهى (ريتز) . وكان يحتل ركن الدور الارضى لعمارة الأيموبيليا . يطل

على التقاطع بواجهاته الزجاجية . المفتوحة لعل نسمة هواء تخفف قيظ ذلك النهـــار .

وارى صديقى الفنان : رشاد منسى ، جالسا .. وعلى بعد قليل منه : احمد الصاوى محمد .. وتوفيق الحكيم . لم يتغير اى منهما . ولــكن توفيق الحكيم يجلس ساهما مبتسما . عيناه الواسعتان مسلطتان على مدخـــل البنك الأهلى ، المقام على الناحية الأخرى للتقاطع .

ويلمح الصاوى تعجبى لنظرة توفيق الحكيم . فيردف مبتســما : أصــل توفيق الحكيم عاوز يطمئن على ماله فى البنك !

ويضحك توفيق الحكيم ولا يغير اتجاه عينيه .

ثم يلتفت الى ليقول : .. فين الرسوم واللوحات بتــاعه (عصفور من الشرق) .. انت كنت فين ؟

وفى اختصار شديد حكيت للحكيم — الذى احترمه : على البعد وانا اقرا له .. وانا الى جواره معجب به وبانسانيته . لا كلفة فيه . او هكذا يبدو . حكيت له بعضا من رحلة الأثر والعمل والدراسة والتجـوال والرحيــل والسفر . والحكيم منصت اغلب الوقت . ذاهل سارح ساهم احيــانا .. ثم يعود متنبها شديد الانتباه وكأن شيئا من كلماتى لم يجرفه هواء الى الفضاء . انه يلتقط بأذنيه وبعينيه . كل ما يسمع ويرى ولا يفوته شىء كمــا يبــدو لأول وهلة .

يبدو أن صديقى رشاد منسى كان مشغولا مع الصاوى فى حــوار .. لانه نظر الى عندما انتهيت مع الحكيم .. وقال لى : يا راجل .. كنت فين من بداية الصيف . فى اسكندرية ؟

رددت عليه : ابدا .. كنت فى الشلال .

... — الشلال ؟ .. فى عز الصيف ده ؟ قول كلام تانى !

... — فعلا كنت فى الشلال . اصل منسوب النيــل يهبط فى سرعة خاطفة .. فى الصيف : جنوب الخزان . خزان اسوان .

... — طيب وايه اللى وداك هناك ؟

وبدات احكى له حكاية جزيرة (فيلة) .. من اول رحلة .. صــحيح ذهبت الى الاسكندرية فى بداية الصيف ولكن ليوم واحد . اتفقت فيــه مع (غطاس) يونانى معروف بخبرته . اسمه : كوستا ، ليحضر مع مساعديه الى جزيرة فيلة بأدواته الجديدة للغطس . وكنت توجهت من القطار مباشرة اليه فى ميناء الاسكندرية . تعاقدت معه على كل شىء من مكافأة له ولزميليه الاثنين . واعطيته استمارات السفر ، ذهابا وايابا من الاســكندرية حتى محطة الشلال للسكة الحديد جنوب أسوان . بمسافة لا تزيد على ٢٠ ك.م.

سبقته الى الأقصر . حيث شحنت مهمات رحلتى من أخشــاب قــوية عريضة طويلة ودرافيل . واخذت عمالا مدربين و « اسطوات » .. ورحلتهم الى الشلال .. ثم سبقتهم الى اسوان .. ثم سيارة « جيب » — الى جانب سائقها النوبى الأسمر السمين « جلال » — الذى لازمنى بقية عمرى فى عالم الآثار فيما بعد — يقودها على هضاب قاع النيل الصخرى من الجرانيت .. بين ارتفاع وانخفاض ، بعد أن انخفض منسوب المياه اثر قدوم الفيضان وانفتاح عيون الخزان . ونركب زورقا صغيرا .. يسالنى فيه صاحبه النوبى الرفيع العجوز « جعفر » ، وانا أشير عليه بأن يتوجه بى الى جزيرة فيلة .. او : أنس الوجود : كم لغة تتكلم أنت ؟ واجيبه .. فيضحك ســاخرا من

حضرة الأفندى القادم من مصر : « عربى بس . انا اعرف اكثر منــك . اعرف فرعونى . اعرف نوبى !! » .

وتبدأ حياتنا والعرى يلفح صدورنا لنتقى الحر .

وتجىء المهمات ومعها الأسطوات والعمال .

وتعلو اخشاب « التك » .. وضجيج العمل و (غنوات) النوبة يرددها العمال المحليون الذين جلبتهم . مع زحام بدا يحتل الجزيرة الهـادئة التى كانت تبدو كأنها ناعسة مع الأحلام .

واسمع صفير القطار . انه اليوم الموعود بأن يحضر : كوستا ومساعداه فيه . وأبعث اليهم بعم جعفر ، الذى ارتبطت معــه بصـــداقة عنوانهـا « البساطة » .

المحهم قادمين الينا . الى الجزيرة . انهم يقتربون . رؤوس الثلاثة تحت قبعاتهم ، وعم جعفر تحت عمامته البيضاء الكبيرة .. حجم رؤوسهم يكبر كلما اقتربوا .

واخيرا وصلوا .

... — « ياسو .. كوستا » .. حمدا لله على السلامة .. ويبتســم كوستا . وهو يتحسس جسده المبتل بالعرق .. ليقول :

... — الدنيا هر خالص . موش كده يا بيه . هر خالص . الدنيا هنا . لكن الهوا لتيف .. لتيف .. هالو ازيك يا بيه ؟

وفى الزورق : صندوق خشبى كبير . فيه (عدة) الشغل . ماكينة وبذلة الغطس ذات الرأس الحديدى الزجاجي الوجه . عم جعفر يعاون مساعدى كوستا فى رفع الصندوق الكبير بصعوبة . يبدو ان وزنه فعلا ثقيل . فيــه (ونش) أيضا لانزال الغطاس ورفعه ومده بأنبوبة (خرطوم) الأوكســجين عند العمــل .

كوستا : يشير على الثلاثة فى القارب بملاحظات معينه . ينـادى بعض عمال الجزيرة ليعاونوا زميليه . ويرتفع الصندوق فى الهواء . هيلا هوب يا رجاله . ولكن ليهبط فجأة بين القارب وميناء الجزيرة القــديم . يهــوى الى قاع النيل ! فقاعات ماء . ضاعت الرحلة . والجهد .. فى لمحة عين !

يصرخ كوستا . ويزداد الهرج والمرج . ترتفع صيحات العمال !

هــدوء يتملكنى فجــأة .

عم جعفر يقول مداعبا — وكأنه يخفى عصبيته بعض الشىء . فقــد بدات الصداقة تنسج الألفة بيننا :

... — لزومه أيه الخواجات . ؟ كان لازم خواجات .

... — فيه حــل عنــدك ؟

... — ايوه .. عندنا .. عثمان .. حاانده له .

ييجى ويغطس بدل الخواجات !!

غاب عم جعفر مع عمامته الناصعة البياض — ولم اشـــهد فى حياتى مثل نظافة اهل النوبة والنوبيين خلقا وامانة ومظهرا — . غاب ســاعتين . ليعود ومعه شاب اسمر . عريض الصدر كالأسطورة . عمــلاق مثــل : « سبارتاكوس » .. تلمع عليه الشمس ببعض ومضاتها لتؤكد الثقــة التى تعلنها ملامحه القوية .

يقف « سبارتاكوس » الأسمر أو « عثمان » الشاب النوبى العملاق ،

متطلعا الينا من فوق . انه اطول منى . عمود لامع من الأبنوس يقف حائرا . تحت قرص الشمس !

اقول له مختصرا اللغو والكلام : .. تقدر . ؟

ولا ينطق سبارتاكوس النوبة . انما يهز راسه .

وبسرعة خاطفة يتخلص من جلبابه . يصبح عاريا وكأنه فى لحظة ولدته امه . وانما عمره ٢٥ سنة . ويتمتم بشفتيه . ثم يمد أصابع يده الى انفه . يضغط على فتحتيهما بعد ان يتطلع الى الافق الازرق الدافىء وكأنه يشم ويتنسم كل هواء الفضاء . يختزنه . ويقذف بجسده البرونزى الفاحم اللامع الى النيل . ويغيب لحظة تخيلناها طالت . فقاقيع .. تبدو على السطح .. الذى يشقه اركان صندوق من خشب . يرتفع . انه ذات صندوق الغطس .. يرتفع فى الهواء .. تبدو ذراعا سبارتاكوس من تحته مرفوعتين تتساقط عليهما قطرات الماء المتعلقة بسطح الصندوق . يبدو رأس سبارتاكوس .. وجهه الضاحك .. اسنانه البيضاء .. صدره العريض .. وتمتد الأيدى .. أيدى العمال الى الصندوق . تتشابك من تحته . تحمله منه . يقفز من الماء الى الزورق . ويضعون الصندوق على ارض ميناء الجزيرة . والحسرة مع الدهشة . كل الدهشة تعلو وجوها ثلاثة : كوستا وزميليه . كيف وقع هذا ؟ ثم كيف استطاع سبارتاكوس الأسمر ان يفعل هذا وينقذ الصندوق من غرق ! ؟

وبالطبع نهاية الحكاية معروفة .

كوستا وزميلاه يطلبون العودة فى المساء الى الاسكندرية .

واسند المهمة . مهمتهم : الى سبارتاكوس الاسمر .. ليوالى خلال شهرين اخراج كتل حجرية من معابد الجزيرة اوقعتها الضغوط التحتية للمياه الجارفة التى تؤلف خزين المياه عندما تندفع ويحجزها الخزان .

ونضع الكتل الغارقة فى مكانها حيث كانت تعتلى أعمدة وجدران فى معابدها .

وينتهى الفيضان . وينتهى موسمنا على الجزيرة . ويسد الخزان بعضا من عيونه المفتوحة ، ليحتجز مزيدا من الماء لفصول قادمة هى الخريف والشتاء والربيع .. قبل صيف قادم .

اكاد انسى نفسى وانا احكى ما حدث . وما كدت اصل الى نهايتها حتى شدنى اهتمام الثلاثة بتفاصيلها . توفيق الحكيم ترك البنك الأهلى وما له فيه . كان حريصا على ان يسمع . أحمد الصاوى محمد .. كان يضع ساقا على ساق .. يحنى صدره الى امام وراسه يهتز وعيناه ثاقبتان من وراء زجاج نظارته .. يتملى من الحديث .. ورشاد منسى : مستغربا لكل ما حدث .. قائلا لى .. دى حكاية غريبة فعلا . ياريته كان هنا وانت بتحكى . كان صاغها فى مقال ممتع .

... — من ؟

... — محمد حسنين هيكل .

بداية رحلة عمر ومعرفة وعمل ارادها القدر فيما بعد . وذهبت اليه وتقابلنا لثانى مرة عندما رايت وقرات ما كتبه عن سبارتاكوس وجزيرة انس الوجود .. القابعة فى النيل جنوب اسوان تحت قرص شمس من ذهب دافىء . ساخن . مثل اسلوبه الجذاب المثير .. وانشغلت من جديد فلم ار لا الحكيم ولا الصاوى ولا رشاد منسى . ذبت مع الاثر . وراء الاثر .

على ربا وادى النيل . ساعيا على الرمال . حافرا فى الصخر . قارئا على الورق . وما اكثر الرمال ، وما اعتى الصخور ، وما ابيض الورق ، وجلال الحروف السوداء تضغط بالمعرفة على ذاكرتى . تحفرها .

أتوه تحت الأفق السماوى مع الحضارة فى دهاليز الغموض . وبصيص من ضوء .

واعود ذات صيف الى بيتى فى جزيرة القاهرة . وسط زحام سكانها الذين لم يتعدوا وقتها ٣ ملايين نسمة . مصر كلها كان تعدادها ٢٤ مليون نسمة .

وكان ذلك فى نهاية صيف ١٩٤٨ .

واستقر بعض الوقت فى العاصمة . حيث عرفت رجل القانون والأديب الفنان ذا الحس المرهف : حسين صبحى . وكيل وزارة الاسكان وله فضل يذكر على عمران الاسكندرية وثقافتها ومتاحفها — وهو الذى فكر فيما بعد واقام اول بينالى دولى للفن فى مصر وهو بينالى الاسكندرية لفنون دول البحر الابيض — وتقابلت مع المؤرخ : شفيق غربال . وكان للاثنين فضل كبير على فى توجيهى ثقافيا واجتماعيا .

انى اعمل على ربوة اهرام الجيزة . واهرام مصر . وآثار الدلتا والصعيد . مقرى الآن فى قلب القاهرة . حيث مصلحة الآثار تطل على ميدان الاسماعيلية (التحرير فيما بعد) وثكنات الانجليز وقتئذ (هيلتون حاليا) . واكون قريبا من كل ما يجرى من فكر حديث . وفن . وكتب جديدة ولكن شباب مصر ساخن يكاد ينصهر . فساد الأحزاب . فساد القصر . فساد فى فساد . البعد اذن كان غنيمة . ولكن الحياة الفكرية كانت لازمة لى . لا غنى لى عنها . حركة المقاومة ضد الاحزاب والقصر والانجليز . كانت تغلى من تحت بركان .

وذات مساء وانا ادلف الى عمارة بيتى .. كارت ابيض صغير . يلفت نظرى فى صندوق بريدى . امد يدي اليه . انه كارت من الصديق الأديب : د. ابراهيم عبده . استاذ الصحافة فى جامعة القاهرة . يريد منى فيه ان اقابل على وجه العجلة احمد الصاوى محمد . بمكتبه بالأهرام . يطلبنى انا ؟ وادقق النظر فى الكارت ثانية واجد انى لم اخطىء فى شىء .

توجهت الى الصاوى فى « الأهرام » .

قابلنى ، رحب بى . سألنى فيما اذا كنت مازلت عند وعدى القديم . فى ان ارسم . انه محتاج لفنان يرسم بعضا مما يكتب . وقد كان يتحدث فى هذا الموضوع مع د. ابراهيم عبده قبلها بمساء . وكان د. ابراهيم يراس مجلة [بنت النيل] التى كانت تشرف عليها درية شفيق . بعد ان عادت من باريس وفى راسها افكار لتثقيف وتحرير المراة العربية ورفع مستواها الفكرى والفنى . وقد استعان بى فى تنسيقها مع خليل صابات : [الذى احتل فيما بعد استاذية الصحافة فى جامعة القاهرة] . وكنت ارسم واكتب فيها .

هكذا بدات رحلتى مع الصاوى . ورحلتى فى الأهرام . ثم فى الصحافة وفى مكتبه ، فى النهار التالى .. دخل شاب ابيض نحيل . مهذب الطلعة . لامع الانتباه . عيناه تبحثان فى سرعة وتستقران على عينى . بينما الصاوى يقدمه لى : انيس منصور .. زميلك فى الاهرام . فى الترجمة . ثم يضحك الصاوى لحظة . غريبة انه اتعين معك منذ ساعات فقط .

وكانت بداية رحلة شباب مع انيس منصور .. ما زالت تنسج نسيجها رغم فوات شبابنا الأول . وما أكثر ما كان يحكى على جسر صداقتنا . ربما افردت له او افرد هو كتابا عنها .. من يعلم .. ؟ ربما نكتبه معا ذات عام ، لو اطال الله شبابنا الثانى او الثالث . من يعلم ؟ احدنا لم يكن ظلا للآخر . ربما كنا واحدا انقسم الى اثنين تجمعا فى واحد . وربما كانت علاقتنا أهدا شدا وجذبا من صداقة الفنانين الرائعين المجنونين : جوجان مع فان جوخ !

وكنا فى « الأهرام » مثل فراشتين . دبورين . نحلتين .. فى خليـــة الدار .. نكر ونفر .. ونعمل ونعمل ونعمل ، ونقرا ونكتب ، وندخل صالون كامل الشناوى .. نرى عجبا .. خليطا غريبا من ابهة الحاكمين وصعلكة الادباء وغرابة الفنانين . كل اسم لامع رايناه .. نأكل معه . نســمع اكثر مما نتكلم . نشترك فى حوار لا نهاية له . ولكننا كنا مثل ورقة (النشــاف) نمتص كثيرا ونتعلم اكثر .

فى صالون « الأهرام » كانت تدور اخبار البلد . اشاعات البلد . تشنيعات المجتمع . سخرية كامل الشناوى من احد الجالسين . وكل ليلة له غريسة يطويها اذا كانت طيعة . ضحك وجد وهذر . ولا كلفة . وطعام وجرجير ورنجة وبيض وقنفص سمك مشوى .. وكباب وكرشة يقدمها الجرســون المعلم : بولس .. ومتناقضات من كافيار وطعمية ومارون جلاسيه وحلاوة المولد .. الكل يأكل ويشرب ويرى ويسمع بلا حـدود وسط اللامعين من شخصيات الفكر والحكم والسياسة والفن .

كامل الشناوى .. الشاعر الفنان الكاتب : كان قادرا على ان يلقى بالضوء كله يعكسه لصاحب كل موهبة وليدة كالبرعم .. يرعاه لينبت عملاقا فى فنه . اذا احب كان يرى حمرة الورد .. بلا شوك .

فى صالون كامل الشناوى .. كنا نرى احدث صيحه فى عالم الأقلام والاختراع . كل جديد . احدث كتاب . تعليقا ساخرا او عميقا على احدث رواية فيلم او مسرحية او .. حكاية !

مساجلات فكرية . آهــات من الحب . صالون كالبحر .. صاخب . امواجــه عقول بشر . لمعته مواهب بشر . هديره فن وفكر وسياسة . قبطانه : مدير جلسته : كامل الشناوى .

الكل مشـــدود اليــه .

وهو يحرك الأمواج . امواج صالونه : بايماءة او بابتسامة .

الشناوى فى صالونه اعطى ولم يأخذ الا حبا .

سهر ولم يحب الا عذابا .. مات جسدا ارهقه وعاش ويعيش فى قلوب وعقول من جلسوا معه واقتربوا منه .

كنت ارسم . وكان انيس يترجم . وما يمر شهر الا ويعطينى نجيب كنعان مدير تحرير الأهرام وقتئذ : دعوة لمعرض جاءته . قال : تحب تروح بدلا منى ، انا مشغول . وذهبت . كان معرض رسم الفنانة النمساوية راينر . ورايته . وعدت لأكتب عنه .. واعطيت ما كتبت الى نجيب كنعان . نشره توا . قال لى كلاما شجعنى على المداومة . صرت الناقد الفنى للأهرام ثم رئيس القسم الفنى للأهرام . وبدات حكاية الأركان الفنية فى صحـافتنا العربية . [ركن الفن] كل يوم اثنين و [السينما] كل اربعاء .. ثم أردت

ان احقق حلما لى .. ان اجعل للفن ركنا يوميا فى الأهرام ، مثل الرياضة ، وقد تحقق لى وكنت اوقعه « القناع الأبيض » . واشهد ان لنجيب كنعان فضلا على .

وندخل معا الى مكتب الصاوى . كان فنانا رقيقا ولكنه فنان ينتقى كلماته ويصوغها كما يرى ويحس . فيه رائحة باريس وفكرها .

ثم يلمحنا محمد زكى عبد القادر باتزانه : يشجعنا . بعد ان ينبئنا انه قرا لنا شيئا .

وكان هناك الصحفى الاديب : حامد عبد العزيز . لقد تعلمت منه كثيرا وعلمنى . كان له اثر عميق فى حياتى . وجهنى الى الاذاعة والفكر والفن المسرحى والكتاب .

وعند كامل الشناوى .. كنا نرى أهل الفن . وزراء . الشوامخ . ادباء ، زملاء الصحافة . جيلها الجديد . يلتفون من حول توفيق الحكيم .. الذى يأتى احيانا . هو . هو . لم يتغير . قرانا له كثيرا . ويزداد حوارنا معه عمقا . ولكنه كان اقل الكبار كلاما واكثرهم ملاحظة .

واخرج ذات مساء مع انيس منصور كعادتنا مع « الأهرام » .. الى حيث نسير على قارعة الطريق طويلا . ربما حتى نصل سيرا الى بيوتنا — لا من اجل صحة احسن ولكن ربما لان دخل كل منا كان محدودا . او عند آخر الشهر تحلو التمشية ورياضة المشى فى طراوة الهواء .. والفلس ! — ولكن عند باب « الأهرام » تلك الليلة قابلت ذات الوجه : محمد حسنين هيكل .. لمحنى .. وسألنى فى سرعته دون انتظار لتحيتى .

... — بتعمل ايه دلوقت ؟

... — قصدك فى اهرام الحجر والا اهرام الورق ؟

وابتسم .. ويبتسم لى . وانيس واقف حائر .

وارد بسرعة : .. بأرمم تمثال ابو الهول .

وبسرعة صاروخية يهمس هيكل بصوت ذكى سريع مؤكد النبرات مسموع لنا .. :

« تحرك ابا الهول هذا الزمان .. تحرك ما فيه حتى الحجر ! » .

انه بيت شعر من قصيدة أمير الشعراء احمد شوقى فى « ابو الهول » .

واعرف مع رحلة العمر فيما بعد ان هيكل يحفظ آلافا من ابيات الشعر . يكاد ينافس فى روايته كامل الشناوى . ويكاد ينافسه ذاكرة وتذوقا .. بل هو نفسه صاغ الشعر فى شبابه الأول .

واخرج ذلك المساء انا وانيس ، بعد ان فرغنا من : « روميل » . الذى يترجمه انيس وارسمه يوميا على حلقات للأهرام حتى نفد الكتاب الذى يحكى عبقرية ثعلب الصحراء .. ذلك القائد الالمانى العظيم الذى دوخ الحلفاء على ربا صحرائنا الغربية ابان الحرب العالمية الثانية .

الدنيا معتمة .. تكاد تقربنا من حالة جو الحرب .

سونكى ابيض يلمع فى الظلام . وصوت مندفع مفاجىء جهورى : « قف من انت ؟ » .

وارد انا . وانيس يتطلع الى صاحب الصوت . انه عسكرى بوليس مصرى يحفظ النظام على كبارى القاهرة . كانت الحالة ج. حالة طوارىء حادة .

البـــلد يغـــلى .

ونقرأ كثيرا . أتابل طه حسين وسلامة موسى . أصادقهما بعد أن صاحبت فكرهما : كتبا ومؤلفات . وقرأت عديدا لتوفيق الحكيم صحافة وكتبا مثل : **« سليمان الحكيم » و « زهرة العمر » و « الرباط المقدس » و « شجرة الحكم » و « الملك أوديب »** .

حياتنا فكر وفن . ولا شباب ضائع . انيس حتى لحظتها لم يذق حتى رشفة خمر . ولم يعرف حواء .

بينما نرى الكبار يتحدثون عن حواء ولا شيء الا عنها ! كنا نلحظ ان احاديثهم عنها فقط من وراء مكاتب مجرد خيال ! وكنا نتضاحك على خيالهم السارح .

توفيق الحكيم لا يود الحرية لحواء . حرية العمل .

ولم يكن فى صحافتنا الا قليل جدا من بنات حواء . لعل عائشة عبد الرحمن وجاكلين خورى كانتا ألمع من فى « الأهرام » . وقتئذ . على عكس صحافتنا — الآن — اذ أن خمس العاملين بها من بنات حواء اداره وتحريرا .

ولكن صالون كامل الشناوى .. يتردد عليه كثيرات من سيدات المجتمع والفكر . كانت فى البلد صحوة .. بدات تدعك عينيها على ضوء يبرق ويسطع بعد نيل طال !

حريق القاهرة .. يزيد الضوء احمرارا . اللهب يراقص من تحت مآذنها وأبراجها .. ويعلو ويعلو .. مع الدخان الاسود . سلب ونهب وصريخ وهتاف فى قلب القاهرة . فنادق . بيوت . محال . تحترق . تصبح رمادا . صيحات تمزق الجو . دخان كثيف يبيت من تحته القاهرة . ظـــلاما فى عز الظهر .. وكان يوما مشهودا : ٢٦ يناير ١٩٥٢ .

سيارات مصفحة . رجال أمن . صمت . هدوء مريب .

ايام تمضي .

معـــدودة .

جريدة جديدة تقام وتصدر . انها « الأخبار » .. ثالث جرائدنا اليومية . الى جانب « الأهرام » و « المصرى » . انها تصدر عن دار « اخبار اليوم » .

اتصالات مع شباب « الأهرام » ليتركه الى « الاخبار » . اذهب انا وانيس منصور وعدد من ألمع فنانينا فى رحلة الى أوربا . رحلة فكر وفن .

تقوم الثورة فى مصر . تصدح بالحـــرية ضـــد طغيان القصر وملاعب الأحـــزاب .

مصر تبنى نفسها من جديد .

شباب « الاهرام » ينضم الى « الاخبار » . واكون واحدا منهم . صرت الناقد الفنى ورئيس القسم الفنى لدار اخبار اليوم . وارسم ايضا . وكثيرا . وضمن ما أرسم يوميات الأخبار وآخر ساعة واخبار اليوم والجيل الجديد .

وكان : توفيق الحكيم . يكتب غير قصصه .. مقالا اسبوعيا يظهر كل سبت فى مربع تنشره « أخبار اليوم » فى قلبها تحت عنوان « عصا الحكيم » .

توفيق الحكيم : كان كثير الدعابة . وكان ايضا حساسا ضد النقد . واذكر له يوما زار فيه حجرتنا التى كانت تحتوى على مكتبين . ثانيهما لانيس منصور دخل والعصا يهزها من وسطها . مداعبا زاعقا . صارخا . معاتبا : وعيناه تلمعان .. لا . لا .. الحكاية فى منتهى الجد . موجها مؤاخذته لانيس لانه — اعنى انيس — اشار بخبث غير ملحوظ الى بعض ما كتب الحكيم من آراء !!

وسرعان .. ما كانت جلسة هادئة ضاحكة .. بعد ان غيرت الموضوع الى فنجان قهوة دفعت أنا قيمته ! ــ انا الرجل الطيب ! ــ ويخرج توفيق الحكيم مبتسما ، صديقا ممسكا بالعصا كما تعود الناس ان يمسكوا بها من مقبضها . ممسكا عن الكلام لا عن الضحك والابتسام .

ومن توفيق الحكيم . اخذنا كثيرا وتركنا قليلا .

وكثيرا ما كنت افكر فيما اذا كان ذكاء توفيق الحكيم يصلح به لان يكون داعية الى جانب فكره وادبه . واقتنع بانه كان من السهل عليـــه أن يوجه ويقود اى حملة اعلامية . من السهل أن يجعلها تجرى على طريق النجاح والوصول الى الهدف .

وانشغل كثيرا فى الصباح . ان الأرض حبلى بحظى وقدرى .

ان الحمل عادة ٩ شهور للاناث من البشر .

ولكن ربوة الهرم . من الصخر . حبلى منذ ٣ سنوات وأخيرا جـــاءها المخاض . وانشق الحجر . يبتسم لى عن مجهـود عشته أياما وليـــالى . أياما تلفحها الشمس .. وليال اقرأ وابحث واجتهد فيما بعد مطبعة الجريدة . بعيدا عن النجوم .. تحت ضوء مصباح .. وبالقرب من الفجـــر أصـــحو لأذهب الى الصحراء .

وكشفت مراكب الشمس فى ٢٦ مايو ١٩٥٤ .

واتى ليزورنى الوان من صحافة الأرض ومصوريها وزوار الدنيا وعلمائها وعديد من الناشرين .

هنأنى توفيق الحكيم .. قال لى : هديتك عندى قصة كتبتها عن « مراكب الشمس » .. ارسمها هذه المرة ولا تهرب منى .

وهكذا رسمت قصة حكاية كشفتها .. ورجل اكتشفنى . وطلعت على صفحتين فى أخبار اليوم . ونشرت عنها وعنه وعنى .. فى صفحتها الأولى !

وهكذا يضحك القدر .. وهو يغمض بعينه غامزا قائلا .. حتى بعـــد ١١ سنة يمكن ان نجمعنا معا !! أن نرسم له عملا .

وتمضى أيام وليالى .. الأوبرا والسينما والكتاب والابحاث والمتـــاحف والرحلات والسفر والطيران والابحار والصحاب وصداقات تربط أحـــداث حياتنا . التى تكبر على شهادة الميلاد وتصغر فى دنيا المعرفة .. غرور الصبا يذوب .. العلم كبير .. ونحن صغار نسعى اليـــه .. كلمـــا ارتوينا زاد العطش والنهم الى مزيد !

صيف ١٩٥٧ . ذات صباح . هيكل يتصل بى .

ويسألنى : لمـــاذا لا تتفرغ للصحافة .. ؟ هل تأتى الى « الأهرام » لو ذهبت أنا اليـــه ؟

لم أتردد لحظـــة .

ركبت سيارتى الآرمسترونج العتيقة الطويلة ــ التى كانت أنيقـــة لولا نكت وسخرية صديقى وزميلى جليل البندارى منها ــ وكانت اشبه بشىء بحرى . ليست هى بالحوت ولا بالمركب . وانما كانت مع ذلك لافتة للنظر بسائقها عم « عبده » العجوز جدا . وكان راويا للأمثال والفلكور . ومع ذلك فقد كان أميا لا يقرأ . كان يروى لى من الأدب الشعبى ما اشـــهد له بانه كان به بليغـــا فى حكمه العامى على الأشياء .. توجهت معـــه فوق

الارمسترونج الى مصلحة الآثار . قدمت استقالتى فى العاشرة صباحا . وبعد نصف ساعة كنت فى « اخبار اليوم » اقدم استقالتى . ثم توجهت الى هيكل . ثم الى « الاهرام » .

وكانت عودة الى الاهرام .

ومع هيكل ينبض الاهرام . يعود الى شبابه . يزيد . يتضخم . يرتفع . يبنى نفسه من جديد . يصبح عملاقا .

توفيق الحكيم يدخل الى الاهرام بدعوة من هيكل ليكون احد اعمدته .

ومن جديد التقى مع المفكر الكبير توفيق الحكيم ، كل نهار . لقد اصبح ابن الجيران : الحكيم . فى الدور الأوسط من « الاهرام » . وازداد مع فكره التصاقا .

ولكن توفيق الحكيم يختفى فجأة فى الاسكندرية . يتخفى فى مظهر جديد .

كنت ايامها اعجب واسأل نفسى ؟

ماذا حدث للعقاد .. وتوفيق الحكيم .. ! ؟

كنت أفهم أن يعارض توفيق الحكيم — عدو المراة — فكرة دخول المراة مجلس الأمة .

ولكن لم اتصور ان يتولى حملة المعارضة ، الكاتب المتحرر : العقاد .. !! الذى صرح ايامها بأنه لا يؤمن باشتراك المراة فى الحياة النيابية . لا فى مصر ولا فى أوربا — التى لم يزرها ! — ولا حتى فى العالم كله .. ! ولم تعلق عليه سيدة واحدة ايامها .

وأسأل : أين توفيق الحكيم ؟

واعلم أنه فى الاسكندرية : واسأل صديقى سامى دسوقى : مندوب « الاهرام » هناك عنه : فقال لى :

انه عرف أن توفيق الحكيم يجلس كل صباح على شرفة كازينو بترو على شاطىء السراى « زيزينيا » مع اصدقائه وبعض كتبه وعصاه . فقصد اليه محييا وعلى طرف لسانه سؤال عن راى « عدو المراة » فى دخول المراة مجلس الأمة . ولكنه قابله بتحفظ ورفض ان يدلى بأى حديث قائلا : « انه يعيش الآن فى عزلة عن الصحافة والصحفيين ولا يريد ان يعرف عنهم شيئا » وقال : « أنا لا اقرا اية جريدة منذ بضعة شهور . ولا اعرف شيئا من اخبار الصحف .. الى الملتقى فى اكتوبر ان شاء الله عند انتهاء الاجازة » ! .

ورفض توفيق ان يلتقط له المندوب اية صورة ، ولكن المصور تربص به عند خروجه والتقط له عدة صور وتوفيق يسرع الخطى محاولا اخفاء وجهه ولحيته التى بدا يطلقها لفترة قصرت ولم تطل ! بعصاه وبيده وبالكتاب ! .

ولكن ما الذى دفع توفيق الحكيم لاطلاق لحيته ؟

هل أعجب مثلا بذقون : سقراط وافلاطون وشكسبير وتشيكوف او فيكتور هيجو ودستوفيسكى وتولستوى وشارل بوجى وموباسان وبرنارد شو وهيمنجواى و (سكسوكة) شارلس ديكنز ! ..

أم أطلقها من ناحية .. الشكل .. وهو عدو المراة .. ولكن المراة احيانا تميل الى اللحى .. فقد مالت من قبل الى راسبوتين وكانت له ذقن كثيفة تبرق من فوق لمعة عينيه .

خفت يومها ان يتهمه بعض اصدقائه بأنه تركها ليوفر بعض الجهد والوقت والمال ! .

وبعد ٣ اشهر عاد ابن الجيران الحكيم الكبير ، الى الدار . الى الأهرام ، حليق الذقن كما كان .

قابلته على السلم وانا صاعد الى مكتبى .

قال لى : احضر وسنتحدث حول فنجان من القهوة .. !

... ــ كده مرة واحدة احنا مش فى أول الشهر يا توفيق بيه ! وعلى كل حال فين .. ؟ أى المكتبين .. هنا .. أم فى مجلس الفنون .. ؟

وذهبت اليه فى المجلس الأعلى للفنون والآداب بالزمالك .. فاذا بتوفيق الحكيم يطلب واحد كوكاكولا .. ويفرغ لى نصفها فى كوب .. ويقول لى اتفضل .. ويشرب نصفها الباقى ! .

ودفعتنى حركة القهوة والكوكاكولا .. الى أن اداعب توفيق الحكيم حول ما اشتهر عنه .. وهو بخله ! حول عقدة البخل عنده . لدرجة انه اختار المجلس لأن من تقاليده أن تقدم لأعضائه وضيوفهم بالمجان ما يطلبون لأنفسهم ولهم . وقد بلغ منه مبلغا حتى ان هذه الزجاجه الكوكاكولا لا يهون عليه ان اشربها وحدى فيقتسمها معى ! .

قال : صحيح اشتهرت عنى حكاية البخل دى .. ولكن انا صحيح محتار . انا برضه بخيل .. واحب أن الناس تصدق عنى الحكايه دى .. ولكن انا بخيل ليه .. ؟ ولو كنت بخيلا .. كنت يا اخى اكتب زى الفابريكة .. وانتج كل يوم قصة زى بعضهم ! بالعكس فيه رؤساء تحرير وناشرين بيلحوا على كثيرا ان اكتب وبأى ثمن .. ولكن الحكاية مش كتابة .. وهم لايتصورون ان الأديب يمكث عاما لا يكتب الا بوحى ! ..

ونحول الحديث فجأة الى « نوبل » وجوائزه التى ستوزع فى السويد فى ١٠ ديسمبر من ذلك العام . وعن البير كامى الذى فاز بها حديثا . وعن زملائه اندريه مالرو وجرين ومورافيا وكازانتزاكيس الذى مات بعد حسرة اربعة اعوام تقدم فيها ولم ينل الجائزة .. ! رغم ما كتبه فى « زوربا » و « المسيح » حتى انهم عدوه مثل هومير آخر لبلاده .. وان رواياته لا تقل عن « الألياذة » !

وقال الحكيم كلاما كثيرا عن البير كامى .. نتيجته انه مع عدم انكاره قيمة « كامى » فانه يختلف معه فى رايه القائل : « ان العالم يسير بيد الفوضى » فالحكيم ضد هذا الاتجاه على خط مستقيم .. ويعتقد أن هناك قوة واعية فوق الانسان .

وقال انه كان يرشح اليونانى كازانتزاكيس بدلا من كامى .

سألته : ولمصر .. من ترشح لو كنت عضوا فى لجنة التحكيم السويدية ؟

رد الحكيم : .. « بلاش السؤال ده أحسن بوقعنى فى لخبطة .. والله

مقدرش اقولك بقى .. والا .. طيب اقول لك طه حسين والعقاد .. طـه للأدب العربى . والعقاد عن الفكر العربى .

... — والحكيم .. الم تفكر يوما فى الفوز بجائزة نوبل !

... — الفلوس الآن وحدها هى التى تغرينى .. ان الجائزة نفسها من الناحية الأدبية تنسى بعد حين .. انك لا تستطيع ان تذكر من اخذها منـذ ٢٠ سنة مثلا . ولكن قيمتها عنـدى هى الخمسـة عشر الف جنيـه التى تصاحبها ، وهو ما فكرت فيه فعلا وتمنيته ! ولى مؤلفات كثيرة مترجمـة باللغات الأجنبية وبالسويدية بالذات . وربما كانت مجموعة مسرحيـاتى وما فيها من اتجاه فكرى معين سبق لبعض نقاد اوربا بحثه .. يركزون عليه الالتفات فى السنين القادمة .. اللى يهمنى الفلوس بس بتاعة « نوبل »!

قلت لتوفيق الحكيم : لو رشحت عشرة خلال حضارة التـاريخ .. لجائزة نوبل التى لم تلحق بهم .. أى من فجر الانسانية حتى ١٩٠١ .. من تختار ؟

ردد الحكيم اسماء العشرة دون ترتيب زمنى .. ولكنه وضعهم حسب ما تذكرهم : ابو العلاء المعرى وعمر الخيام وهوميروس وسوفكليس ودانتى وشكسبير وفولتير وجيته وسيرفانتيس وتولستوى .

تمر وتجرى الأيام تعد مع الشهور ، سنواتها ..

وكأى فيلم ننتقد طوله .. ونمدح سرعة تتابع احداثه الأخيرة ..

تلونت السينما العربية .

كبرت الاذاعة أختا للصحافة .. وولد لهما اخ كالجن المصور . يتحرك . يتحدث على الشاشة الصـغيرة فى اغلب بيوت مصر ومنتـدياتها . انه التليفزيون . قدمه رجل الاعلام الأول فى مصر : د. عبد القادر حاتم .

يتلون الحجر عند الهرم وابو الهول وهو يتكلم وبدا مشروع الصـوت والضـوء .

ينتقل « الأهرام » من مبناه العتيق الى داره الشامخة الجديدة .. التى اصبحت حديث المدينة .

واليها ينتقل توفيق الحكيم .. ولكن هذه المرة يصبح (من اهل فوق) بدلا (من اهل تحت) .. ! مكتبه فى دوره السادس يعلو مكتبى .

ومع ذلك فكثيرا ما نتقابل .. ونحكى ونسمع ونحاور ونعلق .. وهو صامت . وعندما يتحدث ، يتكلم طويلا ونحن نصمت . نستمع اليه .

وقد التقيت به . والصيف يلفح الجو المكيف ، من وراء زجاج . ويفرض موضوعه . وبالطبع دار الحديث من حوله :

... — ؟

... — تسألنى عن الصيف وذكريات الصيف ؟

أول ما يتبادر الى ذهنى هى ايام التلهف والشوق والحرمان . ايام كنت اعمل وكيل نيابة فى الاقاليم .

كان يضطرنى عملى الى تحمل حر اغسطس بعيدا عن البحر .

اتدرى ماذا كنت افعل ؟

كنت عصر كل يوم عندما يتنفس النسيم قليلا اذهب الى محطة السكة الحديد وانتظر القطار الذاهب الى الاسكندرية وانظر اليه وهو يتحرك الى مدينة البحر ، فيصور لى الوهم او الخيال انى ذاهب معه . واملأ رئتى بهواء يخيل الى انه روائح الاسكندرية بالفعل ! وعندئذ اعود ادراجى منتعشا الى مكتبى القابض للنفس الملتهب بالحر الخانق . نعم اذا ذكرت كلمة البحر وقتئذ لمنكود مثلى يعمل فى اقاصى الريف فكأنك ذكرت كلمة النسيم لمذنب يتلظى فى الجحيم ! على اننا كنا نعيش احيانا على امل غد يتحقق . وقد تحقق فعلا ذات مرة بالنسبة لى .

كنا ننتظر الانتدابات الصيفية كما ينتظر البشر مفاجآت القدر . فقد يجيء انتدابنا فى مدينة او بلدة على بعد ساعتين من بحر او نهر سجدنا لله شكرا .

لن انسى فرحتى يوم فتحت المظروف الاصفر الرسمى فوجدت انى قد انتدبت طول شهر يولية فى فارسكور . لم اتمالك وصحت : « انا صدفت » ! كل ذلك لأن فارسكور قرب دمياط ودمياط قرب راس البر .

فى اليوم الموعود حملت حقيبتى وركبت القطار منشرح الصدر منتفخ الانف كانى سائح ذاهب الى ربوع سويسرا . ووجدت العمل فى فارسكور لا يقتضى حضورى الا يوم الجلسة . يوم واحد فى الاسبوع . فجازفت وعدت بحقيبتى فى الحال الى فندق « كورنيل » براس البر . ونقلت كل حيثيات الادارة بمكانى . وفتحت صدرى كله لهواء البحر . واذا بعطش الشهور والاعوام يتجمع كله فى لحظة واحدة . فنمت نومة لم اصح منها الا بعد يومين . . !

ونهضت استمتع بالمصيف ناسيا نيابتى بموظفيها وبوليسها ومساجينها ! الى ان فطن موظفو النيابة والمحكمة بفارسكور . فقاموا يبحثون عنى فوجدونى متمددا على رمال البلاج براس البر على احسن ما يكون . فسرت اليهم العدوى هم ايضا . وفرحوا بهذا الوضع وبشروا لى الاستمرار فيه . وكثر ترددهم هم كذلك على المصيف بحجة عرض وارد القضايا على « سعادتى » ! ولم يبق عقبه فى سبيل متعتى بالمصيف الا قضية النشالين والمحابيس . وانتهى بى الامر ايضا الى ان صرت استدعى هؤلاء المقبوض عليهم لاستجوابهم فى راس البر . فياتون من السجن مع حراسهم فرحين يستنشقون هواء البحر . وسرت الاشاعة بين المسجونين والعسكر ورجال الضبط . فتنافسوا كلهم وتزاحموا على المجيء . وكثرت طلبات الاستجواب .

واصبحت افتح عينى فى الصباح على صف طويل من مجرمين فى السلاسل يجرهم طابور من العساكر ، فما اكاد اخرج بالفوطة والمايوه وبرنس الحمام حتى اتلقى منهم جميعا « تعظيم السلام » .

فاقول للعسكر : « ايه كل دول ؟ حافظوا عليهم الا يهربوا منكم » . فيصيح بى المتهمون ووجوههم متهللة بالبشر وهواء البحر : « **نهرب ليه ؟ ! ربنا يديم عزك يا سعادة البيه ، حد يهرب من الجنة ؟ !** » **ولا البث ان اسمع**

من بينهم من يقول : « جعنا يا سعادة البيه جعنا .. هوا البحر جوعنا » ! .
فاقول لهم : « ما شاء الله انتم جايين تغيروا هوا ؟ ! » .

والحق أن منظر سعادتهم بهذا التصييف كان يؤثر فى نفسى ، ونسيت أنهم متهمون ومجرمون ، ولم أر فيهم الا تعساء مثلى حرموا طويلا من نسيم الراحة ، وفرحوا أخيرا كالأطفال بهواء البحر . وينتهى بى الأمر الى أن ادفع الى الحراس بعشرة قروش من جيبى وأقول لهم : خذوا اشتروا عيش وحلاوة طحينية لحضرات المجرمين المصيفين .. ! » .

ولأول مرة أرى قرارات افراجى تقابل منهم بالاحتجاج . فلا اكاد اقول للحراس : « افرجوا عن هذا المتهم » حتى يصيح المفرج عنه وهو يملأ رئتيه من هواء رأس البر : « دا ظلم يا بيه .. انا لسه مقبوض على النهاردة » ! .

— ؟ ...

... — بعد مرحلة النيابة وقد صرت اديبا منقطعا للأدب والكتابة أصبحت بالطبع حرا فى التنقل واختيار مصيفى ووقته . ولكنى ابتليت بقيد من نوع آخر يتصل بحرفة الأدب ؟

أذكر مرة ، فى شهر اغسطس فى عام ١٩٣٨ . ان قررت التصييف فى أوربا ، فى وكر جميل ، يسمى « أورباج » ، القته يد الطبيعة السخية فى بطن واد سحيق من وديان جبال « الألب » . ليذكر البشر بالفردوس المفقود . مكان جميل . به فندق نزلت فيه ، اسمه فندق « الروض » . وهو بناء اقيم على بساط من العشب . تحيط به خضرة داكنة لأشجار باسقة من الزيزفون والكستناء .

لم تكن معى غير حقيبة واحدة ، فيها بدلة واحدة وكتاب واحد : هو « العقد الفريد » ، لابن عبد ربه .. وأنا لا ابغض شيئا فى الأسفار مثل كثرة الحقائب . احمل دائما حقيبة واحدة صغيرة لا تتسع الا لبدلة وكتاب وذلك خشية من أن لا اجد حمالا ، فأضطر الى حملها بنفسى . وقد حدث لى ذلك مرارا فى بعض البلدان فى الخارج . وطال ترددى وانا اتجهز للسفر : هل احمل بدلة اخرى واترك ابن عبد ربه ؟ .

واستقر عزمى آخر الأمر على اختيار الزميل الأديب . اعبر به البحار والجبال واريه مناظر لم ترها عينه . وبلادا لم تطأها قدمه . وما ان وصلت الى أوربا ، حتى جعلت همى البحث عن قهوة تكون مقرا لى وللكتاب الذى معى وللورق الذى فى جيبى .

فأنا لا مطمع لى فى رياضة شاقة كتسلق الجبال . ولا رياضة هادئة كلعب التنس ، وليس فى الناحية جدول قريب اصطاد منه السمك . وهى رياضتى الوحيدة ، التى يمكننى ادعاء حذقها . **ولو انى لم اصطد فى حياتى سمكة محترمة .**

عثرت آخر الأمر عند اقدام اشجار تهدلت اغصانها كجدائل الشعر الكثيف ، على قهوة صغيرة فى شبه كوخ خشبى نثرت حوله الموائد والمقاعد . فقلت ها هنا مكانى المختار . واتخذت مكانا فوق العشب ، والتفت اطلب الساقى يحضر لى فنجانا من الشاى ، **فاذا انا امام ساقية كالبدر . واذا**

اخرى على باب الكوخ كالشمس . واذا ثالثة وهى الصفرى تخطـر بين الموائد فى خفة الغزال . ونكرت ذقنى التى لم تحلق منذ ثلاثة ايام ، والبيريه التى تهبط الى اذنى كانها لبدة . وعصاى الغليظة ، وكتاب ابن عبـد ربه الضخم كانه سفر من اسفار السحر والتنجيم ، فايقنت ان منظرى لن يؤهلنى الى طلب فنجان شاى من ايدى هذه الاقمار والشموس والغزلان الحسان !.

وفعلا طال جلوسى دون ان يلبى لى احد طلبا . او يشعر بوجودى . والفتيات الثلاث الساقيات لا يهرعن الا الى ذلك الشباب الضـاحك على الموائد الاخرى وهم فى سراويل التنس البيضاء والقمصان الخفيفة والسواعد المكشوفة .. يضاحكون البنات الجميلات ويلاعبونهن . والفتيات يستجبن مسرورات سعيدات . وقد افترت منهن الثغور عن لآلىء تشع على البعد. جعلت انظر الى كل ذلك واسائل نفسى فى نبرة مريرة ونفسى كسيرة : ماذا يمنعنى من أن أعيش كما يعيش هؤلاء الأحياء ؟ ما احسبنى بلغت من اليأس وانا الآن بالمصيف فى شهر راحة ! .

ما يمنعنى من حلق ذقنى كل صباح . وتهذيب شعرى وتعريضه للشمس والهواء . وارتداء مثل هـذا السروال الابيض القصـير . والقميص ذى السواعد العارية ؟ ! .

لم اتلق جوابا عن سؤالى !!

ولكن نظرة منى وقعت على الكتاب الضخم .. على صديقى وزميلى ابن عبد ربه .. الموضوع على المائدة امامى بكل ثقله ووزنه وسيطرته . ادركت منها فى الحال من المسئول عن كل ما صرت اليه من وحدة لا سمر ولا بهج .. وابعدته بيدى وانا احترق من الغيظ : « لعنة الله عليك وعلى الأدب .. افسدت على الصيف والنصييف ! » .

... — ؟

... — الآن اصيف فى الاسكندرية . بالقرب من سان استيفانو . منذ اعوام طويلة . لا انزل البحر . لانى لا اعرف العوم . ما وضعت قدمى قط فى ماء البحر غير مرة واحدة وانا طفل فى العاشرة . اراد والدى ان يعلمنى السباحة . فالقى بى فى المـاء وتركنى « اطبش » بذراعى والموج يتقاذفنى . فخفت خوفا شديدا . واقسمت اذا لمست قدمى اليابسة ان لا اعـود الى البحـر ابدا . وبررت بقسمى ولم انزل الى المـاء منذ ذلك اليوم .

ولكن اجلس امامه فى شرفتى اتأمله طويلا وانجيه قائلا له : « ايهـا البحر انت شبيه بالرجل العظيم . تلاعبه الصبية وتعابثه الأطفال . وله قدر وقيمة فى نظر الأبطال . وهو لجمهور النـاس منبع نفع . وللدارسين مصدر سر ؛ ولأهل البصيرة نفس رحبة . تضىء فيهـا شمس وتنطفىء شمس . ولأهل الهزل موضوع للحديث الفـارغ ووحى للتفكير السـهل . ولأهل الجد اعماق زاخرة بالكنوز ؛ تحتاج الى الغوص والكد . وللعميان والجهلاء صوت يدوى فى آذانهم وفراغ فى عرض اذهانهم . هذا هو انت ايها البحر الذى امامى » .

فاذا تركت الشرفة والمنزل . واردت الخروج . فليس لى مكان فى بداية رجولتى الا فى قهوة « بترو » — وبعد ان هدمت ليصبح موقعها عمـارة

تحل بعضا من ازمة الاسكان — اذا حلت !! ؟ اصبحت مكرما — مجانا برضه — فى مقهى « الشانزليزيه » بجوارها !! حيث كان لى فى «بترو» ركن مختار اصبح مع الزمان شبه ندوة يجتمع فيها نخبة من الأصدقاء من مختلف المشارب والأسنان ، يحسبها بعض الوافدين من الأدباء ندوة أدبيــة ، ولكن سرعان ما يخيب ظنهم ، عندما يكتشفون بعد قليل انها شيء لا يمكن تحديده أو وصفه . فهى تجمع بعض زملائى المتقاعدين من رجال القضاء والادارة السابقين ، ينضم الينا أحيانا صحفى أو اديب . ويصبح الحديث خليطا من النتف الادبية والأخبار الصحفية والذكريات الوظيفية تتخللها نوادر ونكات الظرفاء وتدخلات الجرسونات يحضرون القهوة والطلبات ، ويسألون عمن سيدفع الحساب ؟ وخاصة للضيوف الغرباء ممن يحضرون لأول مرة .

وعندما تتجه الاشارة الى ممن يصرون على اعتبارى صاحب البيت . اى الندوة ، يتطوع عنى فدائى كريم أو صديق قديم . فيسرع باخراج المحفظة من جيبه ، وانا اصيح بالاحتجاج ، ويعلو صياحى كلما رأيت نقود المتطوعين قد اصبحت فى يد الجرسون . ولكن ماذا يصنع الصياح والاحتجاج والنقود قد دفعت ووصلت فعلا ! .

ويريد بعض الكرماء ان يجعل لى دورا ايجابيا فى الموضــوع . فيقترح توزيع الواجبات قائلا : انه اذا حضر ضيف فعلى انا ان أصــفق للجرسون واعزم على الضيف واطــلب له الطلب . ولــكن دفع الحســاب ليس من اختصاصى . ويوافق الحاضرون بالاجماع .

وقد سار الأمر وفقا لهذه القاعدة . الى ان اتسع تطبيقها . فصار أحيانا يشملنى انا ايضا مع الضيف . وخاصة اذا كان الضيف ضــيفى . فمن يتولى الدفع يشبكنى معه فى الحساب . وانا بالطبع أحتج اولا من النــاس وزميل فى القضاء من اقدم الأصدقاء . اتضح بعد لحظــة أنه يقطن المنزل المجاور للقهوة التى نحن فيها فأفتى صديق من الحاضرين . كان قديمــا مستشارا بالنقض من أساطين القانون . أنه ما دامت القهوة فى جوار منزل الضيف الصديق . فهى اذن تعتبر ملحقا تابعا لمنزله . وفى هذه الحالة نكون كلنا فى ضيافته ، اى انه هو المختص بدفع طلباتنا . . !

وقبل الصديق الكريم الوزير السابق : ابراهيم فرج باشا صــاحب المنزل المجــاور هذه الفتــوى عن طيب خــاطر . واصر فعــلا على ان يتــولى هو دائما دفع طلباتنــا جميعــا . وواظب على ذلك . واستعلم المستشار المفتى عن تاريخ اقامة صاحب المنزل بمنزله المجاور لنا ، فلما علم انه كان يقيم فيه بجوارنا منذ اعوام طويلة دون ان ندرى . اصدر فتوى تكميلية بأن ضيافتنا له تمتد بأثر رجعى . اى ان الأعوام السابقة كلها يجب ان تدخل فى الحساب . فصحنا كلنا . والحق يقال . اننا زدناها حبتين . . !!

هكذا نمضى الصيف بعد ان راح الصبا والشباب . . شيوخ متقــاعدون ، ماذا نستطيع ان نفعل ؟

ليس فينا من يزاول السباحة التى كان يزاولها . خوفا على مفاصله من الروماتيزم .

وليس فينا من يحب لعب الطاولة او الشطرنج .

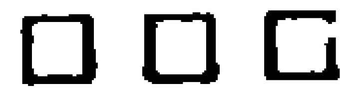
كل ما في الامكان هو السير على الاقدام بطول الكورنيش ساعة او بعض ساعة ، نستنشق بملء الرئتين هواء البحر المنعش . ونتأمل مراكب الصيادين المتهيئة لصيد السمك المياس . فهذا موسمه . واقف انا غالبا في سيري ، ارقب اولئك الذين يصيدون بالصنارة البوص . وافرح مثلهم ولهم اذا اخرجوا سمكة تلمع كقطعة فضة في ضوء الشمس .

وانا في الصيف ملازم للشمس . اتمشى في ضوئها صباحا . اما في العصر والمغرب ، فأنا معتكف دائما في بيتي . لا اخرج الا نادرا وللضرورة القصوى . وامضى آخر النهار دائما في شرفتي المطلة على البحر . اتناول فنجانا من الشاي ، وارقب غروب الشمس وهي تتهيأ للغطس في الماء . واحملق فيها باصرار واستمرار وقد زال وهجها وضررها لاتابع مراحل نزولها البحر . ذلك انها احيانا تغافلنا او نغفل نحن عنها لحظه . فاذا هي قد اختفت ولم يبد منها غير احمرار على وجه الافق .

وهذا توقف الآن او كاد !!

اذ اصبحت حركتي شبه معدومة .. ونزهتي شبه مرقومة .. معدودة !!

ان منظر الغروب جميل .. ولكنه حزين .. فابتلاع البحر للشمس يذكرنا بابتلاع الأبدية لأعمارنا .. هذا ما احسه الآن مع بعض لحظات العمر الذى طال بى .



العصا لمن عصى ؟

□■□ .. ولأعد الى : توفيق الحكيم .. ايضا عند شاطىء بحر . عند الأزرق .

ربما الى ذات جلستنا عند شرفة المقهى — المتواضع البنـــاء عنـــد شاطىء « زيزينيا » بالاسكندرية — ان الحكيم هادىء البـــال . سعيد . انه يحس بأن لا حساب هناك . انه غير مطالب هنا بشىء .. ولهذا اجده يصفق بحرارة من ضمن أن مليما واحدا سوف لا يخرج من جيبه — طالمـــ أن من سيدفع — وهو الباشا ابراهيم فرج — جالس فى ركن ذات المقهى لا يهم أن بعدت جلسته او قربت . علما بأن فنجان الحكيم ذاته مجانى طوال حياته .. اذا ما هو جلس الى ذلك المحل .. لأن صاحبه اليونانى التركى كتب « فرمانا » اهداه اليه بهذا المعنى تقديرا لشخصه الذى يجلب الزبائن ليجالسوه أو يروه — فضولا عن قرب .. ومما قال فى كلمات ســـــطوره — الفرمانية — ان ذلك تقديرا منه لأدبه الذى لا يتابعه بقدر ما يحس بأن صاحبه رجل مشهور يشار اليه ببنان من جاء يأكل سمكا — مشـــويا او مقليا — اشتهر به المحل أيام زمان . ويبدو ان هذا اليونانى الناصـــح قد فطن الى ما قد يأتى به بعض الزبائن يتسلون به ولا يطلبون شيئا .. وكأنهم — مع الانتظار — على موعد غرامى مما يؤجل قدوم الجرسون . ذلك انه قد وضع لافتة صغيرة ، فوق ذات المقعد الذى تعود اديبنا الحكيم ان يجلس

عليه صباح وضحى ايام الصيف ، من كل عام اذا ما راح الى الاسكندرية .. والحكيم فرح سعيد وهو يشير الى كلمات اللافتة بظهر اصبعه متجهـا به الى الخلف والى اعلى : مكتوب عليها : [المرجو : ممنوع قزقزة اللب ورميه حفاظا على نظافه المحل] .. ثم كلمة « الادارة » مكان : التوقيع .. !

يقراها الحكيم من ذاكرته وكأنه قد صمها صما بعد ان حفظهـا عن ظهر قلب . وكأنه يرمى الى بعيد بتهمة عنها هو غريب ! .

اروح واجىء معه الى : البخل والبخلاء ! وعن (عصاه) بالذات وقـد انحنت يدها من كثرة ما انكأ عليها وصاحبه صامتة الى مصيرها وكأن قوة سحرية تجعلها تقترب لتلتصق به ليل نهار . طالمـا هو خارج بيته .

يمد الحكيم اصابع كفه اليمنى — مفتوحا — ليوازى ويسوى بها شاربه عدة مرات . بينما اصابع يسراه اخذت تدفع يد عصاه . الى امام ثم الى وسط ، وكأنها « فرملة » سيارة .. !

.... — آه العصاية دى .. دى خامس عصاية وصلتنى . دى نمرة ٥ كلها تقدر تقول كده .. انها هدايا فيما عدا الأولى اللى هى دى فى ايدى . اولا انا لم احمل عصا الا من سنة ٢٩ يعنى من ٦٠ سنة . ايوه انا فاكر اشتريتها ازاى ودفعت فيها كام ؟

ثم أخذ الحكيم يسرح الى بعيد وبعيد ثم يسحب أنامله مفرودة تقريبا ماسحا مساويا شاربه من جديد مغطيا شفتيه الغليظتين . بعض الوقت وكانه يتذكر .

... — آه من بائع متجول . كنت ايامها وكيل نيابة فى طنطا . قاعدا على رصيف قهوة « الاقصر » هناك . فات البائع حاملا اكتر من ١٥ أو ١٦ عصا فى يده وتحت ابطه . لم يشدنى نداءه بقدر ما جذبتنى هيئه او شكل عصا منها — لونها . سمكها . الله اعلم .. ! لكنى وجدت نفسى متعلقـا بها . وبعد مساومات طويلة معه .. لانزال ثمن العصا الى ٢٠ قرشـا ، أصر على ٢٢ قرشا . رفضت .

وذهبت تمشيت ونسيت الحكاية . ودخلت البيت وقرات او كنت مش فاكر . لكن عجبى انى حلمت ليلتها بها .. بأنى اشتريت هـذه العصـا بالذات .. وصحوت على ذلك التعلق الشديد . اشمعنى دى بالذات ؟ حاجة غريبة مش كده ؟ . اسرعت فى الصباح التالى الباكر لا الى المحكمـة ولكن الى المقهى .. لعل بائع العصى يخطىء ويقدم موعد حضوره .. وحتى لا تحلو هذه العصا بالذات فى نظر من يسبق ويشتريها فاكون قد فقـدت شيئا قد التفت له وبه . وتأخر . لا انه لم يتأخر . وانما جاء فى ميعـاده ولكنه تأخر عن امنيتى فى ان يحضر مبكرا وتعجب الرجل عندما وجدنى اكاد اهجم عليه . واطمأن لمـا امسكت بالعصا لا بتلابيبه . ابتسم بعد ان جزع . خاصة انه استرد تفكيره التجارى وابعد ما تخيله ثانية فى انى الوكيل نيابة .. الذى

يريد القبض عليه . وما صدق انى نطقت باسم العصا .. لا بالتهمة .. اى تهمة . حد عارف ؟ .

وأخرجت له (الريال) واخذت اعد له فوقه « قرش ثم قرش » .. !

اندهش البائع لهذا المهاود الذى كان بالأمس مناوشا مفاصلا ؟

بقيت العصا معى ورأت ما شاهدته وما انتقلت اليه سفرا او اقامة . لم اهش بها احدا ولا حتى كلبا . وانما اذا سألتنى عن سر هـذا التعلق والتمسك . فجوابى .. هو « الالفة » . « المصاحبة » . و « العشرة » . وأنت تعرف أنى اذا صادقت انسانا أو ربما شيئا او مكانا فأنا له على طول . مش كده ! أهو انت عارف .

حضر صديقى يحيى من بعيد — بعد أن احس بألفة حديثنا — وجلس .. الى جانب الباشا — طبعا — لانه هو الذى سيدفع آخر الأمر !

ويتابع الحكيم كلامه الذى انقطع للتحية والسؤال عن الغيبة ؟

... — أكمل لك حكاية العصا . ايوه احنا كنا فين .. ؟ آه .. حكاية « الصداقة » التى تربطنى وفيا حتى مع جماد . ربما يتحـرك معى ولكنه لا ينطق : هل يتكلم الخشب ؟

... — ساعات تصدر عنه — عن الخشب او حتى عن قشرة الخشب — واسمع منه بالأخبـار والأحداث والحكمـة والأغانى والروايه والاحاديث المعقولة والتـافهة .. اعنى اذا احتوى الخشب جهاز راديو . او عكس صورا مرئية فتحدث اذا حبس داخله اسلاك دقيقة متشابكة جدا ولمبـات خاصة واعتلاه « اريال » اعنى : التليفزيون .. أو طبق الخشب رفيعا من حول فراغ .. وهناك عازف تهمس انامله اليه .. مثل الكمان : التشيللو . الفولنسيل . البيانو !! .

اننا لا نسمع للخشب صوتا الا اذا نفخت فيه ارادة الانسـان بتوجيه او وحى من خالقه . ليعزف من ثقوب بوص او خشب النـاى والأرغول والمزمار . أو عندما تهب الطبيعة ليموج صوتا كلما احتك بالرياح قد تمـايل فروع الشجر أو تزلزل الأرض وتنشق فيهوى متكسرا متأججا . او كلمـا نقره طائر جارح .. او حولته النار الى الأحمر . الى حريق . تتراقص عليه ألسنة اللهيب . وما يلبث ان يصبح هشيما ورمادا ! الا تستمع لحظتها الى « قرقعة » ثم الى صمت ؟ .

الحكيم — لا .. انى اعنى الخشب . عروق السقف . الأرضية . جذوع الشجر ، لا بعض الناس التى تبدو كالواح .. الخشب !!

وتضاحكنا .

الحكيم — ان عصاتى — الاولى .. حصلت لها عمليات جراحية كثيرة . اعنى عمليات ترميم . تنشال (عقلة) واصلحها . تنزع (عقلة) ثانية « بعد

سنتين ثلاثة » وبعدين نرقعها بعقلة ثانية . من الخيزران . أيوه . ونطليها من جديد حتى تكتسب لونا واحدا .. الا انى لاحظت مع تجدد وضع (العقل) أن العصا الأولى المرممة اصبحت تهتز ، بعد أن تآكل الأصل تماما . وكادت تذوب نهائيا . أحلتها على المعاش وأنا فى حسرة عليها ! انها عصا العمر ، لازمت نصف شبابى الثانى ٣٠ سنة . أحلتها من غير مكافأة ولا فلوس آخر الشهر ولا فلوس أو قروش ادفعها لمن يرممها . كفاية ! .

... ـــ وانت بتحكى عنها . اتخيل : عصا أخرى مشهورة جدا . عصا الساخر : شارلى شابلن ، الذى تمسك بها فى ٩٩٪ من أفلامه خاصة أيام السينما الصامتة . كان يهزها فى يده ويديرها فى حركة دائرية كلما اراد ان يخرج من مازق .. لا يفعل شيئا . الا ان يلف عصاه الخيزران الرفيعة ويده الاخرى فى جيب سرواله الواسع المهدل .. وكأن الأمر لا يهمه حتى يخرج مما هو فيه ! ذلك قبل ان تصيبه قشرة موز . لا يراها وهو ساهم ، ما أن يمسها نعل حذائه .. حتى يتزحلق . ينبطح ظهرا . بين الاسى والضحك لجمهور نظارة السينما .

واتابع تعليقى على : الحكيم . اقول له :

... ـــ غريبة حكاية نوارد أو تداعى المعانى اذا ما تحولت الى صور ، قد تكون فيها المفارقة واضحة تدعو الى العجب .. ولكنى أتذكر الآن حرص المايسترو .. قائد اى فرقه للموسيقى .. على عصاه السحرية .. يحملها فى اكتناز واعتزاز وكأنها ثروته كلها .. اذا ما ضاعت ضاع .. بينما هى فرع رفيع من خشب هذبه الصانع فصبح فى خف الريشة !! ولكنه تعود الانسان على الشيء كما قلت وأفصحت . نعم انها المصاحبة . كل منا .. من الناس اعنى : مهما اختلفت مشاربهم . جنسياتهم . أعمارهم . لغاتهم. ثقافاتهم أو جهلهم . والثقافات متنوعة ولكن الجهل واحد . ان كل واحد منا ومن غيرنا يالف دون أن يشعر الى جانب من جسده يميل اليه ويستريح نائما أم جالسا . فاذا قبع وجلس فى بيته فانه أغلب الأمر يستريح الى مقعد بالذات فى ركن او زاوية بالذات . سواء فى صالون شقته أو حجرة طعامه .. أو عند ناحية معينة من دائرة الطابلية الخشب اذا كان من ريفنا الاخضر . أو على زاوية معينة فوق الحصيرة .. أو تحت ناحية معينة عند جذع شجرة لو كان فقيرا معدما . لا يجد الا ظلال الأرض مسكنا وضوء شمس النهار نورا .. ولمعة النجوم كالقناديل ضوءا . عندما يأتى ويهل المساء ! .

اننا عبيد نتحرك يحيط بنا قيد. قد يختلف حجم القيد .ربما هو رباط مقدس من معدن لامع أو ذهب . يلتف حول اصبع العروسين . اهو قيد الوفاء ؟ أو ربما هو قيد حجرة .. هي زنزانة . أو بيت .. جدرانه . اسواره . اليس للدنيا ذاتها بداية ونهاية ؟ الا تبدأ بصرخة أو شهادة ميلاد ثم تنتهى بصرخة او صراخ بعد شهقة الموت . ثم شهادة دفن ! ؟ .

ومع ذلك فهناك حرية ـــ لا ترى ـــ داخل هذا القيد . مثل حرية الفكر داخل جمجمة أى منا . حرية أن ينام أو يتحرك ضمير أى فينا حسب اخلاقياته ومبادئه ونسبة الشر والاجرام فيه أو الخير والفضيلة التى نمت. صحت أو ماتت . ومع ذلك فاننا نتصور اننا نتحرك على الجنب الذى

يعجبنا فى عالم يقيدنا . نتحرك بحيث لا نقيد حركة الآخـــرين ممن نحب ونحترم داخل نطاق ما نملك بحيث لا نضر احدا ، والا كانت حركتنا ضـــد الغير : تسلطا واغتصابا وجورا وعداء .

واخرج من كل هذا بفلسفة واحدة .. اننا كلنا فئران فى مصيدة : لها أسلاك أو قضبان او جدران أو اشجار ووديان وجبـــال او حدود وبحار او محيطات وحتى الفضــــاء تحته وهاد ارض أو أمواج ماء ولكن من فوقه تطبق او تعلو سماء . مصيدة المكان . مصـيدة الرغبة . مهما تضـــاءل حجمنا أو كبر . مهما عمرنا أو انتصف عمرنا بدرى . كلنا عبيد ما نألف . الحب مثلا . الكراهية .. لمـــاذا نأكل ٣ مرات فى اليوم فقط ؟ لا خمســـا ولا سبعا . لأننا تعودنا وانتظمت احشاؤنا بعد ان تدربت والفت .. لمـــاذا يكتب أغلبنا بيده اليمنى . لأن موجهينا سواء الاهل أو المعلمين والمعلمات . وجهونا ثم قسى اغلبهم فى توجيهه ، زعيقا او ايلاما وضربا .. حتى نقلع عن عادة لم يتعودها المدرس ذاته أو الوالدان او الأخوة الكبار .. « ايوه اكتب دائما باليد اللى بتأكل بها » .. « ايوه باليمين يا ... » اليست هذه كلمة نطق بها اكثرهم تحت سقف اى بيت فى الحضر . أو كوخ فـــلاح فى الريف ، او داخل نسيج خيمة بدو على ربا الصحراء .. لحظة ما ؟ .

الحكيم : نعم انا معك . هى : المعاشرة . العشرة .. « الانتيمتيه » . اللى نطلق عليها تعبير .. (العادة) ، رغم بعده عن (الالفة) . الواحد بيألف الأول .. شىء ثم يعتاد عليه . مثل السجائر . الشاى . القهوة .. الحاجات دى اللى بتكلف الواحد فلوس . وضرر كمان .. لما يكتر منها .. والا أيه .. ؟ انا شايف كده ، والا ايه رايك انت ؟ .

... — لا .. انا لســـه سارح فى حكاية العصا .. صورها بتتداعى بتتابع بشكل عجيب على مخيلتى الآن . ربما زرقة البحر هى اللى هيأت لى لحظة الانفتاح . اعنى مسرح الأفق العريض امامنا :

ياه .. ياما جرينا من عصى العساكر زمان .. وهى بتفرق المظاهرات. مش كده ، وياما .. تتبعت مع زملائى تلامذة المدرسة الابتدائى ثم الثانوى. عصا مدرس الجغرافيا ، فى حرص وهو يشير الى تضاريس بلاد الله على الخريطة الكبيرة المعلقة ، محددا بنهاية المؤشر الخشبى مكان عاصمة كل بلد . كنت اتمنى أن يسرع عمرى لحظتها .. لاكبر . لاسافر لأخطو فوق وديانها وأتسلق جبالها .. وامشى فى ميادين وطرق هذه العواصم . ولم اكن اتنبه فى قليل أو كثير من تفاصيل الدرس .. لتفاصيل الرياح التجارية الشمالية الغربية او الشرقية التى تهب فى مواسم معينة .. ولا بما تزرعه من نباتات « الشوفان » الذى لم افهمـــه او أعرفه .. الا بعـــد ان زرت تشيكوسلوفاكيا اول مرة وعرفت انهم يخمرونه ليصنعوا منه : « البيرة » !

ثم العصا الطويلة .. التى تعود القسيس أو المطران ان يمسكها تحت مقبض نهايتها . كانت فى مثل طول قامته واحيانا اطول منه ، ولمـــا سالت أبى لماذا هى تختلف طولا عن مثيلاتها ؟ او عن عصـــاه الانيقة التى تنتهى

بمقبض مكور من عاج ؟ قال لى والدى — وكان خفيف الظل دائما حكيما فى توجيهه لى مثل والدتى : الم تر عصا الراعى ؟ انها رمز للراعى والرعية .

واتوقف عن الكلام بعد ان احسست انى قد جعلت الحكيم يسرح معى أيضا فى صمت . وكان لابد من ان احول موضوع الكلام بعيدا عن فلسفة الزمان الى البسمة . قلت له : على كل حال . انى أتخيل الآن العصا القصيرة جدا التى يطرق بها « الحاوى » الساحر على اناء صغير من معدن ليخرج من فراغه كتكوتا ، يصيح ويقفز . لم يكن فيه منذ هنيهة ؟ !

ولكنى تذكرت فجأة انى لم اقل له عن .. ما كان يجذبنى طفلا صغيرا لتلك العصا المشوقة الطويلة جدا ذات النهاية الفضية اللامعة التى كان يلوح ويقفز بها فى الهواء ، قائد فرقة البوليس الموسيقية الرسمية . كلما كان هناك طابور صباح واستبدال الفرقة المناوبة لشرطة مدينة المحلة الكبرى التى قضيت فيها وقت تلمذة طفولتى لاحصل على الابتدائية وقضى بها الحكيم مطلع شبابه الوظيفى مساعدا لوكيل النائب العام !!

ان الأشياء تتحرك . ولكن هناك من يحركها ويحرك من يحركها !

ان تكرار ذات الفعل فى جملتى السابقة يعكس فكرنى .. اننا اقل من شيء ميكروسكوبى من نقطة فى محيطات الكون التى لا تحدها شواطيء ما ولا أغوار — ما بعدها أعماق واغوار . اننا جزء لا يرى من الواحد الأوحد.

ابتسمت حتى ابدد الجدية لأقول للحكيم فجأة : امسك « الخشب » الذى بدأنا به حكايتنا ومناقشتنا من وحى العصا . عصاك ؟

ان القلم الذى نحيط به اناملى — صحيح ان غلافه من خشب — لم يعود ان يكتب من تلقاء نفسه سحريا . ان فكرا يوجه ذراعى التى نحرك بارادة من العقل أناملى .. التى تنقل على ورق ما جال وصال خلال مشاعرى او ما يفكر فيه مخى !! فاذا كان المخ مليان فالكلام له معنى . واذا كان معينه قد نضب . فسيصبح المسطور كلاما فارغا . كلاما لا معنى له !! او شوشرة ذهنية !!

ان عصاك لا مشيئة لها ان تتحرك من مكانها فى بيتك الا لانها صاحبتك. انت الذى تحركها . وخادم البيت هو الذى يحرك يد المكنسة ليكنس وينظف . ان السحر والجان ، تجدهما فقط فى الأساطير ، أو فى حين مخرجى السينما . هل رأيت قاربا من خشب لا يحركه تيار أو هواء أو مجداف . ولكن من الذى يمسك بالمجداف . ان الانسان والطبيعة هما مصدر الحركة. وهناك خالق الانسان والطبيعة يحركهما . اننا جزء من دائرة لا بداية لها ولا نهاية . انها موجودة بعدنا وكائنة بعد اختفائنا عن مسرح الحياة الى الأبد الذى يريده الله .

هل تفكر فى تلك الكتل الخشبية التى تتعارض مع خطوط السكة الحديد ؟ وتمسك بها حتى لا تهرب من توازيها وتوازنها اذا ما ضغطت عليها سرعة

عربات القطار .. وانت — على سفر — لا تدرى ما تحتك او تفكر الا فى حديث مع صديق . او حوار مع شقراء او سمراء .. لعلك تجد بداية لحكاية طويلة تتمنى أن تدوم بعد المشوار .. أو تقرا شيئا او تنام لتحلم او تبتعد عن الواقع ! كله جائز .

ثم هناك حكاية ثانية حول : الخشب.. زمان فى اساطير الكهنوت المصرى العتيق عندما تخيلوا الخلق والخالق : (التاسوع) ومن تفاصيلها تحول [اوزير] اله الخير والخصب والحياة .. الى خشب . الي جذع شجرة فوق ربا شاطىء بيبلوس فى لبنان القديم . اعجبت به الأميرة ابنة الحاكم. نصحت أباها ان يصنع منه فنانوه العمود الناقص فى قاعة اعمدة القصر . وقد كان . أحست ايزيس بمالها من خاصية السحر . الم يجعل منها اجدادنا ويختارونها ربة للسحر ورمزا عليه . اسرت بجناحيها الى هناك . مالبثت أن توددت للأميرة . دخلت القصر . وفى الليل انتزعت العمود : زوجته الوفية ربة الوفاء : [ايزيس] — وعادت به فوق الأمواج الى أن وصلت دلتا النيل — بكته واحتضنته فدب فى لحاء الشجر .. نبض الحياة وبعث [أوزير] من جديد .

ولكن الأجداد .. عرفوا ان مثل هذه المعجزات من صنع السماء فقط . ومن جديد يعاود توفيق الحكيم سرحته .. كأنه عائد من اللامنظور : وبعدين أنا شايف أن كل ده كلام عقل وحوار معقول .

احاول أن اغير جدية الموضوع الى ما نبتسم عنده وننتقل الى جدول اعمال الحاضرين بعد أن تكاثروا واصبح عددهم اكثر من ١٨ صديق فكر . ومن عجب أن لا أرى فيهم صديقة واحدة . ولا حواء .. الا تخيل وسرحة الجالسين واغلبهم تخطى مع العمر سنوات الربيع وازدهر الرأس واينع ببياض الحكمة شعرا او صلعا . انهم يتخيلون وما احلى التخيل والتصور — فى مثل هذه السنوات المرتعشة — وكلام يحكى ومغامرات تقال من وهم الخيال . ان كل واحد منهم يمنى النفس بوهم لو تحقق . ولكن اين هى ؟ انهم يريدونها .. ولو عروس البحر . مجرد معجزة !

الحكيم : انا لست نادما على ما سمعت .

... — ان ثالثنا لا يسمعنا .. مع انها [مؤنث] وغريبة انها تشترك معنا فى الحديث بالصمت لكنها جعلتنا طوال جلستنا نتحدث عنها .
الحكيم .. فى لهفة : اين هى ؟

قلت له ضاحكا .. انى لم أصدق ولو لحظة انك عدو المراة .. بل انت صديق لها تبحث عنها ولكن فى ثقل واتزان رجل قوى . قادر . وسيم . ومع ذلك فاتنا اهل الادب نتخيل اكثر من واقعنا . ان حواءنا الآن ما هى الا : عصاك . لنا ان نشكرها .. على الاقل لانها هى آخر الأمر قد اعطتك مظهرا وعنوانا ومالا . مع حمارك الوهمى . فلا أحد يجهل عصا الحكيم ولا حماره .. ! والا فالعصا لمن عصى .. ! ؟

لقد اعطتك العصا : او تلك التى اسميتها : [ابنـــة من خشب] كتابا جعلت عنوانه « عصا الحكيم » ! جمعت فيها ٧٦ مقالا نشرتها على مدى ٧٦ اسبوعا خلال ٦ سنوات من عمرك . اليست هى التى اعطتك الجراة فى ان تقول هى على لسانها ما تريد انت على لسانك فاكسبت جيبك مالا . ونطقت على الورق حكمة وروية وجلالا .

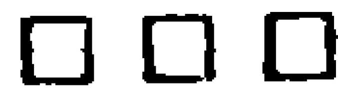
ثم الم تستغل طيبة حمارك وجعلته وهو الكائن الطيب حمال الاسية .. ان يكون وحى كتابين من كتبك واعمالك اولهما ما جعلت عنوانه : " حمارى قال لى " اما الثانى فاخذت له عنوانا من كلمتين : " حمار الحكيم " . وهو الحمار الذى قلت لى ان اهلك قد دفعوا فيه ثمنا لا يزيد عن سعر العصا عندما كان جحشا صغيرا بريئا . فلم يتعد ثمنه ٣٠ قرشا .. اى كان ثمنه ازيد بثمانية قروش فقط عن عصاك .. التى الهبت ظهر خيالك وراءه !!

على فكرة كيف حصلت على العصى الاربع بعد عصاك الاولى ؟

الحكيم : واحدة من الاتحاد السوفيتى اهداها لى : يوسف السباعى . والثانية من الصين اعطاها لى : يحيى حقى . والثالثة كلها ابنوس اسود جاءنى بها : يوسف ادريس . اما الرابعة .. فهى عصا افريقيه مقبضها من الجلد الفاخر . اهدانى اياها : احمد بهجت .. انى ارى الدهشـــة تبدو عليك الآن . لا لم اخطىء فى الحساب . ان عصانى الاولى .. يهىء لى انها عصا اوزير .. انها قد بعثت من جديد كما تراها الآن بين يدى .

لحظتها نظرت الى عصا الحكيم من جديد .. فوجدتها هرمة تتكأ وتستند الى يد : توفيق الحكيم .

لقد الفته . صاحبته . عاشرته . حتى اصبحت قطعه حيه آدمية منه !! وان كانت تهتز احيانا فى يده .. فانما عجبا لكل هذا الوفاء .. لا ندرى اهو منها ام منك ؟ واغلب الامر لانك حريص عليها كل الحرص . لانهـــا اصبحت بعضا من هيئتك . ملامحك . انيستك التى كتب الله لها ان تظل صامتة تسمع وترى ولكنها لا تتحدث ولا تروى ولا تخون .. لانها فى رايى ليست انسانا فيه ضعف البشر . ولكنها من خشب فيهـــا صلابه وطاعة واصـــالة .



الأناقة بهدلة !

□■□ .. « كل ما يعجبك ، والبس ما يعجب الناس » ! .

حكمة شعبية مرفوضة من اغلب الفنانين والأدباء الذين رايتهم وقابلتهم وتحدثت معهم او تعايشت .. ان أغلبهم حر بالطبع فى ان ياكل ما يريده اذا ما وجد مالا يشترى به ما يستطعمه . واكثرهم يرتدى ما يريده مزاجـــه لا مزاج الغير من شكل وهندام ولون يحس به . ولا يهمه فى قليل او كثير رأى أحد من الناس .

هكذا رايت من بيكاسو والمثال العالمى البريطانى : هنرى موور . حتى فناننا الكبير سيف وانلى .. وهكذا قابلت كاتب أمريكا الأول القصـــاص المليونير : ارنست هيمنجواى : عندما دعانى على الغداء فى مطعم متواضع يطل على رقرقة مياه القنال الكبير (جراند كانالى) فى قلب المدينة العائمة الساحرة فينتسيا — **والجندول السابع امامنا كانه يتيه فى خيلاء** — . كان البحار الذى عبر بنا المياه (اشيك) منه واكثر اناقة . على الأقل كانت الوان ملابس ذلك العامل البحرى منسجمة مع بعضها .. بينما كانت ذقن الكاتب العالمى تطل مبعثرة من تحت شعر راسه الذى غاب عنه الحلاق شهورا .. من فوق فانلة صوف رخيصة تغطى من نصف عنقه حتى نصـــف ســـاقيه ثم سروال مهرول اشبه بمنظر الصـــعلوك عندما يمثله شـــارلى شابلن فى السينما . ولكن فى الوان متنافرة .

هيمنجواى العظيم : عندما استراح بعد الغداء مادا ساقيه . رأيت (لوزة) تفترش رقعة محفورة فى نعل فردة من حذائه .

لا احد يهمه منظر ما يراه من غضون الغير . المهم ان يكون مستريحا عندما يمشى ويتحرك . ما الذى يهمنى لو كان العالم فسيحا جدا جدا وحذائى ضيقا جدا جدا ! .

وانما يهم الواحد فيهم ومنهم ما يحتويه عقله اولا . وما يطرحه من افكار وخيال واسلوب معبر ينفرد به ولا يقلد به احدا .

وهكذا قابلت كاتب أوروبا الكبير الايطالى الذى تجرى فى عروقه بعض دماء قبيلة من (غجر) اليوجوسلاف : البرتو مورافيا .. قلت لنفسى عندما دعانى الى شقته المطلة على طريق متفرع من ميدان الشعب (بلاتزا ديللا بوبولو) فى عبق روما العتيقة واكثر من ١٧ قطة سيامية تقفز من حولنا لا فى دلال ولكن فى مسح الجائع . من حوله . وهو يحاول ان ينهى على آلته الكاتبة صفحة كاد ينتهى من سطورها بعد ما استأذن ليكملها حتى لا تتبخر كلماتها من راسه . وعلى قدر البوهيمية التى بدت حول مظهر ما يرتدى . ورخص ما يلبس . وبساطة هندامه من قميص وبنطلون يكاد يكون « مرقع » الخلفيه .. الا ان نظاما ظهر فى ترتيبه لأوراقه الى جانب آلته . وربما يتشابه فى هذا مع اديبنا الحكيم .. الذى لا يطيق ورقة بلا معنى فوق زجاج بلور مكتبه . ان الحكيم حسب ما رايته مرارا ويوميا تقريبا — منظم جدا — لا ترى فوق مكتبه الا اللمعة والنظافة .. **انه متعود ان لا يضع شيئا اللهم الا « حمارا » صغيرا ، تمثالا صغيرا من نحاس فى حجم الكف يخرجه من درجه ، ويضعه حتى يتم التقاط صورة فوتوجرافية ساخرة ! ثم يعيده فورا الى الدرج ويحرص لحظتها على اغلاقه . وهكذا يفعل مع كل ورقة تاتى اليه او خطاب له معنى او قيمة عنده .** أما اذا كانت هناك حوالة بريد أو شيك مصرفى . فانه يعنى ان يطبقه فورا ويخرج محفظته وفى منتهى الحرص . تبتلعه . فى صمت وأمان . لتضعها أصابعه من جديد بعد أن ابتلعت غذاءها الثمين . داخل جيب سترته السحرى العجيب . ثم تشرق الشمس دفئا ووضوحا من البشر ومنتهى السعادة على ملامح وجهه وأنامله تعاود مسح شاربه وشفتيه أو تمر عليهما مر الكرام وكأنها تأمرهما بالصمت عن الكلام المباح فى فضح سر رقم المال الحلال المرصود . اذ ان هذا اصبح من الاسرار . وفى منتهى السعادة الملحوظة الصامتة يظل الحكيم حتى يترك مكتبه الى عصاه ثم الى الردهة فالمصعد الذى يهبط به الى الطريق ثم مشوار حتى البيت .

لم أقابل اينشتين . ولكن اخى د. رجائى الملاخ كان صديقا له رغم فارق السن الكبير . وكان الاثنان يحاضران فى جامعة هارفارد . وما اشد دهشة اخى ان رأى ذلك العالم العظيم ذات مساء وهو سارح فى ضوء القمر يتمشى بين اشجار حديقة مسكن اساتذة الجامعة يدوس على أوراق الشجر الجافة المتساقطة مع الرياح . والى هنا والخبر عادى ، فالمشى بعد العشاء المبكر : صحة .. واى صحة . ولكن الذى رآه وتعجب له ان : اينشتين كان قد نسى وارتدى سترة بذلته المهرولة العادية على بنطلون

« البيجاما » — بينما ارتدى فى قدميه حذاءه الجلدى دون جورب . وكانت الدنيا برد صقيع وخريف ؟ !

واحد فقط صادفنى من أهل الفن المرسوم وقابلته أكثر من مرة ودعانى. وكان له فى كل مرة لون وبريق . وكان مزخرف الرداء اشبه بالسجادةالعجمى الزاهية اللامعة . صديرى يلتف حول صدره بألوان الفضة — منقوش — وحذاء بلون الذهب . وثياب فى منتهى الأناقة .. موضـة التفصيل الذى يختارها هو لنفسه .. فيبدو وكأن عليه ثلاثة كيلو من (النشا) مكوى كيا. وجيها ولكن فى منتهى المسخرة . كأنه ساحر من عالم غريب مرسوم الهيئة قادم من عالم « أووز » . ولا أتوه بك بعيدا فانك بالقطع احسست أنى أعنى به الفنان الأسبانى الأصـل العـالمى : سلفادور دالى .. شاربه مبروم الطرفين مرفوع النهاية كمن ينتظر أن يطير اليه صقران ليحطا على كل طرف مبروم مرتفع منصوب منهما !! وقفاز يحيط بكل اصبع فى يده واذا ما خلع قفازيه .. فان الخواتم البراقة تبدو وهى تحيط ملتفة بأصابعه ، تماما مثل الصورة التى أتخيلهـا عن الروائى الانجليزى النـاعم : تشارلس ديكنز (٥٧ سنة) .. وهو يرتدى أزياءه (المحزقة) المنمقة الحريرية والمخملية .. قرمزية حمراء .. أو قطيفة خضراء .. وخواتم من ذهب والمـاس تبرق وتلمع ، كلما مد يده الى جيب سترته يخرج منه مشطا يداعب به شـعره الناعم المهدل على الجانبين .. ويسويه كأى حواء مرموقة النظرات . وما أن ينتهى من كل هذا العبث . حتى يمد اصبعين الى سلسلة ذهبية معلقة على صدره ، ويدير ويلف أحد طرفيها فى الهواء .. وكأنه يرسم دوائر فى وجوه الحاضرين والحاضرات !! .

على كل حال ليست الغرابة فقط كانت حول هندامه ، ولكن فى تصرفاته ايضا . اذ تعود أحيانا ان لا يدخل بيوت اصحابه من أبوابها . ولكن من نوافذها !! .

غريب شاذ ولكنه كان أنيقا .

ومن عجب أنه ترك اكثر من نصف مليون جنيه بعد وفاته مكتنزة ، بعد ان كان مطالبا طوال حياته بسد احتياجات أفراد عائلته . اذن كان بخيلا .. وهذا جديد على سيرته .

ولأعد الى الهندام والأزياء والأناقة التى لا يحرص عليها الفنـان الحق اغلب الأمر . . وأعود الى الوراء ٣٠ سنة عندما كنا نمر ببعض لحظـات مداعبة وشقاوة مع شاعرنا الباسم : كامل الشناوى . وكان كثير المناوشة والمقالب لنا . هكذا كان يرى الدنيا اما ان يلعب بها أو تلعب به . وما كان اكثر ارتعابه وخوفه لو اردت أن آخذ بثارى . انتقم . واحضر له وفى مكتبه المجاور فى « أخبار اليوم » أيام كنا نعمل فيهـا .. الصديقين .. فنانى الاسكندرية العبقريين الأخوين : سيف وادهم وانلى . وقد تعودا أن يطلقا نفسيهما على سجيتهما ملبسا وشعرا . وكان يحبهما ويقدر فنهما .. حبا

وتقديرا جما ولكنه كان يخاف منظرهما . بالطبع يقف مرحبا بهما وأنا من ورائهما اقول له .. لقد قالا انهما لا يقدران على ترك القـاهرة من غير تحية لك .. !! وعن اذنك ساعة اغيب فيها لمشوار اعود منـه فأجدهما عندك . أكرمهما حتى اعود !

ولا يغفر كامل الشناوى لى هذا ولكن بعد ان يتركا مكتبه لأعود واجده كيف يصف مظهرهما وانطـلاقة شعورهما الذى كان يخيفه [مش معقول الفن بالشكل ده .] أرد عليه قائلا .. :

امال لو شفت بيتهوفن .. كنت تعمل ازاى .. شعره وعـدم اعتنائه بمظهره ! او لو دخل عليك برنارد شو . بذقنه التى تطول حتى ربع صدره وبذلته التى لا يصادفها الكواء الا كل حين يطول ! ؟ .

. . . .

. . . .

وكم كنت أود ان يتقابل راحلنا كامل الشناوى مع : جان بول سارتر . فيلسوف الوجودية المعاصرة عندما حضر الى بلادنا مع صاحبته سـيمون دى بوفوار . فرغم اناقتها التى كانت تحرص على أن يبـدو بها لامعـه كالفضة براقة الجوارب والفساتين القصيرة جدا الى درجة الميني : على أحدث صيحة رغم تجاعيد سنها وعمرها .. الا أن رداءه كان على خصام دائم مع انسجام اللون او ما اصطلح عليه بعض الوجهاء الدخلاء على الأدب. حريصون على هندام مفتعل وكأنهم ديبلوماسيون فى منتهى حسـن المظهر ورشاقة القوام . وهذا ليس عيبا فى حد ذاته . فهكذا بدا لنا وزير ثقافة فرنسا السابق : آندريه مارلو .. مع صاحبته أيضا .. حتى عندما جاء يزور اطلال مصر الاثرية . ويمشى فوق الرمال ويسير قافزا فوق الحجر .

المهم أن لا يفتعل الفنان او الأديب شيئا . المهم أن يكون المرء نظيفا . نظيف البدن والمخ !!

اما ان يكون طبعه هكذا . أى العناية بنفسه طبع فيه وليس تطبعا . ومظهره بلا تكلف .. أو لا يكون على سجيته فيتكلف وقتا ومالا . أى يصبح مثل المجلة الحلوة الغلاف الفاضية المـادة وسرعان ما نكتشف بضاعتها ويعزف عنها قارئها . او كمن اختار اطارا غاليا للوحة تافهة !

ولا احد يعيب على كتاب عميق الفكر حلو الغلاف أيضا . بعيد عن تنميق الالفاظ وزخرف الكلمات . فما اسهل رصها . لهؤلاء الذين متعهم الله بجزالة السطحية ولا شىء تحت او فوق هذا .

. . . .

. . . .

واذا كنت قد بدأت أولى صفحات كتابى هذا عن : توفيق الحكيم بردائه وعباءته البيضاء التى لفتت نظرى من خلال أول صورة فوتوجرافية رأيتها له فوق بيانو ..

فانى بالقطع لم أره فى مطلع صباه أو شبابه .. أو حتى أيام كان يمضى فترة من عمره فى باريس عندما راح اليها بحجة التبحر فى دراسة القانون والحصول على الدكتوراه بعد أن ابتسم له الحظ ونال الليسانس من مصر.. حيث يصف الحكيم أيامها بأن وجود اسمه بين الحاصلين على ليسانس الحقوق كان اكبر مفاجأة له ؟ وكيف أنه حمد الله عندما وجد اسمه قبل الأخير باسمين عندما طلعت الصحف بأسماء من فاز ونجح !

لم أتتبع توفيق الحكيم ، فى هذه الفترة — غاية وقمة شبابه — الا من صوره شكلا وكتبه ومؤلفاته مضمونا وفكرا واتجاها أدبيا فنيا .. ولكن عن مظهره أعرف الكثير خاصة عندما يسرد بعض أيام حياته . فلا أرى الا اللون الأسود هو زيه المحبب الى نفسه وذاته أيامها . هل لأن مظهر فنان أوروبا سنوات العشرينات كان أغلب الأمر هكذا فى عصر العقلية اللاتينية ؟ ربما .. وان كنت أجد أنه كان حريصا وان [البخل] فيه يتجه به وبذوقه أكثر الى الاقتصاديات . فالبذلة السوداء تصلح لكل المناسبات وان بدت غريبة — دواما — بعض الشىء .

ولكن اليس توفيق الحكيم هو الذى يقول ويكتب فى « زهرة العمر » : عندما يذكر لصديقه آندريه فى واحد من خطاباته : « .. ثم هناك شىء آخر أخالك لم تلتفت اليه وهو طبيعتى التى تميل الى عدم الأخذ بما يأخذ به الناس جميعا من أوضاع ، هربا من الوقوع فى الابتذال ، وشغفا جنونيا بالتمييز والاغراب ، ففى لبسى لا أرتدى كما يرتدى الآخرون ، ولا أدخن لأن التدخين عادة عامة ، وربما دخنت لو انقطع الناس عن التدخين .

لا أهدى الى حبيبتى الأزهار الجميلة ، ولا العطور اللطيفة بل أهدى اليها ببغاء فى قفص . ولا أكتب اليها مباشرة عن الحب ، بل أتبع طرقا لا يتبعها عقلاء الناس .. ! وتسألنى بعد ذلك لماذا أحب « المودرنيزم » ؟ اليس لأنه أقرب الفنون الى الخروج عن المتبع المألوف » ؟ .

......
......

ان توفيق الحكيم يصف نفسه أول لحظة يخطو فيها تحت المطر على أرض باريس : « مطر غزير ، قد الجأ الناس الى المظلات والمشارب والحوانيت ، والى الحيطان وأفاريز البيوت ومداخل المترو ولم يبق فى ميدان « الكوميدى فرانسيز » غير مياه تتدفق من الميازيب ، وسيارات تخوض فى شبه عباب . آدمى واحد ثبت لهذا المطر . وجعل يسير الهوينا . غير حافل بشىء . عيناه الواسعتان تتأملان نافورة الميدان ، وهى زاخرة بالماء . وفمه ذو الشفاه العريضة يلوك شيئا كالبلح ، ويلفظ شيئا كالنواة ، ويده اليمنى كالرسول الأمين — من جيبه الى فمه — يواتيه بالمدد فى غير

انقطاع .. هذا الآدمى فتى نحيل الجسم .. **اسود الثياب على راسه قبعة سوداء عريضة الاطار ، فى قمتها فجوة غائرة ، كطبق الحساء ، قد امتلأ بماء المطـــر !**

ويستمر توفيق الحكيم ساخرا من ثوبه الأسود الذى يتمسك به اغلب ايامه فى عاصمة الجمال والنور : باريس حيث يتابع وصف ذاته ولـــكن بأسلوب الضمير الغائب فى كتابه : « عصفور من الشرق » :

« .. وفرغ الفتى من تأمل النافوره ، فغادرها الى جانب آخر من الميدان، يقوم فيه تمثال الشاعر « دى موسيه » وهو يستوحى عروس الشعر .. فوقف الفتى ينظر اليه — وقد نقش على قاعدته : « لا شيء يجعلنا عظماء غير الم عظيم .. ! » ثم تطلع الى وجه الشـــاعر ، فألفى قطرات المطر تتساقط من عينيه كالعبرات ، فتحرك قلبه ، وسكت فمه .. ! ثم همس مرددا كالمخاطب لنفسه :

... — « لا شيء يجعلنا عظماء غير الم عظيم ! » نعم ! .. ومرت فى راس الفتى صور من ماض بعيد .. ثم همس:حتى هنا ايضا يعرفون هذا ؟!.

وغرق فى التفكير ، وغرقت قبعته فى الماء ، حتى فاض فسال على وجهه. واذا صوت خلف ظهره يصيح به :

اراهن ، بمائة فرنك ، ان لا مخلوق يقف هكذا امام هذا التمثال الا انت !

فاستدار الفتى سريعا :

... — اندريه ؟ !

... — قبل كل كلام ، انج بى وبنفسك من هذا المطر ، ليس هذا وقت النظر الى التماثيل !

... — بل هذا وقته ! ... تأمل يا اندريه ! .. هذه الدموع فى عينى الشـــــاعر ! ..

... — لو لم يكن هذا الشاعر من رخام ، لولى الساعة هاربا ، هو وعروسه ، الى اقرب قهوة ، وتركاك وحدك ، وسط هذه المياه !

ولم ينتظر الفرنسى جوابا من صاحبه ، بل جذبه الى مظلة قهوة .

... — الى فاتنتى الجميلة ؟

... — بل الى المدافن .. هلم معى ، لتشـــييع جنازة زوج بنت مدام شارل ! .. ان عليك « طقم » حداد كامل .. لكانى بك دائمـــا ، على اتم استعداد لمثل هذه الطلبات ! .. انه ليسرنى ان اصـــحب مثلك الى هذه النزهة القصيرة ! ...

... — النزهة ! ؟

قالها الفتى وهو ينظر الى صاحبه شذرا ، ولكن صاحبه تجاهل النظرة، وجذبه من يده ، وقال :

... — تعال نؤدى معا هذا الواجب .

... ــ نحو من ؟

... ــ نحو الفقيد المرحوم زوج بنت مدام شارل !

... ــ ومن هى اولا مدام شارل ؟

... ــ هى والدة احد زملائى فى المصنع .

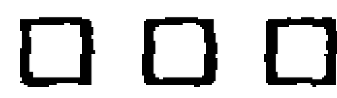
... ــ وما ذنبى انا ؟

... ــ ذنبك انك صديقى ! ... فلتتحمل ما اتحمل .. لا شىء يثقل على نفسى ، مثل المشى صامتا ، خلف عربات الموتى !

سنتحدث ، على الاقل معا ، فى شئوننا بل فى شئونك ، انت . انى اعدك وعدا صادقا ، بالحديث طوال الوقت ، عن فاتنتك ذات الأنف ، الذى تقول انه ــ فى نظرك ــ المثل الاعلى للأنف الجميل .. قلب فى راسك كل الصور والأوضاع ، التى كنت قد تخيلتها للجمال !

... ــ نعم ، نعم .. لقد كنت اعتبر الجمال ..

وانطلق الفتى يتكلم متحمسا .. ولم يفطن الى « اندريه » وقد قاده من ذراعه ، ونزل به الى احدى محطات المترو ، وابتاع له تذكرة فى الدرجة الثانية ، واركبه قطارا مرق بهما فى جوف الارض مروق لسان « محسن » بذلك الحديث اللذيذ . وابتسم اندريه ، آخر الامر فى خبث ، ابتسامة من يقول فى نفسه : « ان معى الآن مفتاح قيادته فلألوحن له ! بها » يتبعنى صاغرا ، بغير ان يشعر الى اقاصى الارض !



دقت نواقيس كنيسة « سان جرمان » احتفالا باستقبال الجثمان ، ولم تكن الجنازة قد وصلت بعد . ولم يكن بباب الكنيسة احد غير « محسن »، فقد تركه « اندريه » عند الباب ، وذهب يشترى مظلة ، يتقيان بها المطر اثناء السير فى الطريق من الكنيسة الى المقبرة ، وابطأ اندريه على صديقه، وبدت طلائع الجنازة ، واشتد دق النواقيس .. **ثم فتح باب الكنيســة على مصراعيــه ، واقتربت عربة المــوتى ، تتهادى حاملة التابوت ثاويا تحت باقات الزهر ، وخلفها المشيعون تحت مظلاتهم ، ووقفت العربة ، وحمل التابوت الى داخل الكنيسة ، ومرت افواج المشيعين بمحسن ، فى ملابسه السوداء الكاملة ، فانحنوا له حاسبين انه من اهل الميت الاقربين .. ! هنا ادرك الفتى حرج موقفه ، فاسرع واندس فى فوج الداخلين ، قبل ان تقع عليه اعين اهل الميت الحقيقيين ، والناس تنحنى له ، فيظنون بشانه الظنــون .**

دخل محسن الكنيسة، ولم يكن قد دخل كنيسة قط ، ولا حضر صــلاة ميت من أموات النصارى ، ولا رأى ما يجرى فيها من المراسيم ، وما يتبع من الطقوس ، فأحس برهبة ، وخيل اليه انه باجتيازه العتبة قد تــرك الأرض ، وارتقى الى جو آخر ، له عبيره ، وله نوره .. ! هنا ايضا عين الخشوع وعين الشعور . الذى كان يهز نفسه كلما دخل فى القاهرة مسجد

السيدة زينب .. ! ايضا عين السكون ، وعين الظلام فى الاركان ، وعين النور الضئيل الهائم كالارواح فى جو المكان .. ! ان بيت الله هو بيت الله فى كل مكان وكل زمان .

وضع التابوت فى الصدر ، واضيئت حوله الشموع . واخذت اصوات الرهبان تعلو ، مرتلة الصلاة على انغام الارغن . ثم تقدم الناس فى صف طويل نحو التابوت يمرون به — الواحد تلو الآخر — ينضحونه بماء مقدس من « قمقم » فضى ، ومشى « محسن » فى الصف ذاهلا خائفا ان يحدث صوتا على ارض الكنيسة ، وانتبه قليلا . فراى القمقم فى ايدى من امامه فى الصف ، يرسم به الواحد علامة الصليب . وهو ينضح به الميت . ثم يسلمه فى صمت الى من خلفه . وراقب الفتى هذا الفعل يتكرر اكثر من خمسين مرة ، وهو يحسب الف حساب لنوبته واذهلته الرهبة فما راعه الا القمقم يسلم اليه ممن امامه فتناوله بيد ترتجف . ولوح به نحو التابوت. راسما فى الهواء علامة ، لا يدرى من فرط اضطرابه : ادلت على صليب ام على هلال .. ؟

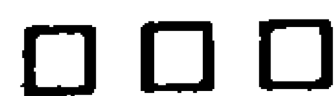
ثم نضح التابوت على نحو خشى معه ان يكون قد اكثر فبلل الغطاء . ولكنه فرغ من مهمته على اى حال . فتنفس الصعداء . ومد يده بالقمقم يسلمه الى من يليه . فلم يجد خلفه احدا .. كان هو الاخير فى الصف .. يا للكارثة .. ! ما العمل .. ؟ ! وحار وارتبك بهذا القمقم فى يده . لايدرى ما يصنع به ، وقد اشتغل عنه القوم بتعزية اهل الميت الواقفين عند باب الخروج ، وتصبب العرق باردا من جبينه .. انه يحمل فى يده شيئا مقدسا كيف يتصرف اذن من تلقاء نفسه . فى شىء مملوك لله داخل بيت الله ؟ ! .. انها لمسئولية عظمى ! .. ولمحه احد القسيسين فى هذا الموقف . فبادر اليه وحمل عنه العبء . فانصرف الفتى .. وكأنه يقول فى سذاجة : « ما اقوى كواهل اولئك الرجال الذين يتحملون كل تلك التبعات . فى ادارة ممتلكات السماء ! .. » واسرع محسن الى اللحاق بالصف ، كى يعزى اهل الميت ، فما كاد يتقدم اليهم فى ملابسه السوداء ، حتى حملقوا فيه ، كأنما هم يتذكرون او يتساءلون عن هذا الصديق الحميم ، الذى اتى يشاركهم مصابهم فى ثياب حداد كاملة ، لم يرتد مثلها بعض اقارب الميت ولا ذويه !. واعياهم التذكر ، وفهم ((محسن)) ما يجول بخاطرهم ، فلفظ سريعا بضع كلمات غير مفهومة ، وانطلق الى الخارج .. فوجد اندريه واقفا تحت مظلة جديدة ، بين بقية المشيعين المنتظرين خروج التابوت !

ورأى الفرنسى صديقه فابتدره محملقا فى وجهه :

... — ما لك أصفر الوجه ؟ !

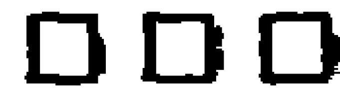
فلم يجب / محسن / بغير قوله :

... — اذهب وادفن زميلك ، اما انا فانى انتظرك فى قهوة « الدوم » !



و [محسن] هو اسم مستعار يحلو لتوفيق الحكيم أن يرمز به الى نفسه حتى لا يجد حرجا فى ان يصف ما يريد وصفه .. كما سبق وان اختار اصلا هذا الاسم كناية ورمزا له فى دعامة مجده الأدبى : أعنى رائعته وروايته [عودة الروح] .

وربما ليس من عدم انسجام القول ذكر مقارنة بين المفكر الأديب الحكيم وبين الفنان فريد الأطرش عندما يحلو له ان يصر على اسم [وحيد] نداء له فى أغلب أفلامه السينمائية ويحلو له أن تناديه البطلة أمامه .. « تعال يا وحيد .. مش كده يا وحيد » ! .



توفيق الحكيم يصر على ارتداء ثوبه الأسود وقبعته السوداء .. حتى عندما يحب .

نجده فى « عصفور من الشرق ».. عندما يصف بداية الديالوج الغرامى بينه وبين حبيبته ــ بائعة تذاكر الأوديون : سوزى .. التى حفى سعيا وراءها حتى رق قلبها .. اذ يقول عن نفسه واصفا زيه ورداءه الأسود الواحد المعهود :

« اسرع [محسن] وارتدى ثيابه ، ووقف بباب الفندق ينتظر خروجها، فهو قد ادرك انها لابد خارجة بعد قليل .. ! وهو يعلم ان شباك تذاكر « الأوديون » يفتح الساعة الحادية عشرة ، ولم يخب ظنه ، فقد سمع صوتها بعد لحظة وهى تنزل السلم سائلة صاحبة المنزل عن بريد الصباح، فاستعد وضبط اعصابه ، وما كادت تدنو منه حتى تقــدم اليها ، ورفع قبعته السوداء ، فرفعت اهدابها الجميلة وسددت اليه عينيها الفاروزيتين ،فارتج عليــه ، ولم يعرف كيف يبدأ الكلام .. ! وخيل الى الفتاة انها رات هذا المعطف ، وهذه القبعة السوداء ، من قبل ، وبدا على وجهها انها تذكرته! فما أن راى « محسن » منها ذلك حتى قال من فوره :

... ــ نعم ، انا هو !

فابتسمت قليلا ، غير أنها قالت :

... ــ هو من ؟ ...

فخجل الفتى وارتبك ، ورات الفتاة خشونة ردها عليه فاستدركت :

... ــ ان لم اخطىء الظن ، فأنت يا سيدى « زبونى » !! ...

... ــ نعم .. انا هو « زبونك » الدائم !! .. ولى الشرف ان اكون كذلك !

... ــ وما جاء بك الى هذا الحى الذى لا يعرفه الاجانب ؟ .. معذرة من فضولى !!!

... ــ فضولك يا سيدتى هو كل ما ارجو وما احب .. .. جاء بى الى هذا الحى ... الفضول !

فابتسمت وقالت :

.. — ايضـــا ! ...

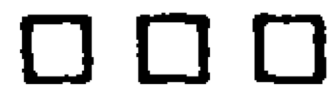
... — بل شيء اكبر جدا من هذا .

واحمر وجهه قليلا ، وخشي ان يكون الموقف قد طال ، وانه قطع عليها السير ، فأبدى لها اسفه سريعا .. وتنحى عن طريقها واستأذنها في أن يسير الى جانبها قليلا حتى يتم حديثه .. فأذنت له ومشيا الى محطـــة « المترو » وهو يقول :

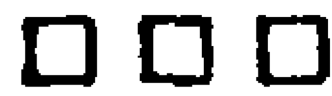
... — انى جئت اليك احجز محلا لمشاهده قصة هذا المساء !

... — شباك التذاكر ليس هنا ! .. انه هناك في المسرح !

... — وما يمنع ان يكون في اى مكان تحلين فيه ؟ ! .. هو الذى يجب أن يتبعك ! .. ككل شيء وكل انسان ! » .



ويبدو ان [عقدة] الزى والمظهر تخالج توفيق الحكيم كثيرا — فاننا نجده بالقرب من نهاية كتابه : « سجن العمـــر » يحكى كيف ذهب الى باريس وعاد بعد ان قضى فيها تلك الأعوام الثلاثة .. « وعدت الى بلادى .. عدت بالحقيبة ذاتها كما عدت بصناديق خشبية مملوءة بما جمعت ، من كتب على مدى تلك الأعوام ، ذلك ماعدت به .. ما عدا شيئا واحدا لم اعد به.. هو ما ذهبت للحصول عليه : الدكتوراه في القانون » ...



مره سألت الحكيم :

كم بذلة عندك الآن ؟

ويرد الحكيم وهو يعد مستعينا باصابعه : ٣ شتوى و ٢ صيفى ولكن لا استعمل منهم الا اثنتين بس ، الألفة ، والصداقة زى ما قلت لك ، واحدة صيفى ، وواحدة شتوى. اما الباقى ففى الدولاب ، وتقريبا بجدتها والخطر عليها ليس منى بل ربما من « العتة » !!

وده بيؤكد حكاية الألفة اللى بينى وبين الاشياء متجيش الا بعد مصاحبة طويلة وليس بعد عداوه !

... — وكم « كرافتة » ؟

ويرد الحكيم والابتســـامة تختلط بكلمـــاته وكأنه يعرف مقـدما وقـــع الاجابة على !

كرافتة واحدة « معقودة » جاهزة كده . ومن البلاستيك كمان .

يضحك الحكيم وكأنه يتذكر نكتة قديمة : « ام كلثوم مرة بصت للكرافتة

وقالت لى مندهشة هى دى من ايه .. ؟ قلت لها جلد تعبـــان .. ردت بسرعة : أنا خايفة من الثعبان ده يلدغك .. يقرصك فى صدرك ! » .

واعود لأعلق على كلام الحكيم حول عدد ما يملك من زى .

... ــ على كده عصاك لا تـــكلفك شيئا . وربما حرصك الآن على مصاحبتها لأنها ليست مخلوقا حيا يأكل أو يطلب كسوة أو غطاء او بذلة ولا قميصا او بردعة حتى .. انها تجالسك وتصاحبك دون أن تطلب حتى رشفة فنجان قهوة أو جرعة كوب ماء !

واقول الحق ..

فرغم انى أصبحت لا اعجب اذا ما رايت توفيق الحكيم يرتدى الرمادى.. لونا واحدا منذ سنوات .

فانى أشهد انه حريص دائما كل الحرص على نظافة مظهره . ليس مهما « الكى » وتغيير البذلة ولكنه ، دائمـــا نظيف . نظيف . نظيف القميص والحذاء والمظهر .

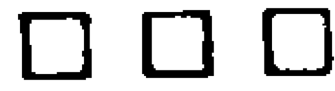
وربما حكاية القميص تذكرنى بما حكاه الحكيم يوما «عصفور من الشرق» ليلة أن ذهب الى أوبرا باريس ليشهد ويستمع الى « نينون فالان » .. ليلة لا ينساها .. « باريس » **منذ شهرين .. ليلة جميلة عجيبة لا ينساها « محسن » ، فقد راى فيها مالم ير من قبل ، وسمع ما لم يسمع، ولقد اراد فى تلك الليلة أن يتشبه ــ لاول مرة ــ بالموسرين ، فاستاجر مقعدا فى صفهم ، وهو لا يعلم ان ذلك يستلزم لبس ثياب السهرة الرســمية ، ونبهته العجوز ، فحار فى شانه ، اذ ليس لديه هذا اللباس ، وراى آخر الأمر ان يلجأ الى الحيلة ، فاشترى صدر قميص ابيض منشيا ، ربطه على صدره رباطا وثيقا ، بخيوط [الدوبارة] ، ثم اتى باكمام منشاة ربطها كذلك حول معصميه ، وارتدى ملابسه العادية السوداء فوق هذا كله ، والعجوز تنظر اليه وتقول : لو انه حدث الليلة حادث استدعى خلع ملابسك لوجدوا فيك عجبا : انسانا مربطا بالخيوط من الداخل او (كطرد) البريد ... ، وحان الوقت ، ودخل « الأوبرا » فما تمالك ان وقف مشدوها : اية عظمة واى ثراء يشعران بالدوار ؟ ! ... واى انوار ؟ !**

عنـــدئذ ادرك من غوره المعنى مجسما لكلمة [الحضارة الغربية] التى بسطت جناحيها على العالم !

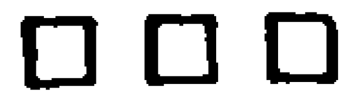
نعم ، ما كل هذا البذخ والاغراق فى الترف ، الى حـــد الكفر والفجور والاستهتار ، لكأنما جاء القوم ــ واغلبهم من سراة الأمريكان الى هـــذا المكان ــ يتساجلون الغنى والسعة وكبرياء المال ، اكثر مما جاءوا يلتمسون التطهر والخضوع فى حضرة الفن ، او لذة العودة الى الانسانية والروح على يد الموسيقى ! .. وصعد « محسن » سلم « الاوبرا » المشهور ، **وهو يتصبب خجلا** بين الصاعدين من اصحاب « الفراء » الثمين . والقيمة

العالية . والقميص المنشى « الحقيقى » . والسيدات الانيقـــات فى اثواب الليل البراقة ، والحلى المتالقة ، كانهن الشموس فى عالم الالماس . وخيل الى « محسن » انه قد دخل بين هؤلاء القوم بالغش والتدليس . وان هذا السلم الشهير يانف من حمله وقد مرت عليه السنون . وهو يحمـــل الجاه والمال فى العالم قاطبة . ولعله المكان الوحيد الذى لاشك قد وطئته اقدام جميع الملوك . فليس ببعيد ان يغضب السلم فى هذه اللحظة ويزلزل بـــ « محسن » صائحا : **« لم يبق على آخر الزمان الا ان يطـــأنى ، بنعله القديم ، مثل هذا الصعلوك القادم من الشرق ! ... » وتصور « محسن » أن خيوطه قد تحل لسبب من الأسباب فيسقط الصدر المنشى على الرخام ، وسط أولئك القوم المترفين فتكون الفضيحة ! ...**

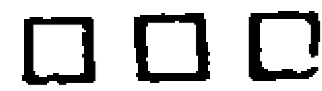
كانت ليلة احس فيها بالحرج والمذلة . وعلم ان ثمرات الفن انما هى ايضا حق . ووقف على طبقة الأغنياء . وان الطريق الى الاستمتاع الروحى ينبغى ايضا ان يفرش بالذهب . ونمثلت له تلك الجمهورية الجميلة التى تخيلها الشعراء والفلاسفة فى كل زمان : جمهورية لا تعرف الذهب . وتعـــرف السلام لأنها لا تعرف الجشع .. الكل فيها مثل فرد واحد .. الكل يقرأ وينعم . والكل يلعب ويمرح .. اما الذهب فانهم يصنعون منه مصـــابيح الطرقات وحوافر الجياد .. يا للسماء .. ! اومستطاع لمثل هذا الحـــلم الجميل ان يتحقق يوما . على هذه الأرض .. !



والعجيب أن : توفيق الحكيم .. لا يجد غضاضة وهو يصف كل هـــذا ويكتب تفاصيله عندما يسرد بعض سيرته الذاتية .



ان الفنان لا يهمه المظهر بقدر عنايته بالجوهر .



بخلاء الجاحظ

□■□ .. ولا اعتقد ان هناك فترة جمعت بين اساطين الفكر ، المصرى العربى الحديث واهل القلم والراى فى عالم الادب ، وحوار العقل ، وخيال الروح ، ومشاعر النفس ، وكبرياء الحر ونطلعه الى عزة وطنه كريمـا معلى .. مثل تلك التى جمعت : توفيق الحكيم باقرانه .. حيث التأموا فى جيل فكرى واحد — وان سبق الواحد عن الآخر عمرا ، او فرقت قلة من سنوات تقدمت او تأخرت فى انتاج وحوار .. مفارقة فى اتجاه ادبى صرف، او توافق فكرى بحت ، او فى تطور علمى خالص ... من خلال : كتـاب او بحث ومقال او قصيد وديوان ، او عندما يذهب واحد منهم الى خيـلاء الرواية ينسجها او الى تعقيد المسرحية لعله يجد لمواقفها حلا ..! اسلوب قد يختلف من تطويل الى اختزال . ولكن من عمق الى عمق ولا سطحية هناك . وانما قد يكون المظهر تبسيطا . اسلوب فيه جرس ونغم وبلاغة هى حلاوة الموسيقى يعزفها قلم : على ورق ، بعـد أن ينصت الى وحى وعقل ، او تسمعها الاذن : كلمات ، لها معنى وقرار وصدى .. فتتيـه عجبا وسحرا .

فان شاء لتعبير التوائم ان يتقبل رقم الستة او السبعة اخوة او اكثر عددا .. يتواكبون مع الموهبة ، بين بشر جيل (الحكيم) لكان هناك : احمد شوقى وطه حسين ومحمد حسين هيكل وسلامة موسى وعبـاس

محمود العقاد وعبد القادر المازني وتوفيق الحكيم .. وجبران خليل جبران يعتلي جبل لبنان ليطوف الى الدنيا الجديدة . فوق زرقة البحار . وامواجها ويعود جسدا يطل على وادى : « بشرى » .. حيث ترتفع الوان قوس قزح . لتنحنى مع الأفق المفتوح : بلا حد ولا حدود . والسماء تبلل ازهار الارض — مع قطرات الندى أو رذاذ المطر — فتزيدها الوانا وتكسبها اشراقا كلما لحتها شمس نهل من بين السحب — ... ذات الجبل الذى اعتلاه شعرا وفكرا : ايليا ابو ماضي وميخائيل نعيمة والاخطل الصغير : بشارة الخورى . واذا عدنا الى مصرنا فلاضم لهم طبيبين : هما شاعر الاطلال المغنى : ابراهيم ناجى و .. حسين فوزى . الذى ترك العلم ودراسة المحيطات جانبا بعد ان تخصص فى دواء العيون والنظر ..ليرى غير المنظور للبشر . ليهم بتحليل الموسيقى — ادبا — دارسا لها . واعيا شارحا .لكل مسمع ما يطرب له من لحن ونغم ينطلق عاليا فوق الربى ليسرى مهاديا . فى فضاء الله .

لكن توفيق الحكيم : ينفرد بينهم جميعا بحرصه المادى . وان كان كل واحد منهم يتميز بما يزيد ويكسب طباعه أو يصفها بالغرابة احيانا . مثل زهو ع. م. العقاد . وعناده فى الحق الى مستوى الكبرياء .

ولأعد الى البخل والبخلاء والحكيم .. وما رأى بعض جيله فى كل هذا الذى نحسه نحن الجيل الذى يلى موجاتهم الفكرية .. من أن : توفيق الحكيم .. بخيل ! ؟ .

والحكيم : يكاد يكون اصغر الاحياء منهم عمرا . او اوسطهم .

عاش طه حسين ٨٤ عاما . وحسين فوزى اصغر من الحكيم بنحو عام .. بينما عاش شوقى [٦٤ سنة] وسلامة موسى : ٧٠ سنه وحسين هيكل [٨٠ سنة] والمازنى [٦٠ سنة] وابراهيم ناجى [٦٥ سنة] والعقاد [٧٥ سنه] .

وعاش جبران [٤٥ سنه] وايليا [٦٨ سنه] والخورى [٨٥ سنة] .

ويعود : ميخائيل نعيمه .. فى ذات شهر اكتوبر مع توفيق الحكيم بالاحتفال بعيد ميلاده .

واذا ما ذكرت البخل وأديبا لامعا من ادباء العربيه المحدثين. فان الحديث سيتهادى الى الوراء ويرجع عائدا نحو ١٢ قرنا هـ .. الى زمن مفكر باحث لامع ومشهور جدا . من ادباء العربية القدامى .. الا وهو : الجاحظ .

فالجاحظ — وان كان هو نفسه بخيلا بدوره — فان من اشهر الـ ١٥٠ كتابا ومؤلفا وبحثا الفها .. كتابه : « البخلاء » وهو من حزبين ويعتبر من ايسر مؤلفاته اسلوبا وابتسامة وذلك حسب ما رأى : الشاعر اللغوى على الجارم وزميله احمد العوامرى . فى مقدمه للطبعه التى قاما بضبطها وشرحها واصدرتها مطبعة دار الكتب المصرية من ٥٠ سنه . اذ جاء فيها : « مع انه قد يكون ايسر كتبه فانه كتاب مدهش حقا. بديع فى وضعه ونسجه وموضوعه عولجت فيه نفسيات البخلاء وميولهم واهواؤهم وفلسفتهم على الغرار العجيب والنظم الفائق . والاستيعاب الباهر — فى قصص ممتعة ، واخبار شائقة . يقرؤها الاديب فيطرب وغير الاديب فيعجب .

بل انا لا نعدو الحق اذا زعمنا ان الجاحظ سبق الناس جميعا فوضع فى هذا الكتاب اصول [علم البخل] » .

واذا كنا سنحيط قدرا بكتاب (البخلاء) للجاحظ .. فعلينا ان نعلم عنه وزمانه شيئا .. فاسمه الكامل : ابو عثمان عمرو بن بحر محبوب الكناني. ويبدو أنه كان بارز مقلتي العينين ، ومن هنا اشتهر بلقبه : « الجاحظ » . ولد في العراق بالبصرة في ١٥٩ هـ ثم انتقل مع مطلع القرن الهجري الثاني الى بغداد ليموت من ١١٥٣ سنة هـ. وله من العمر ٩٦ سنة هجرية .

يقولون أن الجاحظ عاني في طفولته التي لاحقها اليتم .. فعمل بائعــا للسمك المقدد والخبز . يشكو الهم والكرب وازمة المــال والمال صغيرا . وكان يعينه رجل يقدر الأدب والآداب فيه : هو مويس بن عمران ، الذي كان يقرئه بين الحين والحين حتى اشتد عوده ولمع فكره وانبسط قلمــه حيث بدأ يتفرغ ويبدع فيما يخط للناس .

من أشهر كتبه : [الحيوان] — وهو موسوعة من العلم وفلسفة الجدل والقدرية والتأمل — ثم كتابه [البيان والتبيين] الذي قال عنه ابن خلدون : « سمعنا من شيوخنا في مجالس العلم . ان اصول فن الأدب واركانه اربعة دواوين ، وهي : ادب الكتاب لابن قتيبة . وكتاب الكامل للمبرد ، وكتاب البيان والتبيين للجاحظ . وكتاب النوادر لأبي علي القالي . وما ســوى هذه الأربعة فتبع لها . وفروع عليها » .

والى الجاحظ ينسبون : مذهب « الجاحظية » الذي كان له في العراق القديم وفي الأندلس وضعا مرموقا عند دارسي الفلسفة وهو الذي قال ضمن ما غزل ونسج أبياته :

لئن قدمت قبلي رجال فطالمــا مشيت على رسلي فكنت المقدما

• واسأل نفسي .. هل كان الجاحظ : نفسه بخيلا ؟

انه في اغلب ما يرويه عن البخلاء .. يهمس بمكنون ذاته . اذ يفرد سطورا مع كل مداعبة او نادرة لبخيل .. عن حسن الاتصــاف بادخار المال ، وانه الحزم بعينه . والتدبير الذي هو عماد الحياه المتزنة الفاضلة.

والآن تعال معي نبتسم لبعض من نوادر : البخلاء : التي جاءت في كتاب الجاحظ : وبأسلوبه ، الساخر زمانه .. لا .. زماننا .. فلا تقسو على حسن اختياري فهذا بعض الذي كان يضحك اهــل زمان .. هناك .. وربما ستستخفه أو تستسخفه ! ؟

فالذي يضحك واحد من الناس في ركن من الغرفة .. احيانا لا يضحك له الجالس في الركن الآخر .. وكثيرا ما ندهش اذا استمعنا الى نكتــة صينية.. من يرويها يضحك عاليا ومن يستمع اليها ينتظر اضافة او مفسرا حتى يبتسم .. فما بالك باختلاف رتابة الزمان .

. . . . .

. . . . .

□□ .. يقول المرزوى للزائر اذا اتاه وللجليس اذا طال جلوســه : تغديت اليوم ؟ فان قال : نعم : قال : لولا انك تغديت لغديتك بغداء طيب ، وان قال : لا . قال : لو كنت تغديت لسقيتك خمسة اقداح . فلا يصير في يده على الوجهين قليل ولا كثير .

. . . . .

. . . . .

□ .. وزعم اصحابنا أن جماعة من خرسان ترافقوا فى منزل . وصبروا عن الارتفاق [الانتفاع] بالمصباح . ما أمكن الصبر . ثم انهم تناهدوا وتخارجوا (دفعوا ثمن الزيت فيما بينهم على التساوى) . وأبى واحد منهم أن يعينهم . وأن يدخل فى الغرم معهم . فكانوا اذا جاء المصباح شدوا عينيه بمنديل ! ولا يزال ولا يزالون كذلك الى أن يناموا . ويطفئوا المصباح . فاذا ما اطفأوه اطلقوا عينيه (فكوا المنديل من فوقها) !

□ .. وحكى دعبل الخزاعى قال : كنا يوما عند سهل بن هارون فاطلنا القعود حتى كاد يموت جوعا . ثم قال : ويحك يا غلام غدنا . فأتاه بصفحة فيها مرق تحته ديك هرم لا تحز فيه السكين . ولا يؤثر فيه الضرس . فتأمله ثم قال : أين الرأس يا غلام ؟ قال : رميت به . قال : ولم ؟ لم ظننت تأكله ولا تسأل عنه . قال : ولم خلت ذلك ؟ انى والله لأمقت من يرمى برجله ، فكيف من يرمى برأسه ؟ ولو لم يكن فيما فعلت الا الطيرة والفال لكرهته . اما علمت أن الرأس رئيس الأعضاء . وفيه الحواس الخمس . ومنه يصيح الديك . ولولا صوته ما أريد . وفيه عرفه الذى يتبرك به . وعينه التى يضرب بها المثل فى الصفاء . فيقال : شراب أصفى من عين الديك . ودماغه عجيب لوجع الكليتين . ولم ير قط عظما أهش تحت الأسنان منه . وهب انك خلت انى لا آكله . أو ليس العيال كانوا يأكلونه . فان كان قد بلغ من جهلك الا تأكل فعندنا من يأكله . اما علمت أنه خير من طرف الجناح . ومن رأس العنق ؟ انظر لى اين هو ؟

قال : والله لا ادرى اين هو ؟ ولا اين رميت به ؟ قال : لكنى والله ادرى . انك رميته فى بطنك . قاتلك الله !

. . . . . .

. . . . . .

وقالوا ان رجلا بلغ فى البخل غايته حتى صار اماما . وكان ان صار فى يده درهم خاطبه وناجاه وفداه واستبطأه . وكان مما يقول له : كم من أرض قد اقطعت . وكم من كيس قد فارقت . وكم من خامل قد رفعت . وكم من رفيع قد أخملت . فالآن استقر بك القرار . واطمأنت بك الدار . لك عندى الا تعرى ولا تضحى . ثم يلقيه فى كيسه ويقول له : اسكن على اسم الله فى مكان لا تهان ولا تذل فيه ولا تزعج منه .

. . . . . .

. . . . . .

.. وارسل مروان بن ركب بن حفصة ، غلامه يشترى له زيتا بفلس ، فاتى الغلام بالزيت ، فقال له مروان : خنتنى وسرقتنى ، قال : وفيم كنت اخونك واسرقك ؟ فى فلس ! قال : اخذت الفلس واستوهبت الزيت ! .

□ .. وسأل بخيل امرأته عن لحم خانته فيه . فقالت له : اكله السنور . فوزن السنور ثم قال : هذا اللحم فأين السنور ؟

. . . . . .

. . . . . .

□ .. وقال ثمامة : لم أر الديك فى بلدة قط الا وهو لاقط . يأخذ الحبة بمنقاره . ثم يلفظها قدام الدجاجة . الا ديكة مرو . فانى رأيت ديكة مرو تسلب الدجاج ما فى مناقيرها من الحب !

فحدثت بهذا الحديث أحمد بن رشيد . فقال : كنت عند شيخ من أهل

مرو ، وصبى له صغير يلعب بين يديه ، فقلت له اما عابثا واما ممتحنـا : اطعمنى من خبزكم ، قال : لا تريده ، هو مر ! فقلت : فاسقنى من مائكم قال : لا تريده ، هو مالح ! قلت : هات من كذا وكذا . قال : لا تريده ، هو كذا وكذا ! الى أن عددت أصنافا كثيرة . كل ذلك يمنعنى اياه ويبغضه الى ! فضحك أبوه ، وقال : ما ذنبنا ؟ هذا من علمه ما تسمع ! يعنى ان البخل طبع فيهم ، وفى أعراقهم وطينتهم .

. . . . .

. . . . .

□ .. ومثل هذا الحديث ما حدثنى به محمد بن يسير ، عن وال كان بفارس اما أن يكون خالدا اخا مهرويه أو غيره . قال : بينما هو يوما فى مجلس . وهو مشغول بحسابه وامره ، وقد احتجب جهده ، اذ نجم شاعر من بين يديه ، فأنشده شعرا مدحه فيه وقرظه ومجده . فلما فرغ قال : قد احسنت . ثم اقبل على كاتبه فقال : اعطه عشرة آلاف درهم . ففـرح الشاعر فرحا قد يستطار له . فلما رأى حاله قال : وانى لأرى هذا القول قد وقع منك هذا الموقع ؟ اجعلها عشرين الف درهم . وكاد الشاعر يخرج من جلده ! فلما رأى فرحه قد تضاعف قال : وان فرحك ليتضاعف على قدر تضاعف القول ! اعطه يا فلان اربعين الفا . فكاد الفرح يقتله . فلما رجعت اليه نفسـه قال له : أنت ـ جعلت فداك ! رجل كريم . وانا أعلم انك كلما رأيتنى قد ازددت فرحا زدتنى فى الجائزة . وقبول هذا منك لا يكون الا من قلة الشكر له ! ثم دعا له وخرج .

قال : فأقبل عليه كاتبه فقال : سبحان الله ! هذا كان يرضى منك بأربعين درهما ، تأمر له بأربعين الف درهم ! قال : ويلك ! وتريد ان تعطيه شيئا ؟ قال : ومن انفاذ أمرك بد ؟ قال : يا احمق . انما هذا رجل سرنا بكلام ، وسررناه بكلام ! هو حين زعم انى احسن من القمر . واشـد من الأسد ، وان لسانى اقطع من السيف . وان امرى انفذ من السنان . جعل فى يدى من هذا شيئا ارجع به الى شيء ؟ ألسنا نعلم انه قد كذب ؟ ولكنه قد سرنا حين كذب لنـا . فنحن أيضا نسره بالقول . ونأمر له بالجوائز . وان كان كذبا فيكون كذبا بكذب . وقولا بقول . فاما ان يكون كذبا بصـدق . وقولا بفعل . فهذا هو الخسران الذى ما سمعت به !

. . . . .

. . . . .

□ .. وكان قاصا متكلما . بليغا داهيـا . وكان ابو سليمان الأعور وأبو سعيد المدائنى القاصين من غلمانه .

وهو الذى قال لابنه عند موته : انى قد تركت لك ما تأكله ان حفظتـه . ومالا تأكله ان ضيعته . ولمـا ورثتك من العرف الصـالح . واشهدتك من صواب التدبير . وعودتك من عيش المقتصدين . خير لك من هذا المـال . وقد دفعت اليك آلة لحفظ المـال عليك بكل حيلة . ثم ان لم يكن لك معين من نفسك . ما انتفعت بشيء من ذلك . بل يعود ذلك النهى كله اغراء لك . وذلك المنع تهجينا لطاعتك .

قد بلغت فى البر منقطع التراب ، وفى البحر اقصى مبلغ السفن . فلا عليك الا ترى ذا القرنين .

. . . . . .
. . . . . .
قال اسماعيل بن غزوان : لله در الكندى ! ما كان احكمه . واحضر حجته . وانصح جيبه . وادوم طريقته ! رايته وقد اقبل على جماعة . ما فيها الا مفسد . او من يزين الفساد لاهله : من شاعر بوده ان الناس كلهم قد جازوا حد المسرفين . الى حدود المجانين ! ومن صاحب تنقيع واستكال . ومن ملاق متقرب .

فقال : تسمون من منع المال من وجوه الخطأ . وحصنه خوفا من الغيلة وحفظه اشفاقا من الذلة . بخيلا ! تريدون بذلك ذمه وشينه ! وتسمون من جهل فضل الغنى . ولم يعرف ذلة الفقر . واعطى فى السرف . وتهاون بالخطأ . وابتذل النعمة . واهان نفسه باكرام غيره جوادا : تريدون بذلك حمده ومدحه !

فاتهموا على انفسكم من قدمكم على نفسه . فان من اخطأ على نفسه . فهو اجدر ان يخطىء على غيره . ومن اخطأ فى ظاهر دنياه . وفيما يوجد فى العين . كان اجدر ان يخطىء فى باطن دينه . وفيما يوجد بالعقل . فمدحتم من جمع صنوف الخطأ . وذممتم من جمع صنوف الصواب ! فاحذروهم كل الحذر . ولا تأمنوهم على حال !

. . . . . .
. . . . . .

□ .. قال اسماعيل : وسمعت الكندى يقول : انما المال لمن حفظه . وانما الغنى لمن تمسك به . ولحفظ المال بنيت الحيطان . وغلقت الابواب . واتخذت الصناديق . وعملت الاقفال . ونقشت الرسوم والخواتيم . ويعلم الحساب والكتاب .

فلم تتخذون هذه الوقايات دون المال . وانتم آمنه . وانتم سوسه وقادحه ؟ وقد قال الاول : احرس اخاك الا من نفسه .

ولكن احسب انك قد اخذته فى الجواسق . واودعته الصخور . ولم يشعر به صديق . ولا رسول ولا معين . من لك بألا تكون اشد عليه من السارق . واعدى عليه من الغاصب ؟ واجعلك قد حصنته من كل يد لا تملكه . كيف لك من ان تحصنه من اليد التى تملكه . وهى عليه اقدر . ودواعيها اكثر ؟

وقد علمنا ان حفظ المال اشد من جمعه . وهل اتى الناس الا من انفسهم ثم ثقاتهم ؟ والمال لمن حفظه . والحسرة لمن اتلفه . وانفاقه هو اتلافه . وان حسنتموه بهذا الاسم . وزينتموه بهذا اللقب !

وزعمتم انما سمينا البخل صلاحا . والشح اقتصادا . كما سمى قوم الهزيمة انحيازا . والبذاء عارضة . والعزل عن الولاية صرفا . والجائر على اهل الخراج مستقصيا !

□ □ □

والسؤال . ؟ هل ضحكت على ما فات .. من اسلوب او تورية !

ان عقلية الزمن تختلف بين حين وآخر مع التطور وسرعة الايقاع ونبض الحياة وتدفقها .

ولهذا اعذرنى اذا طلعت عليك برأى ان كتاب الجاحظ .. ربما يكون جزلا للاسلوب اللغوى .. لا الفكرى .

ربما اتفق معك فى أن الجاحظ كان ناقدا جريئا لبعض عصره . الا توافقنى ؟

الحكيم يستوحى بخلاء كل العصور

□■□ .. هناك اكثر من مثل شعبى يلف ويدور كل منها حول معنى واحد هو ان : « **الطيور على شاكلتها تقع !** » الا فى هذه الحالة التى يعجب فيهـــا توفيق الحكيم ويولع بالبحث عن أبخل بخلاء العـــرب زمانا .. فيقلب فى ورق أصفر أو ذلك الذى يميل الى الاصفر لونا لأنه قديم واكيد المرجع .

فالحكيم وان كان يميل الى البخل مالا .. فهو لا يضن بوقت للوصــــول الى الحقيقة والعلم بالشىء .. انه ليس بضنين فى سبيل التحقيق . الم يبدا حياته محققا بين الناس .. بحثا عن العـــدالة .. فمـــا بالك فيمن يبحث وراء المعلومة الصحيحة . ثم ان الأمر سوف لا يأخذ منه الا وقتا .. فقط !

والحرص على المـــال عند توفيق الحكيم يوازى ويواكب حرص الحكيم على كرامته . ولهذا فهو بطبعه عزوف عن قبول دعوات الطعام . انوف عن الطعام والشراب ما استطاع الى ذلك سبيلا . وهو قد استطاع ان يتباعد عن المجتمع طويلا .

الا ان فاقد الشىء مقبل عليه خيـــالا .

وما اكثر اهتمام توفيق الحكيم فى صباه وفتوة شبابه فى تتبع آثار البخلاء فى التـــاريخ .

ولهذا لا نعجب طويلا ولا قصيرا عندما يهتم اهتماما كبيرا بالبحث والتقصى

عن شخصية ولا كل شخصية جاءت في تاريخ البخلاء مثل « اشعب » : اكثر زمانه ظرفا ولطفا و « مسخرة » .. وانبغهم في الغناء والطرب والتطريب والهيصة .. اذا امكن . ولكن عذرا ! .. فهناك ما هو اهم عند « اشعب » .. من الفن اذا غنى .. ومن متعة الحوار اذا ما جالس .. ذلك ان نداء البطن عنده اهم واشمل من نداء الفكر وحتى الضمير !

ولهذا نجد ان الحكيم يخرج على قرائه من ٥٠ سنة بكتاب يحمل عنوانا من كلمة واحدة : هي اسم : ((اشعب)) .. يقدمه نموذجا رائعا لصور اراد ان يخايل بها قارئه فابدع في تصويره : طفيليا شحيحا اكولا على كل مائدة .. حالما بكل طبق وانجر .. قبل ان يتصور بعض علماء القرن العشرين فكرة الاطباق الطائرة ! .. مترصدا اصناف الطعام والشراب بكل دقة الالكترونيات « البطن الالكتروني » وكأنه احد علماء عصرنا الحديث يرصد انسياب انطلاق الصواريخ الى القمر والعودة منه .

بل لو كان اشعب حيا معاصرا اليوم ، لكان اتعس الناس اذا علم بأن الرجال الذين انطلقوا الى القمر عادوا ببعض احجاره لا فاكهته وطعامه ! واذا كان الاجداد قد تركوا لنا وللاجيال من بعدنا ان : « المعدة بيت الداء » .. فان اشعب سيرى ان ذلك خطأ كبير .. والصحيح ان « المعدة بيت الطرب والبهجة والهناء ! » .

ان شخصية « اشعب » وتفتيره .. تجذب اليه توفيق الحكيم جذبا . فهو معجب بها على ورق . ولهذا نراه يتعمق في ــ بطون ــ ما رواه اربعة من نقاد الادب : « الجاحظ » و « ابن عبد ربه » و « الخطيب البغدادى » و « بديع الزمان الهمذانى » .. طارقا على باب كل بحث تركوه لسيرة اشعب ونوادره ، التى بدأ يرتبها بعد ان اختلطت امامه كالسر والشاى معا .. كالملح والسكر معا .. كالزيت والشربات معا .. فبدأ ينسقها من جديد ليقدمها الى الناس في طبخة تفنن في عجنها وخلطها واستملح طهيها في « مطبخه الفنى » ، ليقدم من كل هذا وذاك الذى عند كل من الاربعة .. في عشرة فصول ، محكمة السحرية : من بينها : « اشعب وجاريته رشا » . و « اشعب والكندى البخيل » و « اشعب وبنان » و « اشعب في الحمام » و « في العرس » و « محتال ظريف » و « مع الخليفه » وفي سمعه للجاريه رشا وراء اشعب .. لهفا وحبا وهياما .. : في الفصل الاول من كتابه هذا .. نريد ان نسمعه . نلح عليه ان يقول لها حاجه .. نطمئنها ونطمئن فؤادها وقلبها الولهان ..

فيكون رده على حسنائه : مالى لا اسمع للطعام ذكرا !

ونحن بعد عز الظهر يا مهجة القلب . اين ما يشبع بطنى .

ويستمر الديالوج لا بين عاشقين ولكن بين حبيبه وجوعان . ان كل همه هو بطنه .

ان كل خياله ثريد ولحم ودجاج ورقاق واوانى شراب ثم فاكهة وحلوى هريسة وبقلاوة وفالوذج اذا امكن .

نعم هو عاشق .. عاشق للمائدة فقط وكل ما عليها من اطباق وطعام .. مقلى ، مشوى ، حتى مسلوقا .. ان كل الوانه في منتهى اللذة . طالما انها « بلاش » !

ويحكى الحكيم في نهاية حكاية اشعب مع رشا ..

« فقـــال » :

.. — اذن فانى اشتهى ، حفظك الله وابقاك . ثريدة دكناء من الفلفل ، رقطاء من الحمص ، ذات جناحين من اللحم ، فاضرب فيها كما يضرب الولى السوء فى مال اليتيم ! ؟

فقالت كالمخاطبة لنفسها ، ساخرة :

ابقاك الله وحفظك ، رأينا الحب يكون فى القلب ، وحبك ليس يجـــاوز المعـــدة ! ..

... — لم اسمع منك ! ..... ماذا قلت ؟ ...

... — لا شىء ! ... اخبرنى انت . اين دارك ولماذا لم تدعنى يوما الى طعامك ؟ ..

نظـــر اليها « اشعب » نظرة الجزع والذعر :

دارى ؟ ... اما علمت انى اسكن عند « الكندى » ؟ ..

.. — ومن « الكندى » ؟ ..

.. — هو ابخل اهل الارض طرا ، وهل يستطيع ساكن او جـــار ان يصنع طعاما دون ان يبعث الى صاحب الدار بطبق ؟ ... انه لا يزال يقول للساكن وربما للجار :

« ان فى الدار امرأة حبلى . وان الوحمى ربما اسقطت من ريح القدور الطيبة ، فاذا طبختم فردوا شهوتها ولو بغرفه او لعقة . فان لم تفعلوا ذلك بعد اعلامى اياكم فكفارتكم ان اسقطت غرة عبد او امة .. » .

فكان بذلك ربما يوافى منزله من قصاع السكان والجيران ما يكفيه الايام . فيأكل هو وعياله ويقول لهم :

« انتم احسن حالا من ارباب هذه الضياع . فلكل بيت منهم لون واحـــد وعندكم الوان » ..

فهل تريدين اصلحك الله ، ان ادعوك الى دار مثل هذا الرجل ؟ ..

فضحكت وقالت :

افقير هو ؟ ..

... — انه اغنى اهل المدينة ! ...

فصمتت الجارية لحظة . ثم نظرت الى « اشعب » مليا وقالت : ولكنى اريد ان اموت وآكل من طعامك ! ..

فتفكر « العاشق » قليلا ثم اجاب :

مهلا سيدتى . سأدعوك ان شاء الله الى طعام وشراب وغناء ..

... — متى ؟ ..

... — يوم يحين وقت ذلك ..

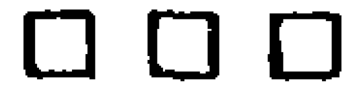
ثم اسرع فاستوى قائما . ومد اليها يده مودعا ، فمدت اليه يدا صغيرة . كأنها حلية من عاج . فلمح فى اصبعها خاتما . فاستبقى يدها فى يده . وقال فى صوت يسيل رقة ولطفا :

سيدتى جعلت فداك ! . ناولينى هذا الخاتم الذى فى اصبعك لاذكرك به .

فسحبت يدها فى رفق . وتضاحكت فى خبث وقالت :

انه ذهب واخاف ان تذهب ..

ثم اسرعت فالتقطت من الأرض عودا يابسا ، سقط عن شجرة قرب النافذة واعطته اياه قائلة :
... — ولكن خذ هذا العود لعلك تعود !

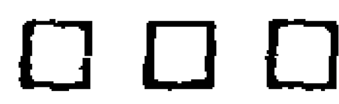


واذا كنت اعرض احيانا كلمات وسطورا لتوفيق الحكيم : كما كتبهـا . او نطقها لى .. فانما انا اعرضها كما اعرض لفنان مصورا بعض لوحاته .. حتى يراها الناس فتؤكد المعنى الذى اذهب اليه . واعود لأقول لو كان الحكيم قد ضل الطريق من مداد القلم الى الوان الفرشاة .. لكان مصورا عالميـا .. لا يقل عن بيكاسو .. من تنوع وغزارة انتاجه .

وآسف لأن هناك خطأ اعيده واستزيده فى كتابى هذا . عندما اصر على كتابة كلمه (مداد) قلم .

وما رايت لتوفيق الحكيم خطا واحدا مكتوبا بالمداد . ولكنه تعود دائما ان يكتب كل ما يخصه .. بالقلم الرصاص . ذلك اوفر . وحتى اذا اراد ان يستبدل كلمة بأخرى .. فمن السهل ان يستعمل « الاستيكة » يمسح بها ويغير الكلمة بتعبير آخر ويوفر صفحة كتاب لا يغيرها ولا يستبدلها او يمزقهـا .

وبهذه المناسبة .. ان اغلب ما يخطه توفيق الحكيم — اذا لم يكتب على ورق توزعه الجرائد هو ليس بالحريص عليه كل الحرص — فانه تعود أن يسطر قصصه او روايات مسرحياته على كراسه تلامذه . على سطور ٣٢ صفحة منها فقط . هل تفاؤلا بهذا الرقم . ام موفرا لبقيـة الصفحات التى يستقطعها اذا كان هناك زيادة عنها فى الدفتر . قبل أن يدفع به الى الجريدة ثم الى المطبعه .



ولا اتصور ان احدا استطاع ان يصور لمحات من نفسية البخـلاء كمـا رسمها بالرصاص — لا بالمداد — عندما قدم لقاء : « اشعب » مع « الكندى » وذلك فى الفصل الثانى من كتابه .. وهو موقع بين كل فصوله .

انه يصورهما وشبهما (لموريل وهاردى) فى عالم السينما . وكأن قلمه ريشة : كاريكاتير .. استيحاء لمـا كتبه الأربعـة الخالدون الذين استشهد بهم وبأسمائهم .

انه يبدأ اللقاء .. وكأن اشعب بطل لقصة سينمائية .. يتجـول فى العصر خالى الوفاض . خالى البطن بكل طيب من اطايب الأكل .. وفجأة وجد نفسه قد تسمر . فقد راى جالسـا يفرش منديل طعامه عند ظلال اشجار بستان . فتشجع وراء روائح الطعام الشهية .. فقربه اكثر من الجـالس . الذى سرعان ما عرفه . انه « الكندى » ذاته صاحب البستان . سـلام وتحية مقـابلة .

ما يصدق اشعب . ويجدها فرصة جاءته من السماء يغنمها فورا . ما أن يهم بعبور مسقى يفصل بينه وبين جلسـة « الكندى » : حتى يبندره هذا متعجبا . ماذا تفعل . ابق عندك . ماذا تريد !

اشعب مأخوذ لهذا الصد الذى لم تحسب ، معدته المندفعة اللعوب ، حسابه : الا تريدنى .. ان اشاركك لقمة الهناء ؟

يغضب الكندى لهول فضول هذا الطفيلى فيزعق به : من الذى صور لك أن طعامى واكلى مستباح .. بأى خيال جاءك به شيطان يصور لك أنك تستطيع ، وأباح لك مالى ، ويصف الحكيم معركة البطون .. وكأن معدتى اشعب والكندى تتبارزان بحامى الكلمات ووطيس الجوع تتقاذفه السنتهما :

قال « اشعب » :

أولست قد دعوتنى ؟

فأجاب « الكندى » : ويلك ! .. لو ظننت انك هكذا أحمق ما رددت عليك السلام .. ماذا كان بيننا غير سلام ، ورد سلام ، اى كلام بكلام ، ولكنك تريد أن يكون كلاما بفعال ، وقولا بأكل ، فهذا ليس من الانصاف ..

وازدرد الرجل بيضة مما بين يديه ، وجعل « اشعب » ينظر اليه لحظة ، ثم قال له :

لقد رايتك تأكل وحدك ! ...

فبلع « الكندى » ريقه ، ثم قال :

ليس على فى هذا الموضع مسألة . انما المسألة على من اكل مع الجماعة ، لان ذلك هو التكلف ، واكلى وحدى هو الأصل . واكلى مع غيرى زيادة فى الأصل ، واذا كانت الوحدة خيرا من جليس السوء . فان جليس السوء خير من اكيل السوء ، لان كل اكيل جليس . وليس كل جليس اكيلا ! ..

فقال « اشعب » متخابثا :

انما أردت ان أؤاكلك ، لاسخيك . وانفى عنك اسم البخل ! ..

فأجاب « الكندى » وهو يلقى فى حلقه زيتونة :

لا اعدمنى الله هذا الاسم . فانه لا يقال : فلان بخيل الا وهو ذو مال ، فسلم الى المال . وادعنى بأى اسم شئت ! ...

تابع « اشعب » :

ولا يقال ايضا : فلان سخى الا وهو ذو مال . فقد جمع هذا الاسم الحمد والمال . اما اسم البخل فقد جمع المال والذم . فأنت قد اخترت اخسهما وأوضعهما .

فقال « الكندى » : بينهما فرق !

سأل « اشعب » : ما هو ؟

فأجاب « الكندى » : فى قولهم بخيل تثبيت لاقامة المال فى ملكه . فالبخل اسم فيه ذم ولكن فيه حفظا . والسخاء اسم فيه حمد ولكن فيه تضييعا ، والمال حقيقة ومنفعة وحيازته قوة . اما الحمد فهو ريح وسخرية والاستماع له ضعف ! .. وماذا ينفع الحمد اذا جاع البطن . وعرى الجلد . وضاع العيال . وشمت الحساد ؟ ! ...

وظل يأكل . و « اشعب » ينظر اليه . حانقا فى دخيلة نفسه على هذا اللؤم . الذى لا تنفع فيه حيلة . غير انه تلطف له . ودنا منه قائلا : وما عليك لو جلست اليك ساعة اغنيك حتى تطرب ، واضحكك حتى يزول عنك هذا القطوب ؟

فصاح « الكندى » : لا اريد ان اطرب . ولا ان اضحك !

... — وما يمنعك من ذلك ؟ ...

... — يمنعنى منه أن الانسان اقرب ما يكون من البذل والعطاء اذا طرب وضحك ! ..

فاسقط في يد « اشعب » ، ولم يدر من أي مدخل يدخل الى هذا الرجل ، وهو كلما فتح له بابا اغلقه .. ولم يقنط « اشعب » مع ذلك ، وخطـر له خاطر اعجبه ، فاسرع يقول لصاحبه :

— لقد ظفرت لك بساكن جديد ، رضي أن ينزل دارك الخالية ، وقبل دفع الأجر ، وقضاء الحوائج ، والوفاء بالشرط .

فابرقت اسرة الرجل ، ووضع اللقمة من يده ، وقال : واين هو عافاك الله ؟

... — اذا رايت ان ادعوه .

... — متى ؟ .

... — الليلة الى عشائك !

... — عشائي ؟ !

وعاد الى تطويه ، فاراد « اشعب » أن يهون عليه الخطب ، فقال له : لا تتكلف شيئا لهذا الضيف ، انه يرضى بما حضر ! .. فأسرع « الكندى » يقول : ليس يحضر شيء ، وقولك « بما حضر » معناه انه لابد من ان يقع على شيء .

رد « اشعب » : قطعه ملح .

... — وقطعة ملح ، اليست هي شيئا ؟

... — نكتفي بالشرب اذن على الريق .

... — لو كان عندنا نبيذ كنا في عرس .

... — انا أحضر النبيـذ !

فقال « الكندى » للفور : اذا صرت الى احضار النبيذ ، فاحضر ايضـا ما يصلح للنبيـذ ..

فقال « اشعب » :

ليس يمنعني والله من ذلك ، ومن احضار النقل والريحان الا ان احسب انا صاحب الدعوة ، وليس يجوز ذلك ، الا ان يكون لك فيها اثر ..

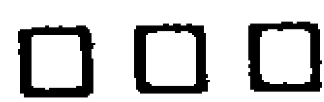
ففكر « الكندى » لحظة ، ثم صاح ، كمن وجد الفرج :

لقد انفتح لى باب لكما فيه صلاح ، وليس على فيه فساد .. والتفت الى نخلة عالية ملساء ، كأنها ثعبان ، قائمة في طرف من اطراف البستان وقال :

في هذه النخلة زوج يمام ولهما فرخان مدركان ، وان نحن وجدنا انسانا يصعدها ، ولم يطيرا ، فهما قد صارا ناهضين ، جعلنا الواحد « طباهجة » والآخر « كردجا » فكانا نعم العشاء ، فهل لك يا « اشعب » في صـعود هذه النخـلة ؟ !

فنظر « اشعب » الى النخلة وقد كاد راسها يمس السحاب ، وصـاح :

هذه لا تصعد ولا يرتقى عليها الا اذا كان اليوم آخر عمرى ، واردت من ذلك دق عنقى ، اللهم اغننى عنك .. وعن طعامك يا شيخ . !



واراد ان ينصرف يائسا ، ولكنه فكر في أمر عشائه ، وليس في المدينـة الليلة وليمة ولا عرس ، ينسل اليه ، فعاد ينظر الى النخلة ، فراى مرة اخرى أن علوها الشاهق يملأ النفس رعبا ، وادرك ان صعودها لا يقـدم عليـه الا من طلب الموت ، فأخبر « الكندى » أن يعفيه ، وان يطلب في

الجيران انسانا يصعدها ، فسألوا الجيران فلم يقبل احد ان يفعل ذلك ، ودلهم بعض الناس — آخر الأمر — على اكار تلك حرفته ، فما زال الرسول يطلبه حتى وقع عليه فلما جاء ونظر الى النخلة تردد هو ايضا ، فما زالوا به يشجعونه ويغرونه حتى استخار الله وارتقى النخلة ، فلما صار فى اعلاها طار احد الفرخين ، فانزل الآخر وسلمه الى « الكندى » . ووقف يتصبب عرقا فى انتظار الأجرة فأخرج « الكندى » فلسا ، وضعه فى يد الأكار ، فنظر فيه مليا ، ثم اراه للحاضرين من الجيران والمشاهدين ، فقالوا جميعا :

. . — « فلسا » بعد هذا الجهد كله . وهو غنى ! . . لو كان اعطى درهما على الأقل ، انه ذو مال ! . . .

فالتفت اليهم « الكندى » صائحا :

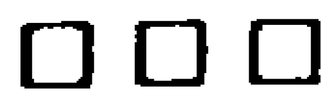
اننى لم اجمع هذا المال بعقولكم فأفرقه بعقولكم ! . . واشاح بوجهه عنهم والتفت الى « اشعب » قائلا : الآن قد ظفرنا بالعشاء . فابعث لنا فى طلب صاحبك الساكن الجديد . . .

فنظر اشعب اليه شذرا : فرخ يمام واحد . هو « الطباهج » و « الكرداج » وهو كل العشاء ؟ !

ففكر « الكندى » لحظة . ثم قال : انتظر . لا تبرح !

واشار الى الأكار الواقف يتميز غيظا . فترضاه واغراه وذهب به ، وغابا مليا ، ثم عادا يحملان ارزا بقشره . الى بستانه كلف الأكار ان يجشه الا ذلك الأرز . فلما صار « الكندى » الى بستانه كلف الأكار ان يجشه فى مجشة له ، ثم ذراه . ثم غربله . ثم جنى الواش منه . الى ان فرغ الأكار من ذلك كله فكلفه « الكندى » ان يطحنه على ثورة وفى رحاه . حتى فرغ من طحنه فكلفه ان يغلى له الماء وان يحتطب له وان يعجنه بالماء الحار . لأنه به اكثر نزلا ، ثم كلف الأكار ان يخبزه . ثم طلب الى « اشعب » وبعض الحاضرين من صبية الجيران ان ينصبوا له فى الجدول الشصوص ل . . وان يسكروا « الدرياجة » على صغار السمك كى لا تدخل فى . . ى . وان يدخلوا ايديهم فى حجرة الشلابى . حتى يصيبوا من السمك شيئا يجعل كبابا ، على نار الخبز . تحت الطابق . فلا يحتاج من الحطب الى كثير . فما زال « اشعب » منذ ذلك العصر الى الليل فى كد وجوع وانتظار الى ان اذن الله بالفرج وفرغ من اداء نصيبه من العمل . وجاء الخبر من بيت « الكندى » ان اليمامة التى كان قد بعث بها لتطبخ طباهجا . قد نضجت ، فصاح « الكندى » صيحة الظفر :

يا « اشعب » ! . . هلموا الى عشائى وهنيئا مريئا لكم طعامى . فاحضر صاحبك الى دارى تجدا الخوان قد نصب . كأنه ايوان كسرى وعرش هرقل ! . .

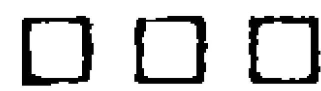


جرى « اشعب » الى صديق له من طرازه يدعى « بنان » فقص عليه الأمر ، وتوسل اليه ان يأتى معه الى دار « الكندى » فيظهر له انه الساكن المنتظر حتى يبرأ « اشعب » من وعده : فاذا انتهى العشاء ، وعاين الصديق الدار كان له ان يتعلل ويتمنع ويبدى الرفض ويطلب الفسخ ،

ولم يكن عند « بنان » فى تلك الليلة ما يتعشى به هو ايضا . فما علم ان العشاء مضمون حتى خرج من داره الخالية لوقته مع « اشعب » ! ..
وسارا فى الطريق فأوصاه « اشعب » ان يفهم «الكندى» اول الأمر انه قابل الكراء وقضاء الحوائج والوفاء بالشرط ..

فالتفت « بنان » الى صاحبه قائلا : قد فهمت دفع الكراء . وقضاء الحوائج . فما معنى الوفاء بالشرط ؟ ..

فأجاب « اشعب » : فى شرطه على السكان ان يكون له روث الدابة . وبعر الشاة . ونشوار العلوفة . والا يخرجوا عظما . ولا يخرجوا كساحه . وان يكون له نوى التمر وقشور الرمان . وغرفة من كل طبخة لمن يزعم انها حبلى فى بيته ! ...



اقبل الضيفان على دار « الكندى » فالفياه قد اعد الخوان . وجلس فى انتظارهما يلمظ . ويقول :

ومن البلية فى الموائد ان يرى قوم جيـــاع فى انتظـــار القادم .

فقعد « اشعب » من الفور امام الطعـــام . واجلس زميله جواره وهو يقـــول :

سواء علينا اقدموا أم تأخـــروا نوافق مع الطبـــاخ ســـاعه يغرف

واشار الى صاحبه « بنان » بعد ان غمزه بكوعه :

لقد انتظرت صاحبى هذا انتظار الأكل للشبع !

سأل « الكندى » :

انتظرته اذن قليـــلا ؟

فأجاب « بنان » للفور : نعم . لقد انتظرنى مقدار ما يأكل انسان رغيفا ! .

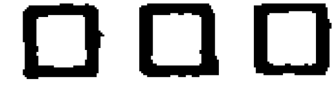
وتناول الخبز . فقال « الكندى » : لقد انتظرك اذن طويلا .

ولم يلتفت الضيفان الى صاحب الدار . ولم يجيباه بعد ذلك . و « اشعب » و « بنان » اذا تقابلا على خوان لم يكن لأحد معهما حظ فى الطيبات . فما جاءت القصعة فيها الثريدة . كهيئـــة الصومعة . مكللة بتلك اليمـــامة المعهودة . حتى اخذ « اشعب » الذى يستقبله . ثم اخـــذ ما عن يمينـــه واخذ ما بين يدى صاحب الدار . ثم مال على جانبه الأيسر فصـــنع مثـــل ذلك . وعارضه زميله « بنان » وحاكاه . فلما ان نظر « الكندى » الى الثريدة مكشوفة القناع . مسلوبة عارية . والفرخ كله بين يدى « اشعب » وزميله الا قطعة جناح صغيرة بين يديه . تناولها فوضـــعها تجاه الضيف الجديد . واحتسب بها فى سبيل الكرامه والبر والضـــيافة . وهـــو يميز ويقول : ليخفى غيظه الكظيم :

قالت الحكماء : « عليكم بشرب المـــاء على الغداء » . فلو شرب الناس المـــاء على الطعام ما اتخموا . وذلك ان الرجل لا يعـــرف مقدار ما اكل حتى ينال من المـــاء . وربما كان شبعان وهو لا يدرى ! .

فقال « بنان » شبعان ! .. والله نحن انمـــا نسمع بالشبع سماعا من

افواه الناس ! . . . ثم مد يده الى الخبز . فغمزه اشعب هامسا : تمهل وتحشم . الا يفطن الينا ويضر منا . .



ولكن الضيفين اخذا يلتهمان الاكل وهو يتحدث لهما — حتى كنسا ما على المائدة ، وشعر الكندى بالهم والغم والكرب وسألهما ان كان الساعة أيسر واغنى او قبل ان يأكلوا مكانه ؟ فيجيبانه بأنه الساعة اقرب الى الفقر ، فلم يحتمل الكارثة وصاح فى نبرة ألم وندم وغضب « من ذا الذى يلومنى اذن على ترك دعوة قوم قربونى من الفقر وباعدونى عن الغنى وكلما دعوتهم اكثر كنت من الفقر اقرب » .

ويتدارك اشعب الامر ويفهمه بأنه ينفق اليسير ليجنى الكثير مما سيتقاضاه من الساكن الجديد ، وسرعان ما تنفرج أساريره ، ثم يأخذ اشعب وبنان فى تدليله طمعا فى الشراب بعد الاكل :

. . . — اجعلها مرة ليست لها اخت ، ودعوة لن تعود الى مثلها ، واضحك واطرب ليلة فى العمر بقليل من نبيذ .

ولما رأى الكندى انهما مقيمان مصران ، احضر لهما قربة من نبيذ . وسكر ثلاثتهم وطرب الكندى حتى شق قميصه ، وامر اشعب ان يقلده فى شق قميصه ، على ان يكسوه فى الغد ، ولكن اشعب يصر على ان يأخذ بديله الساعة . وتأخذ الكندى النخوة فيحضر له قميصا جديدا .. ويغافل اشعب صاحب الدار ويأخذ القميص الجديد .. ويجعله ، « برشكانا » لامرأته .

ويستيقظ الكندى من نومه فى الصباح ليجد صاحبه الساكن المزعوم قد سرق حذاءه فيتوجه الى بيت اشعب :

. . . — اين الساكن ؟

. . . — قد تركته بين يديك فأنت الذى تسأل عنه .

. . . — وأين القميص ؟

. . . — أنت قد وهبتنى اياه .

. . . — اما علمت ان هبة السكران وشراءه وبيعه وطلاقه لا يجوز .. فرد على القميص حتى اهبه لك صاحيا عن طيب نفس .. فانى لا احب ان يذهب شىء من مالى باطلا .

. . . — انى والله قد خفت هذا بعينه فلم اضع جبينى الى الارض حتى جئت به لامراتى ، وقد زدت فى الكمين وحذفت المقاديم ، فان اردت بعد هذا كله ان تأخذه فخذه .

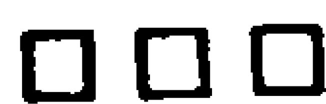
. . . — نعم آخذه لانه يصلح لامراتى كما يصلح لامراتك .

. . . — انه عند الصباغ .

. . . — هاته .

. . . — ليس انا الذى اسلمته اليه .

فعلم الكندى انه قد وقع فى الفخ وانه لا حيلة له ولا منقذ ولا امل ولا رجاء !!



.. ولكن من هو : اشعب ؟

بالقطع كان ظريفا .. حلو الحديث مليح النادرة ولهذا كان مقـربا من اثرياء عصره واصحاب النفوذ ومراكز القـوى . كان مسليا لأشراف زمانه ومن هنا كانت له تلك الجاذبية فى سحب ما يتمناه منهم . من جيـوبهم . او من على موائدهم ولهذا لقبوه بالطامع .

اما اسمه الحقيقى فهو شعيب مولى لآل الزبير . وكنيته : ابا العلاء . وقد توفى ٧٧١ م . اى قبل الجاحظ بـ ٩٧ سنة . اذ نشأ فى القرن الاول من الهجرة فى ديوان آل ابى طالب .

ويبدو ان اشعب .. كان مهرجا .. يجد نفسه بسهولة قريبا ممن يريد ان يتقرب منه مهما علا شـأنه ومركزه خاصـة هـؤلاء الذين اكتنزوا مالا وذهبا ينفـع !

تعود ان يغنى لهم فيطربون له ويغنى عليهم فيغدقون ما يجـرى الى محفظتـه .

ووصفوه ايضا بانه الى جانب حسن الصوت والرواية فى الغنـاء .. فانه رقاص درجة أولى . يهتز بجسده وبكل ملامح وجهه .. فيضحكون .. لتحكمه فى عضلات ملامحه .. وما يجرى على لسانه من لذعات ولباقة فى التعليق وخفة دم تسرى على الناس وهو يضحك عليهم دون أن يدفع مليما أو فلسا واحدا .. وانما يكتزه لمتعة المـال وطمعا فى الجمع .. جمع أى شئ .. المهم عنده أن « يكوش » و « يحوش » !!



موليير والسباعى وبينهما البخيل ؟

□■□ .. سوف لا أفرد هنا عن تفاصيل مسرحية « البخيل » لروائى فرنسا الساخر : موليير الذى ألفها من ٣ قرون .

ولا عن تصور وليم شكسبير من — ٣٥٠ سنة — شخصية « البخيل » المرابى الذى ارتسمها بقلمه لشخصية : « شيلوك » فى « تاجر البندقية » .

ولكن من روائى مصرى كان : يوسف السباعى الذى جاور توفيق الحكيم ١٨ سنة فى مبنى واحد هو مجلس الفنون والآداب وكان سكرتيرا عاما له قبل ان يصبح وزيرا للثقافة فى السبعينيات .

مسرحية يوسف السباعى قصيرة جدا . تكاد تكون لقطتين لحدث . بطله توفيق الحكيم بالطبع ولهذا جاء عنوان يوسف لمسرحيته [مش بخيل .. وبس ؟ !] يؤكد يوسف أنها عن الواقع . اذن هى مسرحية واقعية بطلها : توفيق الحكيم ومن فصلين :

الفصل الأول

[المنظر : احد المقاهى ، وقد جلس « توفيق الحكيم » على مقعد وبجواره ضيف .. الجرسون أقبل ليأخذ الحساب ،

الضيف يدفع يده فى المحفظة ويخرج ورقه بخمسين قرشـا يعطيها للجرسـون] .

الحكيم : [فى انفعال] ايه ده ؟
الضيف : [يدفـع الورقة فى يد الجرسـون] ما فيش تكليف يا اسـتاذ توفيق . .
الحكيم : مافيش ازاى ، وانت ضيفى !!
الضيف : معلهش . . خيرك علينا .
الحكيم : ابدا . . انت عايز الناس يقولوا على بخيل ! ؟
الضيف : استغفر الله . . . حد يقدر يقول كده !
الحكيم : اصل انا عازمك .
الضيف : هو فيــه فرق بيننـا يا توفيق بيه . . ما هو الجيب واحـد (للجرسون) خد الحساب يا اخينا .
الحكيم : ما يمكنش . . ياخد الحساب ازاى . . انت عايز تثبت تهمـة البخل على ؟
الضيف : بخل ايه يا توفيق بيه . . لا سمح الله . . دانت اصل الكرم .
الحكيم : انهى كرم ده !! لمـا ابقى عازمك وتدفع لى . . الناس تقول ايه ؟ والله مانت دافع .
الضيف : يا سلام عليك يا توفيق بيه لمـا نعمل تكليف . (للجرسـون) خد الحساب يا جدع انت .
[الجرسـون يمد يده ويمسك بالخمسين قرشا] .
الحكيم : (هائجا) ما يمكنش . . ماتخدش الحساب يا جدع انت .
الضيف : خلاص يا توفيق بيه . . الحكاية ماتستهلش .
الحكيم : ابدا . . اوعى تاخد منه .
الضيف : (فى اصرار) والله لهو واخد .
الحكيم : (فى منتهى الانفعال يهجم . على الجرسون ويخطف الورقة ذات الخمسين قرشا) : ياخد ازاى . . هى دى اصول . . انا اللى حادفـع .
الحكيم : [يخرج المحفظة من جيبه بسرعة] كام الحساب يا اخينا ؟ !
الجرسـون : تسعة قروش .
الحكيم : [يخرج نصف ريال ويسلمه فى حماس للجرسـون] خد ادى نص ريال . . وخلى الصاغ بقشيش علشانك .
الجرسـون : متشكر يا سعادة البيه .
الضيف : اما ملكش حق يا توفيق بيـه .
الحكيم : مالياش حق ازاى . . دانا اللى عازمك . . وانت ضيفى .
الضيف : متشكر قوى يا توفيق بيه .
الحكيم : [وهو يضع الخمسين قرشا ببساطة داخل المحفظة ويعيـد المحفظة الى جيبه] : العفـو .

[الضيف يتتبع فى ذهول الخمسين قرشا ، وهى تنتقل من يد توفيق الحكيم الى محفظته ، ثم يتتبع المحفظة فى يأس ، وهى تستقر فى جيبه] .
الضيف : [يتنحنح] .

الحكيم : [يسرح] .
(تنتهي الجلسة بين نحنحة الضيف وسرحان : توفيق الحكيم) .

الضيف : [لنفسه ، وهو يودع : توفيق الحكيم ، وعيناه لا تفارقان الجيب الذى استقرت به المحفظة] : اهو عمل فنجرى ، ودفع لى ، ولطش الخمسين قرش .. يا ريته كان سابنى ادفع .. ماكنتش غرمت غير النص ريال .. بس اقول له ايه ! ؟ اقول له هات الخمسين قرش اللى حطيتها فى المحفظة .. ماتجيش ..

الحكيم : السلام عليكم .. وابقى فوت على .. انا دايما قاعد هنا .

الضيف : حاضر .. ان شاء الله .. مع السلامة .

[شبح توفيق الحكيم يختفى ، والضيف يضرب كفا بكف] .

الفصل الثـانى

[فى اليوم التالى .. نفس المنظر .. توفيق الحكيم وبجواره نفس الضيف] .

الحكيم : اجيب لك ايه ؟

الضيف : [فى فزع] ابدا . ولا حاجه .. كتر خيرك .

الحكيم : ليـه بس ؟ !

الضيف : [متذللا] معلهش .. كفاية امبارح .

(تمر فترة صمت يبدو على الضيف القلق . وعينـاه معلقتـان بجيب : توفيق الحكيم) .

الحكيم : سـلامات .

الضيف : الله يسلمك .

الحكيم : بقى برضه مش عايز تطلب حاجة ؟

الضيف : ابـدا .

الحكيم : انت اياك فاكرنى بخيل زى الناس ما بتقول !

الضيف : لا .. بخيل ازاى .. حد يقول كده !

[تمر فترة صمت والضيف ما زال فى قلقه] .

الضيف : (فى لجلجة وتردد) : والله يا توفيق بيه .. كنت عايز اقولك .

الحكيم : تقـوللى ايه ؟

الضيف : قصدى .. [يعاود الصمت] .

الحكيم : قصدك ايه ؟

الضيف : اصل امبارح .. حصل ..

الحكيم : [فى دهشة] : حصل ايه ما تتكلم .

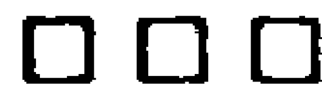
الضيف : [فى خجل] : حصـل خير .

الحكيم : يعنى ايه حصل خير ؟

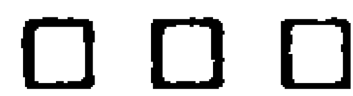
الضيف : لا .. دى حاجة بسيطة ما تستاهلش .. اذا كنت يعنى محتاج لهـم .

الحكيم : هم ايه دول ؟ !

الضيف : الـ .. الـ ..
الحكيم : الـ .. ايه ما تنطق ؟
الضيف : الخمسين قرش .
الحكيم : انهي خمسين قرش ؟ !
الضيف : الخمسين قرش اللي كنت حادفعهم امبارح للجرسون .
الحكيم : مالهم ؟
الضيف : سعادتك .. ولا مؤاخذة .. خدتهم من الجرسون .
الحكيم : ايوه .. مضبوط لأني مش ممكن اخليك تدفع .. انا فاكر اني نتشتها من ايد الجرسون .
الضيف : بالضبط .. بس بقى اللي ما انتش فاكره .. ولا مؤاخذة .. انك لطشتها من ايد الجرسون .. وبدل ما ترجعهـا لي .. حطيتها في المحفظـة .
الحكيم : [في دهشة] : ازاي ده ! ؟
الضيف : اللي حصل .. يا توفيق بيه .
الحكيم : مش ممكن .
الضيف : من باب السهو .. يا توفيق بيه .. اصل سعادتك الظاهر واخد على انك تحط في المحفظة اكتر ما تطلع منها .
الحكيم : عجيبة !! ازاي ده حصل ؟
[توفيق الحكيم يخرج المحفظه .. وبعد ما فيهـا .. ثم يخرج الورقة ذات الخمسين قرشا ويسلمها للضيف] .
الحكيم : [في دهشة] : يا نهار اسود ! دنا حقبقى حطيتها في المحفظة .
الضيف : العفو يا توفيق بيه .. العفو (يضع الورقة في جيبه ثم ينهض مودعا) .. السلام عليكم .
الحكيم : كده من غير ما تاخد حاجة ؟ !
الضيف : [يقبل يده وجها وظهرا] : كفاية خـدت الخمسـين قرشا .. متشكر قوى .
[الضيف ينطلق هاربا] .
الحكيم : (لنفسه) : بقى ده اسمه كلام .. اعمل كريم على الرجـل واغرمه خمسين قرش .. الناس مش حا يقولوا على بخيـل وبس .. دول حا يقولوا .. بخيل وخطاف ..



ونضاحكنا .. ولو كان ثالثنا او اولنا : المؤلف عنه : توفيق الحكيم .. لضحك كثيرا لتلك الصورة الباسمة التي تصورها يوسف السباعي .



والذي جرنا الي الحديث عن : الحكيم هو سؤالي يوسف السباعي .. كيف جمعته الحياة .. حياة الواقع بأبي المسرحيـة المصرية المعـاصرة : توفيق الحكيم ؟ .

سهم يوسف قليلا .. ليتذكر أن لقاءه الأول به كان بمناسبة انشاء نادي القصة سنة ١٩٥٠ في القاهرة ولاصدار « الكتاب الذهبي » يومهـا جاء :

طه حسين والحكيم ومحمود تيمور ونجيب محفوظ وعبد الحميد السحار واحسان عبد القدوس وامين يوسف غراب وعبد الحليم عبد الله وفريد ابو حديد ويوسف جوهر . وتخلف عنه اثنان العقاد وابراهيم الورداني . ورفض العقاد لانه ابدى قبلها بعد ما سأل من سيكون الرئيس ؟ قيل له : طه حسين . فرفض .. لانه على حد قوله لا يقبل رئاسته .

بدا اول اجتماع في حجرة من مكتب مجلة « صوت الفن » لصاحبه وصاحبها : عبد الشافي القشاشي ، المطل على شارع دوبريه في القاهرة . ثم ما لبث ان انتقلنا الى حجرة اوسع تطل على ساحة ارحب عندما افرد لنا المخرج : جمال مدكور ، قاعة في مكتبه المطل على ميدان التحرير . وما ان قامت الثورة حتى اهدت لنا مقرنا الحالي : شقتين مفتوحتين على بعضهما في عمارة سيف الدين بشارع التحرير بالقاهرة . كنا نجتمع سعداء جدا ببعضنا ولقائنا الفكري كل اربعاء . وبالطبع تدور نوادر نتناقلها عن بعض ، ولكنا نضحك لها في جو ادبي مرح .. وانت عارف توفيق الحكيم .. أكبر ظاهرة عنده .. ارتباكه عند مواجهة الغريب . نقعد مع بعض نتكلم كما نشاء ، ولكن ما ان يهل وجه غير مألوف حتى يصمت : الحكيم . ما انت عارف شخصية : توفيق الحكيم .

... ـ طيب وظاهرة « البخل » عنده من زاويتك انت .. نظرتك اليها .. وانت الذى جعلت الطلبات التى يقدمها مجلس الفنون لاعضائه وحتى لروادهم واصحابهم : بالمجان .. حتى تشجعه على الحضور وليلتف به الفكر معاصرا وحديثا .. حتى لضيوف القاهرة من ادباء المشرق والمغرب.

يوسف السباعي : الله . انت مش فاكر ، السنة اللى فاتت فى الصيف كنا فى الاسكندرية فى فندق فلسطين المطل على خليج المنتزة بعد توزيع : د. عبد القادر حاتم نائب رئيس الوزراء جوائز الدولة عليكم .. دعانا لحفل عشاء ، جلس اليه توفيق الحكيم .. الذى استأذن فى بدايته دقيقتين . ليقضى حاجة او يتحدث بالتليفون ـ مجانا طبعا . ! من ردهة الفندق الكبير .. فوجئنا بانه عاد ومعه : سيد مرعى رئيس مجلس الشعب حينئذ . الذى جلس بيننا .. حين صاح به الحكيم امامنا جميعا : انا عازمك على العشا ..

ويبدو لى ان : سيد مرعى ، كان يمضى اجازة يومين فى الفندق ولحق به ملل الهدوء فما صدق ان راى الحكيم الذى جعل يتحدث معه حتى دخل به الى قاعة العشاء .. وقد كان .. !

الا ان الغريب ـ ولا عجيب ولا عجب ـ ان الحكيم .. ما ان انتهى من الطعام ... حتى ابتسم وقال لسيد مرعى ـ هاتفا ـ : يا ترى حترد العزومة امتى ؟ !

واذا كان يوسف السباعى يرى ان والده وتوفيق الحكيم قد اثرا عليه ادبا كما اثر الحكيم ايضا على زملاء جيله .

ان يوسف يرى انه تأثر فى كتابته بأجواء الحكيم الساخرة وخفة الدم وسهولة التعبير .

ويرى ان [عودة الروح] ... كانت النبع الأول الذى انتهل منـــه نجيب محفوظ . و [نائب فى الأرياف] ارتوى منها عبد الرحمن الشرقاوى . وان احسان عبد القدوس تاثر بـــ [الرباط المقدس] للحكيم .

على كل حال كثيرا ما كان الحكيم .. يقول : انه اشبه بطبيب زمان .. او طبيب الارياف او : بتاع كل حاجة . ولكن يجيء جيلنا اللى اصبح مثـل الدكتور المتخصص . كل فى حاجة واحدة . يعنى الحكيم اشمل !

ثم يستدرك يوسف ليعود الى والده الاديب محمد السباعى الذى قـدم وترجم الى العربية كل اعمال شكسبير تقريبـا و « رباعيات عمر الخيام » وقصة «الفيلسوف» و « الخادمة » . و « قصة مدينتين » لشارلس ديكنز . لدرجة ان طــه حسين قال ليوسف السباعى ان والدك قد اخرجنى عن جو طفولتى وصباى حيث نفتح عقلى وسرى خيالى .

يضحك يوسف ليلحق بالاستدراك ايضـــا .. انه وان جمع والده مع الحكيم فى التاثر بهما .. الا ان صفة البخل لم تكن واحدة من صفات والده ، الذى اشتهر بالبوهيمية الى حد الاسراف الذى ليس له حــد . ! ؟

فعقب مقاطعا .. يعنى مثل الروائى الفرنسى الكاتب : بلزاك .

يرد يوسف : بالضبط ولكن فى بعض نواحيه مش كلها .

يعنى تصور ان والدى واحمد رامى وكانا صديقين حميمين وفى فتــرة ما لا يفترقان عن بعضهما قررا مع شلتهما ان يمضوا اياما فى بيت واحد منهم بعد ان سافر اهله الى الريف .

ولكن يبدو ان الفلوس اعوزتهم بعد يومين ثلاثة .

فماذا فعلوا ؟ تصور انهم قرروا ان يبيعوا هذا البيت خطوة خطوة . والا « طوبة طوبة » والحكاية يمكن تتنكرها هزار . لا ده بدأ يحصل فعلا . واخذوا يبيعون مرة بابا قبل الغداء ومرة نافذة استعدادا للعشاء . وهكذا اتوا — فى شقاوة الشباب على نوافذ البيت وابوابه .

وهكذا تستمر اجواؤهم البوهيمية . وكانت حكمة والدى دائمـــا « اصرف ما فى الجيب : يأتيك ما فى الغيب » .

لو استمريت احكى مش حنخلص .. ولكن تحضرنى الآن حكايه ثانية عن توفيق الحكيم .. هى انه احيانا يوفر فى النظر . ايوه بالضبط زى مثلا انه لم يشتر ساعة مكتفيا بساعة برج مستشفى قصر العينى .. يتطلع اليها من النافذة لو اراد ان يعرف للوقت ميقاتا . او كان على موعد هام وحكاية النظر .. دى يمكن اكثر شوية من انه لا يقتنى سيارة لنفسه مكتفيا بسيارات اصدقائه او مساعده فى المجلس الاديب محمود يوسف . يوصله الى اى مشوار ذهابا او ايابا ؟

اذ جعلتنى الصدفة اعرف كيف يوفر الحكيم نظره .

مرة دخل مكتبى وكان يجلس معى الفنـــان الصديق أحمد مظهـــر . وهو زميل شبابى . وتوفيق يعرف أحمد مظهر جيدا ولكن لم يهتم بتحيته وكأنه لا يعرفه تماما .

كان هذا اللقاء من ٣١ سنة تقريبا .

لحظتها حاولت ان اصلح الموقف قليلا لافتا نظر الحكيم قائلا :

... ـ ده احمد مظهر يا توفيق بيه .. مش تسلم عليه ؟

واجاب الحكيم فى دهشة : حقيقى .. انا مش واخد بالى .. طب مش تقوللى من الأول .

... ـ وهى دى حاجة عايزة قول . انت مش شايفه ؟

هنا تطلع اليه توفيق الحكيم ، بنظرة فاحصة . ثم قال يداعبه الشك :

... ـ لا ـ اصله اتغير شويه .. الظاهر انه تخن .

ويتابع يوسف : كنت واثقا ان مظهر لم يسمن .. وانه حتى اذا اراد ان يتخن فلا يمكن ان يتخن فى ٢٤ ساعة بالقدر الذى لا يستطيع توفيق الحكيم تمييـــزه .

وقلت لتوفيق :

... : ما تخنش ولا حاجة .

ولكن توفيق الحكيم ، عاد ليؤكد وهو ينظر الى مظهر نظرة فاحصة :

... ـ مش ممكن . ده متغير خالص ولازم يكون تخن . لانى معرفتوش .

ويبدو ان مظهر اراد ان يلتمس عذرا لتوفيق الحكيم لانه لم يعرفه . فقال من باب المساعدة :

... ـ أصلى بربى شنبى . يمكن ده اللى غيرنى .

وعاد توفيق ليقول فى اصرار :

... ـ لا مش ده اللى مغيرك . انت تخنت .

وكنت اعرف ان توفيق لا يميز الناس بسهولة تلك الايام من غير النظارة. ولم اشك ان هذا هو السبب الحقيقى لعدم تمييزه لأحمد مظهر .

فقلت له : طب حط النظارة كده وبص له ؟

ووضعها توفيق الحكيم . على عينيه . ثم حدق فى مظهـــر . وقال فى ارتيـــاح :

... ـ آه بالضبط . هو مظهر . بس بشنب .

وبسرعة اعاد توفيق الحكيم النظارة الى جيبه . فسألته مندهشا ؟

... ـ طب ما بتحطش النظارة ليه .. لمـــا انت ما بتعرفش النـــاس من غيرها ؟

وبمنتهى البساطة اجاب : اصلى بوفر نظرى .. مبحبش ادقق الا فى الحاجة اللى تستاهل . يعنى لمـا تكون فيه حاجة حلوة البس النظـارة . ولكن يعنى مظهر ح البس له النظارة ليه ؟ . اهو كفاية انى اعرف ان ده مظهر . مافيش داعى للتدقيق . هوه النظر بمزتة . الواحد يضيعه فى كل من شـافه .

ويتابع يوسف حكايته .. ليقول لحظتها تذكرت : حمـاى ، عند ضعف سمعه .. وكانت حماتى — رحمة الله عليها — تظل تتحدث اليه فلا يسمع ، واخيرا تضيق به فتصيح قائلة له :

... — يا اخى مش تشوف لك طريقة تعالج بها ودانك ؟

فينظر اليها ويهز كتفيه ويرد عليها ببساطة : ... على ايه ... يعنى بتقولى الدرر . ؟

قلت ليوسف : انت عارف حكايه توفير الحكيم لنظره .. دى زى محمـد عبد الوهاب : ساعات يوفر صوته لمـا كان يغنى زمان أمام الجمهور .. الذى يصل فى بعض لحظات الطرب الى الصهللة .. فيطلب منـه الاعادة وسط التصفيق المستمر .. ووسط هذا الاضطراب لا يغنى عبد الوهاب .. وانما يستمر يفتح شفتيه ويطبق عليهما — ولا صوت يصـدر من بينهمـا موفرا حنجرته .. وانما يرسم على ملامحه منتهى الهيمان والانسـجام . حتى تتوقف الأيدى الملتهبة عن التصفيق . لحظتها فقط يبـدأ يغنى بحـق وحقيـق ! .

يمكن ده ذكاء . ويمكن بخل . ومحمد عبد الوهاب — فى سـابق زمانه — كان منافسا للفوز بلقب « البخيل الأول » . الذى يلصـق بتوفيق الحكيم . فاذا كان توفيق يحمل محفظته فى مكانها المكنون داخل سترة بحيث يأمن عدم وصول أى يد لها الا انامله هو .. فان عبـد الوهاب قد اسـتراح وأراح .. لأنه تعود ان لا يحمل نقودا بالمرة .. هكذا طوال عمره ..

ربما حرصا على الصحة .. ودفعا للوسوسة .. فربمـا أحد لمسـها قبله . ومع ذلك فهو حريص فى تصورى أن لا يمسها أحـد من بعـده !!

□ □ □

وضحكنا طـويلا .

□ □ □

ومن عجب .. ان يترك احمد مظهر وظيفته بالمجلس كمساعد ليوسف السباعى ويتجه للتمثيل والسينما .. ويلمع جدا . ويمثل ضمن ما يمثـل بطولة اكثر من مائة فيلم من بينها « الأيدى الناعمة » وأمامه يوسف وهبى وصباح .. عن رواية توفيق الحكيم .

□ □ □



عبد الوهاب ــ شيك هاندس يا توفيق بك .. روايتك (رصاصة في القلب) ممتازة فعلا
الحكيم ــ متشكر قوى .. بس بــلاش شيك هانــدس دى متنفعنيش .. انا عــاوز (شيك) بس !

عندما حرق المصباح .. درجة الدكتوراه ؟

□■□ .. فى كل واحد منـــا .. جزء مضىء وجزء مظلم .

كل واحد فينا مثله قمر . سطح لامع يظهر وسطح يختفى . او نصف كرة عتمة الظلام . الوعى واللا وعى .. ثم منطقة ظلاليـــة بين بين .

فى ظلام معنوى نفسى او غيبة من ضمير حى يصحو ان يرعد متكاسلا لينـــام مستريح البال .. او يأخذ اجازة بدون اذن ويبعد وكأنه مسافر الى بعيد ، غائب عن الحضور بلا سابق تنبيه ولا انذار .

ظلام واقعى .. ان يعيش انسان فى الربع الأخير من القرن العشرين الذى نحياه .. فى عتمة الجهل ولا يريد ان يخطو الى نور العلم وشـــعلة الثقافة مغبه ان يبدو انه فى حاجة الى تجربة من سبقوه . هـــذا اذا كان صاحبنا يصاحبه زهو الغرور على جسر الحياة . متصورا ان لا احد يفهم فى شئون الدنيا الا اياه ! .. او ان يكون الفقر والحرمان من المال .. سببا فى البعد عن التعليم . ولا اخاف على هذا النوع من الناس .. لأنه سيقبل قطعا وسريعا على مناهل العلم فى أول فرصة تسنح له ماديا اذا ما قربت الظروف وتهيأت له .

ثم هناك جزء مظلم فينا ، لم يستكشفه العلم الحديث بعـــد وان كان يتصل بالغيبيات ومنها التفاؤل والتشاؤم . وهذه العتمة الغيبية قد تختلف

نسبتها عند كل انسان ، لا يهم مطلقا لان نضعها فى الميزان فهى لا وزن لها او تقدير .. مهما كان هذا الانسان مثقفا جدا او فى منتهى الجهل .

لا يهم ان كان غنيا جدا او جاهلا جدا .

فالكل هنا سواء .. امام هذا العالم المعتم لنا نحن بنى البشر .

لماذا نتفاءل ولماذا نعكس الآية — فى طرفة عين — وننتظر شرا وخطرا .؟

والبعض — واحمد الله انهم قلة — يحاول ان يتطير بخزعبلات وشعوذة والاستعانة بأسماء من الجن .. وهناك عديد من نصابى البشر ينصبون الفخاخ ويفتحون عيادات سرا .. ليقبل عليها بعض السذج والضحايا .. لكتابة تميمة او حجاب . لعلها تدفع شرا او تدرا عنهم وبال .. ولتقرب الحظ منهم وتجعل ابواب حياتهم مفتوحة للسعد والهناء .

الا ان هناك ظواهر تصدق .

ربما هى التى تجعل الغير يقبلون .

ومن هنا جاء كذب المنجمون ولو صدقوا . !

فما اكثر الادعياء فى كل فن ومهنة حتى لكاشفى الغيب . والتطلع الى غير المنظور والمكشوف .

كاتبنا : توفيق الحكيم .. يحكى انه واجه مثل هذا الموقف . عنـــدما كان يزور احد اقاربه ، زيارة عائلية اضطر لها وهو كاره . وما ان بقى لحظة بين السلامات والتحيات وازى فلان .. والله واحشينا يا جماعة . ابدا يا اخى .. انت غايب ومش عارف ان فلانة بنت عم فلان بك اتخطبت ولكن عريسها طلع خايب .. فاضطروا ان يفسخوا خطوبتهما . الحمد لله انهم لم يعلنوها . ويأخذ توفيق فى لعن اللحظة التى اتت به الى هنا. هو ماله ومال كل هذا . ويزيد الطين بلة . ان يطب فجاة ضيف جديد فى اللحظة التى حاول الحكيم ان يقف مستأذنا . **والله لازم تستنى وتشوف بختك . لازم ياه دى فرصة الناس بتتمناها . الله انت متعرفش الحاج فلان قارىء الكف المشهور ؟ .**

ويقبل على الحاج المحترم .. اغلب الموجودين من الاقارب والجيران . وفى عيونهم كل لهفة الفضول والحاج « يتنحنح » سائقا الدلال .. ايد مين فيهم يبـــدأ بها . ولــكن الحاج يبدأ بيد آنســـة حلوة . يدها بالقطـــع اطرف والين من اول يد تقدمت له رآها خشنة ركنها واجل قراءتها بعض الوقت ..

الحكيم : يحاول ان ينسحب .

الحاج : شعر بالاهانة فيما لو ترك هذا الضيف الذى لا يعرفه الحجرة. كأنه متفرج ينسحب من وسط عرض المسرحية . هذا عيب . ولهذا اسرع فى تلاوة ما يريد من يد الناعمة الآنسة المهذبة الخجول التى يحمر وجهها كلما سمعت كلمة او كلمتين منه .. والتى كان يبدو عليها فضول غريب وهى تختلس نظرات الاعجاب الى ذلك القريب الشاب : الحكيم .. لعله يأخذ باله — فى حضرة كيوبيد — اليها . انه يصلح ليكون لها عريس الهنا

.. ألم يقل قارىء الكف لها ان نصفها الحلو آت لاريب فيه . وقريبـــا باذن الله ..

الحاج : يبتسم الى الشاب توفيق لاحكيم .. قائلا له اتفضل يا اخى . انى لم أرك من قبل .. ما تتفضل يا اخى . ايوه .. لا ايدك الشمال الاول. هات كفك . ايوه .. افرده كده .. تمام !

الحكيم : يمد كفه .. وكأنه مسحور ولا يصدق كل هذا الذى يجرى امامه وكأن اذنيه لا تصدقان ما سمعته من قبـــل من أن هذا القارىء للكف من الموسرين وانه غير محتاج ولا يتقاضى مليما واحدا ولكنها هواية عنده يشغل بها بعض وقته وربما لتضفى عليه الاهمية . فكل انسان فيه حب الاستطلاع فما بالك برؤية وكشف الغيب عن مستقبل ايامه ؟

يحاول الحكيم أن يجادل الحاج المحترم وكل ينظر اليه بمنتهى التقدير لتعمقه فى هذا اللون من الشفافية والانفتاح على عالم لم تأت ايامه بعد ولم تهل لياليه . اذن فهو مكشوف عنه الحجاب . ولأترك الحكيم يحكى عنه وعن لحظة الغيبيات التى عاشها » .. وقيل لى انه رجل من ذوى اليسار . ومن معارف أصحاب الدار . ولكنه ولع بدراسة علم الكف منذ صغره . وانفق عمره فى الاحاطة به . والتعمق فيه . حتى حذقه ونبغ فيه. فلم يخطىء مرة فى تنجيمه .. وفرغ الرجل من النظر فى اكف الحاضرين . ودعانى أن أمد كفى اليه ففعلت . فنظر الرجل فيها ساعة . ثم رفع عينيه الى وجهى ، ولعله ما رأى فيه غير ابتسامة المتشكك فى علم رجل غير ذى منظر ولا هيئة ينمان عن ذكاء ! ... لقد كان رجلا بدينا أصلع ضعيف البصر. ترتسم على وجهه مسحة السذاجة ان لم اقل الغباء .. لقد مثل فى راسى صورة للعمدة الفلاح الجاهل البسيط . ولكنه — عندما تكلم قارئا كفى — فاه بألفاظ ادهشتنى : ألفاظ لا تجرى الا على السنة أهل العلم والفطنة والثقافة . واليك نص ما قال : « انت روحانى .. طبيعتك روحانية » !.. طلبت اليه تفسير هذه الكلمات . فقد عجبت لنطق مثله بمثلها . ثم ماذا يعنى بمدلولها وهو لا يعرف من أمرى شيئا . ولم اتكلم طول الوقت الا بالتافه من كلمات المجاملة . وكنت دائما اصغى الى الآخرين .. ولعلى كنت أصغر الحاضرين والحاضرات شأنا وربما اقربهم الى هيئة الحمق والبله . فأجاب القارىء .. قارىء الكف : « لا تسألنى تفسيرا .. لا تسألنى فى غير ما ارى: امامك الشمس .. الشمس لا ترى فى كل كف ولا فى كل طالع . الشمس اراها فى نجم حضرتك ! .. » .

« ولكن حضرتى ما كان يعنيه بالضرورة غير مسألة « أكل عيشه » وكسب قوته فأسرعت قائلا : « وماذا غير ذلك ؟ » فمضى يقول « ثم انك من حيث الثروة والسعادة : قنوع ! سعادتك فى القناعة . والغنى عندك قناعة. يعنى لن يكون غناك فى المال ! .. » ثم قال : « وانت تحب العزلة .. انت مثل رجل منقطع » .

ويستكمل توفيق الحكيم رد فعل ما سمع .. ارتجفت . لا تستطيع ان تتصور دهشتى . اعتقد أن الرجل القارىء لمس حقيقة حالى ومالى . قال الحقيقة . انه قال لى أيضا شيئا غمنى كل الغم . لست انا فقط. . بل كل من استمعوا اليه من أهلى .. عندما قال .. وهو يدقق النظر فى كفى المفتوح

المطروح امامه فى استكانة الفأر الذى وقع فى المصيدة : .. الا انى .. لا أرى فى كفك ان مستقبلك سيلمع فى وظائف رسمية ! .. ساعتها الدنيا كلها غامت فى عينى . لقد كنت على بداية امل .. مستبشرا بوظيفتى القضائية . انى انتظر ان يتقدم اسمى لقب : .. ســـعادة المستشار ! ما معنى طالعى ! اذا كنت لا ترى لى طريقا فى وظائف الدولة ؟ » .

قاطعنى الحـــاج الوقور قارىء الكف .. الذى بدأت أخاف ان تتكشف أمام حضرته كل أحوالى وغرامياتى وبنت الجيران التى احببتها زمنا .. رد فى عنف واضـــح وكأنه يدفع ضلفة الباب بشـــدة .. انا أرى فقط ولا افسر . » !

ولا ينتهى هنا كلام الحكيم ، لكن اسرح الى ماضى انا : لأرى ان شيئا مثل هذا قد حدث لى .. يوم كنت على وشك التخرج . ايام الشهر الأخير استذكرها مع صديقى المهندس المعمارى ميشيل عبد الملك جاب الله وزميلنا المهندس وديع سليمان بربرى .. كنا اتفقنا أن نتحرك من الزمالك ســـيرا على الأقدام الى حى السبتية الشعبى المزدحم بالناس ودواب الأرض وعربات الكارو وزعيق الباعة ودخان المصانع ودقات المطارق . فقد كنا على بعد قليل من وكالة البلح .. بعد ظهر كل يوم ليسر وديع سليمان الى بيت والد صاحبنا الذى اشتهر ايام حياته بأنه أحسن قارىء كف فى مصر . كنا نهرب من الزحام المتكالب على حجرته لننزوى فى حجرة ابنه التى تطل فى هدوء على خلفية بيته لنذاكر بعـــد أن لعبنا ما فيه الكفاية طوال عام فى تردد على سينما ومسارح ومعارض وسماع موسيقى واى شىء الا فتح الكتب المقرره .

كان كل زملائنا واهلهم قد دفعهم الفضول ان يروا طالعهم . وغالبا بالمجان . فيما عداى وأهلى . ويبدو ان هذا كان يضايق بعض الشىء صاحب الدار قارىء الكف الأشهر الذى اتخذ من قراءة الطالع هواية بادىء الأمر ما لبثت ان احترفها بعد اعتزاله عمله المصرفى .

حاول عديدا من المرات فى الخمس سنوات .

ولم يعرف شيئا . وانما كان الفضول يدفعنى احيانا الى ان اتصفح بعض مجلدات كتبه العديدة بالانجليزية عن فن قراءة الكف وكان وهو يجىء او يروح داخلا او خارجا من مكتبه .. يسألنى : « انت اتأكدت الآن .. انه علم .. اتفضل ؟ .... وارفض بذوق وادب . الى ان فاجأنى يوما .. بأن ابنه لم يزل فى الخارج . غاب فى مشوار مع صديقى وديع — وعلى ان انتظرهما . انتظرت . قال الا تقطع الملل فى ان ارى كفك . اتفضـــل . وقال كثيرا . وكلما قال تختفى ابتسامه الاستهتار وكلى اقتناع ان علام الغيوب هو فوق . هو الله . وليس احد من عبيده مهما كانت لهذا الانسان قوى غيبية خارقة او كانت هذه القراءة علما . اختفت الابسامة تماما . ولكنها عادت فجاة لتصبح ضحكة ساخرة تنفرج عنها شفتاى . بعد ان قال لى .. اسمع ان الشمس واضحة فى كفك . ستصبح مشهورا . وسترحل كثيرا . أرى رحلات ستقوم بها خارج مصر . ضحكت اكثر لتلميذ لم يتخرج بعد — وهو انا — الشهرة بين يديه .. ثم كيف سابحر واسافر خارج مصرنا وبلادنا تمر بمحنة ومخاطر الحرب وكأنها لقمة سائغة تحوم

حولها قوات الحلفاء وجحافل المحور ! السفر قطعا مهدد بحرا وجوا . ثم كيف لتلميذ لم يصبح بعد مهندسا .. من اين له المال اذا وجد الهدف . كيف ؟ ومن أين ؟ واضحك . « لماذا تضحك ؟ » .. لانى مازلت كما ترى ومازالت البلد فى وقت حرب ! » .. الا تثق بى .. فلأحضر لك واحدا من هذه الكتب التى تعودت أن تتصفحها .. شايف العلامة دى . دى رمز الشمس .

قلت فى نفسى .. كان معى كل الحق .. فى انى تهربت منه كل هذه السنوات .

ويأتى ابنه وصديقى واحكى لهما ساخرا من مقدرة صاحب البيت . وكان رجلا طيبا .

وتمر سنتان وتبدأ غيوم الحرب فى التبدد . كيف ؟

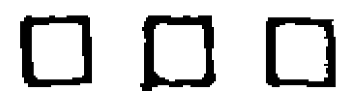
السفر متاح . وماأكثر الرحلات التى قمت بها ارضا وبحرا وفضاء ..

ويبدأ كلام والد صديقى يتحقق .. خطوة . خطوة .. كلمة . كلمة . وانا استزيد من سؤال ربى الرحمة له وعليه . كان رجلا قديرا ولو انى لا أؤمن بعدها بكل الدخلاء على هذا العلم أو الفن .. أو كشف المستور .

الى ان جاءت لحظة فوزى بجائزة الدوله .. ود. حاتم ويوسف السباعى يعطيانى اياها .. وتوفيق الحكيم جالس فى الصف الأول ومن حوله : محمود تيمور ونجيب محفوظ وحسين فوزى .. فيخطر لى لحظتها خاطر والد صديقى قارىء الكف انصوره .. وعصام الحينى وكمال بهاء الدين مقررا مجلس الفنون والآداب .. يتلو واحد منهما انى قد فزت بالجائزة عن « ادب الرحلات » !

وكان ما قراه الرجل فى كفى من ٤٥ سنة كان حقيقة لم يكشف عنها قدرى الا بعد هذه الفترة الطويلة .

اذن لم انعجب وانا اعلم من الحكيم .. بحكايته مع علامة الشمس !
ولكنى اندهشت لحظه : توافق .. على البعد عمرا ومكانا . فى عالم غيبى .



ويتطرق الحديث ذات يوم بينى وبين الحكيم عما كتب عن بعض حياته فى كتابه « سجن العمر » . عن تلك الهواية التى كادت تجرفه مع زميل فتوة عمره صديقه القديم مصطفى ممتاز وكان التأليف المسرحى يجمعهما مع الصبا ..

يعود الحكيم من رحلته الباريسية قبل أن تنتهى ثلاثينات هذا القرن .. ويسأل اين الصحاب ؟ اين فلان . ؟ واين المسرح . ؟ واين مصطفى ممتاز كانت ازمة اقتصاديه عالمية أخذت تموج وتزحف على شواطىء الدول ومن بينها مصر .
علم أن صاحبه قد انصرف تماما عن التأليف والكتابة لعالم المسرح .

وبعد آهة حزينة .. انطلقت بعد عناق لتحية من غاب ... آه ياتوفيق ..
هكذا اصبحت . تسألنى عن المسرح والمسرحيات .. ان المسرح مات .. يا توفيق .

... — ولكن ماذا تعمل الآن يا مصطفى ؟

كان آخــر ما يفكر فيه الحكيم بعد اجابة .. وهو الأديب الذى ينطلق خياله الى عوالم لا حدود لها ..

... — مش معقول .. بتقولى انك بتشتغل فى تحويل النحاس الى ذهب . ده معقول ! فين الأدب . لا لا يا مصطفى دا انت بقيت واقعى ومادى جدا .

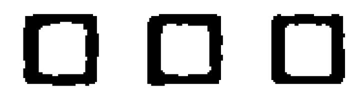
مصطفى : امال لقمة العيش اجيبها منين . بتولك المسرح مات . اسمع كلامى يا توفيق ... المسرح المصرى اللى شفناه زمان .. انتهى . اسمعنى .. شايف الكتب الكثيره دى .. دى هى اللى فيها الأسرار العجيبه .

افتكرت ان صديقى ممتاز بيسخر .. بيهزر . ولكنى اكتشفت انه واخد الحكاية كلها جد .. بدات اتعدى منه .. كادت هوايته ان تجرنى معه .. حلل البيت والنحاس بتاع بيته كله جمعه وصهره وهو يتلو ويهمس ويبسمل وسط حلقات الدخان والبخور .. وكأنه يستحضر الجن وكدت أصبح مثله ولكن حبى للمسرح جعلنى اهرب منه ومن أحلامه الخفية الغريبة !
وافترقت عنــه .

ومن عجب ان أقابله بعد عدد من السنوات . وأسأله عما يعمل . وهل نجح . وفى منتهى السخرية الهازئه .. همس وكأنه يخاطب نفسه :
أيوه يا سيدى نجحت .. فى ان اسبدل معاشى واشتريت ارض برارى حاولت ان استصلحها .. واعتقد انى نجحت فعلا .. فى ان احول الذهب الى نحاس لأول مرة فى تاريخ الناس .. بتضحك .. برضه كده يا توفيق بتضحك . طيب تحمــد ربنا معايا ! اللى محولتش الذهب الى تراب .. كانت تبقى الحكاية نكتة فعلا !

واسأل توفيق الحكيم : يعنى عشت فترة فى عوالم الأساطير وعفاريت واشباح وخيالات تدور من حولها وتنطلق جمرات البخور حمراء .. لتنتهى الى الأزرق .

نعم شاهدت ولم أصدق .. وانما الفضول دفعنى الى ان اشهد محاولة استكشاف انسان يائس مستعين بالغيبيات والعالم السفلى والتحنى والجن!



... — اذن انت قدرى .. تؤمن بالقدريه ويستحوذ عليك شعور ببسمة التفاؤل أو بكآبة التشاؤم ؟
الحكيم — يعنى . !

... — انى ألمح فى خيالى صورا متتابعة لاونريه دو بلزاك وهو يتجول فى طرق باريس من ١٩٥ سنة .. عندما كان يمشى وعيناه على ارقام كل بيت يقرب منه .. يجمع أرقام البيوت ويطرحها ويقسمها .. فاذا كانت النتيجة هى مشتقات رقم ٣ مضروبا فى كذا .. فانه يكمل مشواره فرحا

سعيدا .. واذا نقصت واحدا او اثنين .. او كانت النتيجة ٥ او ٢٥ او ..٥ فانه يقف حائرا مغتما .. ليعود ادراجه بعد ان بعد عنه التفاؤل !

الحكيم — انا رجل منطقي وعقلاني . ومع ذلك فقد حدث لى حادث فى شبابى وانا فى باريس جعلني اوجس خيفة .. وانتظر مع الخوف شيئا تطيرت منه . وقد كان . ليلة سبقت يوم دخولي امتحان الدكتوراه .
وتشاء الصدفة ان تجمع بين كتاب قراته قبلها بأسبوعين عن (القدر) وصلته بالاحلام وهو فى رأيي ليس الا ارادتنا غير الواعية . ان الانسان عنده استعداد فطري ليصدق اى حدث ويربطه — خوفا — بمصيره .. على رأى المثل : اللى يخاف من العفريت يطلع له .

كنت قلقا ليلة امتحان الدكتوراه . آخر ليلة لجهاد دام سنوات فى باريس التى كنت قد سافرت اليها من اجل الفوز بها .. فاذا بالفن والأدب وعوالم الحضارة والعاطفة .. تأخذنى مشدوها وقلمي فى يدى .. وخيالى سارح بكل ما فى رأسى من احساس ومشاعر . بعد أن سهرت حتى الرابعة أراجع وأراجع مراجعتى الأخيرة . غدا الامتحان .. يؤنسنى ضوء مصباح صغير . حل بى التعب . تقلت صفحات الكتب . طويت أوراقى . قلت لنفسى الأحسن أن استريح لأذهب الى الامتحان نشيطا .. كنت سعيدا انى استطعت أن استرجع كل ذاكرتى . بعد ساعات اذن سيكرم المرء فى الامتحان .

وبينما انا فرحان اتجه الى سريرى . يصطدم ذراعى بالمصباح . دوى فى هدوء الليل وقع المصباح . تهشم زجاجه ظلام بعد ضوء . قلت « ياداهية دقى » الظاهر ان الحكاية بكره مش حتبقى تمام .
حاولت ان انام .. وصمت بما أزعجنى . وتوجست خيفة من الامتحان الذى ذهبت اليه بعد أن تاهت الابتسامة من وجهى . وكان ما توقعت كان الامتحان شفهيا . ولم انطق ببنت شفة . أحس لحظتها أن ستارا أسود من النسيان قد اسدل ووضع على وجهه . فلم ينطق بكلمة أو حرف . قالوا له متشكرين جدا . اتفضل من غير مطرود . وطارت الدكتوراه !!

سألت الحكيم : .. ترى أتؤمن بكل هذا .. أم هى مجرد مظاهر .. لخزعبلات ؟ لرواسب من الماضي البعيد يحملها كل منا كتراث من آلاف آلاف السنين . مجرد بذرة صغيرة تعيش فينا ونتوارثها . حيث لا ينفع علم وثقافة فى ابعادها .. وانما ينجح بعضنا فى الضغط عليها فى ركن مظلم ساحق فى النفس . لا يرى حتى لمشاعرنا . وهذا يتطلب جهدا اكبر من تحكم الأعصاب .

ومن عجب ، ان كلما كان الانسان مرهفا حساسا . فان هذه المظاهر .. يصبح لها كيان واضح فى شخصيته .

بيكاسو : فنان القرن العشرين مثلا . كان يؤمن الى حد خرافى بظواهر يتفاءل منها او على العكس . ظهور قطة سوداء .. أو التقاء ناظريه بحدوة حصان .. قد تجعله لحظة يومه هذا اسعد الناس ولكن رغما بالذات او ظهور وجه شخص لا يستريح له .. أو اذا هم بمشوار وسمع مع بدايته صراخا وعويلا — فانه يتشاءم ، يكتئب ، يضيع يومه فى اللاشىء .
وانت تعلم العديد من الأشياء التى كان يتأثر بها المرهفون من اللامعين فى كل فكر وعلم .

وسؤالى بماذا تتأثر أنت ؟

الحكيم : .. يوجد تفاؤل وتشاؤم . هذا لا جدل ولا جدال فيه ..

ولكن مرد هذا دائما عندى .. هو الايحاء الذاتى . كذلك احيانا احلم احلاما لها دلالة . وفارق فى نجاح شىء يطلبه أو يتمناه المرء ، واذا به يتحقق .

ايام النيابة ، كنت انتظر ترقية . ولكنها تأخرت كثيرا . واذا بى احلم ذات ليلة بشىء يلمع فى السماء . كأنه قصر . أو تاج من التيجان المضيئة. وكان حلمى هذا بدون مناسبة .. لا رايت ولا دخلت اسبوعها بيتا أو قصرا كبيرا . ولكنه لون من التوافق . الذهن يحتوى ويخزن عديدا من المعانى وينتظر .. وينطلق فى لحظة اللاوعى واللاتحكم فينا .

ثم هناك الاشارات التى تحدث فى الحلم : مثلا ..

« السمك .. رزق » .

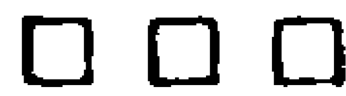
النور الشديد الضياء . ثريات ومصابيح .. ده نجاح متوقع .

ولكن احيانا الواحد بيحلم بالسمك صحيح ولكن فى صورة مسيخ وحينئذ لا اعرف اذا كان هذا رزقا حقيقا ام مزيفا .

اما التشاؤم ليس عندى علامات معينة .. ظهور الثعابين .. اشياء يقال انها توجد عدم الارتياح عند الفرنسيين .. مثل : المرور من تحت سلم .. ده فى صحوة النهار .

يقال ايضا ان فى كل يوم جمعة ساعة نحس . رقم ١٣ لا استريح له ونعيق البومة على بيت أو شجرة .. ومنظر الغراب .. اذا اخذت بالى منه .

أما احلى الأيام عندى فهى يوم ٩ من اى شهر . رقم ٩ عموما اتفاءل منه؟ . لماذا ؟ ربما لأنه يوم ميلادى حيث كان الطلق الساعة ٤ من فجر صباحه !



□ مرة .. لم اكن ادرى ان تحيتى ستثير توفيق الحكيم .. ابتدرته لحظة دخولى .. قائلا : « ايه الاشراق ده .. النهارده صحتك عال ؟ » .

مجأة تحول البشر والسعادة التى كانت تسرى على ملامح وجهه : « تف من فمك . بلاش كده .. لا لا ... قوللى صحتك وحشه جدا النهاردة . قوللى انى مش ولابد وباين عليك الارهاق ! » .

ولم يكن هناك احد فى مكتبه حتى يتظاهر .

واعلم تمام العلم واحس بأن توفيق الحكيم يستريح لى . ويسال عنى اذا غبت يوما : اين انت ؟ تعال . واحشنى . هناك الفة تجمعنا . احس بأنه يستريح لى لدرجة التفاؤل . ولكن لماذا يتحدث زاعقا هكذا فى عصبية وكان عقربا قد لسه لحظتها .

ويبدو أن ذكاءه لمح استغرابي لقولته . لفعلته .. وهو يخبط زجاج مكتبه بكفيه : آه .. ما هو يعني .. لا . انت تقول لي النهارده ان صحتي مش ولابد . آه لالا .. لا . انا لا استريح الى كلمتك النهاردة .

... — اتخاف الحسد الى هذا الحد ؟ وهل اذا حسدك احد .. فلماذا احسدك انا .

ويبدو انى هممت بأن اخـــرج .

لأنه سرعان ما وقف متهللا .. هاتفا : « لا .. لا . انا عاوزك . يا اخي متغضبش كده » .

... — لا .. انا عاوزك تبقى مستريح .

الحكيم — معرفش ليه انا النهارده خايف من الحسد . اصل انت عارف .. انى اخاف الحسد بالنسبة لصحتي فقط . لانه ليس عندي شيء آخر احسد عليه . في نظري . ولهذا اذا جاءني غريب وقال لي : صحتك كويسة .. اتحكم في اعصابي وامسك الخشب . ولكن اذا قال لي زائر صحتك مش ولابد النهارده .. فانى اصبح ساعتها اسعد الناس . لقد عرف بعض الصحاب القدامى هذه الخصلة عندي .. ولارضائي فانهم يسبقون ويقولون لي : صحتك يعني ...

اسألهم : يعني ايه .

يردوا : يعني مش بطاله ولكن يعني .. « مخسكة شوية » .. يعني مش ولابد ! .. ساعتها يا سلام على الســـعادة التي احسها داخل نفسي وذاتي . والويل لمن يجهل الحكاية دي . اعوذ بالله . فال الله ولا فالك !

ومع ذلك — وانا كما قلت لك منطقي وعقلاني — اعتقد ان الحسد ضرره ليس صادرا من الغير ولا من الحاسد . ولكن ضرره الشخص نفســـه المحسود . فهو عندما يقال له : صحتك كويسه .. فانه عند ذلك يحسد نفسه . ويقول صحيح ده انا كويس اهوه . بقى لي زمن لم اصب فيه بكذا .. او بمرض كذا .. التهاب في الزور .. زكام .. روماتيزم .. وعند ذلك اصيب بالايحاء .

الحسد عندي .. ايحاء وليس شيئا غيبيا ! وهناك مثل . « لا يحسد المـــال الا اصـــحابه .. »

... — يا سيدي اما بنعمه ربك .. فحدث .

.. في مجلس توفيق الحكيم : وصوته الرتيب يتهامس على ايقاع خفيف من حبات مسبحة داكنة تلمع بين انامله .. ونجيب محفوظ امامه يستهل فترة حديث بينما شيئان يشدان نظري الى وجهه . والعلامات المميزة التي تكاد ترسم ملامحه واهمها (الحسنة) السوداء التي تبرز على خـــده الايسر والنظارة السوداء التي تغطي حتى حاجبيه . اقطع الحديث لاسأله:

... — هل ترى اللون الوردي . اقصد الزهر والورد ؟

وبسرعة ترتفع ذراع نجيب محفوظ اليسرى لتضع كف يده وراء اذنه .

وكأنه يقرب صوانها لاتجاه صوتى ليتأكد مما سمع . فأعيد عليه تساؤلى بألفاظ اخرى .

ويؤكد نجيب محفوظ ، انه يرى كل الالوان بما فيها الوردى لأن نظارته السوداء لا تحجب اللون .

قلت له : انها تغيره .. تراه وانما فى درجات اخرى .. غير ما يراه النـــاس .

يرد نجيب محفوظ : ابدا اراها . ولكن ربما اختلف لونها قليلا ولكنى اراهـــا .

هنا تسكت وتصمت دقات ايقاع حبات المسبحة الداكنة بين انامل توفيق الحكيم . يبتسم وحواره على لسانه يقول : ولكن وراء اذنه ليتأكد اكثر .. نعم . اراها .

الحكيم : بعين التفاؤل .. ام بسواد النظارة ؟

محفوظ : .. النظاره ليست مسئولة عن احساسى . على كل حـــال التفاؤل طـــريقى .

الحكيم : .. ايوه .. بعيدا عن تشاؤم ابى العلاء المعرى . ان نظراتنا للحياة تختلف ولكن لا اعتقد ان الزجاج يحجبها بخيرها او شرها .

... ـــ انى ارى رابعا لنا فى هذا المجلس .. شعاع الشمس ينفـــذ بضوئه ودفئه ليؤنسنا . لا يمنعه زجاج . طالمـــا كانت هناك نافذة نشرق منها الى عوالم وآفاق خارجنا .

الحكيم: شاعرا وملحنا ومطربا!

□■□ .. كل واحد منا حاول فى صباه أن يغنى مهما كان صوته أجش.! على الأقل حاولت أنت وباب الحمام مغلق عليك وأنت تستحم؟! حاول أن تتذكر!

نعم. أليس كذلك؟

ثم ألا تذكر وأنت تخلع عنك رداء الطفولة. لتخطو بها على همسة حب فى بداية مراهقة.. هل لم تتعلق بجملة عشق حلوة. ألم تقرأ وتعيد وتستزيد.. بيت شعر استعذبت معناه؟. وألم يجرك هذا أو يوحى اليك لحظتها أن تنسج على منواله كلمات ترصها أو تنساب فى موسيقية الكلمات لتعكس حالة الجوى والهوى على من تهواه.

وليس مهما أن تكتب شعرا لابنة الجيران.

ولكن كلنا حلم بالوطن الأم. كلما هبت علينا أعاصير قوى الاستعمار فكنا نتغنى بالحرية ونصيغ لها من كلماتنا أبياتا.. نقرأها.. نخطبها.. نثير بها الحماس. نلهب بها الوجدان لننطلق نهتف باستقلال بلادنا..وبعضنا كان يلحنها ويدندنها. ويغنيها.. فتنطلق من ورائه الحناجر تهتف. تشدوا بها كالهدير فتصبح من الأيام فولكورية بلا صاحب. مثل المارسيليز الذى ولد أيام ثورة فرنسا للحرية والمساواة والاخاء.

توفيق الحكيم ايضـــا ــ فى شـــبابه المبكر .. كان مؤلفا للمنلوجات وللأغانى .. شاعرا حماسيا ملحنا لكلماته الوطنية !

تعال معى نتتبع ما كان من امره من أيام ان كان طفلا صبيا دون العاشرة فى مدينة دسوق من اعمال دلتا مصر .. ليلة أن جاءتها فرقة مسرحية غنائية تطوف بالريف بين المراكز والبنادر تقدم لحضرات الموظفين الذين كتب الله عليهم الغربة ... أو لحضرات العمد والأعيان .. بكوات البلد وبشاوات زمان اذا اضطروا لأن يقضوا هناك فترة من الوقت ...

الفرقة كانت تدعى انها فرقة « جوقة الشيخ سلامه حجازى » . اعلانات هتافية وراء فرقة موسيقية مكونة من نفرين .. تنفخ هيصة وتضرب الطبول ليصحوا الناس من نوم بعد الظهر على زعيق ثالث يدق ويقرع الجرس . انه يعلن بصوته الحيانى .. ان الصييت الشهير وفرقته ستقدم : « شهداء الغــــرام » .

لا أحد من المسنود اليهم زفة خبر قدوم الفرقة وتقديمها هذه الغنائيـــة الدرامية .. يدرى اذا كانت عن روميو وجوليت لشكسبير ام لا .

ومن هو شكسبير .. أو « الشيخ زبير » فى ريفنا الناعس فى ذلك الوقت هذه مسألة ليست محل بحث ولا تدقيق ؟

المهم .. ان افراد الجوقة الذين حضروا من مصر . ــ وهم قادمون من بندر آخر قريب . اذ بقى لهم فى غيبة عن القاهرة شهران ــ يرتدون ازياء العصر القديم .. الفضفاض البراق ذى الالوان الفاقعة المزركشة بالكرانيش بينما ترهلت باروكات الشعر الذهبى الأصفر على الجانبين حتى الكتفين .

والولد الصغير توفيق : مشدوه لكل هذا . بعد ان صاحب بعض اهل بيته . لا يصدق نفسه ويشد اذنيه . ويدعك عينيه .

انه فى الجنة المزوقة بالفرجة الحلوة والأنغام البديعة . رغم وهج واحد من كلوبات الغـــاز .. الذى يولع .. ينادون سمكرى لتسليك « رتينة » اللمبـــه ...

انه لم يعـــد يرى ويشهد بريق السيوف المدلاة ولا الريش الذى يعلو القبعات ولا عباءات البطولة ينفخها الهواء . | فقد اقيم المسرح على خشبة فى الهواء الطلق .. ونصبوا من فوقها « تعريشة » .. ولكن يجذبه تلك الأيدى التى تمتد وهى تتوعد . أو مبارزة حامية الوطيس .. تماما كذراعيه الصغيرتين المدودتين فى عراك وهما تهوشان الناموس الزاحف مع المساء .. يحاول الولد ابعاده عن جسده النحيل وقرصه المستمر حتى يتمتع اكثر بكل هذا الابداع الذى يراه مبهورا مسرورا .

او جدل كلامى لا يفهم معظمه .. ولكنه اشبه بالحوار . سؤال وجواب الفندورة مكسوفة وشهيد الغرام يشـــد يديه معـــا الى الامام ثم يعيدهما توا الى اليسار ليركزا ويطبقا فوق قلبه تماما .. وهنا يبدأ فى الشدو .. زاعقـــا .

الولد الصغير توفيق .. يتنبه الى يسار ثم الى يمين .. لعله يرى حمارا ينهق . ولكن كيف والدنيا مساء .

وعاد الغناء يشدو به بطل آخر .. هو غريمه .. فاذا بصوت المطرب يجذبه ... أن ينسى من حــوله .. من ســيدات محجبات وشــوارب مثل صقور السماء قد ارتفعت فوق شفاه الرجال .. وخفراء الدرك قد لمعت قطع نحاسية تنتصف « لبة » طرابيشهم الداكنة السمراء .. وكأنهم من بقايا حرس قلاوون والشراكسة باقون مع الزمان . وتراب يعلو .. وصراخ وليد قد قرص امعاءه مغص .. وشاى لسعادة البك المأمور ياوله .. وسع يا شاطر .. وسع يا حضرة افتح السكة : ايوه امال .. اتفضل يا حضرة العمدة ... يريد أن يفك أزمة طارئة لمست بطنه بعــد طراوة نسمة العصارى التى هبت منذ قليل .

المطرب .. يغنى .

ان الصغير يرى سلما يرتفع من خشبة المسرح .. الى الشرفة لتطل منه ساهرة القلب والهوى .. والعاشق الحبيب .. ينتظر كلمة تســد رمق الحب وقلق القلب الكلمة يسمعها .. فلا يطمئن . حسب نص هذا الحوار من الغنائية .. اذ انها صادرة من احد النظارة ومن واحد من الجمهور .. لم يعجبه هذا الضعف الرجالى أمام صنف النساء . عيب عليك يا خواجا .. يا تأخدها قلمين .. يا اخدها انى .. امال عيب عليــك .. اصخص !

نظر الممثل المطرب .. يريد معنى لكل هذا .

واذا بصاحب الفرقة .. « ينفزه » . كمل . كمل .. خلينا نخلص على خير . تستمر أحداث الغناء مع سرد التمثيل وكأنهم يقراون .. ولا يعبرون . ثم اذا بالولد توفيق .. يقفز وينط وينشرح قلبه وتتهلل اساريره بالفرح ..

ان المجموعة كلها تجتمع الآن على المسرح .. تنشــد نشيدا حماسيا واحدا .. وشفتاه مع النغمات وكأنه واحد من الكورس . الا ان صوته الرفيع « المسرسع » وقتئذ جعل اصبعان تجتمعان بالقرب من ذراعه لتقرصانه فى صمت .

. . . . . .

. . . . . .

ويعود الصــبى يدندن .. ما علق بذاكرته من نغم ولحن .. وبعض كلمات مضغومة ..

. . . . . .

. . . . . .

وتمر ايام فى الريف الأخضر ...

ومع خادم البيت .. يسمع عجبا .. كلما راح الخادم يقضى مشــوارا ويهف له المزاج ان يشرب واحد تعميره فى ركن من مقهى ريفى .. غير



شاعر ربابة .. يستوقفه .. ليشعر له ويطربه فى مقابل نفسين من تعميرته يتركها له اذا ما احسن واجاد .

ويستمع صبينا الى المزيد من تكرار ، طالما استمع اليه من قبل فى مثل هذه الجلسات .. وفروسية ابى زيد الهلالى تصور للولد المزيد من خيالات البطولة .. يعود ليكررها مغنيا شاديا بصوته .. ساحبا بين ساقيه عصا خفير أو يد مقشة .. صائحا .. ببعض ما يمكن ان يقوله دياب بن غانم او الزناتي خليفة فيغتاظ فى نفسه .. ابو زيد .. ابو زيد الهلالى طبعا .. فيسكت الولد توفيق صوت الاول .. ليغير من صوته ليخرج الشخصية الاخرى من داخل مكنون خزائن ذاكرته .. ونجاة بجرى لاهثا .. ولا ينطق شيئا . ثم يتوقف نجاة ليرفع صوته جدا جدا ليختلط مع ضحكات لا يكتمها .. وهو يقلد السفيرة عزيزة ايام هذا الصراع .

ويمضى هذا الحوار بين ابطال رآهم .. رؤى الأذن .. غناء وشدوا فتصورهم .. ولا يستطيع له نوما .. حتى يغلبه النعاس بعد ان يسدل جفنيه .. كستارين .. ليبدأ مع أحلامه .. رؤى فنية جديدة .

عوالم يراها هو وحده .

وكلمات موزونة النغمات .

وقصائد محبوكة الأوزان .

وفروسية وحب وهجر .. لا يدرى له معنى فى هذه السن المبكرة .

. . . . .

. . . . .

ويمر زمن .

وينتقل توفيق الصغير مع عائلته .. من بلد الى بلد . ليس فى كل منها مدارس أميريه . يلتحق أغلب الأمر بمدارس لجمعيات اسلامية او قبطية .

وتكبر ايامه . يطول قليلا ويزيد عمره .

الفن يشاغله . يهوى الرسم والالوان . ثم ما يلبث أن يرى بالورق والأقلام هل لانها تكلف وقتا لشرائها ومالا يقتطعه بين مصروف يومه أ انه يتجه الى الترتيل والغناء . وتأليف الكلمات المنمقة .

البلد فى حرب .

الانجليز يستغلون السلطه . جعلوا من مصر مخزن مؤونة لجنودهم . ومجارى مراكبهم . ان مصر اصبحت كالمزرعة للغرباء . ليس الانجليز فقط بل حتى للقادمين من اهل جزر البحر الابيض : كريت ومالطة .. ومن اهل أرمينيا بعد ان ذاقوا عذاب الأتراك ومذابحهم وحرقهم لذويهم هرع من استطاع الى مصر .

الموسيقى والأنغام تجذب الولد الذى أصبح فتى فى مقتبل عمر المراهقة الآن ..

ان ادوار الشيخ سلامة .. والشيخ سيد درويش بدات تدور من حوله وتحاصره ..

لقد حضر الى القاهرة . الى حى البغالة يسكن مع اعمامه الشبان . انه يعيش اللحظة .

الحرب العالمية انتهت .

ان زعيم الشعب الصاعد : سعد زغلول يتصل بالجماهير . يخطب .

كان له من العمر ٥٨ سنة . وقتئذ .

١٣ نوفمبر ١٩١٨ . أى بعد يومين من ابرام هدنة الحرب . يتجه سعد زغلول مع عبد العزيز فهمى وعلى شعراوى .. الى دار المندوب السامى البريطانى سير ريجنالد ونجيت ، طالبين الاستقلال . وجلاء القوات البريطانية والسماح لهم بالابحار الى فرنسا للاشتراك فى مؤتمر فرساى بباريس لعرض قضية مصر .

سعد يؤلف الوفد المصرى .

ثورة ١٩١٩ بدات . بعد ان بذر المستعمر بذور التفرقة والطائفية . اتحد الصليب مع الهلال . تعانق مع الحب والاخاء . اصبحت الكاتدرائية المرقسية مع الأزهر .. فى صحبة فكرية واحدة . هى تحرير الوطن . صيحات الشباب . للحرية والاستقلال . خطب الزعماء . نار .

بلادى . بلادى .. نشيد سيد درويش يهز ارجاء مصر كلها .

التلامذة . الطلاب . الفلاحون . العمال . الموظفون « الكمسارية » الشيالون ، اصحاب الحرف . الكل يهب هبة واحدة .

ان الجماهير تردد بعض كلمات من خطب مصطفى كامل .

اسالوا العالم يجيبكم بصوت واحد . أن مصر جنة الدنيا وان شعبا يسكنها ويتوارثها لأكرم الشعوب اذا عزها ، واكبرها جناية عليها وعلى نفسه اذا تسامح فى حقها وسلم ازمتها للأجنبى .

انى لو لم اولد مصريا ، لوددت ان اكون مصريا .

ويردد الناس كلمات لسعد زغلول وكانه ساحر البيان والالقاء .

خطيب مفوه .

ان الفتى توفيق الحكيم الذى بدا يخطو مع الشباب خطواته الاولى يكاد يبلغ العشرين . لم تصبح احلام بطولاته .. الزناتى وعنترة وابو زيد الهلالى .

ولكن أمامه أعلام كرامة مصر تعلو وتخفق .

ابطال حقيقيون وليسوا من حكايا القصص الشعبى ..

عرابى . مصطفى كامل . سعد زغلول . محمد فريد .

سلطات .. تحوم حول سعد زغلول . تعتقله فى مارس ١٩١٩ مع فريق ن زملائه الى حزب الوفد تنفيهم الى مالطة ويعودون لينفوا من جديد الى سيشيل وكان معه :

فتح الله بركات . سينوت حنا . مصطفى النحاس . مكرم عبيد . حمد الباسل .

قوات القصر والانجليز يعلنون نفيهم الى مالطة .

ويموت محمد فريد بعدها بثمانية شهور .

الحان سيد درويش : « قوم يا مصرى ...

هل ينسى يوم سمع من ١١ سنة عندما كان تلميذا صغيرا مازال دون العاشرة عمرا سنة ١٩٠٨ كيف عاشت وقتها الشائعات .. حول موت الزعيم مصطفى كامل الذى انشأ الحزب الوطنى وذهب الى فرنسا مناديا بحرية بلاده .. واصدر جريدة « اللواء » صحيفة للراى والأحرار .. انه يذكر الآن تلك القصة التى استمع اليها فى سذاجة الصبى .. كيف ان الانجليز دهنوا بالسم مقبض عصاه التى كان حريصا عليها فما ان مست جلد يده .. حتى لحق به الداء فمات فى ريعان الصبا اذ لم يتعد عمره ٣٤ سنة !

كان توفيق يسمع دائما من والده .. ان مصطفى كامل كان زميلا أصغر منه فى دراسه الحقوق . كان الوالد : اسماعيل الحكيم طالبا فى الليسانس لحظة ان كان مصطفى كامل فى السنة الأولى من مدرسة الحقوق . وكيف كان مهتما بشئون غير المحاضرات والدروس . مثل الدستور .. كانت كلماته لهيبا . تحرك .

ونعود الى ١٩١٩

ان مصر الحزينة تريد ان ترمى بأغلالها . تهتف بصيحة الحرية .

اين توفيق الحكيم . ؟

انه لا ينطق الكلمات المكتوبة ليلقيها خطابة وبيانا .. او يتجسه ليطبعها منشورا . وانما يتجه الى تاليف الأناشيد والحماس يملأ كل وجدانه وعقله.

أخذت الأبيات الملتهبة الكلمات تنظم نفسها شعرا كالنار يتراقص على لسانه .. كان يتغنى به .. لحنا .

من اين كانت له هذه الهواية .. لا احد يعرف . حتى هو .

ولكن تحليل النفس يفسر هذه الخاطرة .. بأن معين الفن عنده .. مما راى صغيرا .. على خشبة المسرح وما استمع اليه من كلمات البطولة وانين

الربابة .. ونغمات الارغول والمزمار طفلا صغيرا .. كلها آن لها ان تشرق مع انطلاقة شعوره . لا يحده صنعة ولا يهذب ما يقول حرفة .

انما كان يسترشد بكل الالحان التى استمع اليها من قبل وبالذات تلك التى كانت تصدح بها فرقة «حسب الله» التى اشتهرت فى العاصمة حينئذ . وكان منظرها . منظر افرادها عبثا لطيفا ، ١٠ او ١٥ أو ٢٠ عازفا .. هكذا يبدون داخل ملابسهم المهرولة أحيانا ولكنها اللامعة « الزراير » النحاس .. كلها « ملطوشة » من ملابس السلطة وبقايا ملابس الجيش البريطانى بعـد ان باعوها بدلا من خزنها فباعوها برخص التراب !

الحكيم يصف هذه الفرقة ويحكى .. كنت استرشد فى تلحينى بأنغام تلك الموسيقى الجنائزية التى كانت تعزفهـا تلك الفرقة . امام نعوش ضحايا المظاهرات. علمت فيما بعد أنها فى الأصل لبعض مارشات : شوبان وفاجنر، ولكن حسب الله « الأصلى » — عافاه وسامحه الله — قد قلبها رأسا على عقب ، فاذا هى شيء لو سمعه شوبان أو الموسيقار فاجنر .. لأغرقا فى الضحك بدلا من لحظة الدموع والتأثر والاسى . وعجبا لمصير الحانهما .

وكان الذى يعمل من فرقة حسب الله لا يتعدى الثلاثة .. اما السبعة أو السبعة عشر الباقون فلا يعزفون شيئا . !

كل مهمتهم ان يحملوا آلات نفخ مسدودة أو من الخشب المطلى لايهام الناس انهم موسيقيون ، وما هم الا نوع من الكومبارس يمثلون الاداء بالاشارة لزيادة العدد .. كان يكفينى اللحن الأساسى الذى اعرف منـه ايقاع « المارش » لأستخرج منه لحنا آخر حماسيا يتمشى مع كلمات الاناشيد التى اضعها فى مناسبات الثورة .. وقد انتشرت بالفعل بعض تلك الاناشيد الى حد ادهشنى .. سمعت يوما بعضها يردده المتظاهرون فى حى بعيد ، دون أن يعرف احد من مؤلفها وملحنها ! ؟ ..

ما كان هذا يهم احدا فى ذلك الوقت .. كان المهم هو التقاط اى نشيد يلهب الحماس اينما وجد .. بل انى علمت فيما بعد أن من تلك الاناشيد ما كان يردده شباب الاسكندرية ، فاذا سئلوا عن مصدره قالوا لا نعرف ، انما هو نشيد جاء من القاهرة .. لا احتفظ مع الأسف بنص واحد منها .. ولا اذكر لحنا واحدا. .لكن زميلى عباس حلمى النعمان رحمه الله ظل يذكرها وينشدها أمامى كلما تقابلنا فى الحياة بعد التوظف ، فنضحك ونعجب .. يخيل الى انى نظمت أيضا بضع قصائد من الشعر فى الحركة الوطنية ضاعت هى الأخرى.. وقد نسيتها فى حينها .. انى اتساءل أحيانا لمـاذا لم اتجه الى الشعر للتعبير عن عواطف الشباب .. كما فعل والدى فى شبابه .. كنت أستطيع ذلك أنا أيضا على نحو ما .. لم تكن القدرة على النظم تعوزنى . ولا العجز عن الآداة اللغوية .. فقد كنا فى اهم مراحل حفظنا للكثير من النماذج الشعرية .. وكان غير قليل من زملائى ينظم الشعر بسهولة .. لا اقصد عن موهبة .. بل لمجرد المحاولة ..

ان عدد الذين كانوا يقرضون الشعر فى الحركة الوطنية من مطربشين

ومعممين وطلاب فى الأزهر ودار العلوم والمدارس العليا والثانوية والمعاهد الدينية لم يكن يعد ولا يحصى ..

ما من شاب وقتئذ لم يدبج القصائد فى حب الوطن .. وربما فى غيره أيضا .. ما الذى اقعدنى انا ؟ ... ليس عندى سوى تعليل واحد ، هو أن الشاب يلجأ الى الشعر تلبية لنداء الفن فى اعماقه .. فبعض النفوس التى يستيقظ فيها شيطان الفن تحاول أن تجد له مخرجا وثيابا .. والشعر اقرب تلك الأثواب تناولا للشاب. .فالنموذج أمامه فيما حفظ من شعر الشعراء وما عليه الا أن يسير على الدرب ..هذا اذا لم يكن هناك ثوب آخر كالموسيقى أو الرسم أو التمثيل حل فيه الشيطان من قبل ... وتلك كانت حالتى .. فشيطان الفن عندى كان قد ارتدى ثوب التمثيلية قبل ان يلتفت الى ثوب القصيدة الشعرية — ولا اتفاق بينهما — كمن استقر ولم يعد يفكر فى الخروج الى غيرها من اثواب واشكال . حتى عندما فكر فيما بعد فى اتخاذ ثوب الرواية والقصة ونحوهما فانه اتجه الى ذلك بدافع العقل الواعى والحاجة الماسة . حاجة المواطن الى التعبير عن حماسه لبلاده وعن رؤيته لتطور مجتمعه . وحاجة الأدب وقتئذ الى اقرار هذه القوالب الجديدة على نحو جاد. لتحمل موضوعات جديدة . ما كان يمكن أن تحملها غير الرواية والقصة . وقد كانا يومئذ فى فجر حياتهما فى حاجة الى دفع ودعم من كل من وهب نفسه للفن .. لتطمئن هذه القوالب وتحظى بالاحترام التى كانت محرومة منه بين غيرها من فروع الأدب العربى .

بل ان اعتبارها فرعا من الأدب العربى لم يكن معترفا به .. انها كانت كمهنة التمثيل والموسيقى والتصوير والنحت . أشياء لا يقربها الا المغامرون المغامرون بسمعتهم فلا يستغرب اذن أن نلقى رواية « زينب » لمحمد حسين هيكل مندثرة بالظلام لا يجرؤ مؤلفها على اعلان اسمه أعواما عديدة . أى الى أن اعاد طبعها باسمه الصريح . وكنت أنا وقتئذ فى فرنسا أكتب عودة الروح قبيل وفاة سعد زغلول بعام قبل نهايته فى اغسطس ١٩٢٧ أى منذ ٦٠ سنة تقريبا .

ولكن بذرة كل هذا كانت صيحة مصر .. فى شبابى . مطلع ثورة ١٩١٩ » .

٣ كور ملونة!

□ .. قول مشهور فى فرنسا .. ان المـــال يهوس صاحبه . يقلقه . ويؤكدون هذه الحكمة .. بأكثر من حكاية ؛ منها أن .. لويس الرابع عشر كان معجبا دائمـــا بغناء فلاح حلاق عريض المنكبين مقبل على الحياة رغم قدم ردائه المهلهل .. فى ضيعة له . كان اجيرا وليس مالكا .

وسأل الملك : الى هذا الحد يغنى ويطرب هذا الفلاح وهو فقير معدم جدا ؛ حسب ما تأكدت . فانه لا يملك شيئا الا صحته وجسده القوى .. فمن اين له هذا المزاج الحلو ؟ وكأنه يملك الدنيا ويحب ؟

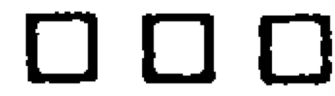
همس خبيث من رجال حاشيته منحنيا : ... لأنه خالى البال يا مولاى . اذا اردتم جلالتكم أن تقلقه فلتمنحه .. مالا .

تعجب لويس الرابع عشر قائلا : اذن توفر له المـــال .. فانه سيسعد اكثر . سيروق أكثر .

وقف الخبيث معتدلا هذه المرة .. : اعطه المال وسترى .. يامولاى !

وهنا اشـــار الملك باصبعه . ففهم سكرتيره واتى له بصرة مال صغيرة وضع فيها ٥٠ فرنكا فقط ... وانتظر حتى قرب الفلاح المغنى من شرفته .. وناداه والقى اليه بالكيس !

بهت الفلاح . صاح هاتفا شاكرا .. حامدا ومد ذراعيه ، فتحهما ونظر الى السماء يطلب المزيد من طول العمر لمولاه ملك فرنسا ، وان ينصره على الأعادى !



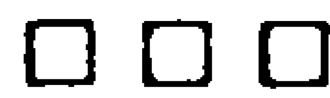
ويأتى اليوم التالى . ولا يظهر الفلاح .. ولا أحد يسمع صوته .

وتتوالى الأيام .. ويختفى الفلاح تماما . لا يراه أحد ولا يسمعه .

بعث الملك وراءه لعله يعرف سببا . هل مرض الفلاح المطرب الفنان . ان صوته يوحشه . انه على استعداد بأن يبعث بطبيبه الخاص اليه . لقد أنس الى صوته .

وجاء من ذهب ليرى .. وليروى للملك .

ان صاحبنا المعدم ــ سابقا ــ تغيرت احواله .. انه اصبح لا ينام الليل بعد أن حفر الأرض . ودفن صرة المال داخل صندوق معدنى . انه اصبح قلقا خائفا مذعورا من ان يعتدى عليه احد ويسرق ماله . أصبح لونه أصفر . انه الآن لا يطمئن الا الى نور النهار . لحظتها ينام ملء عينيه فى مكان محدد لا يغيره . اذ يضع عنقه ورأسه فوق خبيئته حتى لا يقربها بشر .



مرة رويتها لتوفيق الحكيم مدللا ان الفقر احيانا يجلب السعادة بينما هى تهرب من البريق . بريق الذهب ؟

ابتسم توفيق قائلا : ولو . ؟ ان احدا لا يمكنه ان يملك الثلاثة .

حكايتك تذكرنى برأى لى بعد حوار تناولته مع عصاى :

عندما قالت لى العصا :

.. ــ اتخيل القدر احيانا فى صورة رجل بارع . وقف فى ميدان عام يحرك كفه فى الهواء ويلعب بكرات ثلاث كما يفعل الحواة .. وقد اجتمع حوله الناس من مختلف الاعمار والأجناس . كل قد اشرأب بعنقه . يشاهد ــ فاغر الفاه ــ تلك الكرات تتراقص فى يد الحاوى .. وقد كتب على الأولى : « المال » .. وعلى الثانية : « الصحة » .. وعلى الثالثة : « راحة البال » .

صاح القدر مزهوا فى الناس :

.. ــ الما من واحد منكم ايها البشر يستطيع ان يفعل مثل ما افعل ؟

فتقدم رجل ومد اليه يده قائلا :

.. — أعطنى الكرات ، وأنا افعل مثلما تفعل .

فأعطاه القدر ما طلب . فما كاد الرجل يلعب بها . وتستقر فى يده كرة « المـــال » وكرة « الصحة » . حتى تسقط من يده كرة « راحة البال » .

فضحك القدر .. وضحك الحاضرون .. فتقدم آخر يتحدى . فأعطاه القدر الكرات . فلعب بها . فاذا كرة « المـــال » تســقط من يده وتبقى معه كرة « الصحة » وكرة « راحة البال » .

فتقدم ثالث ، ورابع ، وخامس . وهكذا دواليك . ما من واحد استطاع أن يحتفظ بالكرات الثلاث جميعا فى عين الوقت .

فهتف القدر فى الناس :

.. — كفى . كفى . لا تحاولوا بعد الآن . انه ليخيل اليكم أن هــذا فى الامكان . ولكنه المستحيل . ان طمعكم وغروركم يعميانكم عن الحقيقة . « لا يمكن ليد انسان أن تلعب بأكثر من كرتين من هذه الكرات الثلاث ! » .

يشتري رائحة السردين .. ليلتهمها !

□■□ .. رايت فى صباى المبكر .. شيخا معمرا عجوزا [١٢٠ سنة] من عائلة طيبة مقتدرة . فأخوه الأصغر كان واحدا من المشار اليهم بالبنان وحائزا على عالمية الأزهر وواحدا من كبار علمائه واساتذته .

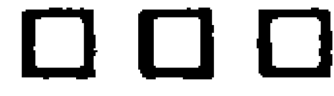
تعودت ان ارى ذلك العجوز يسير فى طرقات : المحلة الكبرى وشوارعها فى الحى الذى كان يقيم فيه والداى .. وكل مسافة ينحنى ليلتقط قالب طوب احمر . ليس مهما أن يكون مكسورا .. انه يدور ويلف ليجمع كل نهاره وهو فى هذه السن المتقدمة ١٠ قوالب طوب .

سألت وعرفت ان فكرته أن يجمع مع الايام طوبا ليشيد به عمارة ؟

قلت لنفسى ومن كان فى مثل سنى وقتها اقل من ١٠ سنوات يتصور ان من عمره ٢٠ سنة انما هو عجوز جدا جدا فى العمر ! ــ والله عال .. ربنا يعطيه العمر حتى يحقق امله . وضحكت للتعميق فى البخل لرجل يتعلق بالأمل .. أن يجمع طوبا يصلح لبناء عمارة .. يعنى هو محتاج لخمسين سنة كمان فوق الـ ١٢٠ سنة التى هى عمره .. وبعدها يشـيد عمارته .. طوبة طوبة .. ومن يعلم ايضا . ربما اذا كان لحق بأغنية شـادية : « يا دبلة الخطوبة عقبالنا كلنا .. ونبنى طوبة طوبة فى عش حبنا » .. ربما يفكر

ايضا عند الانتهاء من اقامتهـا أن يخطب بنت الجيران .. ثم يفكر قبـل ان يتقيد بالزواج !

وكأنه يعمل لدنياه أنه يعيش ابدا ولآخرته أن لا تأتى أبدا .. ؟



ولكل قرية .. فى واقعها أو حتى فى اى رواية نقولها أو نكتبها : نجد أو نتصور أن فيها شريرا وطيبا .. وبخيلا ومسرفا وماكرا وعبيطا !

اى مجتمع مهما صغر او كبر : من القـرية الى المركز او المدينـة او العاصمة .. فيه هذه التشكيلة من البشر الذين يختلفون طولا وعرضا ذكاء وشطارة او خيبة وبلاهة .

المجتمع يعيش مع نفسه وعلى نفسه .

ويتاجر ويبيع ويشـترى ويذهب الى الطبيب او يتوجـه الى مهندس والمهندس الى حلاق والحلاق الى بائع والبـائع الى طبيب والزراعى الى الأرض ومال محصولها يذهب الى صراف البنك : الذى يأتيه البخيل ليكنز المزيد او يحضر اليه المحتاج يناقشه فى سلفة يدفعها بالتقسيط . وهكذا .. وهناك صاحب صوت موهوب يغنى فيطربون له .. وهناك حانوتى فى خدمة من لا يوقف حاله واحواله فهو انسان فاتح بيت وينتظر لقمة العيش حتى من الموت . ومصائب قوم عند قوم فوائد . وفوائد قوم عند قوم مصائب !

الدنيا عبارة عن دائرة من اتصالات الناس . مهما صغرت الدنيـا او كبرت مصالحهم أو تضاءلت والانسان الى زوال جسدا .. الا ان وصف الطباع .. باق ما بقيت الدنيا .. مع المبادىء والروحانيات وسير الناس. لا يبقى منا الا الذكرى والعبرة تروى او تقال واحيانا قليلة تكتب للأجيال.

وما أكثر الروايات عن البخل والبخلاء .

تجدها فى كل مجتمع .. من جماعة أصغر قرية .. الى اكبر عاصمة !

الم تسمع قط عن حكاية ذلك الباشا البخيل الثرى جدا .. والذى كانت تهون عليه كرامته فى سبيل القرش او القرشين .. لدرجة انه كان لا يجرؤ على الجلوس فى مقهى أو منتدى عام .. الا وتدور راسـه ومنظاره معلقا فوق انفـه الممدود .. يدقق النظر فى خلال زجاجهما السميك لعله يجـد ولو صاحبا حتى يطمئن ويجلس .. طالما أن هناك من سيدفع له الطلب .. والا فمع الحسرة يعود أدراجه ماشيا على قدميه .. حتى يوفـر ايضـا قيمة الركوب فى مشوار العودة ! بينما سنوات عمره لا تؤكد له انه سيعيش طوال الدهر . فيحرم نفسه من التقتير عن اى متعة .. فى سبيل ان يؤكد لنفسه أنه غنى .. غنى حتى عن الناس .. وفى ذات الوقت يجرى وراءهم ويلعق بعض كرمهم أو اسرافهم ! وتوفيق الحكيم يهز راسه حسرة عليهم قائلا : ان هذا ليس بخلا ولكنه شح كريه لا يقبله احد .



وكم من الحكايا التى تحكى عن البخـلاء .. التى قطعا سمعها الحكيم وضحك لها عن بلدى اسيوط .. واهل أسيوط يطرحونها بذكائهم بعيـدا

عنهم الى الشرقية .. واذا ما لحقت الاشـاعة بدمياط .. فـان اهلهـا لا يستمعون اليها وفرا للسمع من ان يستهلكونه ولو لدقيقة !

عن ذلك البخيل الذى تعود ان يمسك برغيف ويتجه الى السوق وكلما وجد بائع سردين .. يشم رائحته من بعيد جـدا بالطبع .. وما ان يقرب منه .. حتى يسأله فى خبث : بتبيع ايه يا عم ؟

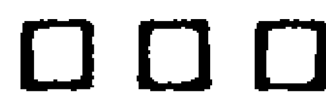
.. ـ سردين .. ما أنت شايف .

.. ـ العتب على النظر يا ابنى .. طيب وريني كده .. هو : سردين كبير والا صغير .. حط واحدة كده على الرغيف .

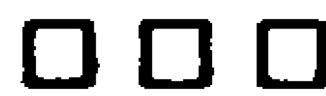
.. ـ اتفضل يا استاذ .

ويقلب البخيل الشحيح . السردينة على لقمـة رغيف العيش .. حتى تتشرب تماما .. وهو يفاصل .. وما ان ينتهى الفصال لا يشترى طبعـا وانما يعيدها اليه . وبين لعنات البائع .. يمد البخيل اطراف اصـابعه الثلاث التى لامست السردينة الى لسانه .. يلعقها .. ثم يجلس فى ظـل شجرة عند الرصيف .. يقرض رغيف العيش الذى لحقتـه مسـحة من ملح السردين !

ثم يعود ادراجه الى بيته عطشا . وبالطبع سيقف ليبحث عن « سبيل » ليشرب منه مجانا .. ثم يتجشأ مستطيبا ما النهم . وعينيه على قط جائع ينهش سردينة اختطفها هو الآخر ولكن سردينة وليست رائحتها فقط !!
يا لمكر الحيوان واذكاه ؟



ثم من منا الذى لم يسمع عن ذلك الفلاح البخيل الناصح الذى يرى من شطارته أن يشترى بطيخة .. ليأكل ويحلى من لحمها الأحمر ثم يعطى قشرها الأخضر الى حماره الجائع اللاهث .. ثم يبتسم قبل أن يتزتز لب ذات البطيخة ليسلى نفسه وهو يكمل المشوار فوق ظهر حماره !



هل رأيتم فلوس ؟

□■□ .. لعلى لا اكون قد جاوزت الصواب او انطلق بى التقـدير عندما اجعل اسم [ارباجون] مرادفا للبخل ، أو نجعل البخل مرادفا لاسم ارباجون .

وارباجون هو بطل مسرحية ا البخيل]لموليير (٥١ سـنة) ثالث ثلاثة عمالقة ظهروا فى عالم المسرح والشـعر الأوروبى ــ كورنى وراسـين وموليير ؛ بل انه يفوقهما بسخريته اللاذعة الحادة أحيانا .

لو كان لى ان اجسد « البخل » لكان ــ أرباجون ــ هو الدم الذى يجرى فى عروقه .

وارباجون جريا على ما يمليه عليه بخله وشحه لا يكتفى بأن يقتر على من حوله من خدم . اذ يظهر خادماه فى خرق بالية مضحكة حتى يثير الأسى والرثاء فى نفوس ضيوفه . انه لا يقدم لجوادى عربته من التبن والعلف ، الا ما يكفيهما مجرد جـر العجلات .

يستريب فى كل من حوله . لا يمـل سـماع عبارات المداهنـة والملق ولا يحتمل الحقيقة ويرمى قائليها بقلة الذوق واللياقة وسوء الأدب . كما يقف البخيل حائلا دون ما يربط ابنه «كليانت » بـ « ماريان » من حب . ويحاول ان يكشف ما فى قلب ابنه من حب ليحول دون زواجه بها . وذلك

لكى يفوز بها . على ان هذه المجاهدة للسطو على قلب ماريان — لا تغير من طبيعته فى البخل ونفسيته النهمة الشرهة ، فسر حبه وهيامه بها ينطوى على رغبة مسعورة فى مالها ، ثم ان زواج ابنه بها ، وهو امر مستحيل — سيكلفه بالطبع مالا ، بائنة .. مظهرا ..

نفس هذا الموقف يتخذه من ابنته « ايليز » وحبيبها « فالير » — وفالير هو اخو ماريان — فهو يريد أن يزوجها « بانسلم » وهو رجل فى الخمسين من عمره وهى لاتزال تحت العشرين . وذلك طمعا فى بائنتها من « آنسلم » الغنى ، انه لا يرى فى فالير الا الشاب الطائش المتأنق الذى لا يملك شيئا .

وبينما كان كليانت يصارح اباه بسوء تقديره للأمور فى ثبات وصدق . كان « فالير » عشيق « ايليز » يستخدم المداهنة والملق والمداراة كأسلم طريق للوصول اليه . وقد نجح بهذا فى كسب ثقة ارباجون ، عساه أن يزوجه من ابنته .

كان كليانت بحاجة الى نقود كى يفوز « بماريان » . ولذا فقد اضطر للاستدانة من احد المرابين عن طريق احد الوسطاء كى يدفع لاهلها بائنتها . مقابل فوائد ضخمة . وقد اتخذ كليانت من خادمه « لافليش » وسيلة لاقتراض المبلغ من هذا المرابى اليهودى . ولكن الخادم رجع اليه ببيان غريب ينطوى على شروط المرابى العجيبة . لقد وقع كليانت بين أمرين احلاهما مر ..

يكتشف كليانت بعد ذلك أن المرابى لم يكن غير ابيه « ارباجون » وتتم المكاشفة بين الابن والأب فى عبارات حادة بذيئة .

ويهتدى كليانت الى حيلة أخرى عن طريق خادمه « لا فليش » يرغم بها أباه على الرضوخ للتخلى عن « ماريان » بأن يسرق « لافليش » صندوق أموال ارباجون . ووضعه فى مكان خفى لا يعلمه الا « كليانت » و « لافليش » . يستغيث أرباجون بالشرطة التى تبدأ فى التحقيق باستجواب الحوذى « جاك » الذى يعترف بأن السارق ليس الا فالير عشيق « ايليز » ، ابنة البخيل . ذلك لأن « فالير » يستخدم المداهنة والدهاء مع ارباجون . وهذا سلوك يرفضه الحوذى .. لذا كان دائم الشجار معه . كما انه ضربه ذات يوم فكيف لايتهمه .

ويطلب ارباجون من حضرة الضابط رئيس الشرطة تحرير محضر ضد « فالير » . الذى يحدثه فى نفس الوقت عن غرامه « بايليز » ، فيظن البخيل انما يحدثه عن غرامه بماله الموجود بالصندوق الذى سرقه .

ويحضر « آنسلم » ويعلم بواقعة السرقة ويسمع دفاع « فالير » عن نفسه ويعلن عن نبل أصله وشهامته الأمر الذى لا يتفق وأن يكون سارقا . وهنا يتعرف « آنسلم » على فالير . فلم يكن فالير وماريان الا نجلى آنسلم. لقد بعد بهما اللقاء منذ زمن بعيد عندما غرقت السفينة فى نابولى وتفرق كل الى طريق بعد النجاة من غرق اليم بأعجوبة .

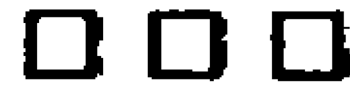
يصدم : ارباجون من وقع المفاجأة ، لكنه يلح مكررا الرجاء فى الحصول على صندوق أمواله الذى سرقه « فالير » . ولكن كليانت يظهر فى هذه اللحظة المسرحية المناسبة ويعلن انه هو الذى اخفى الصندوق ولن يظهره حتى يعدل البخيل عن تمسكه بماريان .

يوافق البخيل مرتعش الجسد مضطرب النفس والفؤاد ، على شرطين : اولهما ان يدفع له آنسلم ما كلفه التبليغ والتحقيق من اموال !! وثانيهما ان يقدم له آنسلم زيا جديدا يرتديه ويظهر به فى حفل زواج ابنه .

آنسلم : ليكن .. ولنبادر الآن باشراك أمكما فى مسرتنا .

البخيل يهتف وعيناه تلمعان : .. ولأبادر انا الى رؤية نقودى !

وما أكثر من ترجم او عرب مسرحية [البخيل] لموليير من بينهم : محمد مسعود ومراجعة : على الجارم وعلى عبد الواحد ثم على درويش وابراهيم الحلو ونجيب حداد وصبرى فهمى وزكى طليمات .



اذا كنت قد استعرضت لك سطورا من قبل للجاحظ .. ثم « اشعب » فلماذا لا اقدم لك فقرة من ادب موليير عندما يقدم مسرحيته الساخرة : البخيل .. واللقطة حوار .

. . . . .

. . . . .

ارباجون : [متصورا انه وحده] ومع هذا ، لا اعرف ان كنت اصبت اذ دفنت فى حديقتى عشرة آلاف ريال ردت بالأمس الى .. عشرة آلاف ريال تبقى فى البيت لقدر من المال .. هنا يرى ايليز وكليانت وهما يتهامسان ويخطوان .. فيتحدث الى نفسه .. يالله ! لقد فضحت نفسى منساقا بدافع هوس الحماس ، واخشى ان أكون رفعت صوتى وانا اردد ما يجول بخاطرى [ثم يوجه الخطاب الى كليانت وايليز]

.. : ما شأنكما ؟

كليانت : لا شىء يا والدى.

.. : انتما هنا من وقت طويل ؟

كليانت : اننا وصلنا حالا .

.. : اسمعتما ..

كليانت : اى شىء سمعنا يا والدنا العزيز ؟

.. : هناك .

ايليز : ماذا الذى تشير اليه . صارحنا !

.. : ما كنت اهمس به .

كليانت : لا ..

.. : بل سمعتما ، سمعتما .

ايليز : سمعنا ماذا .. ؟

.. : يقينا سمعتما همس كلماتى . عندما كنت ؟!

كليانت : لقد تحاشينا مخاطبتك حتى لا نقطع الحديث عليك .

.. : يسرنى انى اخبرتكما بما قلته الآن ، حتى لا يلتبس الأمر عليكما فتحملان قولى على غير ما غيت ، وتحسبا انى قلت اننى انا الذى يملك العشرة آلاف الريال .

كليانت : اننا لا ولم نتدخل فى اعمالك ابدا .

.. : ليتنى كنت صاحبها تلك الالاف العشرة ليتنى .. ياريت ؟

كليانت : لا اظن ان ..

.. : آه لو انها لى ، لكانت مغنما ومستفادا حسنا .

كليانت : تلك اشـــياء ..

.. : ما اشد حاجتى الى هذا المـــال !

كليانت : ارى ان ..

.. : وكم اكون به راضيا .

ايليز : انك ..

.. : فلا اعود اشكو حيف الزمان كما افعل الآن .

كليانت : يالله ! ليس لك ان تشكو من شىء يا والدى . فلا احد يجهل ان لديك مالا موفورا .

.. : ماذا تقول ؟ . لدى موفور .! انا ! لقد كذب من افتروا على هذه الفرية ، وما اكبر ما كذبوا ! وانما هم السفلة الاشقياء الذين اذاعوا هذا البهتان .

ايليز : دع عنك هذا الغضب يا والدى .

.. : عجب ان يخوننى ابنائى ويصبحوا لى اعداء الداء .

كليانت : انكون اعداء اذ نقول انك ذو مال موفور .

.. : نعم . ان اقوالك هذه والنفقات الباهظة التى تبسط بها يدك ، ستقضى بالناس يوما ما الى اقتحـــام بيتى ليذبحـــوننى بزعم اننى من كبار الموسرين .

كليانت : واى نفقات باهظة تقول انى ابسط بها يدى تبذيرا وسفها ؟

.. : اتسألنى ما هى ؟ اهناك ما هو ادعى الى الفضيحة من مظهرك الفاخر الذى اصبحت تعرضه على الناس ، فى نواحى البلدة ؟ لقد كنت اعنف اختك بالأمس فى شأن من هذا القبيل . ولكن ما اراه منك اليوم لهو ادهى وامر . انها لحال تستنزل نقمة السماء ، اذ لو احصى ما تحمل من ثمين الأزياء ، لاجتمع منه مال يأتى بربح وفير . ولطالما نبهتك الى انى غير راض عن مسلكك . ولكن الزهو والاختيال اخذا من نفسك مأخذا عميقا فعكفت على التشبه بالعظماء وذوى الألقاب ، وطفقت تمشى فى الأرض مرحا . ان ما ارى عليك من ثياب انيقة لأظهر دليل على انك تسلبنى مالى .

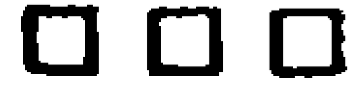
كليانت : عجبا ! واين لى ان اسرق مالك ؟

.. : مايدرينى ! .. ومن اين لك اذا ما تنفقه فى الأزياء الغـــالية وحب المظاهر والاسراف من غير حساب فى سبيل التفـــاخر والتعالى على عبيد الله من البشر .

كليانت : انى اقامر يا والدى ! ان الحظ يواتينى فى اللعب . فما اكسبه من الفلوس اصرفها على نفسى وملابسى .

.. : هذا غير معقول . غلط . غلط ، واذا كنت موفقا فى اللعب فان عليك ان تستغل حظك السعيد ، فتجنى مما تكسب ربحـــا خالصا ترصده للأيام .. الم تسمع بأن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الأسود .. مثل يقولونه فى الشرق !. ثم انى اريد بصرف النظر عن بقية الأشـــياء ، ان اعرف ما الفائدة من كل

هذه الاشرطة المتناثرة عليك ، من ام راسك الى اخمص قدميك. اما كان يكفى لتثبيت سراويلك فى موضعها نصف دستة من هذه المشابك والازرار ٠ ؟ وهل من حاجة ملحة الى صرف المال فى باروكة الشعر المستعارة ، اذا كانت الطبيعة لم تضن عليك منشعرها بما لا يكلفك ثمنا ؟ انى لاعتقد ان ما تحمله من اشرطة وشعر مستعار لا يكلف اقل من عشرين بستولا ، تأتى فى كل سنة بربح لا يقل عن ثمانى عشرة ليرة وستة سولات وثلاث دوانق ، هذا على فرض انها لم تستثمر الا بفائدة ليرة واحدة فقط فى كل اثنتى عشرة ليرة .



الحب العذرى .. ليس بالإكراه !

□■□ .. كثيرا ما تتحول كلمات : توفيق الحكيم امامى الى الوان ولوحات . وكثيرا ما اتصور ان الحكيم ، انما هو فنان رسام ، ضل الطريق فى مرسمه الى مكتب الأديب الكاتب .

كل العناصر الفنية يطرحها الحكيم امامك فى تكوين بديع مثل رسام قد اجتمعت فيه الخبرة الى عمق احساسه . اللون موجود . الحرارة والدفء . الخطوط البسيطة . المساحة واللمسات .

ان اللوحة تذكرها بكل تفاصيلها عن بعد ، بعد ان تراها للحظة عن قرب . ان ملامحها لا تضيع من مخيلتك مهما عشت بعيدا زمنا وجهدا .

توفيق الحكيم له وعنده سهولة الايحاء اليك بقلمه .. كما يقدر الفنان ان يؤثر عليك بفرشاته والوانه .

انك تقرأ الحكيم ثم تطوى صفحات كتاب له .. ولكنك تذكر الصور ، التى اراد ان تحس بها . بلا معاناة . ليس مهما ان تحتفظ ذاكرتك باسلوبه السهل ولكن سهولة عرضه تجعلك تختزن افكاره التى يرسمها لك مستعينا بسواد الحرف الذى يوحى بالوان عديدة مختلفة تراها بخيالك ، فتعيش معك بعد اللحظة .

بهذا الأسلوب يعرض علينا من ٣٩ سنة مسرحيته ذات الفصل الواحد : [الحب العذرى] ضمن مجموعة « مسرح المجتمع » التى نشرها ١٩٥٠ .

والمسرحية عبارة عن مجموعة من اللوحات الفنية الرائعة حوارا وفكاهة وتصويرا لكل خلجات البخل المتمثلة فى « عبد الغنى بك » . وعبد الغنى بك احد اعمدة المجتمع الذى كانت الاحزاب تتبارى فى ضمه اليها طمعا فى ماله وسخائه على خواء خزينة الحزب الذى قد ينضم اليه .

يأتى رئيس احد الاحزاب وسكرتير الحزب الى منزل عبد الغنى بك ، ويطلبان منه تشريف الحزب بأن يكون أمينا لصندوقه ، ولكنه يتوجس شرا من هذا المنصب الذى يعرضونه عليه لا لسواد عيونه ولكن — بالتأكيد — طمعا فى ان يمد الصندوق بالمال وهو مالا يرضى عنه .

وكلما مضى الرئيس والسكرتير فى ترغيبه ، كلما ازداد عبد الغنى بك توجسا وشكا فى نياتهما .. اخذا يرغبانه ويوعدانه بأن الحزب عندما يأخذ الوزارة سيولية وزيرا للخـــارجية ، ولكن هذه الوزارة لا تروق له فهى وزارة الترف والابهة والسفريات والانفـــاق الفارغ — الأمر الذى ينوء به جيبه . أما وزارة الأوقاف فهى لا تروق له بالمثل ، فهى فى رأيه وزارة الشحاذين ، ولا مكان فى جيبه لقرش يمنح لمتسول أو شحاذ .. اما وزارة المواصـــلات فهى الوزارة المناسبة فعـــلا ، فعلى الاقل ســـيركب الترام والاتوبيس بالمجان ، انها تعطى ولا تأخذ .. انه يحبها حبا عذريا .

ولا يزالان به يرغبانه فى الانضـــمام اليهم ، وهـــو كفـــار أمام قطين شرسين ... يدعوانه الى وليمة .. لكنه لا يرفض هذه الدعوة من ناحية المبدأ على الأقل .. لكن هنالك امرا .. وهـــو لابد من رد الوليمة وهذا أمر مستحيل .. فليس عنده طباخ .. فكلما اتى الى بيته طباخ طرده لأنه اثبت على كل الطباخين تهمة سرقة السمن .. لقد تفننوا فى سرقته .. كان احدهم يحمل معه عصا مجوفة ليخبىء داخلها السمن .. فكيف له أن يرد الوليمة ..

باختصار يفقد السيدان الأمل فى هذا « العبد الغنى » وهو الفقير شـــحا ويرفض رئيس الحزب القهوة التى طلبها له قسرا .. من بسطويسى الخدام المحـــروم .

يدخل عليه : بسطويسى .. يطلب اليه أن يمنحه قرشا لشراء قطعة جبن رومى ليضعها فى المصيدة لأن الفأر يصـــول ويجول بالمطبخ ويعبث بأدواته فسادا .. ويتعجب عبد الغنى لهذا الفأر الارستقراطى الذى يأبى أن يصطاده الا بقطعة من الجبن الرومى .. وأين القطط بهـــذا الخادم المتلاف ؟ ويرد الخادم المتلاف بأن القطط لا تأتى الى البيت لأنها ببســـاطة لا تجد ما تأكله فكل شىء بحساب ...

يأتى الى البيت رجل مسن .. محام ... يحسبه عبـــد الغنى طباخا جديدا فيلقى عليه بأوامره وتحذيراته من سرقة السمن ويستعرض معـــه تاريخه مع ما سبقه من الطباخين ، ويأخذ منه عصاه علها تكون مجوفة تمهيدا لسرقة السمن .. فيغضب الرجل ويخبره بأنه محام كبير .. انه خال نهاد .. عندئذ يطلب من بسطويسى القهوة التى صنعها لرئيس الحزب ولم يشربهـــا ...

لكن يحدث أمر آخر لا يتوقعه عبد الغنى بك وهو ان المحامى يطلب

منه أن يتزوج نهاد التى غدر بها .. انها الآن حامل .. وتدخل نهاد تبـــارك له الجنين الذى سيخرج الى الوجود مثبتا رجولة عبد الغنى بك .. ووارثا لأمواله الطائلة .. ينكر عبد الغنى بك علاقته بنهاد .. ان علاقته لم تكن الا من قبيل الحب العذرى حب بلا ثمرة ، بلا أولاد بلا ورثة بلا اموال ... ببســاطة ... انه الحب العذرى . ويهدده المحامى برفع قضية ضده ، ولكنه لا تهمه القضايا .. انه برىء من هذه العلاقة التى تكلفه جيبه ويخرج المحامى وابنة اخته نهاد مهددا برفع قضية ضده . دون ان يشرب القهوة .

ينادى على بسطويسى يطلب منه ان يشرب القهوة التى لم يلمسها احد ، مش خسارة فى بسطويسى ... جحا أولى بلحم طوره .. كما من عليه اخيرا بقطعة جبن رومى ثمنها قرش صاغ بأكمله .. اشتراها لأن الناس مقامات لقد احرج أمام البقال .. فكيف لعبد الغنى بك بجلالة قـــدره أن يشترى بأقل من قرش صاغ جبن رومى ..

ان بسطويسى كان يريد الجبنة لنفسه ليأكلها .. فهو دائما الجـــائع الملتهب عطشا وجوعا فى هذا البيت .. ليس هناك فئران والا فمن أين نأكل فى هذا البيت الذى يسوده الحب العذرى فى كل شىء .

جاءه من يخطب والدته وعمرها ٧٨ سنة ؟

□■□ .. جمعتنى بعض سنوات عمرى بالمليونير اغاخان الـكبير : المدفون الآن فوق جبل غرب اسوان .. وهو المع من راس روحيا وتزعم طائفة الاسماعيلية [وعددها ٢٠ مليون نسـمة] المنتشرة او المتفرقة فى انحاء العالم خاصة شرق افريقيا وفى بعض ارجاء سوريا ثم على هضاب آسيا حتى مشارف الهند وباكستان وايران وقلة منهم تعيش مبعثرة فى قلب اوروبا وامريكا .

وقد تعودوا اثناء حياته بأن يزنوه فى كل مناسبة ويهدونه بلا مناسبة .. ولو كان توفيق الحكيم — الذى احتفل بعيده الماسى . هو الذى يتزعمهم لكانوا وزنوه بالماس . اى وضعوه على كفة .. ووضعوا ثقله ماسا حرا لامعا براقا يهبل العيون ويخبل العقول — على الكفة الأخرى . ثم اهدوه اليـه .

خسارة بالطبع لأمل منشود كان يتمناه الحكيم ولو خيالا .

وعلى كل .. فاختيارى للقب المليونير امام اغا خان .. فيـه خطـا التقدير . لانه فى الحقيقة كان بليونيرا .

وكان بعض اتباعه من بسطاء القوم .. يتفقون مع بعض عمال فندق سميراميس المطل على نيل القاهرة — وكان يفضـله دائمـا لاقامته هو والبيجوم ام حبيبة — اذا ما حضر الى عاصمة مصر وكثيرا ما كان يحضر — ليخدموهم فى مقابل قيمة يدفعونها .. اذا ملأوا لهم بعض مـاء زاد عن حمامه يملأونها فى زجاجات . ياخذونها بعد دفع المعلوم .. تذكارا وبركة .

لشىء ما لمس جسد الزعيم . زعيمهم الروحى والذين تعودوا ان ينظروا اليه بنظرة التبجيل الى درجة تقرب من التقديس .

بل لقد رايت ابنه الأكبر على خان — قبل ان يصرعه حادث سيارته التى كان يقودها عندما اصطدمت مسرعة بجذع شجرة فى الطريق الزراعى فى أوروبا .. وكان يحضر مع أخيه صدر الدين أغا خان بعض مراسم اعادة دفن والدهما فى مدفنه الفريد . على ربوة الجبل فى ضريحه الفاطمى الطراز . والقابع هناك وكأنه اسطورة .. يزورها سواح المدينة وزوارها. فقد اصبح من معالمها المرموقة .

رايت على خان — ووالدته ايطالية — يجلس على مقعد فى قاعة بار فندق كتراكت المطل على نيل اسوان . بعد ان حجبت ادارته زجاجات الخمر وابعدتها مؤقتا .. وافترش الارض امامه نحو ٢٠٠ فرد من الطائفة التى قدم عشرات الآلاف منهم ليحضروا المناسبة — وهى مقدسة بالنسبة لهم — افترشوا السجاد الذى يغطى ارضية بهو البار .. وفرد كل منهم امامه — بعد أن تربع — منديلا فى وسطه بعض احجار صغيرة وزلط من احجار اسوان .

المنظر شدنى اكثر .

.. — مالهم يفعلون هكذا ؟

وقال الصديق : على الصديق : الأمير صدر الدين اغا خان — واشهد انه مثقف — وهمس فى استنكار : انهم يريدون البركه .. ان يتطلع اليهم وينظر الى حجارتهم اخى على اغا خان .

وقد كان .. واومأ على اغا خان بحركة من شفتيه ومد ذراعه ثم وقف .. وتهامسوا وابتهلوا .. ومشى الأمير اغا خان .. خارجا .

وبدا المنظر اكثر اثارة .

كل واحد من الجالسين .. كان حريصا اكثر على منديله المحتوى على الحجر والزلط الصغير . يعنى بربطه وكأنه صرة لعله يهدى بعض ما فى داخلها هدايا .. الى الصحاب والمقربين عند عودته الى بلده . فقد حظيت ولو بنظرة من ابن الأغا خان الأكبر .

واذا كان الأمير صدر الدين اغا خان — ووالدته فرنسية — وكان يحتل منصبه الرفيع فى الأمم المتحدة .. مندوبا ساميا للاجئين — وكان واحدا من ثلاثة رشحتهم اخيرا الأمم المتحدة لمنصب رئيسها : سكرتيرها العام .. شيئا آخر ثقافة وعلما واطلاعا وصلة بالفن والأدب وحضارة الأثر ، والمجتمع العالمى المتحضر . الا انه لم يكن مثل اخيه .. على خان ، الذى كان متزوجا من ممثلة السينما العالمية ريتا هيوارث وايضا ليس مثل والده الأغا خان الكبير ، الذى لم يتصف بالبخل وانما بالحذر المادى . والا لما ترك ثروته الطائلة فى انحاء الدنيا خاصة فى سويسرا . حيث لا خصم ولا ضرائب .

□ ولا وجه للشبه .. ولكنه ربما توارد خواطر وتـلاحق صـور قد تحتجزها الذاكرة وتعيها لفرصة معلومة .

فاذا ما تركنا أغا خان .. الى بيكاسو وملايينه الـ | ٧٥٠ | دولارا غير العديد من أعماله الفنية التى لم يبعها ورثته بعد .

فان بيكاسو أيضا لم يكن كريما . ولكنه كان أقرب الى البخل بدليل انه احتجز ثروته لم يورثها الا لأبنه الأكبر وارملته .. اما الثلاثة ابنـاء غير الشرعيين له . وبينهم بنت . فقد حرمهم من اى فرنك قد ورثه لهم . حتى النظرة الأخيرة الى جثمانه حرمهم منها !

ولهذا فلم يكن غريبا ولا عجيبا - أن يفقد حفيـده . ابن ابنـه الأكبر الشرعى .. أعصابه لأن والده حرمه من رؤية جثمـان جـده — حسب رغبته — وحاول الانتحار . وأنقذوه . ولكنه مات بعد ٣ شهور من وفاه جده متأثرا بسموم الحبات التى ابتلعها .

المدهش أن هذا الحفيد الذى قتل نفسه — وله من العمر ٢١ سـنة فقط — كان يعمل ساعى بريد .. فى قرية . وهو حفيد البليونير بيكاسو !

والأعجب أن القرية التى يسكنها هذا الجد الصعلوك فى قصر حدائقه تفترش أكثر من ١٠٠ فدان - والمفروض على الحفيـد .. أن يسعى كل صباح ليضع بريد المعجبين ببيكاسو .. داخل صندوق البوسته الخارجى. المعلق خارج البوابة !

□ ولكن هذه الكلمات الأخيرة تقربنى بعض الشىء من اغنى اغنيـاء العالم — الذى مات — وهو الأمريكى العجوز : جين بول جيتى | ٨١ سنة | الذى يملك ٢٥٠٠ مليون دولار (لا خطأ هناك اذ ان رقم ثروته المكشـوفه — لا المخبأة والتى لا يعرف سرها الا هو بعد الله — هو الفـان وخمسمائة مليون دولار !!) .

يعنى يستطيع ان يكسب ٢٥٠ مليون دولار كل عام على الاقل ويضعهم زيادة سنوية من استثمار لثروته .

جين بول جيتى — الذى تزوج خمس مرات وفشل — قريب الشبه فى بشاعة الوجه من شخصية الرعب « دراكولا » .. قال فى اكثر من مناسبة « ان الحياة لا تقدم للانسان سوى لذتين : الأولى : لذة جمع المال والثانية لذة الاحتفاظ به » .

قول أصبح ماثورا ينسب اليه . هذا الذى فقد ابنا من ابنائه منتحرا عندما تناقلت وكالات الأنبـاء .. بأن جورج فرانكلين جين (٤٨ سنة) ابن البليونير جيتى صاحب آبار البترول - مات فى نيويورك بالاقراص المنومة.
ومن حفيد بيكاسو الى ابن من ابناء جيتى .. ياقلب لاتحزن !

والأغرب .. انه بعد وفاة الابن بعشرة ايام فقط رفض البليونير جيتى دفع فدية طلبها من اختطف حفيدا له .
وبدات وكالات الانباء العالمية تنبع من جديد حادث الاختطاف وما حـوله من تقتير الجد .

من بين البرقيات .. ناشدت والدة بول جيتى الثالث (١٦ سنة) حفيد البليونير الأمريكى حماها بأن يدفع شيئا . يفعل شيئا . فان العصـابة

الايطالية قد طلبت ما قيمته ٢٠٠ الف جنيه استرليني . من اجل اعادة ابنها الشاب اليها ! .

ورفض البليونير جيتي . ان يدفع . كانت حجته .. ان ذلك معنـاه تعريض أحفاده الـ ١٤ الآخرين للاختطاف .

وقد قال قبلها .. انى اكره ثروتى ، لانها تشكل عبئا على . فقد طلب منى واحد من الناس مساعدة قدرها مليون دولار !

مع ذلك .. ربما يحسد عديد من قراء وقارئات هذه السطور : سعادة البليونير . ولكن صدقونى انه اصبح يخاف الناس !

تماما مثل بليونير عاصمة السينما : هيوز .. المنطوى على ذاته ولايتصل بقمه من يعمل معهم الا عن طريق التليفون خوفا من العدوى ! ان جيتى .. مثل الأعرابى العطشان .. الذى يتأمل السراب فيخدع نفسه ويلهث جاريا اليه . وتتباعد المسافه .. ولا ماء بحر ولا قطرة ماء هناك .

هكذا جيتى مع السعادة .

انه يفتقدها .

لا يجد امرأة تحبه لنفسه .

اذا ابتسمت له انسانة تصـور انما هى تبتسم لجيبه . لحـمضنه . يعرض عنها بوا .

اذا انحنى له جرسون .. فانه يمعن فى ان لا يمد يده الى جيبـه ـي يتصور انه لا ينحنى الا له . تقديرا لذاته لا لفلوسه !

اذا سأل عنه قريب .. تصور انه انما يسأل حتى يطمئن الى قرب قريب منه فيعجل به ليرث !

ان جيتى عاش دائما فى جحيم الشك . الخوف . الذعر .

لقد صحا على الدنيا . وهو وارث مليونير . لم يتعب الا فى ان يضـ ثرونه .

وهو يحكى ساخرا من الدنيا والمال والقيم :

« عندما مات والدى .. وكان لى من العمر ٣٧ سنة . كنت مليونيرا . اتته الصحافة بكلمات مؤثره نشرت ايضا ارقاما عن ثروته . وسبقته اكثر من ٥٠٠ عرض زواج من والدتى التى اصبحت ارمله ولم يكن قد مر اسبوع على وفاة والدى زوجها .

ولم تكن عروض الزواج طمعا فى جمالها ولا ذكائها وشبابها الذى صـ وشاخ ــ ولكن لانها كانت : وارثة .

كم ترى كان عمـرها لحظة ان مات والدى . كان لهـا من العمـر ٧٨ سنة !

واذا كان لى ان استمر فى سرد بعض التناقضات عن ذلك الغنى الفاحش الذى يجتمع مع الشح الساخر عند صاحبه . فالوضع لا علاقة هنا من قريب او بعيد بأى مقارنة بأديبنا المفكر توفيق الحكيم . فلا هو مليونير . ولا هو مليونير . وانما على الأصح مديونير ... اى مديون بالهموم فقد ارتضى لحياته ان يكون الفكر هو منبع ما ينفق على ذاته واسرته . وامان مستقبله .

اما اولئك الوارثون والعاطلون بالوراثة .. ولا هم لهم الا جمع المال . فان حياتهم غريبة لا عمق فيها ولا ثقافة مثل مفكرنا حكيم ادباء العـرب المحدثين .

ورحم الله على اي حال الجاحظ واشعب .. فقد كانا اكرم ما من شك واكثر خلقا واكثر ثقافة من هذا البليونير : جيتى ، الذى يمتص جوف الارض بترولا .. ويمتص عرق المجتمع مالا ! ثم يخاف الناس . بينما يعطى الحكيم فكره للناس .

ولعل شخصية جيتى .. تذكرنى برجل شاذ آخر قد مات قبله . ذلك هو مستر ٥٪ !

وهى النسبة المئوية التى اصبحت علما عليه . يـكفى ان تذكرها فى حوارك حتى يعرف مستمعك انك تعنى مستر : جولبنكيان .

انه البليونير الأرمنى الأصل جولبنكيان .

اما نسبة الـــ ٥٪ فهى نسبة حرص عليها هو ووالده من قبله مع شركة بترول عراقية بريطانية .. على أن يمنحها البحث فى اعماق مساحة ارض يملكها كل منهما ، فى العراق .. فاذا ما كان هناك بترول .. فان نصيبه سيكون ٥٪.. وتدفق البترول بشكل لم يتصوره احد من قبل . وتدفقت كمياته وكان له من تلك النسبة .. ايراد لا ينتهى ولا يشبع .. وانما هو بئر بلا قرار. حلم بلا نهاية . خيال مطلق بلا حد .

ومع كل هـــذا هـــل يدفع جولبنكيان مليما لاحـــد بقشيشا او تبرعا او مساهمة ؟ الجواب : لا !

ومع ذلك كان يخاف الناس . يشك فيهم وفى الدنيا كلها التى اعطته . يطلق شعرات ذقنه حتى لا يقرب احد بالموس من رقبته .

كان يفضل دائما ان يذهب الى مطعم . ليونر بقية طعام . وكان يجلس فى احد اركانه الظليلة ، حتى لا يراه احد . فلا يقبل عليه احد ليشـــاركه اللقمة . او طامعا فى ان يدعوه الى شراب وغذاء او عشاء ! او حتى يعزم عليه بسيجارة !

حتى فى المطعم كان يجلس مذعورا ينتظر طعامه الذى علمه بعلامة حتى لا يغيره احـــد . يطلب من الجرسون ان يأتى له بقطعة لحم . او سمكة نيئة . يراها جيدا يشمها . ثم يغرس السكين فيها راسما علامة . واذا ما ذهب بها الى الطاهى ليشويها .. ثم يعيدها .. فانه تعود أن يقلب فى قطعة اللحم اوالسمكة المقلية او المشوية امامه .. ليرى « العـــلامة » اولا .. ثم يبدأ طعامه فى جشع الحريص على الحياة التى فقدها !

ومع ذلك أين هو مستر ٥٪ .

انه لم يترك شيئا . ولا حكمة ولا فكرا ولا فنا .

وكثيرا ما اتخيل .. لماذا كل هذا الحرص .. ولا جيوب فى الكفن . هل رايتم كفنا له جيب ؟

هل رايتم .. هل شاهد واحد منكم راحلا عزيزا لنا وقد اخذ معه مالا ؟! ربما ستتصور ان واحـــدا من اقرب الناس الينا سينال حظه فى وصية مستر ٥٪ .

ابدا .

حتى الرجل الذى خدمه ٢٠ سنة واكثر خدمة العبد للسيد . كان ساهرا على راحته وصحته ويملأ بعض فراغ ملل حياته . لم يترك له فلسا واحدا ولا حتى كلمة شكر !

كنت أزور «اللوفر» بالمجان كل أحد

□■□ .. ان توفيق الحكيم مبهور بكل هذه الحضارة .. التى يراها فى باريس وميادينها ومكتباتها . تماثيلها . حدائقها . مسارحها . مفاتنها . كنيسة « نوتردام دى بارى » « الانفاليد » « جراند باليه » « قوس النصر » الذى يحتل قلب « الاتوال » مقاهى باريس « فوكيت » و « بوبيه دى ريتوند » ازقة مونبارناس ومونمارتر . الحى اللاتينى . صعلكة الفنانين والفنانات . بقايا حى البيجال .. انه يرى عجبا . متاحف باريس تشده . ولكنه ينشغل بكل هذا وذاك فى اى لحظة من ليل او نهار الا متحف اللوفر .. انه يواظب على زيارته فقط فى وقت معلوم فى يوم بالذات من ايام الاسبوع . لماذا ؟

انه يقول لى : كنت اتوجه الى حدائق التوليرى ومنها ادلف الى [اللوفر] **كل صباح يوم احد** . فهو اليوم الذى هيأت ادارته دخول ذلك المتحف الكبير بالمجان . ! كنت اقف فيه مشدوها .. اوزع ايام الآحاد بين قاعاته .. اخصص يوما كاملا لكل قاعة فيه . احاول ان ادرس سر اختيار اللون وانسجامه مع اللون الآخر الذى اختاره فنان اللوحة . كل لوحة ما هى الا عالم . مسرح . ومسرحية داخل اطار وبرواز . انى اقف لاتامل . اسرح فيها . واكاد استمع حتى رنين الكؤوس او همسة العاشقين .. او خطى الجنة واكاد احس بنسمات الربيع وهى تهب على

اسطورة زبد امواج البحر « فينوس » عندما تخيلها بوتتشيللي .. فصور مولدها على لوحتــه . ان عينيى تكادان تسمعان شــعرا ونغما ونثرا والحانا .. وهما تتطلعان الى الوان ولوحات ورسـوم وتماثيل من اعمال الخالدين المحدثين . من سبقوهم فى عصر النهضة واتجاهــات ومذاهب مدارس اوروبا الفنية .

لقد عرفت عظمة مصر .. من مجموعتنا المعروضة هنــاك فى ابهــاء الفراعنة فى اللوفر . لقد كنت ازهو بفنونهم ذات الثبات الحركي . انك تحس امامها بالخلود . بالاعتزاز . بالبعث كلما رايت تحفة مصرية فى ذلك المتحف ، كنت احس ان عمرى على الأقل ٥٠٠٠ سنة راسخ ممتد مثــل الزمن الدفين .

ان العقل فى فن التصوير ليس فى الراس بقدر ما هو فى العين !

واقف مع كل الشموخ كلما دنوت من مسلتنا الشاهقة التى ترتفع فى قلب ميدان الكونكورد تتحدى برج ايفل . انها اقدم منه اكثر من ٢٥ قرنا . ولــكن مصرنا فكرت فى الارتفاع والعلو والسمو قبلهم . ولو من جرانيت مقطوع من اسوان . ليعتلى هنا مساحته ما بين الشانزليزيه والتوليرى مشرفا على متحف الــ « جو دى بوم » .. انى مهووس بالفن المعــاصر الرمزى والتأثيرى والتكعيبى والتجريدى .

انا مولع بــ « بالمودرنيزم » . انه يؤثر على فى فهم الأشياء من خلال بساطته . اداته . انه لا يبحث عن السطح بقدر العمق .

ان الصراع داخلى بين « الكلاسيك » و « المودرن » . بين القــديم والحديث .

انى متحمس — فى تعادلية غلابة .. ان مذهبى التعادلى يتغلب على ذات القديم .. انا عاشق : لتشــيانو . وليوناردو دا فينشى . ، ومايكل انجلو : وتينتوريتو ، والجريكو . وبروجيل . ودياجو فلاسكويز ، وجان فيرميير ، ورمبرانت ، ولويس دافيد ، وتيرنر .. حتى ديللا دى كروا ، وهونوريه دوميه ، ثم انا عاشق للجديد : للتأثيرية فى : مانيه ومونيــه وبيير رينوار وديجا وسيزان وجوجان وفان جوخ وماتيس وبابلو بيكاسو ، وهنرى موور وسلفادور دالى .. وبالطبع : مارك شاجال ، واوســكار كوكوتشكا . وكاندينسكى . وبراك ، حتى ... موديليانى ودوق .

... — أوه .. اكاد اعشــق كل لمســـة لون .. من الــكلاسيكية والنيوكلاسيكية حتى الداديزم . البقع الضوئية . المساحات . الأحجام . الخطوط . عدم التقيد بالطبيعة . بالضوء . بالهواء . بالدفء .

ان مصدر الفن عندى هو الروح مع الاســلوب . وليس الشــكل مع المحاكاة .

ان التعادلية عندى ان اتذوق القديم والجديد .. معا . ولكنى مفتون بالجديد ، خلال ايامى فى باريس .. كنت اتردد على جاليرهات معارض الفن .. احاول ان اتذوق . ان اتعمق . ان فهم . ولكن هذا المهــ أ معنى فيما اضعت بعض مالى .. سدى ، ذات مساء وليلة .

وساحكي حكايتي بعد قليل .

. . . .

. . . .

□ ولعل كثيرين لا يدرون ان توفيق حاول ان يرسم وهو فتى صغير .

كما ان قلة منهم يعلمون .. ان الحكيم حاول ان يصدر كتابا عن الفن من ٣ اجزاء . وذلك بديلا عن روايته (عودة الروح) .

ظلت الحيرة تراوده ليالى واياما ...

ولاتركه يتحدث بما فكر وكتب ايامها ثم عاد الى الأدب لا الفن :

« كنت التفت الى ثوب القصيدة الشعرية . احل فيها كمن استقر ولم اعد افكر فى الخروج الى غيرها من اثواب واشكال .. حتى عندما افكر فيما بعد فى اتخاذ ثوب الرواية والقصة ونحوهما فانى اتجه الى ذلك بدافع العقل الواعى والحاجة الماسة . حاجة المواطن الى التعبير عن حماسه لبلاده وعن رؤيته لتطور مجتمعه . وحاجة الأدب وقتئذ الى اقرار هـذه القوالب الجديدة على نحو جاد . لتحمل موضوعات جديدة . ما كان يمكن ان تحملها غير الرواية والقصة . وقد كانا يومئذ فى فجر حياتهما . فى حاجة الى دفع ودعم من كل من وهب نفسه للفن ، لتطمئن هذه القوالب وتحظى بالاحترام الذى كانت محرومة منـه بين غيرها من فروع الأدب العربى .. بل ان اعتبارها فرعا من الأدب العربى لم يكن بعد معترفا به .. انهـا كانت كمهنة التمثيل والموسيقى والتصوير والنحت . اشـياء لا يقربهـا الا المغـامرون المقامرون بسمعتهم .. فلا يستغرب اذن ان تبقى رواية [زينب] للراحل : م. حسين هيكل . متدثرة بالظلام . لا يجرؤ مؤلفها على اعلان اسمه اعواما عديدة .. اى الى ان اعاد طبعها باسمه الصريح .. وكنت انا وقتئذ فى فرنسا اكتب [عودة الروح] .. كان الأمر اذن — ولم يزل — فيما يتعلق بكتابتى للرواية والقصة تطوعا قوميا وفنيا . اقوم به كلما شعرت ان هناك حاجة الى الاسهام بجهد . وان الواجب يدعو الى المحاولة ... لذلك وقفت طويلا وقفة المتردد امام محاولة [عودة الروح]، بعد ان كتبت فيها مائة صفحة .. هل امضى فى كتابتها ؟ .. او اكف وأمزق ما كتبته واعكف على المشروع الآخر الذى كان يراودنى وقتئذ : كان ذلك المشروع هو تاليف كتاب ضخم عن الفن من ثلاثة اجزاء .

الجزء الاول تعريف بالفن عامة من كل وجوهه وفروعه .

والجزء الثانى عن الفن المصرى فى مراحله المختلفة .

اما الجزء الثالث — فكان فى خيالى — عن الفن فى العالم الحديث .

كنت فى اوروبا ورأسى ممتلىء بالقراءات والتأملات والاحلام ايضا .. لان القيام بتاليف مثل هذا الكتاب هو حلم لا يتراءى لشخص فى نمام يقظته .. ولكنه طموح الشباب ... العجيب انى كتبت من الجـزء الاول نحـو خمسين صفحة او يزيد .. وحدثت البلبلة .. ووقعت فى الحيرة .. ايهما

اكتب وايهما اترك ؟ ..انى اعرف نفسى .. انى شخص لا يستطيع ان يسير فى طريقين .. وطاقتى لا تحتمل التشتيت ولا تعمل الا بالتركيز .

.. صممت على ان أمزق احد العملين ، حتى اتفرغ للآخر ..لابد من اعدام صفحات احدهما حتى لا تخايلنى وتغرينى وانا فى منتصف العمل الآخر .. لكن ايهما ؟

وانفقت اياما اوازن بين الحجج .. واخيرا انتهيت الى تمزيق ماكتبت فى الجزء الاول من كتاب « الفن » .

كانت حجتى هى ان مثل هذا الكتاب سيأتى من يكتبه حتما ، فقد كنا على ابواب جامعة جديدة بها كلية آداب سيكون فيها ولا شك اساتذة فى تاريخ الفن . سيؤلفون يوما فى هذه الموضوعات بجدارة حقيقية ، لانهم متخصصون . اما « عودة الروح » مهما يكن من قيمتها فهى عمل شخصى لحياة انسان بالذات لن تتكرر ولن استطيع ان اقول عنها « لننتظر فسيأتى آخر ليكتبها » ... لأن هذا مستحيل ... فهى انفعالاتى انا التى لا يحسها غيرى ان تأليف كتاب فى الفن يمكن ان تقوم به الجامعات .. لا فى جامعاتنا وحدها بل فى جامعات البلاد الأجنبية ، فما اكثر ما تظهر فيها المؤلفات عن تاريخنا وحضارتنا وتفكيرنا القديم والحديث .. لكن تأليف روايةمصرية او انشاء ادب قصصى مصرى هو عمل لا يقوم به الا صاحبه ، وابن بلده. لابد ان ينبت فى ارضه بأيدى اهله . وكل جيل مسئول عن جيله وعن تمهيد الأرض لمن سيأتى بعده ، خاصة وان هذا النوع من الادب العربى — وهو الرواية الحديثة — لم تكن قد استقرت بعد كقالب فنى .. فما كان يجوز اذن تركها للمستقبل .. لأن المستقبل فيها لن يأتى الا على اساس الحاضر.. والرواية التى تؤلف اليوم ان هى الا حلقة فى سلسلة النمو الطبيعى للرواية غدا .. وان اى تأخر فى تكوين هذه الحلقة سيحدث فجوة ويطيلها فترة ويعوق حركة النمو . فى وقت كانت فيه بلادنا فى اشد الحاجة الى قالب الرواية لتصوير تلك الموضوعات الجديدة التى اقتضتها الحياة الاجتماعية والقومية فى تلك المرحلة الهامة من مراحل تطورنا .

« ومزقت الصفحات الخمسين من كتابى عن الفن .. وليتنى لم افعل .. لأرى على الاقل اليوم ما هذا الذى كنت قد كتبت ؟ ! ...

وهكذا مضيت فى كتابة [عودة الروح] لا الوى على شىء ... لا ارجو منها — من حيث الشكل — الا المساهمة بالجهد الواجب نحو هذا القالب ...على قدر طاقتى الفنية .. اما من حيث الموضوع فانى لم ارد ان اجعلها سجلا لتاريخ بقدر ما اردت ان تكون وثيقة لشعور شعور شاب صغير فى وسط مرحلة خطيرة لبلاده .

. . . .

. . . .

ولنعد الى باريس .. حيث بدات همسات الفنانين تعلو .. وتعلو باسلوب « التكعيبية » : بعد سيزان وبراك وبيكاسو .

ولكن ليس من الضرورى أن تكون : التكعيبية ، متعامدة الخطوط . بالعكس . احيانا تميل الى الاستدارة مع التجريد .

رايى أن الفن التكعيبى .. هو حفيد الفن الافريقى وابن التجريد . ومع أن الثلاثة من نبع ، هو : الارض بما عليها من كائنات وما يجول فى اجوائها من :اساطير تحكى فى كذا صورة أو رواية .. تميل الى الاضافةاو الاختزال مع الزمن . فان التكعيبية هى الصورة النهائية التى تصل كل هذا على جسر ذاتى لرؤية نفسية للفنان مبدعها الى الانسان الذى يشهدها . ولكن فى الوان هادئة نسبيا بعيدة عن تلك الالوان الصارخة الفاقعة التى كان يؤكدها مذهب فن الوحوش من قبل .

وان كانت التكعيبية تؤكد « الرسم » مع الذات اكثر من « التصوير ». ثم أن الفنان التكعيبى يجب ان يملك قوة الخيال واعماقه الخارقة الى ما نتعارف عليه بالمجهول المستور . وحسن التكوين والبناء الهندسى لموضوعه .

ولهذا لا نعجب اذا راينا أن من رواد التكعيبية : بيكاسو . و .براك . و . فرناند ليجيه . و . جوان جرى . و . لويس مركوسيس . و .جوان ميرو . ولكن سيزان سيبقى دائما ابا روحيا للتكعيبية التى سخر منها بادىء الأمر ثم سايرها . درسها . تاثر بها . عشقها ومن ثم اصبح لها داعيا . بعد أن يتلمس الحقيقة اولا ثم يجزئها بخياله ويجمعها برسمه فى توافق او تباين .

وكل فنان تكعيبى له ان يجزىء المنظر الذى يراه او يتخيله .. الى جزئيات ثم يجمعها بطريقته واسلوبه والوانه بعد ان اندمجت مع ذاتيته . فى ابداع او غرابة .

ولكن ما هو الرسم التجريدى ؟

انه لتصميم لوحة . فى مضمونها وفى انعكاسها على الرائى تصميم آخر . ان الفنان حر له ان يغير ويستبدل بالشكل شكلا آخر . فى ابتكار خاص بالفنان . برؤيته واحساسه ونفسيته .

ولهذا اذا كنا نعتبر ان التكعيبية قد ولدت وحبت فى الخمس سنوات الاولى من قرننا هذا وبدات تمشى رحلتها الاولى الى الناس من ١٩٠٨ حتى ١٩١٢ ثم الحرب .. فبداية من جديد وانتشار .. فان هذه المرحلة انما نطلق عليها علميا وفنيا : (تشطير او تحليل الفن التكعيبى) . وهى التى ادت الى الفترة التالية من تكوين وتأليف .

الفترة الاولى تبسيط الواقعية .

والمرحلة الثانية اختزالها الى مساحات ولكن تبدو وكأنهما مقطوعة مرسومة تتآلف .

ثم مرحلة ثالثة .. تلك هى تسطيح المكعبات والدوائر . وهى الفترة التى يشيدها كل من بيكاسو وبراك .

ثم بعد ذلك تنطلق التكميبية الى التجريد .

ولهذا اذا نظرنا الى الفن التكميبى نظرة اجمالية : فاننا سنجد ان الفنان يؤكد خطوطا مستقيمة أو مستديرة فى زوايا واضحة او دوائر ملفوفة تحصر بينها مسطحات ومساحات غير متكاملة اللون ، تتمشى أحيانا مع ما وراءها من خلفية تلعب فيها تكوينات الضوء والوانه كثيرا .

ولعل هذا السؤال الذى يتردد كثيرا على اذنى .

سأله مرة توفيق الحكيم ، فى خريف ١٩٢٥ ذات مساء وهو يتفقد مشدوها بما يراه معلقا على جدران قاعة من مئات قاعات الفن الصغيرة والمتوسطة المساحة والحجم المنتشرة فى باريس . وكان قد راح اليها لأول مرة فى حياته .

يبدو أن واحدا من الذين لهم قدرة فى تصيد طيبة الاجانب ، قد قربمنه.

وبينما توفيق الحكيم يتأمل لوحة معلقة مستغرقا . يحاول ان يفهم . صاح هذا المسيو المتخصص فى صيد الأغراب وطيبتهم .. وهتف : يا لها من روعة .. تلك اللوحة يا سيدى .. انها اسلوب العصر . يا سلام . كم هى رائعـــة ؟ !

توفيق الحكيم : يلتقط سمعه ، كلمات الرجل الذى يجاور وقفته . وكان الحكيم مائلا بكل حواسه مدققا النظر فى اللوحة ويكاد لا يدرى منهـــا الا قليلا . حائرا .

اعتدل توفيق الحكيم . ثم نظر الى صاحبنا الذى يجاوره .. ســـائلا متسائلا : يا ترى يا سيدى .. ماذا يعنى الفنان فى رسم هذه اللوحة ؟

يروى صاحبنا عليه فى جدية شبه مفتعلة : انها يا سيدى . انها حكاية طويلة وشرح أطول . انها التكميبية المنطلقة فى اللاوعى الايقاعى !

وفى لهفة من يريد ان يعرف يسأله الحكيم : ولكن ما هى التكميبية ؟

... ـــ الم اقل لك انها مسألة طويلة الشرح ! لماذا لا نجلس ونتكلم .

تعال معى . عندى من الوقت ٢٠ دقيقة فقط .

ويخرجان من قاعة العرض .

يتكلم من كان يقف الى جانب الحكيم والذى يتظاهر بانه ناقد .. بكلمات مبهمة : تكوينات . اغوار . خلفية . الدياليكتيكية . والوحشية . القاع الاستبطانى . التعامد الحلزونى . ثقافة اللون وتسطيح المعرفة المتعالية والمتحجزة فى المخيخ !

يلتقط توفيق الحكيم .. الجملة الأخيرة .. وفى لهفة من يريد ان يعرف .. يسأله : .. مخيخ من يا ســـيد ؟

يرد صاحبه الذى لم يعرفه الا من ١٠ دقائق فقط ومع ذلك فهو منقاد معه : الم اقل لك انها مسألة يطول شرحها . آه . هذا مطعم متواضع ولكن لاباس . لاباس ايها السيد الغريب . يبدو لى انك مثقف تريد الاستزادة . لا بأس . فلندخله . ولكن على شرط .

يمد صديق الصدفة صاحب المعرفة انامله الى صديرى يرتديه تحت سترته . الى ساعة مرتبطة بسلسلة . يشدها . يتطلع الى عقاربها . ثم يتابع حديـــثه .

.. ـــ ولكن على شرط ان اجالسك ثلث ساعة فقط لان على ان اذهب لاكتب مقالا . اقيم فيه ما رايت .

وينسر خاطر الحكيم . انه عثر على لقطة فعلا . انه ناقد يشار اليه بالبنان . وبالقطع سيسمع منه ويستفيد على وجه السرعة ما كان يمكنه ان يحصل على قدر من المعرفة فى اسابيع وشهور وكتب يشتريها . وهو حريص على المال اكثر من الوقت .

وجلسا . بعد ان دخلا المطعم . اختار صاحبنا الفرنسى ركنا هادئا بالقرب من باب المطبخ . فرك يديه فى حماس دافىء . نادى على الجرسون أن يحضر . توفيق الحكيم سعيد كل السعادة . فقد حضرت جرسونة . هذا اجمل . عينا الحكيم تتطلعان الى استدارة ظهرت بارزة عند صدرها . نبتان يعلنان بداية ربيع . وتابعت عيناه ساقيها .. ويبدو ان جملة شاردة انطلقت كالهمس من بين شفتيه . مما دعا الفرنسى الناقد ان يقول : .. ماذا تعنى يا سيدى بـــ « جميلة » .

ارتج على توفيق الحكيم قليلا . تلعثم . احمرت وجنناه : قصدى .. ذلك الجمال الحى الذى نراه ماثلا . امامنا . الا ترى ؟

يتصنع جليسه الفرنسى : الوقار . يزم شفتيه . وفى غضب مصطنع يزغر الى الحكيم قائلا له : كنت اتصورك تريد الثقافة . لا اللذة . انكم هكذا ايها الغرباء . تتصورون باريس مجرد متعة عابرة . انكم لعابثون .

توفيق الحكيم : يتردد . يحاول ان يفهمـــه أن تقـــدير الجمال شىء . والشهوة شىء آخر . ولو انها بعد ثالث له . ثم اليس الفنان .. يحس بالجمال ! ثم يلغيه او يضيف اليه ! هذا مفهومى . ولكن يبدو انك تخطىء فى فهمى يا سيدى الناقد . والآن انا مصغ اليك كل الاصغاء . كلمنى عن [التكعيبية] واشرحها لى من فضلك ؟

يفرك الناقد الفرنسى يديه سعيدا بالغريب الذى يجالسه . انه طالب معرفة . هذا يبدو مؤكدا . اذن فليبدا . ويتحدث الفرنسى الى الجرسونة . عيناه على صدرها وشفتاه تتلمظان وهو يستمع الى ما عندها من طعام . وكانه يستمع الى احلى النغم . سيمفونية الشبع .. قرار الحانها تطرب له معدته الخاوية .

.. ـــ لا . انى افضل الطيور . ايوه .. فرخة محمره .

ثم يفرد انامل كفيه فى الهواء .. محددا ضخامة الفرخة السمينة التى يتصور انها ستحضرها اليه .

توفيق الحكيم فى لهفة . وحسرة . يبدو ان الموقف سيكلفه كثيرا لهذه المعرفة . يحاول ان يختزل من الحساب . يبدى للجرسونة انه تنـــاول

طعامه وشرابه منذ هنيهة ولهذا فهو يجلس الى صديقه . ليشاركه الحوار لا الاكل .

يسال الحكيم صاحبه ومن يجلس أمامه : لم تخبرنى عن التكعيبية بعد ؟

يتلمظ الفرنسى بعد ان التهم ثلاثة أرباع الفرخة . ثم بهدوء تجمع أصابع يده اليسرى علامة : فلتهدأ . لماذا كل هذه العجلة . ان العجلة من الشيطان يا سيدى — ثم .. ثم . ان المعرفة فى الأعماق . أغوار الأشياء. انظر .. دقيقة . وانهال على (دبوس) الفرخة حتى نسل ما عليه من جلد ولحم وشحم ، ثم راح يخرج لسانه يمر به على شفتيه فى لذة مشبوبة ثم امسك بالدبو . بعظمة ورك الفرخة .. وقد أوقفه بين اصابعه عموديا . الطرف العريض من تحت على المائدة . ثم بدا الحديث متطلعا مره الى توفيق الحكيم ومرة اخرى يتلصص الى ساقى الجرسونة الرائحة الغادية بين زبائن المطعم الذين بداوا يتوافدون :

... — انظر يا سيدى الغريب . ان الأشكال تختلف من عمودى مثلث قائم الارتفاع .. الى مستدير مكور الحجم . مفهوم . ايوه ؟ أليس كذلك انظر الى قاع الموضوع المتقعر . انك مثقف . انك بدات تفهمنى فى الواقع.

وينتظر توفيق الحكيم المزيد من الشرح .

يتعجب الناقد الفرنسى المصطنع العلم .. والحكيم يجالسه مجلس الجد !

... — آه انك تريد الاستغرا[illegible] [illegible] التعمق والشرح . هذا يتطلب ان اشرح لك عن طريق الواقع اكثر . [illegible] [illegible]ازيل . اريد سمكة سالمون مشوية وحولها الوان من الكرز الأحم[illegible] وقليل [illegible] الأخضر . اعنى خضارا اخضر مسلوقا . ولا امانع فى زجـ[illegible] نبيذ ابيض ، شرط ان تكون صاقعة جدا : مفهوم مثلجة تماما . شكر[illegible] : مدموازيل .

ومن جديد يجرى توفيق الحكيم بأفكاره الحسابية .

فى الوقت الذى يفرد فيه الناقد اياه جريدة كان يحتفظ بها توفيق الحكيم .. يقرا ما فيها حتى يأتى الطعام . غير سائل على من ينتظر المعرفة . وبين الحين والحين يلتفت بعين متلصصة خلف ورق الجريدة الى ساقى الجرسونة .. او الى نهود وشفاه وعيون الجالسات الشقراوات والسمراوات من الاكلات !!

السمك يحضر . الجرسونه تسكب النبيذ فى الكأس بعد ان يرضى الناقد بمذاقــه .

الحكيم يتابع تساؤله : .. التكعيبية ؟

الناقد الاكول .. يتمهله حتى يأكل أولا . يطمئنه انه سيصل الى عمق الشكل . وما عليه الا ان يصبر قليلا . ان الفن معاناة !! أليس كذلك . ويصبر الحكيم .

ويتجشا الناقد . بعد ان حولت اسنانه السمكة .. الى هيكل عظمى منساب الأشواك : هكذا يا سيدى . ان الفنان المفكر لا يرى الشىء ولا مظهره كبقية البشر . وانما يصل الى أعماقه . الا تعرف : ديوجين ومصباحه وهو الذى ظل اغلب عمره يبحث عن الحقيقة .

اننا نصل الآن الى المرحلة الثانية من التكعيبية . خطوط الشكل في تعامد . انظر هذه الاشواك وكيف هي عمودية على السلسلة الفقرية . انها تنساب الى الفضاء المفرغ المتوقع في كيان الأنواء الهوائية و ...

توفيق الحكيم يتململ قليلا . بدا يزهق من كل هذا الاسراف والهراء . يريد الانصراف والدفع .

جليسه الفرنسي لا يتمهل في اقناعه .. في انه الخاسر فيما لو لم يبق حتى نهاية الشرح . لمزيد من المعرفة بالتكعيبية : عندك يا سيدى الفنان سيزان .. لقد كان الرائد الأول لها .. ولكن يجب ان نحضر تفاحة نعم .. مدموازيل . من فضلك قطعة من الحلوى وتفاحة حمراء . نعم حمراء . يجب ان تكون حمراء .

توفيق الحكيم : يجلس مستريحا هذه المرة . ولكنه في حالة تفكير وانبساط !

لقد بدا يحس بالمقلب .

ولكنه راى انه هو المستفيد آخر الأمر .

انه يرى عينة من البشر . من الانسان . من صعلكه النصب . تظاهر بأنه لم يحس .

وتاتى الحلوى مع التفاحة الحمراء وحدهما في الطبق . يلتهم الناقد الفرنسي المدعى .. الحلوى في سرعة غريبة . انه يكاد يبلع ولا يمضغ . انه خائف ان الزبون الأجنبي .. أمامه ربما اكتشف الحكاية كلها . يبدو من عينيه وبريقها انه ذكى . ثم يمسك بالتفاحة ومازالت الحلوى داخل وجنته لا يتابعها بلعوم زوره في سرعة البلع .
معركة مخزية مستترة .

فكر توفيق الحكيم يستعجل الحساب خوفا من اضافة رقمية . ان عقله تحول الى جهاز الكترونى حاسب ! وخياله سعيد بتفاصيل تختزنها ذاكرته .. انه اوحى اليه برواية بطلها : « شارلتان » نصاب ! .

معدة الناقد النصاب تستعجل الهضم لمزيد .

توفيق الحكيم يحسم الموقف .. قبل ان يطلب هذا النصاب المدعى الفن الآفاق الجوعان والذى تعود أن يتخذ من حياة الدعة والكسل سبيلا للقمة العيش الرغدة على حساب المثقفين الغرباء عن باريس .

ويتركه توفيق الحكيم .. قبل ان يصيح النصاب الفنى بفنجان قهوة حتى يشرح له التجريدية بعد أن يرشف ما فيه من بن وسكر وماء ساخن .. ويجرده من القهوة من بقية فلوسه ليؤكد له التجربة . ثم يجرد جيوبه من الفرنكات والمال .

لولا شهامة الريف التى تصاحب توفيق الحكيم .. لانسحب وترك ورقة الحساب بين الجرسونة الحسناء وهذا النصاب الدخيل على اجواء المثقفين .

ولكنها الشفقة . ثم درس لا ينساه . كلفه كذا من الفرنكات . اى والله .



حكاية حب .. في ليلة من ليالي باريس !

□■□ .. توفيق الحكيم يغير جو المكان الذى تعود أن يقضى فيه بعض امسياته . يتفق مع صاحبه مسيو « هاب » على الالتقاء فى مطعم صــغير للتغيير . غير مقهى « الدوم » الذى تعودا على التردد اليه . انه يريد أن يعرض عليه بعض اعماله الجديدة ليعرف رايه فى بعض صفحات من أحدث اعماله التى كتبها بالفرنســية .

.. ـ ان الســخرية التى المسها فى اعمالك تكاد تذكرنى بموليــير ، برنارد شــو ...

الحكيم ـ اتظن ذلك .. انى سعيد جدا لملاحظتك .. ولكن الفــارق كبير والمشـوار طويل مسيو هاب .. ميرسى بوكوو .. مسيو هاب .

.... ـ لا .. لا . ابدا انى اراك ايضا تقترب من بومارشيه وماريفو .

ثم يرفع الحكيم كأس « البرنو » الأحمر الشفاف الشراب .. ويقربه الى شفتيه . وفجاة .. تبرز عيناه أكثر . يتلاعب حاجباه .. يكادان يتراقصان بين انخفاض وارتفاع . كاد حلقة يزور . يتوقف عن البلع . شيء ما جعل يشد كل انتباهه يشل كل نبض حركة فيه .. وما ان تمضى لحظة كادت أن تصبح دهرا .. واذا بمسيو هاب الجالس معه .. يبتسم لكل هذه اللفتة

المغناطيسية التى جذبت عينى توفيق الحكيم .. الى جسد الحسناء التى دخلت لتوها .. وكأنهما مسمرتان على ساقيها الملفوفتين مع الفتنة .. ثم تنتقلان باللقطة البطيئة الى أعلى .. ثم الى اعلى مرة اخرى وبعدهـا تقف طويلا عند خصرها .. الذى كاد الجمال يعتصره ، وكاد الربيـع يحتضنه ، والرغبة تعشقه .

الحكيم بلا وعى يوجه كلماته الى صديقه .. دون أن يرفع نظره عن الحسناء ذات الشعر الأشقر .. المترامى فى اهمال جميـل على ظهر كتفيهـا العارى .

.. — تقول لى انى .. انى .. انى اعتصرت فكر واسلوب وسخرية وعمق موليير وماريفو .. يا سيدى يا ليتنى اعتصر كل هذا الجمال . ولو بنظـرة !

هاب — ا الى هذا الحـد . ؟

.. — هذا جمال مرسوم ممشوق . ساحر . انه السحر بذاته . انها اسطورة تجتمع عندها شهرزاد وفينوس .. فى عود واحد . ولكن من هذا الذى يلازمها ملازمة الظل ؟ اهو شهريار ؟ اهو زيوس أو سبارتاكوس ؟

هاب — اتعنى هذا الفتى الجميل الأهاب المفتول العضـلات الحـلو القسـمات !

... — اكاد ارى فيه ابوللون .. انا لا ادرى من نفسى الآن شيئا . اهى الكأس الحمراء ، أسكرتنى . أم تلك الساحرة الهيفاء .. أم كلماتك عن أدبى المكتوب . انى أكاد اجن بكل هذا الجمال . يقولون أن لا حب من أول نظرة ! انى اذوب يا سـيدى . لو لم اكن ممالكا بعض نفسى لطلبت سكينا من هذا الجرسون : هل أزعق عليه ليحضر لى سكينا ؟

هاب — ماذا تفعل بالسكين ايها المسكين ؟

.. — لا اعرف . انى فى هذه اللحظة بالذات قتيل هذا الجمال الأخاذ . اقتل به نفسى أطرح ذاتى وكيانى شهيدا للغرام عند قدميها .

هاب — ولكن السكين سوف لا ينفعك . ان لها عاشقا . يالك من شاعر حالم سارح فى ملكوت الخيال .

ويستكمل الحكيم رواية ثالث قصـه حب دق لها قلبه مع ذكريات باريس ١٩٢٥ . العاصمة بدات ترقص الشارلستون .. وتغير الموضة موضـة حواء الى القصير . القبعات الخوص . البنطلونات الواسعة . بداية زحف موسيقى الجاز .. المودرن .. المودرن : تعبير تسمعه فى كل مكان . فى الفن . الأدب . الأزياء . عمارات البيوت . شكل السيارات يتغير . السرعة تزيد . التعمق فى المعانى يقل . اللحظة . اللحظـة فقط .. الفيجارو . اللوموند . والالسبراسيون . بارى سـوار . الطـان . هومانيتيه : صحافة فرنسا تكتب عن حركة المقاومة المصرية ضد المستعمر . ضد الانجليز ، الذى اغضبهم عودة سعد زغلول بعد اول انتخابات وطنية تجرى فى مصر . وبعد ان أعلن الدستور . سـعد يريد مفاوضتهم — براوغـون .

اغتيال السردار فى القاهرة بدلا من اللورد اللنبى . اعـدام سبعة من عمال ورش السكك الحديد . مظاهرات . تخفيف الحكم على عبد الفتاح عنايت من الاعدام الى المؤبد . ان الأحداث على البعد تجعله يعيش لحظات

فتوة عمره وترجعه الى الوراء ٦ سنوات . انه يذكر الآن ثورة ١٩١٩ .. انه يعيش مع مصر ولكن على ورق . انه يهتف بالوطن .. ولـــكن من يسمعه .. الا الورق .. ان الفنان فيه .. جعله يقبع فى حجرته تلك التى اجرها فى بنسيون يعيش فيه العمال وصغار الموظفين .. يطل على طريق بلبور تحت سماء باريس .. انه يتطلع الآن الى برج ايفل .. وكأنه مارد عملاق اسمر .. يقف متعاليا تحت الغيوم التى تدمع بشـــدة .. المطر ينقر زجاج النافذة . وكأنه يصحى بنات افكار الحكيم .

لقد ترك مسرحيته التى بداها .
ترك فكرته عن كتاب من ٣ اجزاء عن الفن ....
بدأ يكتب روايته : (عودة الروح) .
عودة الروح الى مصر .

ويمضى سعيدا وسريعا يحكى الى صفحات تعـــددت . يكتب بالقـــلم الرصاص ، اوفر . ليعد روايته كتابا عند عودته الى مصر ويخرج الفنان من جديد الى الحياة .. على دقات نبض القلب ..

. . . . .

. . . . .

صديقه « هاب » يطلبه . يتقابلا .

الحكيم يبتدر صديقه قائلا : اليوم جاءنى خطاب سعدت بما فيـــه من اخبـــار ؟

هاب ــ اخبار خاصة ؟

.. ــ لا .. عن نهضة التعليم فى مصر . لقد تحقق امل البلد فى انشاء اول جامعة اميرية . اصبح رئيسها ايضا صديق والدى : احمد لطفى السيد. ومن بين اساتذتها شاب ضرير جاء ليستكمل تعليمه هنا فى فرنســـا مع نور البصيرة فى جامعة مونبليه وتخرج من السوربون وهو طه حسين . انـــا سعيد جدا للأخبـــار دى .

هاب .. فى تخابث : ولكنك ستسعد ايضا وربما اكثر بخبر حياتك ؟

.. ــ حياتى انا ؟ كيف ؟ استحلفك اسرع . قل لى يا هاب . ان حياتى معى انا ادرى الناس بها فاين المفاجاة ؟ اين الخبر ؟

هاب ــ انها من الليلة .. لك . لك وحدك !

.. ــ هل انت طبيعى الليلة ، مسيو هاب . ؟ حياتى . هى طبعـــا لى وحـــدى .

هل شربت شيئا . اترانى واحدا .. ام اثنين ؟

هاب ــ اعنى المراة التى كنت ستقتل نفسك تحت قدميها عشقا وحبا وهيامـــا . هل نسيت السكين ؟

توفيق الحكيم [٢٧ سنة] متلعثما .. يبلع ريقه : المراة . اى امراة . آه . آه .. هل تعنى تلك الساحرة ؟

تبرق عينا الحكيم . كأنه عاد للتو الى اللحظة .

انه يتذكرها الآن . خصرها الذى تعتصره الغـــواية . ساقيها اللتين التفت حولهما غلالة الشهوة . جسدها المياس وكأنه قصيدة عاشق سعد بالهوى حتى الثمالة .

.. ـــ سبحانك ربى . كيف رايتها . ؟ بين الزهور وانت تجتاز غابة بولونيا ... فى الضوء وانت تمر بالقرب من مدخل الاوبرا .. هل رايتهـــا تختال مع عبق الجمال .. امام الليدو .. او تختال عبرا على رصيف الفولى برجيير . ام بجوار الأوديون . يالك من رجل مسعد . بالله حدثنى عنهـــا يا مسيو هاب .

هاب ـــ ابدا رايتها مع الدموع فى ذات المطعم الصغير المتواضـــع الذى تقابلنا فيه اخيرا . كانت تجلس فى ركن قصي ظليل . تمسك بمنديلها تحاول أن تكفف به ما دمع وسال على الخدين . وامامها ا شوب ا بيرة لم تمســه شفتاها القرمزيتـــان .

.. ـــ ارايت فينوس تبكى ؟

اين تلك اللالىء التى انسكبت على خديها . هذا غير معقـــول . ربة الجمال والسحر تبكى . تبكى على من ؟ وقد صيغت من لدائن الرغبـــة والعشق . مش معقول !

هاب ـــ بل معقول . شككت فى بداية الامر اذا كانت هى فينوس . ولما تأكدت اقتربت منها . حييتها .. هل لديك مانع أن اجلس بالقرب منك ! .. ابدا اتفضل . طفقت تبكى من جديد . صعبت على . استفسرت ؟ عرفت السبب . تذكر ذلك الظل الظليل .. اعنى الشاب الجميل البرونزى الطلعة الحلو الايهاب .

قالت لى انه السبب فى تعاستها . فى دموعها : التى لمتستطع ان تلحق به . انه غريب مثلك . ولكن من اسبانيا . عرفت اسمه منها : اسمه .. اسمه .. آه اسمه : « جارســـيا » .

الحكيم فى لهفة .. المهم اسمها هى . هل عرفته ؟

هاب : نعم . اسمها ساشا شوارتز ...

.. ـــ اسم غريب على الأذن . بالقطع هى بدورها اجنبية .. اسمها كاسم اسطورة ..

يهمس الحكيم الى نفسه وكأنه موسيقار يلحن اسم اغنيته : ساشا . ساشا . ساشا .

هاب ـــ نعم اجنبية .. اما المـــانية .. او روسية .. او خليط بـــين الاثنين . على كل حال لهجتها الفرنســـية جميلة النبرات ـــ انهـــا تتكلم الفرنســـية بطلاقة .

.. ســـائحة ؟

هاب ـــ لا . دى مقيمة هنا فى باريس من مدة . بتشتغل ســـكرتيرة فى وكالة سفر . اغلب الأمر انها تعرفت خلال عملها بذلك الشاب الأسبانى . وانت عارف بقى .. الشعر الأسود الناعم . عضلاته المفتولة .. ده اللى بيسحر بنات المانيا وروسيا .. انها الشمس .. دفء الشمس المحرومات منه . فرصتك مازالت فى يدك ايها المصرى القادم من بلاد الشمس .

توفيق الحكيم .. فجاة يتطلع الى لون بشرته . ثم يعود ليقول لصاحبه: بس انا مش اسمر . يعنى انا قمحى . يعنى ايوه أسمر بس فاتح . آه . يا خسارة !!

هاب : خسارة ايه . انت مش عاوز تقابلها ؟ تقابلك فى اى وقت .

.. ـــ تقابلنى انا .. ازاى . مش بتشتغل ؟

هاب ـــ لا .. حكاية حبها للولد الاسبانى .. خلاها تهمـــل مواعيـــد

عملها .. تركت الوكالة على ظن انها ستسعد معه . ستعيش معه . ستقيم عنده فى شقته لتنظم حياته . طلع خاين !

.. ـــ ده حمار مبيفهمش . حد يسيب الجنة برجليه . حد يشوف الحور وتحول عينيه ! ده حمار . فين ساشا ؟ .. يا سلام على موسيقية حتى اسمها مثل .. اسماء بطلات اساطير اليونان .. الهند . دى حاجة تلخبط . حقيقى انا احس كلما انخيلها أنها الشرق والغرب فى واحدة .

هاب : تصور انها كانت على وشك الانتحار . الفناء . تركها هذا الوغد الاسبانى بلا مال ولا عمل . انها خشيت الضياع بلا مأوى . اسودت الدنيا امام هذا الجمال الفتان . قالت لى ان الموت احسن عندها من ذلك الهوان. طيبت خاطرها . قلت لها .. ان الذى تفكرين فيه .. هو الجنون بعينيه . كيف تقدمين على هذه الفعلة الحمقاء .. وانا اعلم ان هناك من يتيه بك عشقا وهياما واعجابا . بل انك اذا خطوت فان عشرات بل مئات والاف من شباب باريس وزوارها . تحطو قلوبهم وراءك حالمة بك نابضة لك . انك لا تعرفين قدك وقدرك ومقدارك . هل تسمحين ان اعرفك بذلك الشاب الذى كان معى .. ذلك الشاب المصرى الفنان . هل تعرفين يا مدموازيل ساشا .. ان لك اسما آخر عنده .. انه يرمز لك بـ « فينوس » الهة الحب وربة الجمال ! واحيانا يدللك بتسميتك عند اهل اليونان القديم : « افروديت » .

ساشا : اين هو صاحبك ؟ . هذا الانسان الرقيق الذى يعبد حق الجمال فى هذا الكون . اين هو ذلك الشرقى الخمرى الملامح الاسود العينين ؟ لقد حمستنى ان اراه .

هاب : .. غدا فى مثل هذه الساعة . سنلتقى هنا ومعى هذا المفتون المسعود المحظوظ . الذى سيكسب البريمو .

. . . .

. . . .

نطق هاب .. بجملته الأخيرة . متطلعا مع كل الفضول ـــ وهو يحكى كل هذا ـــ الى ملامح صديقه توفيق الحكيم .. الذى تقفز قلبه متراقصا .. وكاد يسمع نبضات قلبه وكأنه مضخة صغيرة فى أحدث مصنع فى باريس. تضخ على وحدة النغم الراقص التى تتلاعب به قسمات وجهه بعد ان طفق البشر والسعادة .. يدفعان بحمرة الدم الى وجنتيه .

توفيق .. كالحالم المذهول : اين هى يا صديقى ؟ . ياليت الليل يضيع. يتلاشى . ينمحى من الوجود ليأتى الفجر والنهار . ليتبخر . يا ليت السحر يسرق الزمن الى ان يأتى الغد . الى مثل هذه اللحظة من المساء الموعود السعيد .

يمر يوم .

لا ينام فيه توفيق .

ان خيالات الحب تداعب جفنيه .

اطياف سنية التى عرفها فى ريف مصر الأخضر .. تروح وتجىء مع منديلهـــا . الحرير .

هل يا ترى حبه الجديد .. سيكون عذريا كما كان مع سنية . بعد ان كبرت بعمره الأيام . وسنواته التجربة . وقرأ . وقرأ كثيرا وعديدا عن

الحب .. وآه لو تعرفون معنى الحب ؟ انه يذكر سوزى .. بائعة التذاكر. ويسرح فيما كان ويتمنى .

. . . . .

. . . . .

فى ذات الموعد المحدد ، يتقابل عقربا الساعة عند السابعة مساء . وعندها تماما . يتقابل الصديقان توفيق وهاب .. عـذرا وعفوا فللحق والحقيقة فقد حضر توفيق قبلها بربع ساعة .. ظل مع القلق والانتظار يتمشى على رصيف المطعم الصغير . وهو يعدل من قبعته السوداء . يحاول كلما راح وجاء .. ان يحملق الى انعكاس صورته على زجاج بنور واجهة المحل . ليصلح من هيئته . انه حريص على الموافقة والاقتناع .. لا الرفض.

وبعد ٥ دقائق : طل القمر . ليس فى سماء باريس .. ولكن القمر يمشى داخل المطعم . دخلت وهلت : ساشا .

هاب : أوه .. هالو مدموازيل « ساشا » .. اقدم لك مسيو حكيم .. صديقى من مصر .

ساشا .. لا تصنع شيئا . لا تتكلف . وانما تتطلع بعين ممتحنة مجربة الى طول وعرض هذا الشرقى الجديد . ترمقه . فتفاجأ بأن سمرة صاحبها الاسبانى البرونزية .. مفقودة تماما .. أوه .. كيف حالك يا سيدى الغريب ؟

الحكيم : انا .. انا الآن اسعد اهل باريس وزوارها . اتفضلى يا مدموازيل فينوس . أوه يا مدموازيل افروديت .

هاب .. يبتسم لهذه اللعثمة التى احتلت طلاقة بيان لسان : الحكيم ، موجها كلماته الى ساشا : الم اقل لك .. انك عنده اسطورة حية ؟

جلست .. فتعد الحكيم بعدها كالخجل المأخوذ بينما اخذ هاب يقهقه ضاحكا وهو يقول لها : ترين الآن كم كنت مخطئة فى تصورك . كنت تريدين الانتحار يا مدموازيل . اعتقد ان صاحبنا هذا مسيو حكيم اهون قليلا من الانتحار . والا ايه ؟

تبدد حزنها .

زادت سعادتى .

هاب استأذن وتركنا سويا .

لحظة صمت . او ارتباك . تظاهرت هى به وكنت طبيعيا ان فى شدة ارتباكى ابحث عن شىء ابدا حديثى به .. اين الأدب الذى ضيعت عمرى وشبابى طوال ليالى قارئا الاشعار واحلى المعانى . جملة واحدة اود ان استعيدها فى خيالى . جملة حوار واحدة . وساشا امامى تنتظر ولو كلمة.

فبدات هى الحوار .

اين تقيم مسيو حكيم . فى اى حى تسكن ؟

الحكيم : مابلاش حكاية مسيو دى وبلاش حكاية حكيم .. انا اسمى : توفيق .. احبك ان تنادينى به .

ساشا : بتأكد الآن .. من ان السمكة دخلت شبكتها :

ابالسرعة الخاطفة دى .. تريدنى ان ارفع الكلفة يا توفيق .

الحكيم : انى اكاد اسمع نغمة . تكلمى . تكلمى . ان الوحدة قاتلتى بدات تهرب الآن . قالها هامسا وكأنه يتحدث الى نفسه .

ثم يوجه الكلام اليها .. : كلميني اكثر عن نفسك . اين امتعتك ؟
.. — عند صديقة متزوجة .. تسكن بعيدا جدا من هنا فى ضـــاحية سان كلو ...
والحقيقة لقد اثقلت على صاحبتى . اشعر انى قد قيدت حريتها .
الحكيم : هذا ليس مهما . المهم الآن ماذا سنفعل والساعة الآن اقرب الى ٣٠ر٧ ..

ياه .. ان الوقت معك يجرى بسرعة افكارى . كم انت حلوة يا أسطورتى الجميلة الساحرة .
... : تقول لى انى اسطورة .. آه منكم انتم معشر اهل الشرق .. العسل مع الخيال .. لحظة .. ثم فجاة يتبخر كل هذا .
الحكيم : لا لا تظلمى الشرق . لأن معتوها مجنونا .. هو ذلك الفتى المفتون الذى رايته معك لم يقدر الجنة التى كان يسعى بين خمائلها .
... : اوه . ارجوك . لا تفكرنى به . انى الآن أعيش اللحظة .

. . . . .

. . . . .

تضاحـــكا .
تناولا عشاءهما .
ذهبا الى مسرح قريب يعرض رواية « فودفيل » مرحة .
نسيت همهـــا .
خرجت متأبطة ذراع توفيق الحكيم .. الذى كان يخطو الى جوارها يرى ظلهما واحدا بعد ان التحم مع ظلها على قارعة الرصيف كلما مرا من تحت عمود نور ساطع .. فيمد يده الأخرى .. ليترض بها ذراعه الاخر احلم اعيشه أم واقع ؟

. . . . .

. . . . .

صعدا الى حجرته فى شارع بلبور .
وبينما هى تجيل النظر فى اشياء المطبخ والحجرة .. قالت : كم هو لطيف هذا الركن . وتلك الأوانى . وهذه الكتب .. انك على ما يبدو تقرا كثيرا .. يا توفيق .
ساشا : هل لك ان تعيرنى بيجاما .

بسرعة خطا توفيق الى دولابه الصغير لاخراج بيجامته الثانية والاخيرة نظيفة . ومد يديه بها اليها .. تناولتها وبدأت تخلع ثيابها .. بينما تشاغل الحكيم بالنظر الى اى شيء آخر .. متباعدا بنظره عنها . فلم يدر .. اخلعت ملابسها فى ركن المطبخ أم وراء هذا الدولاب فى ركن الحجرة . كل ما يذكره وقوفها فجاة امامه . مع نهدين كورهما مثال الجمال وقد انتصبا وكانهما يشيران اليه . يناديانه بأن لا يضيع وقتا . وقد كان . ليلة لا تنسى . واندمج الشرق والغرب ، وتبدد ظلام الليل والخيال ونظرت الشمس من النافذة . ولأترك توفيق الحكيم مع تعبير كلماته يصف صباحية حبه ..
.. وبزغ الصبح ، وفتحت عينى وقد راحت السكرة ، وجاءت الفكرة.. ونظرت الى تلك المراة النائمة فى فراشى وقلت لنفسى : ماذا انا صانع بها .. اليوم الاحد ، وهو يوم زيارتى المعتـــادة لمتحف اللوفر .. هل

اصحبها ؟ ... انها لن تطيق المكث فى هذا المتحف ست او سبع ساعات، كما افعل ، واذا احتملت فانها لن تستطيع الوقوف ساعة أمام الصورة الواحدة ، كما اصنع ، واذا فعلت فانها لن تسكت عن بعض التعليقات السخيفة التى تبدد جو تأملاتى ، وتفسد على نظام تفكيرى .. ثم انها ستغير برنامج حياتى ! ... انى الآن آكل واعمل وقتما اريد ، ان حياتى غير المقيدة بمكان ولا بزمان ولا بانسان ستصبح منذ اليوم داخل اطار محدود من صنع هذه المراة . انها عبء وتبعة ، انى لم اخلق لأسير فى الحياة وامراة معلقة بذراعى ... ! ... ونهضت من فراشى على عجل ، وارتديت ثيابى، وكتبت كلمة تركتها لها فوق المكتب خلاصتها : « انى رجل بوهيمى ، لا يصلح لرعايتك . والسهر على راحتك ، فأرجو ان تخليني من تبعة اسعادك ! . فانى لست لهذه النعمة بأهل .. » ! .. والقيت عليها نظرة اخيرة ، وهى فى نومها العميق المطمئن .. وانصرفت .. ذهبت توا الى مسيو « هاب » ، واخبرته بما حدث فكاد يصعق ، فهدات من روعه وضاحكته قائلا : « لا تنس انى رجل شرقى متوحش ! ... والمراة عندى يجب أن تحبس فى « الحريم » او على الأقل لا يكون لها دخل كبير فى حياتى . اذا ارادت « ساشا » أن تتخذ من مسكنى مأوى لها ، فلا مانع لدى .. على شرط ان تتركنى حرا .. فلا تخرج معى .. ولا تشعرنى بأن لها فى حياتى وجودا ! ... » .

ففهم « هاب » مرادى وقال : « لا بأس ! .. اظنها ترضى بهذا الشرط .. ولكن نفقات طعامها ؟ ... »فقلت له : « فى مقدورى ان اعطيها كل يوم ثمانيه فرنكات او ستة (أى ما يعادل وقتئذ ثمانية قروش مصرية) » ، فقال « هاب » : « لغذائها وعشائها معا ! .. » قلت : « نعم » فقال : « واجعلها عشرة فرنكات » ! .. فقبلت ، وتعهد هو بأن يلقاها فى ذلك اليوم ، ليعرض عليها هذا الوضع الجديد ، وانصرفت انا الى « متحف اللوفر » ، فغرقت طول يومى فى قاعة الفن الاغريقى متنقلا بين تماثيل « بالاس » و « ابوللون » و « فينوس » فى أوضاعها المختلفة . ان فن الاغريق هو تجميل الطبيعة الى حد اشعارها بنقصها .. لكأنهم يريدون أن يقولوا للطبيعة : انظرى... كان ينبغى ان تصنعى هكذا ! ....

ومضى اكثر النهار ، فدلفت الى قاعة الفن المصرى القديم . ولا يفصل بينها وبين قاعة الاغريق ــ كما تعلم ــ غير باب صغير ، وما كدت اتخطى العتبة حتى شعرت بفرق عجيب ... انه عالم آخر .. ان فن مصر القديمة هو تحد صارخ للطبيعة ، لكأنهم يقولون للطبيعة : « انظرى .. لا شأن لنا بك .. ولا بمخلوقاتك .. اننا نستطيع من مخيلتنا ومن تفكيرنا ان نخرج مخلوقات اخرى غريبة عجيبة لم تخطر لك على بال » ..

الذى استلفت نظرى فى هذا الفن هو ان اسلوبه قد اوحى الى اسلوب الفن الحديث فى العصر الحاضر الى حد كبير . وخرجت من « اللوفر » وانا اقلب فى راسى الملاحظات والمقارنات . وذهبت الى مطعم صغير اتناول عشائى .. ثم عدت الى مسكنى فوجدت المسكينة ساشا قد غادرته تاركة لى هذه الكلمة فوق المكتب :

« سيدى ! انك لا تريدنى ، ولكنى ابحث عبثا ، واستعرض فى ذاكرتى

كل ما حدث امس ، فى المساء والليل ، على اجد اللحظة التى اكون قد خيبت ظنك فيها ، وليس فى مقدورى سؤالك او الاستفسار منك ، لقد ذهبت تاركا لى تلك الكلمة التى تدعونى فيها — على نحو ظاهر — الى الرحيل !.. اذن .. فلم يبق لى الا ان اسير فى طريقى .. او على كل حال لو حدثتك مرة اخرى ... فاذا لم تر باسا فى ذلك فانى ارجو منك ان تبعث الى كلمة بعنوان صديقتى المسطور فى اعلى خطابى .. » .

الحق تألمت وندمت ، لقد كان تصرفى خاليا من الرفق والرحمة ، ولبثت افكر وانا اجيل النظر فى حجرتى الخالية .. ان وجود هذه المراة هاهنا ليس عبثا بالقدر الذى تصورته .. انها كانت تملأ المكان على كل حال بعطرها النسائى ، فتغير قليلا من هذا الجو المغبر بتراب الكتب . ما اجملها عندما كانت مرتدية ثوب النوم الذى اعرتها اياه البارحة !! .. ليتها تعود . ما اوحش الليل بدون امراة ! .. وقضيت ليلة مضطربة ، وفى اليوم التالى ذهبت اليها فى مسكن صديقتها .. وحملتها هى وامتعتها فى سيارة ، وعدت بها الى حجرتى بشارع « بلبور » ، واخبرتنى فى الطريق انها التقت بمسيو « هاب » فى اليوم السابق . وانه اخبرها بالشرط والنظام الجديد ، فساعدته على القيام بتنفيذه على ادق وجه !. وهكذا استقر بنا الحال اياما . وكان لحجرتى مفتاحان استبقيت واحدا واعطيتها الآخر ، فاذا كان الصباح تركت لها فوق مكتبى الفرنكات العشرة ، ثم انطلقت حرا طوال يومى ، فلا ارى لها وجها الا ليلا .. هنالك احيانا يحلو لى فيها ان الزم حجرتى ، لاكتب الساعات الطوال .. فما كانت تنبس بحرف ، بل كانت تقرا ، تقرا كل ما يقع تحت يدها من كتبى المكدسة .. لقد عجبت أول الأمر لكثرة مطالعاتها ولاجادتها لغات عدة .. الى ان قصت على نشاتها .. وعلمت انها ابنة مدير احدى شركات السكك الحديدية فى المانيا ... فلما انهارت الشركة بعد الحرب بانهيار « المارك » والنظام الاقتصادى الالمانى ، انهارت اسرتها أيضا : فمات أبوها ، وتشرد اخوتها واخواتها فى ارجاء أوربا ! ...

ونزحت هى الى « فرنسا » حيث وجدت ذلك العمل الذى شغلته فى وكالة السفر ، حتى فقدته هو الآخر جريا وراء قلبها ! .. انها بوهيمية من الطراز الأول ! ... على انها لم تفهمنى ايضا ، كما كان ينبغى ، فانه لم يمض على نظامنا هذا عشرة ايام ، حتى نسيت مراميه واغراضه ، واذا هى تترك لى فوق مكتبى هذه الكلمة :

«عزيزى ! .. انك تغيب طويلا .. لكانك تتعمد الهرب من حجرتك ، ومن وجودى ، على الرغم من الجهد الذى ابذله حتى لا اضايقك او اثقل عليك ! .. وحدتك هذه تكاد تشعرنى بانها مظهر استياء منى ، وانى لابحث عبثا عن السبب يا صديقى العزيز ! ... انى لارجوك من كل قلبى ان تخبرنى عما لا يعجبك منى ! .. قلها بصراحة ... فربما كان فى الامكان رتق رباط الثقة والاطمئنان الذى يصل احدنا بالآخر ! .. هذه الثقة ، والاطمئنان الذى يخلو منه نفسى فى هذه اللحظة ، — ربما كنت مخطئة فى هذه التقديرات ! .. ربما كنت مسرفة فى الوهم ، فاخذت شغلك بعملك على انه شغل عنى ! .. مهما يكن من امر فطمئنى بكلمة ! انى حزينة جدا .. انى خارجة استنشق بعض الهواء ، وارفه عن نفسى قليلا .. ولكنى أرجو أن تكون على ثقة من ان اخلاصى هو لك وباق لديك ! ... » .

الواقع انى عجبت لهذا الخطاب ! ... ان الاخلاص او الحب ، او اى عاطفة من هذا النوع لم تكن داخلة ضمن الشرط باى حال ! .. وانى لأعلم ان « ساشا » لم تحبنى على الاطلاق ! .. حقيقة هى لم تذكر لى شيئا عن صاحبها الأسبانى منذ مجيئها ، ولكن ليس معنى ذلك انها نسيته ! .. لقد كانت تقرأ ذات ليلة فى الفراش كعادتها قبل النوم ، وكنت انا اكتب على مكتبى او اطالع . واذا بى اسمع صوت عبرات مكتومة . فرفعت عينى فوجدتها تحاول اخفاء بكائها ، فسألتها عما بها ، فكانت صريحة وقالت : ان يدها وقعت تلك الليلة على « دون كيشوت » واقاصيص نموذجية من اعمال « سرفانتز » فغمرها فى ذكريات .. ثم قالت وهى تمسح دموعها بيدهـا :

« لم اكن اعلم انى اجد هنا كتبا اسبانية » . فقلت لها : عجبا ! ... او كنت تريدين ان اتجاهل الادب الاسبانى . واستبعد مؤلفات « سرفانتز » ، ومسرحيات « كالدرون » ، وكوميديات « لوب دى فيجا » . لأن لك خليلا اسبانيا ؟ .. اجل يا « اندريه » ... لم يكن بيننا حب قط ، ولا اذكر اننا تبادلنا كلمة واحدة فيها حرارة العاطفة الملتهبة ! .. هذا شىء لا يمكن ان يحدث مع امرأة موجودة .. موجودة امامى فى كل وقت ! ..

ان اللحظة الوحيدة التى احببتها فيها حقا هى ساعة دخولها المشرب اول مرة مع صاحبها الأسبانى ؟ .. انها كانت رائعة . لأنها كانت شيئا فى السماء ، مثل كوكب يتلألأ . لا يمكن ان تمتد اليه يدى ، ولكن هـذا الكوكب ما لبث ان وقع فى كفى . فاذا هو مصباح ضئيل . يحتاج الى يدى القاصرة لتملأه بالزيت ، وتحميه من التحطم والسقوط ! .. انى لم ازل احب « ايما » لأنها شىء بعيد .. غير موجودة فى كل وقت . يصل الى غناؤها من نافذتها . كأنه شعاع يأتينى من بعيد .. انها اعطتنى بعض اسرار نفسها وجسمها .. ولكنها مع ذلك ليست فى يدى . شأنها شأن الطبيعة التى تعطينا وتستعصى علينا .. ان الحب قصة لا يجب ان تنتهى .. قصة « ايما » مستمرة لا نريد ان تنتهى .. ان الحب مسألة رياضية لم تحل .. ان جوهر الحب مثل جوهر الوجود ، لابد ان يكون فيه ذلك الذى يسمونه « المجهول » أو « المطلق » .. ان حمى « الحب » عندى هى نوع من حمى « المعرفة » واستكشاف المجهول والجرى وراء المطلق .. ماذا يكون حال الوجود لو ان الله قذف فى وجوهنا — نحن الآدميين — بتلك المعرفة او ذلك المطلق الذى نقضى حياتنا نجرى وراءه ؟ ! .... لا استطيع تصور الحياة يومئذ ، انها ولاشك لو بقيت بعد ذلك لصارت شيئا خاليا من كل جمال وفكر وعاطفة ، فكل ما نسميه جمالا وفكرا وشعورا . ليس الا قبسات النور التى تخرج اثناء جهادنا وكدنا وجرينا خلف المطلق والمجهول !

لو ان « ايما » قبلت ان تترك حجرتها كما عرضت عليها وتأتى لتقطن معى فى حجرتى لكان حظها عندى حظ « ساشــا » ، هنــا الفرق بين الغرام والزواج .

انى ادرك الآن لمــاذا يفتر الحب الملتهب بين العاشقين اذا تزوجا . وقد يعود الى الاشتعال اذا ابتعدا . ان الانفصال هو الذى يغرى بالاتصال .

طوى الحكيم رسالتها .
مد يده ليتناول كتابا .
انه يستمع الى دورة المفتاح بالباب .
ساشا تدخل هاشة باشة وفى يدها جريدة الصباح .. وهى تصيح متهللة ... لقد وجدت عملا . لقد قرات اعلانا صغيرا لأحد المسارح الراقصة يطلب عددا من صاحبات الأجساد الأخاذة . ذهبت واتفقت ..

قالتها وهى تسرع بخلع قبعتها وشعرها الأشقر يتناثر كالذهب فوق جسدها البض .. الذى بدات تخلع عنه ملابسها قطعة . قطعة .. ثم اسرعت فدلفت الى تحت الغطاء ...

... ـ كل ما اريده أن تبقينى هنا فى شقتك الصغيرة .. سأتركها لك كل مساء .. لأحضر فى الفجر .. حيث تصحو انت لتذهب الى ما جئت من أجله . هل نسيت الدكتوراه ؟ .. اذ أن اجرى سوف لا يكون كبيرا بحيث استطيع ان استأجر شقة ولو أصغر من هذه . أعدك على كل حال .. انى سوف لا اثقل عليك . وفى اليوم الذى يعطونى فيه أكثر ، سأبحث عن مكان آخر . انى أشكرك . لا أعرف كيف أشكرك يا حبيبى .

. . . .
. . . .

ويبدو انهما اتفقا . لأن الحكيم لم يرفع راسه من كتابه . انه ظل محلقا لأخبارها . لا هو بالسعيد كل السعادة ولا هو بالمكدود الزهقان كل الزهق

. . . .
. . . .

ولكن الحكيم رفع راسه فقط من سطور كتابه . رماه جانبا .. وهى تستكمل كلامها معه : .. ومن بكره .. ارجوك أن تكف عن منحى العشرة فرنكات ...
تقفزت السعادة الى عينى الحكيم عندما استمع الى ما وعدت به من انها سوف لا تقرب ماله . وانما سريره ومكانه ..

. . . . . .
. . . . . .

وتستمر حياتهما فى هدوء .
انه لا يدفع فرنكا واحدا .. وهذا شىء مهم جدا . ومريح جدا جدا .
هى غائبة أغلب الوقت .. وهو خارج حجرته اغلب النهار .
انهما يتلاقيان لحظة سريعة .. مثلما يتلاقى النهار مع الليل عند الشفق او عندما يستسلم الليل أمام ضوء ميلاد يوم جديد عند الفجر !
حياة كل منهما فى واد .
هو مع القانون والفلسفة .
وهى وجسدها مع عيون تتلهف عليها كل مساء .
انها تعود متعبة مع آخر مترو .
وتعود معها أصباغ المكياج على وجهها وساقيها وذراعيها . ولا حمام فى مسرحها ولا فى شقتى المتواضعة .. وتندس مجهدة فى سريرى ..

لتقرأ شيئا .. كانت سريعة الالتهــام لكل ما تقرأ ومن عجب انها كانت تقرأ لفلوبير .. أو لبلزاك . اى كتاب عندى . وكنت أصحو فى الصــباح لأجد الأصباغ .. الأحمر والابيض والاخضر قد انتقلت كلها الى جسدى .. ورائحة سجائر الليل التى تدخنها .. تملأ عبق حجرتى .. اكاد أمطس .. وأتلوى المــا . الهذا حضرت من مصر اين الدكتوراه .. التى ينتظرها والدى ووالدتى واصحابى .. آه من باريس ولياليها .

. . . . .

. . . . .

مرت ٣ شهور .

بدأت اتعودها .

كان الفضول يدفعها أن تلح وهى تسألنى أن تقرأ بعض ما اكتب . فما كنت اقبل .. لست ادرى لمــاذا ؟

ويتابع الحكيم حكايته معها ..

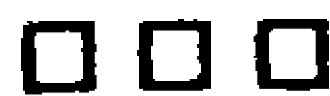
« اما هى فكانت تسألنى رأيى فهذا ليس فى عرف رقصا فنيا ، فالرقص الفنى عندى هو « بافلوفا » و « فوللر » و « ايزادورا أدونكان » ورقص الجوقات والمجاميع فى « الأوبرات » الرفيعة ، او فى « الباليه الروسى » ، أو حتى فى الرقصات الدينية التى نراها منقوشة فى الفن المصرى والهندى ، ولكنها كانت تحرك سيقانها ورأسـها وذراعيها فى الحجرة . فلا أجد مفرا من النظــر ! ... كنت أقول لها ان رقصـــها هـــذا فى المجموعة جماله ليس فى ذاته ، بل فى التناسق العددى لكميات الأذرع والسيقان التى تتحــرك فى وقت واحد ، وليته مع ذلك كان بالروح الفنى المعروف فى راقصــات المعابد الهندية ؟ ! ... ولقد الحت على الحاحا شديدا فى أن اذهب مرة لمشاهدتها على المسرح .. واحضرت لى تذاكر مجانية ، فلم أجد من نفسى يومئذ حافزا على الذهاب . وليتنى ذهبت ! ..

وكاد ينتهى الشتاء ، فجاءتنى ذات يوم تقول ان المسرح سيوفد الفرقة الراقصة لتقــوم برحلة فى « نيم » و « أورانج » و « افنيون » فى جنوب فرنسا ، وقد تستغرق الرحلة شهرا أو شهرين ، وجعلت تتجهز للرحيل ، وهى ترجونى وتزين لى أن اذهب معهم فى هذه الرحلة ، فضحكت للفكرة :

اذهب فى رحلة الراقصات بأى صفة ؟ .. وعلى اى وضع ؟ .. ابصفتى صديق الراقصة ؟ ... هذا جميل جدا ! .. ومن يدرى ، ربما عدت من الرحلة ، وقد عينت نهائيا راقصا بالفرقة ، او شيئا من هذا القبيل ؟ .. كلا يا عزيزتى « ساشا » ! ... انى لا اســـتطيع ان اترك « باريس » « واللوفر » و « الكتب» و « الحى اللاتينى » و « مونمارتر » و «بلبور » .. اذهبى انت وسيرى بمفردك ، فى طريق حياتك ، وانى أتمنى لك التوفيق والنجاح ! ... » .

وودع أحدنا الآخــر وداعا حارا ، وشعرت فى تلك اللحظة بشىء من السعادة ، لعودة حريتى الكاملة الى .. ووحدتى المطلقة ! مهما عشت مع القلق . فانى اعيش منطلقا الى احلامى .

وهل للكاتب الا الأحلام !!



الحكيم و ٩٩ خطوات مع لغز الحياة !

□■□ .. شيئان : يتناقلهما الناس .. فى سرعة قد تسبق رياح الهواء كومض البرق : النكتة . و . الاشاعة .

خاصة واننا نعيش الآن زمن .. وسائل النقل الحديثة . نعيش عصر التليفون اللاسلكى والتلكس والقطار والطائرة النفاثة والصاروخ .

لدرجة انى بدات اتصور .. انه لو كان على القمر بشر — غير انسان الارض — لضحكوا وقهقهوا فورا عند انتهـاء قائلها وحاكيها على ارضنا الكروية او فوق كرتنا الأرضية . فالناس تحب أن تضحك وتشـارك فى السعادة والهناء ، حتى ولو من على بعد وخاصة اذا كانت ستضحك على غيرها من القيم !

والاشاعة .. سرعان ما تسرى : خبر عن حدث . نميمة وتشنيعة .. وقد يطول السرد فيصبح حكاية .. عن واقع أو من خيال وبنات أفكار أديب او فنان أو راوى حلو الحديث يريد ان يقتل الملل .. فيبدأ يحكى ويحكى .. تماما مثل حكايات الف ليلة وليلة بين شـهر زاد وشهريار التى استمرت ليالى ٣٣ شهرا الا يومين لو حسبناها بفروق أيام الشهور على أنها شهور من سنوات بسيطة أو الا ليلة واحـدة لو كانت سنة كبيسة قد تدخلت واطالت عمرها يوما !

ولعل فكر اهل زمان قد وحدته رواه القوافل البرية أو البحرية .. او مسافر على ربا الصحراء أو على صفحة ماء . او اسرى حروب تعايشوا زمنا فى بلاد غريبة استمعوا خلال اسرهم الى ما كانوا يجهلون فطموه فما أن اطلق سراحهم حتى راحوا يحكونه .

والاسطورة .. هى الطلسم الجـذاب .. الذى يتوارده الاقدمون .. ويضيفون اليه وينتقصون او يزيدون من تفاصيل هنا أو هناك .. واحيانا بل يغيرون اغلب الأسماء حتى اسماء الأبطال كما يحلو او يسهل لهم .

ومنها أسطورة ابو الهول . تمثالنا ابو الهول .

التى تنقلت عبر أمواج بحرنا الأبيض .. حتى استقرت وقتا على جبال اوليمبيا ثم عادت بضاعتنا الينا . حيث أطلقنا اسم الأسطورة الفرعونية التى طورها اهل اليونان قديما واضافوا اليها ملحا وفلفلا من الدراما حتى يحلو لهم الاستمتاع بالاستماع اليها اكثر فغيروا من الاسم المصرى العتيق لتمثالنا « ابو الهول » وكان : (حر — ام — آخت) ومعناه حورس يتطلع الى افق المشرق ليستقبل ابيه .

حورس : كناية عن ابن الشمس .

أما والده فهو : الشمس رع رب الأرباب ، الذى يضىء افق الدنيا بسناء وضياء مع دفء الحياة .

وحورس هنا : انما يمثله خا — اف — رع : فرعون مصر وابن خوفو .. وكان يحكم مصر متمثلا نفسه حورس ابن الشمس . ولهذا ومن ايام الدولة القديمة حرص كل فرعون أن يكون : (ابن الشمس) أو (صا — رع) لقبا من القبابه الرسمية التى يتقسمها رجاله وينادونه بها تبجيلا وتقديسا .

والشمس فى خيال المصرى القديم : انما تولد وتحبو مع كل فجر . ثم تكبر وتصل قمة زهو الشباب وسط السماء اذا ما انتصف النهار تماما . ولهذا فقد اختاروا تصميم الأهرام واقاموا المسلات هرمية القمة .. حتى ينعكس بهاء الشمس متلألئا الى سكان الأرض .. ليشـهدوا عظمتـه ويكبروا .. وما أن يقرب المساء ... فاذا بالشـاب الشمس يتدرج الى كهولته فيستعين بعصاه يتوكأ عليها مستندا اليها وهو يخطو مجتازا الوان الفضاء التى تبدو لحظتها حزينة تستودعه رحلة ليل الى فجر جديد . رب الارباب .. لا يموت .

وانما هو يجتاز رحلة يغيب عن عيون الأحياء ١٢ ساعة مع كل مساء .. ليشرق فى عالم الخالدين فى النصف الآخر من عالمنا .. قبل أن يعود متجددا وليدا من ذاته كل صباح .

. . . . .

. . . . .

وتنتقل الأسطورة الى اهل اليونان . عند سقف بحرنا الأبيض : شمالا . وهناك يتصورون شيئا آخر فى تفاصيله .. ابتعدت فى ظاهرها عن ضوء الشمس وحكايتها وانما الصقوها ببطلهم اوديب .. الذى اعجب بوالدته دون ان يدرى فأراد الانتقام من والده وكان لا يعلم أنه ابنه !

فما ان اسرع الركاب .. وخيوله المطهمة تسابق الريح .. يمرق من ممر ضيق جدا .. وقد انشق بين أعالى الصخور .. اذا بصوت جاف زاعق يجلجل مع رنين صداه .. قف عندك .

وعرف : اوديب .

ان هذا الصوت ياما سمع عنه وعن صاحبته « اسفنكس » .. هذا الكائن الغريب العجيب الذى وصفه الأولون الى الابناء والأحفاد . يشد أوديب ألجمة الخيل عفار وغبار عندما تسكت عجلتى مركبته عن الجرى والدوران .

يتطلع الى أعلى . الى أعلى . وعند قمة الجبل العمودى الشاهق : يرى الـ « اسفنكس » نعم انها هى تمـاما مثل ما وصفوها له . كائن يتكون من جسد لبؤة مجنحة قابعة فوق القمة عند عجزها ولكن صـدرها وراسها سرعان ما يتحول الى صـدر ناهـد مكور بارز بالشـهوة وكأنه غدارتان لغادة هيفاء .. تعلوه راس امراة كالساحرة جمالا وفتنة وشعرها الأشقر ينساب فى الهواء العالى . تداعب شعراتها نسماته .

وما أن وثقت من وقوفه وبدأت تهتف به .. تحكى لغزها .

... قل لى واجب : ما الشيء الذى يتحرك على اربع ثم على اثنين فثلاث . اذا أجبت فالمرور والأمان سبيلك والعدم لى . واذا فشلت فانك ستتحول الى لا شيء . ستنفجر اشلاؤك الى هواء !

لم يرتبك أوديب . وانما مع سرعة خاطره ولهفته على استكمال مشوار العاشق المنتقم هتف بها قائلا : الانسان : يحبو ثم يخطو وبعدها يتعكز على عصاه . على أربع ثم اثنين فثلاث !

ويأتى هيرودوت الينـا زائرا من ٢٤٣٣ سنة .. وما ان يرى تمثالنا (ابو الهول) عند سفح ربوة اهرام الجيزة .. حتى يصيح « اسفنكس ».. ومن ساعتها او من ٤٤٥ سنة ق.م . وقد بدا اسمه المصرى يخبو ليشتهر باسمه الجديد .. الذى اشتهر عنه هيئة ورسما واسطورة.وكان لهيرودوت (٦٤ سنة) من العمر وقتئذ ٣٩ سنة .

وهل ننسى اننا فى مصر عندما فكرنا فى أسطورة ابو الهول .. كان ليتعبد فرعون مصر لرب الأرباب الشمس : رع .. الذى تصـوره اجـدادنا خيالا بأنه يحبو على أربع كل فجر ويخطو على اثنين . على قدميـه كل شهر .. ثم يستعين بالعصا فيجتاز السماء قبيل الغروب على ثلاث . قدميه وقدم عصاه !

وكانت أسطورتنا قد ابتدعها خيال أجدادنا قبل ١٢٠٠ سنة من انتقال اسطورتنا الى عوالم خارج حدودنا .

ثم كانت اسطورتنا لرجل . فهى متصلة الى مذكر . هو الأسد الرابض يصور قوة ملك وحوش الأرض .. وراسه هو راس رجـل الفرعون خا — أف — رع .. ترمز الى ذكائه وقـوة شكيمة ارادته ورجاحة عقله .

بينما عندما انتقلت حكايتنا وعبرت البحار .. فقـد حولوا بطولتها الى لبؤة تحمل صدر وراس حواء .

هل كانوا يرمزون الى دهاء حواء وحيلتها طالما انها تطرح الغـازا ام الى غموض المراة ؟

على أى حال .. نجد أن الحكيم شـاعرا .. قد راح فى شبابه يعلو ويحلق بأبيات شعره المسترسل فى موسيقية المعنى .. لا يهمه قالب ولا ورق ولا قيمة . وانما هو كطبيعة فرشاة يموج بها مع خلجات مشـاعره تعكسها افكاره الحالمة القادمة من عوالم غيبية الى ورق محسوس بعـد ان اعطى لها اسما وعنوانا .. فكان :

أين المصير

اربع أقـــدام

ثم اثنتان ثم ثلاث

تدب على رمال الزمن

لغز أبى الهول الخالد

تسير عطشى كالابل

طول الطـــريق

وصفير الريح يأتى كالأنين

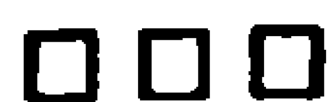
مؤذنا بالأجل

تسع أقداما كالعجل

تجرى تحمل السنين

كأنها رمال فى رياح

الا الطريق .



لحظة ميلاد

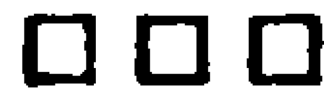
□□□ .. نحن الآن فى عام ١٨٩٨ . العالم كله ينتظر ما سيحدث بعد سنتين . ان قرنا سينتهى وقرنا سيبدأ . تنبؤات عديدة . تعداد العالم كان نصف تعداده الحالى . كان ٢٠٠٠ مليون نسمة . مصر كان تعدادها ١٢ مليونا . علمها أحمر فيه هلال ونجمة بيضاء أثر سلطان الاتراك الذى بدأ يزول مع ظلال الحكم والحماية البريطانية لمصر . عصر كرومر . ارهاصات وطنية ضد المستعمر . على عرش مصر يجلس البخيل الخديو عباس . عقدة الخواجا . الامتيازات الأجنبية . بريطانيا تحكمها الملكة فيكتوريا . نابليون توفى من ٧٧ سنة . بعدها بعام اكتشف شامبليون طلاسم الهيروغليفية . ان ٧١ سنة تمر على وفاة بيتهوفن و ٢٩ سنة تمر على فتح قناة السويس ، و ١٣ سنة على رحيل فيكتور هوجو . و ١٦ سنة على وفاة داروين . وسنتان فقط على موت كاترين العظمى الألمانية التى أصبحت قيصرة روسيا . لم تنفعها قوة ولا مال . ماتت بداء الصرع . وكان تولستوى حيا يرزق . بدأ يلمع بعد أن كتب أنا كارنينا . والحرب والسلام .

وكان عمر كل من : طه حسين والعقاد وشارلى شابلن ٩ سنوات !

أمير الشعراء أحمد شوقى يحتفل بعيد ميلاده الـ ٣٠ وسيد درويش عمره ٦ سنين ولا أحد يحتفل بعيده لأنه معدم فقير ! فى الوقت الذى كان يحلم فيه بيكاسو (١٧ سنة) بأن يهاجر من اسبانيا بلده ، ويذهب الى باريس.

فى هذه السنة صالت وجالت معركتا فاشودة وام درمان . حملة كتشنر تحصد ٥٠ الف مجند من شباب السودان . اغتيال امبراطورة النمسا فى جنيف بيد ايطـــالى . نجح الفرنسى بيير كورى ومارى كورى فى عـــزل « الراديوم » . رئيس وزراء [نظارة] مصر : مصطفى فهمى باشا الذى اصبح فيما بعد حما لسعد زغلول . الحجاب . حجاب الوجه . اليشمك البرقع . الطربوش حجاب الرأس ، مازال يعتلى الشعر ، حجاب العقــل والفكر يخاف من حركة التطور فى شرقنا العربى حيث قامت همهمة : تريد العلم والتوسع فى التعليم والدعوى لاقامة جامعة . ارهاصة ثورة تقــوم فى ايطاليا للمطالبة برغيف العيش . مجاعة استمرت ٥ ايام . المانيا تمد السكة الحديد فى العراق . تنجح المرأة فى حق الانتخاب فى النرويج . استقلال جزيرة كريت . انفصام اسبانيا عن نفوذها فى أمريكا اللاتينية .

وفى هذه السنة بدأ تأسيس البنك الاهلى . واقامة المتحف المصرى فى قلب القاهرة . وانشاء خزان اسوان . اى التحكم فى المال والماء وعرض حضارتنا .

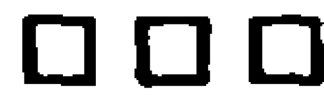


المولود الصامت !

□■□ .. نحن الآن الساعة ٨ مساء ٨ أكتوبر ١٨٩٨ . صالون بجوار حجرة نوم [المسافرين] الضيوف فى فيلا من طابق واحد . حديقة صغيرة . فيها تكعيبة عنب . تترامى اليها أصوات البحر كلما هاج . لأننـا فى حى محرم بك بالاسكندرية . قبل اتساعها . ولم يكن هناك كورنيش طبعا .وكان تعدادها أقل من مليون نسمة بقليل . ثلثهم من الأجانب خاصـة اليونان والطلاينة وأروام جزر البحر الأبيض والأرمن الى جانب عديد من النازحين عن شمال افريقيا : المغاربة وأهل الجزائر وتونس وليبيـا .. بعدا عن حماقة واستبداد استعمار فرنسي وايطالى .. وكأنهم كالمستغيثين بالرمضاء. فمصر كانت ترزح أيضا تحت ظل الحماية البريطانية من ١٦ سنة . ولكن حالة رواج الخير الزراعى والاقتصادى فى مصر .. مازال موجودا ومرغوبا وخاصة فى الاسكندرية المفتوحة على العالم من خلال مينائها ومرفئها . ومن هنا وصفوها . بالثغر الباسم ! ومن هنا كانت لأهل الاسكندرية لغة خاصة بهم تقريبا . غريبة اللهجة . وكثيرا ما تلوكها كلمات اجنبية دخيلة حورتها ألسنتهم واتخذت مكانا فى العربية !

وفى الصالون .. تجلس على الأرائك الاستامبولى : حماة صاحب البيت تركية البانية فارسية الأصل تختلط فى دمائها بعض رواسب من جزر شمال بحرنا الأبيض .

هي وابنتها الكبرى ــ صاحبة البيت ــ تميلان الى هواجس الخرافات والتعلق بالحكايات الغريبة .. وهذه الابنة مختلفة مع أختهـــا الصـــغرى التي تصغرها بعشر سنوات على الأقل . ولكن هذه الصغيرة بنت قمـــر ١٤ جاءت تضع وليدها الأول في غياب زوجها : حضرة سعادة وكيـــل نيـــابة السنطة : اسماعيل بك الحكيم . ووجب عليها الالتزام بواجبات وتقاليـــد الترحيب بها .. وفي حالة قلق .. يجتمع بالاثنتين .. « قابلة » مســتعجلة متعجلة .. و ٣ سيدات من الجيران والأقارب و ٣ خادمات بينمـــا صاحب البيت : شاب ذكي يميل للثراء . وصاحب مزاج ويميل الى جـــو المرح والأنس والفرفشة . يمضي سهراته خارج البيت أغلب الأمسيات . بعـــدا عن الملل فما بالك بهذه الليلة .. وشد الأعصاب عنوانها .. فالضيفة في آخر الشهر التاسع من حملها .. تئن وتتوجع على السرير .



الست الكبيرة ــ .. انا خايفة يا بنات .. احسن [النوة] تيجي بدري واسماعيل مش موجود . هو مفيش خبر منه .. حيجوا امتى ؟

الخادم العجوز [وهي نوبية] : احنا منخفوش ابدا يا ستي الحاجة . مش ضروري البيه . البيه مشغول . وبعدين الست الصـــغيرة .. فاضل عليها جمعتين .. والنوة لسه بدري عليها .

الست الكبيرة ــ والله انا خايفة .. وحياة المرسي . شي الله يا سيدي ابو العباس . يا أسياد اوقفوا معانا . يا أهل البيت . وانتعـــوا اســـمه بالسلامة . والله يارب احنا نندروا خروفين للفقراء .. يارب .

وترفع الست الكبيرة يديها للسماء .. مبتهلة .. وهي تتطلع من وراء زجـــاج النـــافذة .

... ــ انا خايفة [النوة] تيجي بدري .. مفيش نجمة واحـــدة منورة الغيوم مالية السماء .. يارب استر .

الخادم العجوز ــ متخفوش ياست هانم . ياستى الحاجة .. مش همه ١٧ نوة ف السنة . الاولانية [نوة الصليب] ميعادها كل سنة تيجي اول اكتوبر وجت .. مش كده وقعدت ٣ ايام وليالي مش مضبوط كده . وتاني نوة .. [نوة الصليبة] تبتدي بعد كده مضبوط . دي لسه فاضل عليهـــا بدري . مش بعد اسبوعين يا ستي فليه بقى بتخافوا .

الست الكبيرة ــ مبنخفوش ازاي يا بهية . طيب روحي يا بت يا صغيرة انت يا خدوجة روحي .. صنكري الباب من جوه ..

القابلة ــ لا .. بعد ما امشي . انا مروحة . تصبحوا على خير . الست الشابة فاضل عليها يوم ولا يومين . لسه بدري من عمركم . اتمســـوا بالخير بقى يا ستي الهانم .

[القابلة ــ لا ترضى بالبقاء . فحالة الحامل لا تستدعي وجودها ثم ان عليها أن تذهب للمساعدة في ولادة اخرى في ذات الحي .. تخرج يقفلون الباب وراءها بالكالون و ..] .

الست الكبيرة ــ بلاش المتراس يا خدوجة .. لسه البيه الكبير محضرش .. يجي بالسلامة . حطونا العشاء بعد صلاة العشاء . سخنوا الأكل يا بنات

. . . . . .
. . . . . .

بعد نصف ساعة . البيه لم يحضر . الحوار .. ذات الحوار حول النوة والولادة وازاى . ؟

[الحوار بين اللكنة التركية واللهجة النوبية وخليط من تعبيرات الريف واهل الاسكندرية .. بين الصالون وحجرة النوم والباب بينهما مفتوح] .

الابنة الصغرى — تانى .. مكفاية يا نينة الحكاية دى سمعتها لسابع مرة الجمعة دى .

الجارة الشابة — حكاية ايه يا جماعة والنبى نسمعوها .

الصغرى — تانى .

الست — يارب استر يارب .. يا مرسى يا سيدى ابو العباس . اصلى انت محصلكيش اللى حصل لى . ثم توجه حديثها الى الجارات الثلاث ونسيت أنها حكيت لاثنتين منهن ذات الحكاية من قبل ..

اصل شوفوا .. من يوم ما ضربتنى الجنيه فى بطنى .. وانا فاكرة حكايتها ومش قادرة انساها .

الشابة — جنية ؟ .. جنية ايه .. انتوا بتصدقوا فى العفاريت ؟ يارب أستر .. استر يارب .. يا جماعة ..

الست — ايوه : جنية . والا كان بقي للبنتين بناتى ٦ اخوة ذكور رجالة ما شاء الله . أمال .. بعد بنتى الكبيرة لما خلفناها .. كانت فيه قطة سوداء .. بتيجى وتختفى . مرة وأنا حامل فى ابنى الكبير اللى مخلفتوش .. طلعت القطة دى وجت جنبى على ريحة السمك المشوى . ساعة العشاء . قربت على وأنا بأكل سمكة ، ضربتها برجلى علشان تبعد . نونوت رفستها من جديد . نزل العيل . سقطت . وبعدين الحمل الثانى .. لم تظهر القطة ولكن بالقرب من نهايته شعرت وكأن القطة ضربتنى على بطنى فسقطت تانى وثالث ورابع وخامس ولغاية السادس . رحت بعد ما نصحونى للمنجم [أبو عجيلة] .. قاللى يا ست أنت مضربتيش قطة انت ضربت جنية . وان الجنية دى اسمها [القطاية] .. لما تبان وتظهر .. تطلع فى شكل قطة . هى بتنتقم منك ولازم تعملى عمل وحجاب ، وعنها وعملنا . والشر راح وابتعد .. وجت الأمورة دى بنتى الصغيرة .. الى زى القمر .. ربنا يحفظها ويحميها .

[الابنة الكبرى تنظر بغيظ . غيرى . وتحاول أن تغير موضوع الحديث عنها : أنا مشغولة على جوزى .. لسه مجاش] .

الست — دلوقت بيجوا .. متخفوش . لكن والله يا بنات الجو بيصقع . برد مش كده اقفلوا الشباك اللى هناك .. والله انا كمان مش عارفة المولود ده حيطلع ولد والا بنت ! آآآه كل اللى يجيبوا ربنا كويس .. لكن يا اختى انا خايفة ده أتأخر .. يا ترى ميزان والا عقرب !

الخادم العجوز — عقرب .. عقرب . أعوذ بالله . فيه عقرب هنا . مش معقول . عقرب هنا فى الاسكندرية . امال الصعيد يعملوا ايه .. عقرب !

وتقفز الست الكبيرة ، وكأنها نسيت وصـــدقت . ثم تســـتعيد ما كانت ستقوله قبل ان ينقطع حديثها : لا . . لا . . قصدى يعنى المولود اتأخـــر قوى . . وخايفة أن يفوت برج الميزان . . ويدخل برج العقرب !

جاره ١ ــ وطيب وايه الفرق ؟

الست ــ الميزان . . يبقى . .

الخادم ٢ ــ اجيبه من المطبخ يا ستى .

الست ــ يا بنت اخرسى . انت بتتنأوروا علينا والا ايه . . أما صحيح خرسيس ادب بوك ! ثم تتطلع الى الضيفة الجارة . الميزان يبقى المولود فيه : عاقل . . زى البيه أبوه . متزن كده سيد الرجالة لمـــا يكبر . . مش عاطفى وعندى ومتلاف يصرف اللى فى الجيب واللى مش فى الجيب . لو ربنا بحبه . . يطلع فى برج الميزان . . راجل يبقى كلامه حكمة وحكيم اسم على مسمى بحق وحقيقى . . مش انا تولت ميت. مرة اقفلوا الشبابيك الدنيا برد يا بنـــات !

البنت الشغالة الصغيرة . . تهرع لتقفل الشباك .

الست ــ ياريت اسماعيل كان هنا . . كان يقف جنبك ! صــعبانة على يا بنتى من العذاب . دى بكرية يا جماعة . . يا بنت اقفلى الشباك . ولكن الهواء يندفع . يفتحه على مصراعيه من جديد . . برق ورعد . . ومطـــر بهطل غزيراً .

مش قلتلكم النوة جاية . . اهى جت . .

□□□

وسط الرعد والبرق . . قرع على الباب . . الله . . أنتوا عاملين ايه فى الضلمة دى . . نوروا . . دى الساعة ٢ دلوقت . .

الابنة الصغرى الحامل . . مازالت تتأوه . تصرخ . . هيصة .

□□□

العديل وهو يشـــعر انه الرجـــل الوحيد الموجود ليتلقى المسئولية . مسئولية الولادة وهو الانسان المرح الذكى الذى تعود أن يبتعد عن هموم الدنيا بما فيها اوجاع الولادة بالطبع ! ــ . . أنا الحقيقة مش فاهم . أنا قلت لاسماعيل بك الحكيم يحضر . معرفش هو عامل تكليف كده ليه . مهو البيت بيته ! مش ده برضه بيته والفرق بينـــه وبينى ايه . مش ده بيت اخت مراته وفيه حماته . يبقى التكليف ده ليه ؟ . . أنا مش فاهم .

□□□

تمر ساعتان

الست الكبيرة منزعجة من جـــو الرياح العاصـــف والمطر الغزير . . العروس الشابة تصرخ . حانت لحظة الطلق .
الساعة ٤ فجر ٩ أكتوبر ١٨٩٨ .

□□□

العجوز النوبية .. مربية البيت والتى عاصرت كل وقائعــه وأحــداثه والأمينة على أسراره — فرحانة جدا . عينـــاها تبرقان — ولد . والنبى ولد .. زى القمر يا ستى الهانم !

الأبنة الكبرى [مكشرة] — باين عليه مبيتكلمش .

زوجها — هو ضرورى يرغى ويتكلم ويهيص . المهم الست اختك . خدى بالك منها . ولد .. يروح يجى غيره .. لكن اسماء مفيش الا اسماء هانم واحدة . ربنا يلطف ويسترها معانا يارب . الست الكبيرة .. تجرى لتقبل ابنتها الصغرى وتغطيها .

النوبية العجوز تأخذ الوليد .. لا صرخة ولا كلمة .. وانما مفتح العينين .. يتطلع الى النور .. يحلق . بينما قبض انامل كفيه الصــغيرين وكأن يطبق بهما على شيء : .. الولد ده عامل كده ليه . ماله مش فاتح أيديه ليه يا ستات . ده باين عليه حيطلع بخيل قوى . بخيل . بخيل أيه دى الولد دى .. سرهان . سرهان قوى .

العديل ضاحكا .. سعيدا بأن الكل حى يرزق . وان مسئوليته تكللت بالنجـــاح .

واخذ يرفع ذراعيه للسماء ويبسمل بالابتهال — ده باين على الولد ده ونظرته السارحة دى .. انه حيطلع فيلسوف زمانه . وكمان بخيل . محوش كلامه .. كلمة كلمة . ده ايه ده حجر والا متنطق يا اخينا .

□□□

يا جماعة تصبحوا على خير .
الكل ينام نسبيا . الا العروس . انها تردد اسم زوجها الغائب فى حب . ونشكروك يارب .

□□□

المربية النوبية العجوز من الفجر لحظة شروق الشمس .. ولعت البخور .. وراحت تفوت فى البيت .
وبدأت مشكلة تسمية المولود الصامت الساهم الى بعيد . وكيف يخبرون والــده .

ابرق العديل الى اسماعيل بك : [رزقتم ولدا فاطمئنــكم واهنئكم] ثم بدا يكتب خطابا مستعجلا اليه ايضا — فيه التفاصيل — التى يحلو لأى أب أن يلم بها ويستمع اليها : [ارسلنا اليكم اليوم تلغرافا تبشــيرا بقدوم نجلكم السعيد . وتفصيل الخبر انه فى الساعة العاشرة مساء الأمس . شعرت السيدة حرمكم بألم يشبه الطلق ، فأرادت ارسال الخادم الى القــابلة ، فامتنعت بقولها : ربما لا يكون الأمر كذلك . ولم نزل مترقبين حالهـــا الى الساعة الثانية بعد منتصف الليل حيث اشتد الألم ولم يعد هناك شك فى

اقتراب الوضع . واقتربت الرابعة اقبل « اخينا » مصحوبا بسلامة الوصول وقد رايته صباح اليوم فوجدته مثل أبيه ولكن بدون « شوارب » !!
ولكن محتارين فى التسمية . والدته مصرة على (حسين توفيق)] .

□ الأب اسماعيل بك : يحضر بسرعة فى الاسكندرية . يقبل عروسه خفية من أهلها .

ويتطلع الى ابنه البكر حسين توفيق . مازال صامتا لا يبكى وان كان يبتسم ابتسامة خفيفة . ويداه ما زالتا مطبقتين . فيفرح الأب جدا جدا لهذا الحرص وهذا الهدوء والاتزان وملامح الذكاء منذ الصغر .

... — بس أنا مش عاجبنى الاسم . لازم تغيروه .

العديل — تحبوا تسموه ايه ياسماعيل بك .

... — زهير .

العديل ضاحكا — آه والله نسيت انتو عاوزين تسموه تيمنا باسم الشاعر الجاهلى [زهير بن ابى سلمى] . يا استاذ .. ده طالع جيل جديد . قرن جديد . سنتين وحيبقى حسين توفيق ده من أولاد القرن الجديد امال من ولاد ١٩٠٠ . هو حاجة .. واحنا حاجة ! لكنى انا مندهش انه ميتكلمش .. ده الحجر يا اخى اتكلم . ده حجر رشيد اتكلم من ٧٦ سنة لما شامبليون حل حجر رشيد ؟ انت فاكر يا اسماعيل بك .

... — [ضاحكا] بس ده كان حجر بازلت غامق . ايوه انا فاكر مقاساته طوله ٢ر٢٠ متر وعرضه ٨٠ سم وسمكه ٣٥ سم ونقوشه ثلاثة : الهيروغليفى محفور على ١٤ سطرا والديموطيقى على ٣٢ سطرا واليونانى ٥٤ سطرا . تاريخه من القرن الثانى بالضبط فى ايام بطليموس الخامس ١٦١ قبل الميلاد .

العديل — ده انت مذاكر كويس يا اسماعيل بك .. ايه الدقة دى . والله مفيش شهرة بتطلع كده من غير نار !! ده انت دقيق جدا . لكن بذمتك ليه مجتوش . ليه بتعملوا التكليف ده . يا اخى انت خايف والا ايه الدنيا مستورة قوى معانا هنا زى ما انت شايف .

الأب : يخرج نوته صغيرة من جيبه وبحرص شديد يدون فيها شيئا ! يبدد أوراق اذ أجرى عملية ضرب وطرح وقسمة سريعة ثم استراحت ملامحه . حسبة كانت شاغلة تفكيره .

العديل — .. بكره حنعمل « سبوع » الولد .. الست الهانم حماتنا .. حتدبح الندر .. خروفين .

... — خروفين مرة واحدة .. ده اسراف !!

صباح « السبوع »

بخور . وصنج ودفوف .. ودق الهون و .. جو فـــرح وابتهالات . كانت العروس المحروسة تســـتلقى على السرير ذى الأعمـــدة النحاسية الصفراء متراخية وقد احتواها ثوب أبيض فضفاض يتجاوز ساقيهاويخفيهما تماما وتألقت فى عينيها المكحولتين نظرة منتصرة لأنها انجبت هذا الفارس الذى يتوسط حجر جدته التى تتربع بدورها فوق الـــكنبة الاسطامبولى ولا تقل نظرتها زهوا عن نظرة ابنتها أم المولود .

لقد سموا المولود باسم الحسين والتوفيق باذن الله وحمدوا الله الف حمد على أنه قد جاء ذكرا سويا ولم يكن انثى وتعالى صوت امراة تغنى فى ارجاء البيت ويتردد صوتها رخيما فى غرفاته :

لمـــــا قـــــالوا دا ولـــــد	انشـــــد ضهرى وانســـند
وجـــــابولى البيض مقشـــر	وعليـــــه الســـمن عـــــوم
لمـــــا قـــــالوا دى بنيـــة	هـــــدوا ركن البيت عليـــه
وجـــــابولى البيض بقشره	وبـــدال الســـــمن ميــــه

وضحكت الوالدة الشابة من أعماق قلبها وهى تتطلع الى والدتها التى وضعت أمامها على مائدة مرتفعة من الرخام الشاهق البياض صينية نحاسية يتوسطها ابريق من الفخار مدهون بألوان زيتية حمراء وخضراء وقد امتلأ بماء معطر بالزهر . ونضح الماء حتى ملأ الصينية وراحت الجدة تنثر فى الماء حبات الفول الجافة وحشرت فى فوهة الأبريق باقة من الورود ذات العبق ثم ثبتت فىبزبوز الأبريق شمعة مستطيلة عالية وعلقت فى عنقالأبريق سلسلة ذهبية يتدلى منها جنيه ذهبى وساعة ذهبية قد تنازل عنها الوالد المحظوظ لتبقى معلقة ليلة السبوع والنهار بطوله حتى ينتهى الاحتفـــال بسبوع المولود .

الف حمد وشكر يا الهى على أن نصرتنا بالمولود سعد الله ولم ترزقنا بالبنت والا لتغير الحال واصبح الأبريق الشامخ بعنقه المتطاول وبزبوزه المتعالى قلة تنحشر فى فوهتها باقة زهر تتوسطها شمعة وتتدلى حول رقبتها مصوغات الوالدة الذهبية ولكنها لا يمكن أن تبارى هذا الأبريق الشامخ .

الست الكبيرة تملأ الصحيفة التى استقرت الى جانب الصينية النحاسية التى يتوسطها الأبريق بمقادير متساوية من الحبوب الجافة التى ترمز الى الرخاء حبوب الفول والعدس والأرز والقمح والذرة والشـــعير والحلبـــة وتضيف عليها حفنة من الملح الرشيدى .

ويقبل الأهل والخلان والجيران الـــكبار والصغار وفى طليعتهم الست القابلة التى حضرت لتطمئن وعلى أساريرها تتسع ابتسامة قديرة منتصرة. وشها سعد وخير .

لأنها اشتهرت بين القابلات بأن يديها بجلبان السعد بصورة تكاد تكون مستمرة يتمثل فى العشرات من الذكور الذين يخرجون الى الحيـــاة على يديهـــا .

وجاءوا لها بالغربال وهو ذلك الشىء المستدير الذى يشبه مضرب التنس

ولكنه يخالفه باستدارته الكاملة والى جانبه احضروا الهاون النحاسى وقد استقرت فى باطنه اليد النحاسية المخروطة .
واخذت المولود المحروس وهى تسمى باسم الله وتحمد الله على مشيئته « ما شـــاء الله » ووضعته فى رفق فوق شبكة الغربال . وراحت تؤرجح الغربال يمينا ويسارا والمولود يتأرجح بدوره ثم اخذت تقرع الهاون النحاسى وهى تردد ضاحكة « اسمع كلام امك ... ما تسمعش كلام ابوك » .

وجـــاءت الوالدة ورفعت نيل ثوبها الفضفاض وحسرته عن كاحليها ثم اخذت تخطو فوق الغربال سبع مرات تعبر المولود والداية تقول :

الأولة باسم الله والثانية باسم الله والثالثة لا حول ولا قوة الا بالله والرابعة من بعد التعب لقيناه والخامسة من عين الحسود رقيناه والسادسة ندعى له بالعز والحياة والسابعة اسم النبى حفظه وحماه .

وحملت الداية المولود على ساعديها واخذت تدور به فى ارجاء المنزل فى موكب يضم الجميع وفى طليعتهم الوالدة ام حسين وقد احاط بها الأطفال يحملون الشموع الموقدة ويرددون مع الداية :

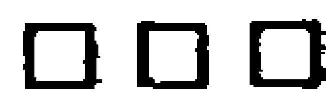
« برجالاتك . حلقة دهب فى وداناتك

تمشى فى هنـــا تدخل فى هنا تطلع فى هنا

برجالاتك . حلقة دهب فى وداناتك »

وكلما دخلت غرفة اخذت حفنة من الوعاء الذى يضم الحبـــوب السبعة والملح الرشيدى وبدرتها فى ارجاء الغرفة لتبذر الرخاء فى طريق المولود وتنثر الملح فى عين الشيطان والحسود .

وينفض الاحتفال بتوزيع اكياس من الورق الملون اشبه بالحقائب الصغيرة يحوى كل كيس حفنة من البندق والجوز واللوز والملبس وقد تتواضع الحفنة فتضم حبات الحمص المكسوة بالسكر الملون . والملح فى عين الحســـود والعـــدو ..



كبر الولد حسين توفيق قليلا . اصبح له من العمر ٤ سنوات بعد ان انتقل مع والديه فى مدن ريف مصر .. وبدأ يعى بعض الشىء ما الذى يحدث فى البيت . كان انيسا جليسا لجدته التى كانت دائما تحكى عن اهلهـــا « البوغازية » أهالى البحر . والمراكب ورحلات المراكب والبحارة وحكايات البحر . والبطولة .

وعن والدها [سيدى سليمان البسطامى] . وما اكثر ما كانت تحلف وتقسم به والدته .

الجدة دائما كانت تحكى عن مأساتها . عاوزة اى انسان مهما كان طفلا تتحدث اليه . انها تحكى حكايتها للمرة المائتين ولا تزهق . انهـــا مأســـاة حياتها ومأساة كل حواء تجد نفسها طالقة . العيب ربما ذنبها .. انها ظلت متعلقة بالخرافات وتسحر لزوجها الثانى زوج أختها الذى تزوجها بعد ان ماتت أختها الكبيرة نجاة .

والدة الحكيم .. لم تكن مثلها ولا أحد فى هذا المنزل . انهـــا تستريح لسماع الحكايات والمغامرات خاصة من ابن خالتها . الذى امر ان يحضروا لها من يعلمها الخط والقراءة . وكانت قوية الشخصية . عنيدة . وكانت الكلمة فى البيت كلمتها .

□ يصبح لحسين توفيق اسماعيل احمد الحكيم اخا أصغر اسمه زهير .

□ □ □

يكبر حسين توفيق قليلا أصبح له من العمر ٦ ســـنوات . وبدا يعى اكثر واكثر كيف تزوج والده والدته . لقد كان والده فلاحا من ريف مصر .

كان يبحث عن عروس بعد أن أصبح وكيلا للنيابة ــ حضرت من صفط الملوك أخت والده وعمتها الى الاسكندرية . زارتا عـــائلة البسطامى . أظهرتا صورة شمسية مطبوعة بطريقة زمان على صفيح للعريس وكيل النيابة متشحا بالوسام البراق على صدره . ما أن رأت ابنة العائلة الصورة حتى هتفت بالموافقة تخلصا من عريس من البوغازية كانت أمها تريده زوجا لهـــا . انها طموحة وقد شدها الوسام . انها ستتزوج موظف دولة قد الدنيـــا . حيبقى باشا . تمسكت بفكرتها . وبرايها . بكت عندما بدت الزيجة أنها سوف لا تتم .

أرسلت وراء العمـــة التى غضبت فى بادىء الأمر ورجعت بينما الام التركية الفارسية الألبانية الأصل والدماء تبرطم هامسة :

... ــ ما بجاش غير البنات يحكموا رايهم ويختاروا العرسان !

□ □ □

□ والده اسماعيل بك .. ما زال مهتما ــ فى وقت فراغه ــ بتدوين كل مليم صرفه فى هذه الزيجة . من تفاصيل ما انفقه على زيجته كما دون وكتب واكتشف الابن فيما بعد :

١٧ قرشا صاغا تذكرة درجة ثانية من المحطـــة الى صفط الملوك فى ١٤ ابريـــل .

١٠ قروش صاغ ليد عبده الخادم خصما من ماهيته .

٢ قرش صاغ أجرة حمار فى تاريخه .

٥ قروش صاغ اجرة التخليص على فراخ الى الاسكندرية .

٥ قروش صاغ بقشيش للخدم يوم تاريخه .

ولكن مع حرصه .. لم يذكر بالضبط كيف وزع القروش الخمسة على من من الخدم والحشم ؟

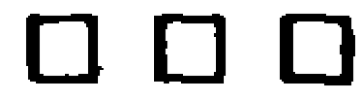
□ □ □

الولد يكبر قليلا ويسمع من اهل البيت عن حرص والده لادى . يسأل جدته عن : الفلوس والبخل . ويعنى ايه تحويشة العمر .

ويفهم ان والد والده صحيح كان يمتلك ٨٠ فدانا فى قرية اسمها صفط الملوك فى البحيرة ولكنه كان مزواجا كثير الأولاد والأحفـــاد . وكان كثير

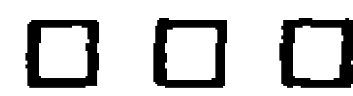
المسئولية . يكفي انه علم بعض اولاده فى وقت التعليم فيه لم يكن هو موضة العصر . انما فلاحــة الأرض .

ومن اجل التعليم جاء والده الى مصر مع بعض اخوته واقاربه واقاموا فى سكن صغير واحد . الاخ الاصغر مرح لا يركز على شيء فى دراسته . انما يهمه المال . كان الاقتصاد سبيلهم للحياة . لا يذوقون المطبوخ فوق النار الا ظهر يوم واحد فى الأسبوع . هو ظهر يوم الجمعة . والمطبوخ كان دائما عدسا . كان عمه يلعب . حالة العدس [فارت] وقع العدس على الأرض . اعاده مع ترابه الى الحلة .. عادوا فأكلوه واكتشفوا التراب فى افواههم . لم يفعل والد توفيق الحكيم الا ان يكتف اخــاه . يربطه بحبل ويعلقــه مثل [الكلوب] معلقا فى الهواء بين الأرض والسقف كلما خرجوا .



العم الصغير بالطبع يهرب فى أول فرصة مبحرا الى بلاد الشام .

اسماعيل والد توفيق الحكيم .. يختار مع زميله [عبد العزيز فهمى] دراسة اللغات يلتحقان بادىء الامر بمدرسة الألسن . وما يلبث ان يغير اتجاهه الى دراسة الحقوق ويزامل : [لطفى السيد] و [اسماعيل صدقى] ويصدر الثلاثة فيما بعد مجلة : « التشريع » .



والد الحكيم : كان يقرا كثيرا فى الأدب والشعر وكتب الدين .

وكان صاحب « تواليف » .. رأى ان يخترع يوما تبغا جديدا للتدخين . حاول أن يصنعه من السعتر الجاف مع خلطه ببعض أعشاب ..

كان سريع البديهة والرد . يحكون عنه أن زميله عبد العزيز فهمى كان جالسا على مقهى يطل على ميدان الأوبرا .. عندما لمح اسماعيل الحكيم قادما : قال له .. اهلا وسهلا بالفلسفة .

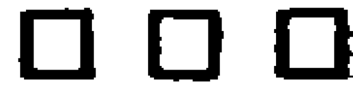
رد الحكيم الأب بسرعة : ان لم يكن فيها سفه !

انهم يحكون عن والدته .. كيف انها فوجئت بعد زواجها وذهابها الى المحلة الكبرى لحظة ان تزوجت .. ان زوجها لا يملك الا خمسة فدادين فقط ورثها عن والده وان مرتبه ١٠ جنيهات فقط يخصم منها المعاش . صرخت . بدات تخاف العوز . ومع جراتها وتدبيرها بدات تشرف على كل شئون البيت . والله .. انت تشكرى ربنا . امال لو جيت واتجوزتك وانا لسه متعين جديد وماهيتى ٥ جنيه كنت عملت ايه ؟ ورضيت العروس . ولكن عقلها كان يفكر .

ويمر زمن . الزوج يترقى . يصبح مرتبه ١٥ جنيها .

تنجب حسين توفيق . يذهب معها زوجها ليقدمهــا لوالده فى الريف الذى تزوره لأول مرة . مشادة بينها وبين حماتها . او زوجة حمــاها ! الخناقة تصل الى أن تتشدد هى فى موقفها . ممــا اسمعهــا . والله اذا

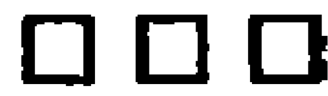
مكنتيش تعتـــذرى .. اطلق ؟ ! ولا تعتذر والدتى . وانمـــا يراضيهـــا ويسترضيها والدى .



بدأت تخاف وهى الجريئة . ارادت ان تأمن الزمن والزمان . انهـــا تريد أن تملك شيئا من أجل زوجها وولديها . من اجل المستقبل . نعم انها مسرفة . كريمة جدا اذا ما قيست بوالدى .

بدأت رحلة البحث عن ارض أو عقار .

الأرقام . النسبة . الديون . الرهنيات . التسجيل . الجنيهات . الوفر لا بلاش دى تكلف . البنوك . المصارف والصراف . الاستغلال . التوكيل والشيكات والكمبيالات !

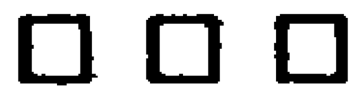


فى هذا الجو ترعرع الحكيم وكبر .

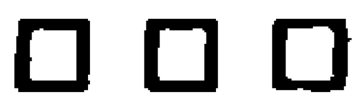
الأم تسعد بالفن وبالقراءة وبالنغم والموسيقى وتستضيف فى الصـــيف بعض أهل الفن .. جو بهجة ومرح .

الوالد غارق فى حسابياته . ومقاساته واعمال البياض والهدم والبنـــاء والاضافة للبيت الذى اشتراه فى الاسكندرية . والأرض وما عليها من ازمات وزراعة .

ثم أخوه الصغير الشقى المدلل . هو يلعب .. وتوفيق الحـــكيم هـــو دائما المتهم بالشغب مع أنه مظلوم .. لا يفعل شيئا الا اقباله النهم على القراءة . قراءة اى شيء . لدرجة انه تعود ان يتخذ من تحت السرير مخبأ، اذ تتدلى الملاية البيضاء على الجانبين ساترا . والشمعة او اللمبة نمرة ٥ ضوءا بين الظلام . الا أن اللهب يرتفع ذات نهار . تمسك بتلاليب الملاية . دخان . حريقة . حريقة اطفوا النار . علقة ساخنة بالطبع !

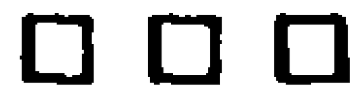


كان يخاف العفاريت صغيرا .
الخـــادمة المربية الشابة .. كانت تبدو له احيانـــا وقد تدثرت بالملاية السوداء . أو بملاية بيضاء .. تصرخ وتهتف فى وجهه كالعفاريت .. حتى تخيفه وتسكته . ليبطل شقاوته .. التى كثيرا ما عوقب من اجلها .



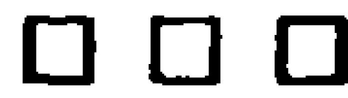
انه يذكر من طفولته ان والده فاجـــاه ذات يوم بلعبة ميكروسكوبية من صفيح صغيرة جدا . بقرش تعريفة ! كانت وابور من غير زنبلك هاتفا به سعيدا : « خد العب ياوله ! » . بكى الحكيم يومها . انه ليس مثل وابور ابن الجيران . لا مفتاح يديره ولا لون له يثيره !

انه يذكر أن والده كان يأخذه ليلة العيد لشراء ملابس العيد فى محل [ستاين] فى مصر .. كان أولا يتطلع الى بطاقة الثمن يسأل عن الأرخص بينما الولدان توفيق واخوه زهير يتمسكان بلون معين غير عابئين لثمن لا يعرفان من اين أو الى اين ؟ الوالد يغمز البائع بأن يلف الأرخص . مش مهم ! ويرضخ الولدان ولكن توفيق الحكيم صغيرا يذكر كيف أن عيديته ٥ قروش . كان يكتفى بالتفز والجرى واللعب دون أن يصرفها . يعيدها الى والدته !



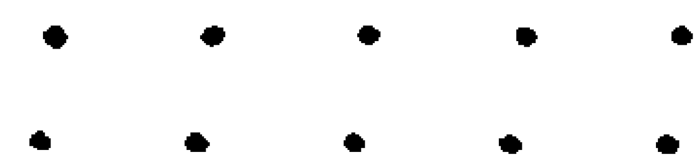
بدات رحلة التعقيد تزحف على براءة الطفل حسين توفيق الحكيم . فى مدرسة كل بلدة فيها والده . انه كان يحس داخل نفسه بالاعتزاز به لما يسمعه عن وطنيته واعتزازه .. ولكنه كان يود دائما أن يكون الطفل هو نفسه وليس ابنا لأحد . اذا ما جاء وزار المدرسة فانها تقف على رجل . دائما كان يريد أن لا يكون الا مثل زملائه .

مرة تمنى أن تبلعه الأرض .. عندما كان يمشى فى طابور زملائه التلامذة . ونجأة وقف المدرس وقال تعظيم سلام . ووقفنا ودقينا الأرض بكعوبنا الصغيرة واهتزت أزرار الطرابيش فوق رؤوسنا . وفوجئت بأن من نضرب له التعظيم هو والدى : قاضى المدينة !



ولكن الفن يدخل حياة طفولة وصبا الحكيم .

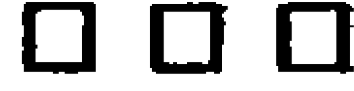
تأثر الحكيم فنيا بأجواء الفن .. ترنم وتغنى بآيات الذكر الحكيم . كان يتلوها وراء الشيخ بصوت جميل .



كان يرقب مواكب الموالد .. مولد سيدى ابراهيم الدسوقى .. عندما يمر تحت نافذة البيت وهو مع عائلته فى الريف .. حصان ابيض يركبه الخليفة شاهرا سيفه وسط بريق والوان الأعلام والرايات والمزمار والدفوف والطبول واصحاب المهن والحرف من حدادين ونجارين .. كل قد وضع ادواته على عربة يجرها الخيل .

الا ان زيارة جوقة الشيخ سلامة حجازى — وكان يعرج قليلا — لمدينة دسوق .. كانت حدثا . الصوان . المسرح . الكلوبات . الممثلين . الحوار ثم زيارة العالمة الأسطى حميدة لتخلع جو السرور والفرفشة فى البيت خاصة بعد ان وصف الطبيب المداوى للجدة فى أن يرعوا كل ما يبسط الجو ولا يعكره . كان تعلمه الغناء ايضا وعزف العود . الى ان فاجأته والدته . زعقت فيه .. تطلع مغنواتى يا سى حسين يا توفيق . .طب والله نقولوا لأبوك لما يجوا . ده اللى فاضل كمان مغنواتى . قراءة قلنا طيب . مسرح قلنا طيب شقاوة وعفرتة قلنا طيب . لكن كمان مغنواتى . طيب والله .. اسمع احلف بسيدك البسطامى .. ان لا تمس العود فى حياتك . وحلف

الصغير . الا أن هذا لم يمنعه من حفظ الأغانى الصـــعبة ، من الأسطى حميدة والفتى فى تردد من أمر والدته . الم تخبره أن عبده الحامولى كان قد لحن وغنى : [تمخطرى يا زينة] من اجلها .. من اجل زغافها ؟ وكيف ان والدها ـــ وهو عائد ذات يوم من البوغاز . وجده واقفا عند باب بيت حاول ان يستأجره ـــ ليمضى الصيف لعلاج كبده ـــ وكان الباب مغلقا ، فأقسم بألف يمين ليأتى ويقيم عنده فى مندرة مسكنه . وقد كان . وكانت جدته تحكى له كثيرا عن حب جده هذا للثقافة والكتب والمغنى !

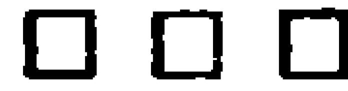


ومع ذلك لم يكن الحكيم فنيا : شاطرا فى الدراسة . كان يكره الجغرافيا ويحب الرسم والالوان . مرة كان يلعب . فات والده . سأل زميله الصغير: أنت مع الولد توفيق فى الفصل ؟

... ـــ هو بليد . وانا شاطر .

فما كان من والده الا ان امسك بالعصا يلاحقه وهو يصرخ فيه : ياخايب يا تنبل والله لأوريك .

ويشاء حظ الحكيم ان ينجح آخر السنة بتفوق ويقع الولد الشاطر .. ويعتذر الوالد لابنه متلاطفا !



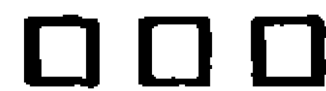
وتستمر حياة الريف بتوفيق الحكيم . حمار يشتريه ويعشق ركوبه . قطار الدلتا . الفلاحين . الأرض الخضراء . المحاصيل . اسواق الثلاث . المحطة . العربة الحنطور . الأوز والفراخ والأرانب . انه يذكر يوم ان اراد والده أن يوفر .. فسأل عربجى الحنطور الذى تعود ان يحضره من المحطة الى البيت .. وكان اسمه الغريب خضرجى الرومى .

... ـــ اسمع يا خضرجى . كم تساوى عربتك بخيلها .

... ـــ ١٨ جنيه يعنى يا سعادة البـــك .

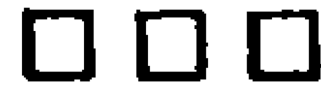
... ـــ ايه رأيك انت والخيل والعربية بالمبلغ . ده . وأديلك ٢ جنيه مرتب شهرى تقبضهم من المحصول . وتعيش فى الدوار !

ويرضى الخضرجى .



وينتقل الى الاسكندرية بعد الابتدائية . يعشق الســـينما وحلقــــات [فانتوماس] . يعشق الادب . يشترى الروايات . اى رواية . يسقط . تعنفه والدته بأن لا يذهب للسينما . ولـــكن غواية الشـــيطان تشده الى السينما . يتأخر مرة . تنتظره والدته ولا تفتح له الباب . معندناش ولاد يسهروا . اين كنت .. طبعا فى السينما تعرأف .. لا .. ! طيب وريني الخمسة قروش ؟ ويعترف . تغلق الباب فى وجهه . الليل يلفه صقيع البرد .

وقف على قارعة الطريق اكثر من ساعتين حتى اشارت له الجدة من النافذة بعد ان نام أهل البيت أو تظاهروا . وقفت له . ودخل .. وتسامحه والدته على شرط أن يحلف بسيدى البسطامى ان لا يقرب السينما حتى البكالوريا . وقد كان .



والدى يتفق مع عمه أن يقيم ابنه توفيق فى الصيف عندهم فى مصر . ثلاثة جنيه فقط مقابل : معيشته وطعامه ومصروفه ٥٠ قرشا فى الشهر !

بدأت أضواء الفن والمسارح تتلألأ فى نظر الفتى القادم من الريف .

فرقة جورج أبيض : صوته الجهورى أوديب الملك . و . هملت . و . عطيل . لويس الحادى عشر . تراجيديا ولا غناء . اوبرا القاهرة .

كشك موسيقى الأزبكية . يقابل كامل الخلعى .

الريحانى . كشكش بك .

بدأت اقرا الجـاد من الكتب : فى الأخلاق لسبنسر .. نظرية النشـوء لداروين . العقد الفريد لابن عبد ربه والكامل للمبرد والأمالى للقالى وروح القوانين لمونتسكيو وأشعار بودلير وحكايات لافونتين ويتبع جيان أندريه جيير وأناتول فرانس والمتنبى وحافظ وشـوقى .. « البخيـل » لموليير و « البخلاء » للجاحظ .. وسيرة حاتم الطائى أو الشاعر الجـاهلى : حاتم ابن عبد الله الطائى الذى قيل عنه انه اذا قاتل غلب ، واذا أسر أطلق ، واذا غنم اعطى . وكيف انه كان كريما ولكن مسرفا تماما مثل أديب روسيا الكونت ليوتولستوى .. الذى فرق مئات الأفدنة من أرضه على الفلاحين . وراح يلبس الخشن ويأكل الضرورى .. حتى مات على رصيف محطة سكة حديد .

ان الحكيم بدأ يأخذ المـادة بحذر ويصرفها بحرص . يترك الاسراف فقط فى خياله الفنى !

يدخل الجامعة . مدرسة الحقوق . انه يتعلق بالمسرح وبالموسـيقى وبالأدب . أرهاصات الثورة .. الشباب يغلى فى مصر . ابان الحـرب العالمية الثانية . روح الوطنية تتدفق . الحكيم يؤلف اول تمثيلية له : [الضيف الثقيل] عن الوجود البريطانى الكريه فى مصر . ثم مصر أو عرب كوميـديا اسماها [العريس] عن الفرنسية . قدمها لفرقة عكاشة .. وبعـدها تعرف بأخ زميل له فى الحقوق واسمه مصطفى ممتاز .. فكتب معه المسرحيـة الغنائية [خاتم سليمان] لحنها كامل الخلعى بثلاثين جنيها . ماطلهما فيها كل المماطلة صاحب الفرقة زكى عكاشة وكان رجـلا ثقيـل الدم معجبـانى بنرجسيته . وكان شاذا فى معاملته وهيئته . ثم كتب [على بابا] .. الف بعض مقاطعها زجلا وقدمتها فرقة عكاشة على مسرح الأزبكية .. الذى أنشأه طلعت حرب . اقتصادى مصر الأكبر حينئذ .



سنية فى القاهرة ..

□■□ ولكن قبل هذا الفن والفكر واطلاله على عوالم المستقبل .. كانت هناك حكاية حب . هى اول حكاية عشق .. فى حياة الحكيم : سنية .. بنت الجيران . التى ذكرها فى [عودة الروح] .

□□□

المكان : حى السيدة : القاهرة .

شارع سلامة رقم ٣٥

الحكيم مراهقا قادم الى القاهرة جديدا .. جديد على كل شىء . عمره .. ان فى حياته خيالات خادمة شقراء .. ثم الاسطى حميدة .. لفتت نظره فقط . ولكن قلبه يدق الآن . يتفتح كزهرة العباد للشمس .

والشمس هنا بدر .. سوداء العينين . اهدابها طويلة كالسهام . شعرها أسود لامع مقصوص . بشرتها غاية فى البياض وجهها المستدير كالقمر لحظة المحيا . اسنانها لؤلؤ ابيض . جسدها اللين يجذب كل شباب الحى وأولاد الجيران ورجالة الحتة ! اسمها : [سنية] .

□□□

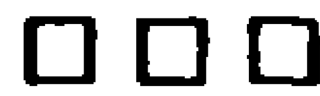
□ عندما حضر تلميذا من دمنهور ليتعلم فى القاهرة ، لم يكن يدرى انه سيلتقى فى المدينة الكبيرة بأول تجربة عاطفية تزلزل قلبه ووجدانه .

لقد ترك فى دمنهور والده الغنى ووالدته الارستقراطية .. والقصر او شبه القصر الذى كان يعيش فيه .. ليعيش مع أعمامه وعمتــه الوحيدة فى حى السيدة زينب .

وكانت حياة غريبة عليه ، جديدة على ما اعتاده بين والده ووالدته من تحفظ وتزمت وحدود وقيود .

انه هنا يعيش حياة بسيطة مشتركة فى كل شىء .. فى الطعــام وفى النوم وفى المشاكل اليومية وفى التواضع الذى يشمل كل نواحى الحيــاة من مأكل ومشرب وملبس وسلوك . فقد طبعه الحى الشعبى بطابعه . وطبعه أعمامه وعمته بطريقتهم فى الحياة .. حتى مبروك .. الخادم الذى كان يقــوم على خدمة هذه الأسرة .. فقد تأثر بهم واصبح فردا منهم يتصرف بمثــل ما يتصرفون ويسلك فى حياته بمثل ما يسلكون .

وكان طبيعيا أن تسترعى دقات البيانو التى تصل الى محسن من الطابق الاسفل للطابق الذى يسكنه مع أعمامه وعمته .. كان طبيعيا أن تسترعى دقات البيانو اذنيه وهو الذى يعشق الموسيقى منذ طفولته .. فبــدأ البحث عن مصدر هذه الموسيقى التى تدق البشارف القديمة « يا طالع الســـعد » و « مالى يا لمه » و « العفو يا سيد الملاح » و (أفراح القبــة) وغــيرها من الادوار الشائعة فى مطلع العشرينيــات من هذا القــرن .. وسرعان ما اكتشف ان هذه النغمات تصدر عن أصابع [سنية] . (وســنيه) هذه فتاة فى رقة الندى وبهاء الضحى وجمال الوردة وهى تســكن مع أسرتهــا الطابق الأسفل للطابق الذى يسكنه مع عمته واعمامه . وبدأ قلبــه البــكر الصغير يتحرك للوجه الساحر وللعينين الساجيتين وللشعر المنســاب فى موجات كالعطر ولم يكن عســيرا عليه أن يخاطبها وأن تخاطبه ، بل واكثر من هذا فقد استطاع ان يتخطى « الحاجز الحديدى » المضروب حولهــا وان يدخل بيتها بلا حرج .. فهو غلام صــغير لم ير اهلهــا مانعــا من أن يدخل بيتهم .



سنية ــ تفضل يا بيه .. رايح تعلمنى ايه النهاردة يا استاذى ؟

... ـــ زى ما تطلبى حضرتك .

سنية ــ مش عارفة ليه انا احب طقاطيق اليوم .. ومع ذلك غنــوة امبارح ، ولو انها دور قديم قوى ، لكن ماقدرش اقول لك قد ايه عجبتنى ، اول مرة فى حياتى حبيت دور قديم ، لكن الفضل لك يا محسن .. الحــق انت غنيتها بشكل .. والطريقة بتاعتك حاجة جميلة قوى .. صحيح .

... ــ متشكر يا سنيه هانم .. ده من لطفك .

سنية ــ اؤكد لك يا محسن بك ، انت لك مواهب عجيبة وعندك صنعة فى الغنا ، آهى الصنعة دى اللى عايزاك تعلمها لى . مش كده ؟

... ــ وآهو البيانو ده ، اللى عايزك تعلميه لى .. مش كده ؟

سنية ــ من غير شك .. واضمن لك تقدما سريعا لأنك قلت لى انك

تعرف تضرب على الهارمونيكا .. كنت عاوزة اسألك عن حكاية « الأسطى شخلع » العالمة اللى علمتك صنعتها .

... — آه .. لكن دى حكاية قديمة قوى .

سنية — عاوزة اعرفها .. مشتاقة قوى انى اعرفها .

... — صحيح مشتاقة انك تعرفيها ؟

سنية — أيوه .. عاوزة تحكيلى عرفت شخلع ازاى ؟

... — شخلع !! انا نسيت .. وقتها كنت صغير قوى .. ومع ذلك فاكر .. كانت أيام لذيذة .. وكنت سعيد ، ولو انى مش فاهم عشان ايه .. أيوه افتكرت .. تذكرت .. ايوه .. مستحيل انسى .

□□□

على الجانب الآخر .. فانه لم يكن يدرى أن هناك من ينافسه منافسة خطرة على قلب سنية .. اتهم كل أعمامه .. وعلى رأسهم سليم .. الضابط المحال للاستيداع المحظور عليه لبس البدلة العسكرية .. ولكنه لم يكن ليهتم بارتكاب آية مخالفة فى سبيل الفوز بقلب سنية .. ولو عن طريق الوصول لأن يبهرها بلباسه العسكرى .. فكان يرتدى البدلة العسكرية ويهبط الى الشارع والمنشة فى يده وقد فتل شاربيه «بالكوزماتيك» وجعل منهما هلالا يرتفع على شفتيه ويحيط بأنفه ثم يجلس على المقهى المقابل لنافذة سنية يتحدث بصوت عال ويشير بيديه ويصفق لينادى الجرسون وهو ينظر اليها واقفة فى الشباك .

ولكن .. هل كانت سنية تشعر بكل هذا ؟

لقد كانت سنية مبهورة بشاب وسيم يسكن معهم وهو غنى وجميل الصورة ويستطيع أن « يفتح بيتا » وهو يناسبها سنا وهو بالتالى يصلح لأن يكون زوجا .

والشاب الوسيم لم يضيع الفرصة .. فان الفتاة امامه .. وهى جميلة وشابة و « بنت ناس » وسنها تقارب سنه وهى بهذه الأوصاف خير من تكون له زوجة .

□□□

وتحول الانشغال الى حب جارف من جهة واحدة . هى جهته . اما هى فكانت وان كانت تقابله بحفاوة .. ولكنها ولا هى هنا بالنسبة لمشاعره !

مشغول بسنية .. وسنية مشغولة ولا تدرى به ، ولا تدرى بسليم ..

حتى مبروك .

خادمهم مبروك .

هو الآخر بهرته سنية ــ ولم لا ؟ أليس بشرا له قلب يشــــعر ويحس فيحب بما يحب سادته .

اجمل ما فى « التركيبة » أن الجميع كان يفهم بعضهم بعضا .. أى أن كلا منهم كان يعرف أنه غريم الآخرين فى قلب سنية .. وأن كلا منهم غريمـــه فى هذا القلب .

ويوم رأى مبروك أن الشاب الذى يتحداهم جميعا بغناه وشبابه وجماله وقدرته على أن يفوز بقلب سنية .. يوم رأى مبروك هذا الشاب يرتدى « نضارة » شمس .. ذهب واشترى نضارة وظل يضعها على عينيه حتى وهو فى المنزل يقوم على خدمة الجميع فكانت مثار تعليق وسخرية من الجميع الى أن يصحو الجميع من الحلم على أن سنية ستتزوج من الشاب .

سنية ــ ازيك ياتو ..

... ــ الله يســـلمك .

سنية ــ بلغتك اعمال عمتك ؟

... ــ ما ذنبى انا ؟

سنية ــ ومن قال لك انى زعلانة منك ؟

... ــ صحيح ؟ مش زعلانة منى ؟ انا دايما عندك زى زمان ؟ زى يوم قبـــل الســـفر ؟

سنية ــ طبعا .. وانت ذنبك ايه ؟ انا مش زعلانة منك ابدا ..

انا متشكرة على كل حال يا محسن .. وتأكد انى مش زعلانة منك ابدا

... ــ فاكرة دروس البيانو ؟

سنية [بفتور] ــ طبعا فاكراها .

... ــ لكن انا نسيت دروسى .. ومحتاج لك تعيدى معايا كل اللى فات

سنية ــ انا ماعنديش وقت .

... ــ مش عاوزانى آجى ؟

سنية ــ انا يا توفيق .. عندى شغل كتير دلوقتى .

... ــ يعنى دى آخر مرة آجى فيها ؟ دى آخر مرة اشوفك ؟ (يبكى) .

سنية ــ جرى لك ايه ــ يا حبيبى ؟ انت صغير تعيط ؟ انت مش صغير على العيـــاط .

ورات سنية ان لا حيلة لاسكاته وايقافه فتركته يتكلم ويهذى وذهبت هى الى الشرفة الخشبية وفتحت نافذتها واخذت تنظر منها غير سامعة كلمة واحدة مما يقول .

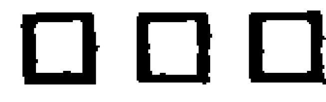
عندئذ أدرك أن المرأة التي أمامه ليست سنية .

وأغلقت سنية النافذة وعادت وصدرها يضطرب ابتهاجا فما رأته فى وجهها مبتل العينين حتى تجهمت وقالت متبرمة .

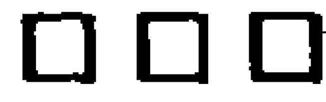
سنية — انت لسه هنا بتميط ؟؟ كنت جاى عشان كده ؟

فوقف الفتى .. واحس أن انصرافه ضرورى وأنه قد انتهى الأمر وتقدمت نحوه وقالت بلهجة هادئة

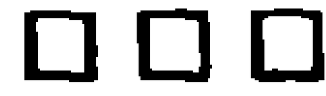
... — مروح بيتكم ؟



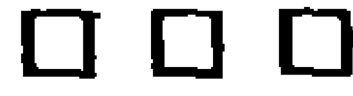
وتردد قليلا قبل الانصراف واخيرا لا يدرى لماذا ولاية مناسبة اخرج من جيبه رزمة الشعر والنثر واعطى سنية اياها فأخذتها فى دهشة وهو يذهب بسرعة وينزل السلم على عجل ولا يعلم الا الله وحده سر قلب هذا الفتى فى تلك الساعة .



وسرعان ما ينسى توفيق الحكيم حبه الصغير .. ومنديلها الحريرى الذى تحايل حتى اخذه واحتفظ به .. انها بدأت تحب مصطفى بك . تزوجته ولكن الحكيم ينساها من أجل حب اكبر . حب مصر . وينسى منديلها الصغير من أجل منديل اكبر .. هى راية مصر : فقد بدأت الروح تدب فى شباب مصر .. لتنادى بثورة ١٩١٩ .



يتكاتف العجوز والصبى . تخرج المرأة من الحجاب . وحدة الفكر . وحدة الوطن . وحدة التطور والعزة تحت راية الايمان . الهلال يتعانق مع الصليب . فى رايات تظلل الجموع الهاتفة بمصر . واستقلال مصر .



امتحان الليسانس .. يقرب .. نجح الحكيم بمعجزة . كان الفن والأدب اولا .. ثم المذاكرة .. تخرج ودار الشربات الأحمر فى البيت . يشتغل وكيل نيابة والا نبعده .

... — لما اسأل لطفى السيد .

هكذا قال والده لأمه .

قال لطفى السيد : رايى انه يتجه الى أوروبا لانهاء درجة الدكتوراه ثم يعود .

ويتردد الحكيم هل يبقى أم يذهب .

هل يبقى للفن أم يدرس الدكتوراه .

ظل حائرا لحظة .. تماما كما كان طوال حياته .. فلو ترك الحكيم يحكى حيرته بين والده ووالدته .. ومع ذلك لم يكن والدى يكره الأدب فى حد ذاته أو يزدريه فى قرارة نفسه . فهو مازال يحتفظ بحبه القديم له .. ولطالما سمعته فى خلوته يترنم بأبيات من شعر الجاهلية يدلل بها على امر من الأمور أو تصرف من التصرفات أو يصف بها شخص من الأشخاص .. حقا لم ينظم بيتا واحدا من الشعر منذ تزوج .. فقد كان كل نظمه وهو شاب أعزب . ولست أدرى لماذا لم اهتم بجمع ما نظم .. ربما لأنى لم اكن اعلم

انى ساكتب عنه يوما أو عن نفسى .. على ان الذى يخيل الى هـــو ان شعر والدى ربما كان يتجه فى اكثره الى الحكمة ،ليس لأن العواطف لا تهمه على العكس . لقد كان رحيما انسانيا تحت مظهر جاد من الرزانة والاتزان . لم يكن فياضا بالعاطفة جياشا بالشعور المتفجر كزبد البحر العاصف مثـــل والدتى .. فقد كانت له القدرة على أن ينفصل عاطفته عن عقله . كان كل شىء عنده ــ حتى أحب الاشياء واقدسها . يخضع لميزان عقله وفحصـــه ويعطيه ماله وما عليه بالحق والعدل . على عكس والدتى التى تملكهـــا العاطفة فلا تعرف الفحص ولا الميزان . فهى الانطلاق والاغراق اما حب فياض واما كره ماحق .. لا وسط عنـــدها ولا اعتـــدال .. لكن نفس والدى مع ذلك كان شيئا صافيا مستقرا مختفيا تحت سطح بحر هادىء . لم يكن يكثر الضحك . لم اره يقهقه . بل لم اسمع منه ضحكا او صوتا مما يندرج تحت هذا الوصف . كل ما رايت وسمعت منه فى تلك المواقف التى تستدعى الضحك هو الابتسام والهمهمة الخفيفة . **انه كان مدققا حقا فى المـــال والكلام وفى كل أمر .. على نفسه وعلى غيره .. يخرج من جيبه القـــرش والكلمة بحرص وفحص على نقيض والدتى السخية دائما بطبعها . تخـــرج النقود والكلمات بيسر جارف وكرم صـــاخب . وامام هذا التناقض بين الوالدين ورثت انا فيما اعتقد الحيرة بينهما فانا فى الغالب اميل الى الاقتصاد والامساك عن كل انفاق سواء فى نقود او كلمات . ولعل هذا من اســـباب تفضيلى المسرحية . فهى فن اقتصادى بخيل .. الكلمات فيها محسوبة بدقة . والوقت فيها مفيد والحيز فيها محدود .. غير انى احيانا تظهر على نوبة انفـــلات خاطفة أو اسراف فى القول والمـــال مفاجىء لا البث ان افيق منه فامسك ثم انطلق ثم امسك .. وهكذا .**

ان الصراع بين والدى ووالدتى فى اعماق نفسى .

انى دائما بين شد وجذب ككفتى ميزان .

□ □ □

ويبحر توفيق الحكيم الى فرنسا صيف ١٩٢٥ .

□ □ □

قبل سنة فى القـــاهرة .

احد لم يخبر الحكيم ان اصل فكرة المسرح مصرية فرعونية .

احد لم يعلم هذا ، ولم يتعلم هذا لعديد من الأسباب .

ولكن الحكيم عرف بأن مسار حركة تطور المسرح فى بلدنا كانت **اما مسرح العرائس** التى تحركها خيوط وحبال رفيعـــة .. **او مسرح قراقوز** تحركه اصابع يد او **خيال الظل** .

اما المسرح بمفهومه الحديث فقد بدأ فى بلاد الشام الـــكبرى [لبنـــــان وسوريا وفلسطين والأردن] بتاثير من الخارج غالبا : بتأثير ما وصل اليه العرض المسرحى فى كل من فرنسا وايطاليا ، خلال بداية القرن الـــ ١٩ ..

مارون النقاش .. فقد تأثر بمسرحية [البخيل] لموليير .. وعربهـــا وقدمها مسرحية مرحة فى بيروت فى منتصف القرن المــاضى . وقد جعل الرجال يؤدون دور النساء ايضا خلالها . وكان اول من اصدر فرمانا ببنـــاء مسرح ملحق ببيته . بعد نجاحها كتب النقاش مسرحية : [ابو الحسن المغفـــل] مقتبسا موليير . ثم (طرطوف) عنه ايضا . مات النقاش [٣٨ ســـنة] اثناء رحلة فنية له فى تونس . فامتدت رسالته الى سليم النقـــاش — ابن اخيه — ثم ترجم اديب اسحق : الصحفى رواية اندروماك عن راسين الى العربية .

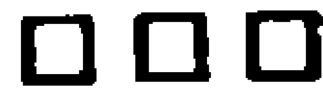
١٨٦٩ كان بداية الاستعداد لافتتاح قناة السويس .. فكانت بداية متطورة فى عصر الخديو اسماعيل لازدهار المسرح وكل ما يتصل به فى مصر . جاء سليم النقاش ومعه الممثل السورى الكبير يوسف الخياط ..

أقيمت عدة مسارح فى القاهرة والاسكندرية .

الخديو يقيم اول أوبرا فى الشرق : دار أوبرا القاهرة . يكلف فيردى : بأن يؤلف أوبرا لافتتاحهـــا فيؤلف أوبرا [عايدة] . لــكن فيردى يخـــاف البحر . ملابسها لم تجهز . افتتحنا الدار بأوبرا (ريجو ليتو) .

ثم كان النشاط المسرحى ليعقوب صنوع .. الذى كان سببا فى تطـــوير المسرحية المصرية العربية . وكانوا يلقبونه بموليير مصر .

ومن بعده جاء سليمان القرداحى .. اول من قدم المراة على المسرح فى انه قدم زوجتــه أول الأمر لتمثــل .. ثم تبعـــه المواطن السورى الفنان : خليل القبانى ثم ظهر مسرح سلامة حجازى .



الى باريس

□■□ .. خذ بالك .. يا توفيق .

حاسب من ولاد الحرام . ربنا معاك والقلب داعيلك يا ابنى . عاوزك ترجع رافع راسنا . مع السلامة يا توفيق .. عاوز ترجع بالدكتوراه يا حبيبى .

خذ بالك من نفسك يا توفيق .

حاسب من بنات باريس وليالى باريس .

. . . . .

. . . . .

توفيق الحكيم ابن الـ ٢٧ ربيعا . يقف على كل جملة يسمعها من والده الواقف على رصيف ميناء الاسكندرية . يقف متمهلا على درج سلم « بابور البحر » : الباخرة الفرنسية الجنرال « تنرنجى » . هكذا كان اسمها .

صفير الباخرة زاعق .

المبحرون الذين صعدوا من قبل توفيق .. وقف أغلبهم بعد أن وضعوا امتعتهم فى حجراتهم .. وقفوا على المشى الطويل الذى يعلو سطح الباخرة .. يلوحون بمناديلهم . كلماتهم اختلطت لغاتها وكأنهم من أهل برج بابل .. لغات اختلفت فى تعبير الوداع .. بأغلب لهجات الأرض ..

دمعة رقيقة حائرة بين عينى الحكيم وخده .. ولكنه سرعان ما يتحكم فى عاطفته . لحظة وداع .

انه يصعد الآن .. ولا يحاول ان يتطلع الى خلف . انه ما زال يسمع وسط هذا الضجيج نحيب والدته ودعواتها . وما زال يتهيأ صورتها .. رغم انها لم تحضر مع والده .. الذى ظل واقفا مودعا فى شموخ رجل القضاء الفاضل. حتى انسلخ السلم الخارجى عن الباخرة ، وبدأ صفيرها يعلو ويعلو صارخا . ضجيج الآلات وهى تضخ .. الدخان الأبيض يعلوها قوارب صغيرة ذات اشرعة بيضاء تلاحقها ببعض المودعين ، واحد منها يسرع نحوها ، ومن فوقه راكب متأخر .. انزلوا اليه ما يشبه الونش ، قفز اليه وتعلق به ووقف فوق طبليته الخشبية ومنه الى سطح المركب .. الذى اخذ الى مغيب .. فى عرض البحر .

لقد كانت اول مرة يركب فيها الحكيم .. زرقة البحر .. الذى طالما وقف عنده وسرح بكل امانيه صغيرا .. وهو ولد صغير .. ثم مراهق .. فشاب على بداية آماله العراض .

. . . . . .
. . . . . .

بالطبع الدرجة الثالثة كانت هى المقصودة . ولكن المركب ليس فيها هذه الدرجة فاحتل بدلا منها مع اكثر من مسافر قمرته فى الدرجة الثانية .

وخمسة ايام و ٤ ليالى طوال من الملل .. بعد اول ليلة ..

انه يلمح اكثر من بحار .. ولكن هناك فارقا كبيرا فى العقلية .. ولكن أليست هى الحياة وفوارقها . انه يلحظ اكثر مما يتكلم . ان اللهجة الفرنسية هنا .. فرنسية ريفية جافة . ليست كتلك التى كان يتحدث بها الى أساتذته فى مدرسة الحقوق فى مصر .ولكن عليه أن يتعودها . كتاب قديم يقرأه ولكن أليست هذه الغادة الهيفاء .. التى تتحرك هناك فيهفو الهواء الى فستانها فى محاولة فضول فيطير ذيله ليرى ذلك الجمال الملفوف المستور وهى تخطو .. ولكنه ما أن يقرب منها توفيق حتى يتذكر نصائح الاهل .. حاسب من البنات . بنات باريس .

فيعود ادراجه الى التأمل . نحو الازرق . ويسرح الى غده .

ومع نجوم الليل .. يتطلع قبل ان يجفو له جفن او يأتيه منام .

طعام الباخرة .. غريب عليه بعض الشىء .

انه يكتفى بحوار مع بعض الرفاق . يحاول ان يتدرب على العاب رياضية لم يتعودها من قبل . يسأم هذا كله . ثم يعود ليجلس على مقعد طويل .. ممتدا الى اللاشىء . الى الأفق العريض . فوق الجنرال تنريجى .. أعنى سطح الباخرة التى تحمل هذا الاسم .

. . . . . .
. . . . . .

الباخرة تدخل ميناء مارسيليا .

ان لغات الأرض على رصيفها .. لكن قلة من العبارات العربية . التى بدات تختفى ، من حوار الحكيم رويدا . رويدا . قطار يحمله الى باريس .. الريف . ما أجمل القرى هنا . لقد اختفت تلك الأكواخ الهـزيلة . ان الانسان هنا مهما كان فقيرا له وضع على مستوى الانسـان . ولكن السماء داكنة . اين زرقة سماء مصر . ان الحكيم تعود ان يركب القطار . وما اكثر حكاياته ومغامراته فى القطارات .. التى حدثت والتى تحدث والتى يتمنى أن تحدث له . على الأقل فى القطار .. هناك فرصة لحوار . انسان يجلس أمام انسان . أو انسان مع كتاب او جريدة . اذن من الممكن ان يكون هناك حوار فكر بين الانسان ونفسه . بين خارجه وداخله . ولكن الحكيم يفوق من سرحته هذه .. على التفاح .. انه يرى التفاح برؤية العين . وهـو ليس معروضا فى صندوق عند فكهانى . وليس متدرج اللون بين الأصفر والأحمر فوق طبق يحتويه على مائدة البيت . ولكن التفاح هنا معلق فى فـروع شجرة . ياله من منظر غريب جميل . ان الجمال نراه اذا اردنا أن نراه فى اصغر الكائنات . ولكن سرعة الحياة . تدفعنا الى أن نحس بما نمسكه . نتحسسه فقط . ولكن هناك التذوق لكل ما هو بعيد مثل ما هو قريب .

ثم يسرح الحكيم من جديد ؟

من يعلم .. فى اللون الاحمر أم فى التفاحة التي اوحت وغوت بها حواء .. آدم .. أم فى تفاحة فى يد طفل يقضمها جالسا الى جوار والدته الشقراء .. أم تلك التفاحة .. تفاحة آدم التى تنتصف عنق أو « زور » ذلك الراكب المترهل امامه !

ولكن يبدو من حركات هذا الصبى القاضم لتفاحة بين يديه غير طبيعى انه شارد النظرة حينا صاحب الحركة دائما . فيرى النظرة الحانيـة من والدته اليه .. بأن لا يضايق ابنها كثيرا بفضوله .. ذلك انها فى سـبيل علاجه من كل هذا . فلم ير الحكيم الا أن يخرج الى ممشى العـربة للأمان والسلامة .. مهما اهتز به القطار واقفا أو غطت عتمة الليـل كل هـذا البهـاء الأخضر .

ووصل القطار الى باريس .

ان العربية اختفت تماما عن أرصفتها .

حتى هؤلاء الحمالين ، وبعضهم يبدو انه من شمال أفريقيا . يتحـدثون الى بعضهم بالفرنسية فى لهجة خاصة . العربى يتحدث الى العربى بلغـة غير العربية ، هذا غريب ولكنه ليس عجيبا من اثر الاسـتعمار الفرنسى لشمال أفريقيا ما بين تونس والمغرب حتى ذلك الحين .

الحكيم ما ان يخرج خارج المحطة .. حتى يتطلع الى سماء نهار وليد .. جائلا ببصره . انه يريد أن يرى برج ايفل ؛ الذى طالمـا سمع عنه طويلا . انه لا يرى منه الا طرطوفته العليا . سمراء من حديد . تعلو كل ابنيـة باريس ، التى ما زالت تصحو من النوم . انه عملاق حارس . يتفق مع سيارة اجرة أن تنقله الى فندق فى الحى اللاتيني . ولا يصحو من اغفـاءة التعب الا عند باب الفندق . انه يقرأ ابتداء من الآن .. كل شيء بالفرنسية : [فرنسا والشرق] . هذا اسمه . يختارون لى حجرة فى دوره الرابع . لا مصعد مع كل هذا الرخص . ماذا يهم وعمره فى زهرة العمر فتيا . ان

كل شيء هنا نظيف ورخيص . انه سيدفع فقط ٤ جنيهات فى الشهر . ان ٥ فرنكات تكفيه لوجبة كاملة الغذاء : اللحم والفاكهة والعيش والنبيذ . حتى غذاء الفكر أرخص بقرش او ما يقابل قرشين يستطيع أن يشترى كتب راسين وموليير وفولتير .. واشترى واشترى اول أسبوع الكثير . وهو مدهوش من كل هذه النظافة على الأرصفة . والخضرة الحلوة التى تعلو الشجر . ولكن الغمام الرمادى الذى يشبه الفضة يغطى السماء دائما . ليس مهما طالما ان الورق الذى يتطلع اليه كثيرا ابيض . ورق الكتب .

والآن .. انه يشترى جامعة . نعم انه يتذكر الحدوتة التى تحكى الفزورة : [قد الفيل وتحطه فى منديل .. يا ترى ايه ؟] . الفيل هنا اعنى القاموس . قاموس لاروس الذى اشتراه .. اصبح جامعته المتنقلة . لا صوت فيها لأستاذ ولا رداء ولا حذاء يرتديه كلما أراد أن يعرف شيئا . ما عليه الا ان يفتحه ليلا أم نهارا ليعلم ما لم يكن عالما به .

الكتب رخيصة جدا .. لسبب انها مستعملة مرة من قبله . ربما من طالب بعثة او طالبة علم . جاءت الى هنا تدرس . تتعلم . ثم ارادت أن تتخفف من حمولتها لسفر العودة . من يعلم .

على اى حال .. كان الحكيم سعيدا بكل هذا وبأن حجرته تطل على : الكوليج دي فرانس : تلك الجامعة الحرة او المعهد الذى أقامه فرانسوا الأول من ٤٥٨ سنة لا ابتغاء لشهادة . ولكن العلم للعلم لهؤلاء الذين يودون أن يلموا اكثر بدراسات عن أفريقيا بالذات . هكذا كانت رسالته اول الأمر .

والى جانب العلم وشاطئه الزاخر بالكتب . بالحوار . بالثقافة الحقة ..

راى الحكيم ان يبدا فى اسبوعه الثانى — من رحلته التى ستطول ٣ سنوات هنا على ارض باريس — ان يزور الحى اللاتينى . حى البوهيميين من فنانين مصورين . مثالين . واهل متعة جاءوا يبتغون صيدا . صيد الغرباء لبيع لذة عابرة . ويذهب الى حر مونمارتر .. الذى بهرت به وبأجوائه لدرجة انى ازحت حيرتى جانبا . فجأة قررت شيئا . ان انتقل من فندقى الى هنا . فعلتها . ذهبت الى فندقى . حزمت أمرى وامتعتى . وصلت الى بغيتى . اردت ان اختصر تفاصيل الغريب . قلت لسكرتير الفندق . عاوز أوده بالشهر لا باليوم . تعجب وجهه متسائلا موجها دهشته الى زميله . انى لا افهم ماذا يقول هذا الغريب . بالشهر . هذا ليس بمعقول مون شير آمى .. أمعقول هذا الذى ينطق به هذا الشرقى . يبدو أنك لم تقرأ هذا يا مسيو . الم تقرأ تلك الورقة المعلقة . هذا الفندق لا يؤجرون حجراته بالشهر ولا حتى باليوم . اننا نؤجره بالساعة . هل فهمت ؟

الحكيم هنا فقط يتنبه الى ابيض واحمر صارخ على وجوه كحيلة شقراء . تتابط رجالا نازلة وطالعة . هنا فقط فهم انه فى مخور لذة وليس بفندق راحة وعليه ان يعود ادراجه الى الفضيلة . الى فندقه . الى الدور الرابع منه . الى [فرنسا والشرق] . وازدادت الفتى بالفندق . وبالحى اللاتينى وبمقهى (داركوه) .. عند ناصية الطريق الذى يؤدى الى السوربون .

اليس اليها واليها فقط كان قصد اهلى الذين اتفقوا معى على أن يرسلوا الى شهريا ١٠ جنيهات . انها ثروة هنا فى هذا الوقت . كل شىء رخيص رخص التراب فى باريس الآن .

وفى [داركوه] يعاود الحكيم الحديث بالعربية . هنا فى باريس . نعم . انه يتقابل مع مصرى . غريب مثله فى بلاد الفرنجة . انه د. سعيد الذى جاء يدرس أو يستزيد من دراسة آلبكتريولوجيات فى معهد باستور . نظرة فسلام فكلام . تعارفا . انت بحق من الاسكندرية . يا سلام على بناتبحرى. ولكن ايه رايك يا دكتور ..

... ـــ لا انا لسه ماختش الدكتوراه . ده انا جى علشان آخذها .

سعيد ـــ يا سيدى دكتوراه ايه وبتاع ايه . ما هو حتاخدها . ولكن ده فى الآخر . قوللى . طمنى . انت عامل ايه هنا . فى البلد دى ؟

... ـــ نظيفة جدا مش كده ..

سعيد ـــ البنت اللى هناك دى اللى فايته على الرصيف ؟

... ـــ بنت ايه يا دكتور . انا قصدى باريس .

سعيد ـــ انت باين عليك راجل طيب قوى . باريس نظيفة . الخضرة عال العال . السلام يا سلام مطر وخلافه . المتاحف والثقافة والاوبرا والجامعة و ... يا راجل بلاش تضيع وقت . انت على نياتك يا حسين باشا يا توفيق يا حكيم . قوم بينا قوم .

... ـــ أمرك عجيب يا دكتور . حقيقى أنت عجيب .

سعيد ـــ لا عجيب ولا غريب الا الشيطان يا صاحبى . قوللى . انت نازل فين هنا ؟

... ـــ فى [الشرق وفرنسا] .

سعيد ـــ بقى ده معقول . طيب ماهو احنا من الشرق وجينا فرنسا . بقى ده معقول . نيجى ونرجع بالسلامة ونغنى رحنا وجينا بالسلامة . ياراجل قوم معايا ..

... ـــ على فين يا دكتور . اقعد بس . هدى نفسك ربنا يهديك ، يا أخى .

سعيد ـــ طيب من بيخدمك فى الأوتيل بتاعك ده ..

... ـــ ست عجوزة ولكن صحيح شاطرة جدا . بتخلى الأولاد زى الفل . لكن أسئلتك الكتير دى عشان ايه ؟ طيب وانت نازل فين ومين بيخدمك ؟ لما اقلدك بقى علشان تعرف ان الفضول والتدخل فى حيـاة الغير مش كويس . والا ايه بقى ياسى سعيد . مهو كده .. أمال . آه . آل ايه انت نازل فين . مين اللى بيخدمك . انت رايح فين . انت جاى منين ؟

سعيد ـــ شوف يا حسين يا توفيق .. مهو بلاش نقوره . وبلاش تضيع وقتك ولا وقتى . انا بانصحك وانت حر . خليك كده يا فيلسوف الزمان

ومفكر الغبراء . خل الكتب والمكتبات تنفعك . انا ساكن فى الأوتيل اللى فى نهاية الشارع . ايوه اللى هناك ده . واللى بيخدمنى رجل عجوز .

... — وبتقوللى . ايوه يا سيدى رجل عجوز بيخدمك وجاى وعامل الفارس عنترة . يا ..

سعيد — اسمع متقاطعنيش .. ايوه رجل عجوز . يا سيدى تانى يوم الصبح .. جاءنى بصينية الافطار . قلت له على طول ما جال فى نفسى : أعوذ بالله . هومفيش ..

وفهم الرجل النبيه مقصدى . غمز لى بعين وافهمنى .. ان المطلوب موجود . فقط على ان اتصرف . ســألته ازاى ؟ قال فى الدور اللى فوق فيه انطوانيت زى الورد . وفى الدور اللى تحت شارلوت زى القشطة وفى الثالث جانيت .. طيب انقلنى قوام . قال الرجل العجوز بحكمته الماكرة . طيب وتتعب نفسك ليه وتزهق نفسك ليه . طيب فهو ممكن الثلاث . تحضر الواحدة منهن لما تعوز وترغب يا مسيو . ما ينقطعش لك زر قميص ولو مرة . ساعتها اطلب انطوانيت تحضر لك . واذا اردت أن تنظف بقعة وتبعت للتنتريرى حاجة .. ماذا تعنى بالتنتريرى ..المصبغة يا سيدى . فهناك جانيت واذا أردت .. آه . آه . فهمت . واصبحت فى الجنة مقيما !!

المهم ٥ فرنكات فى يد هذا العجوز . رضوان هذه الجنة .

الحكيم ساهم فى كل هذا . انها اغرب محاضرة غير علمية . ولكنهــا واقعية جدا . استمع اليها منذ حط الى باريس . ولكن لماذا يضيع وقته . انه يحزم أمره . يحزم أمتعته . يعود بها الى فندق صاحبه . الذى ينتظره الآن فى المدخل . توفيق يتأخر . حلق ذقنه . تطلع الى المرآة . انه فى أحسن حالاته . جاءته فكرة عاجلة . اطار زر القميص . ضرب الجرس . جاءه العجوز . أشار اليه الحكيم باصبع فى يده اليسرى الى كم قميصه اليمين . انحنى العجوز فى ادب . حلق الحكيم بخياله من غير حـد . ثم أخذ يركز نظره على الباب . الذى انفتح ودخله العجوز وبين اصابعه ابرة وفتلة . يا للغم . وظهر كل العبوس على وجه الحكيم . هل حضر لهذا . العينة بينة وقد صدق بحسن نيته هذا الصديق الدكتور سعيد . صدق فشره ومزعه ولم يحاول أن يمتحنه باديء الأمر . آه نسى . ربما لهذا دب يده فى جيبه . تحسس محفظته . اخرج منهــا ٥ فرنكات دسها فى يد العجوز . الذى غاب بعض الشيء . بينما الحكيم يجلس متحسرا الى محفظته المفتوحة . لاعنا هذا التهور والاندفاع . ولزومه ايه بعترة ورمى الفلوس . بقى بدل لما احوش ابعتر كده . لا . لا . ده مش كلام !!

. . . . .

. . . . .

وتستمر حياة الحكيم فى باريس . ليس فى أجواء المتعة فقط . ولكن فى مصاحبة متعة الفكر والقراءة والمشاهدة وتتبع التطور وكل ما يحــرر الانسان من عبودية المستعمر . عبودية الاستغلال . عبودية التخلف . انه قد جاء ليحصل العلم لا الفن وحده . خذ بالك يا توفيق .. وبلاش بنات باريس . فاهم أوعى من الشقاوة . انه يستمع على البعد البعيد

كلمات ونصائح اقرب الناس اليه هناك على ارض مصر الغالية . ما احلى الوطن على البعد . ان عقله يلتهم كل ما تقراه عيناه ويستريح على ماتسمع اذناه . انه وكأنه انتقل من قرن الى قرن . الحركة نابضة هنا .

الكل يريد ان يكون صالحا لشىء يعمله . وليس خاملا بالوراثة .

انه يبدأ رحلة الشك فى الايمان . انه يناقش ويستمع الى حوار مذهل بين عقله وقلبه .ومع ذلك فهو حريص على الصلاة .ولكن يريد أن يناقش. صاحبه اللعبى د. سعيد يصيح به بلاش كفر . بلاش كلام فى الحاجات دى . ويلفت نظره الى وجه مثل القمر لا وجود له فى السماء . ولكنه يطلع من كوة مطبخ قاعة الطعام فى المطعم الذى انقاد معه اليه . مثلها مثل القمر . انه يقرا الآن كثيرا فى الفلسفة والاقتصاد وبالطبع القانون . من ارسطو الى ماركس وبول جانيه وجبرائيل سباى وداروين من جديد . انه يمثل نفسه بسمكة خرجت من مياه الترعة الى المصرف ومنه الى النيل. ثم الى البحر . الى المحيط . انتقال ذهنى سريع جدا . للنوافذ .. نوافذ الفكر مفتوحة جدا . لا خوف من تيار يجرفك . طالما انك ثابت العقيدة . ولكن على الانسان ان ينظر ما حوله . ولا يغلق على نفسه .

ان المراة هنا فى حالة تطور ايضا . بالطبع خرجت من حريم الرجل . لم تصبح الانثى فقط . لا حجاب ولا برقع ولا يشمك هنا . ولكنها بعد الحرب العالمية اجتازت الحدود . حدود التقاليد المتوارثة . لقد خرجت الى العمل . اصبحت زميلة للرجل . تريد أن تتساوى بكل حرياته . صحيح أنها تحلق الآن شعرها . قصته . أصبح قصيرا . « آلا جارسون » .. مثل الولد . ولكن أهذا يكفى . انهن لا يكتفين بالمظاهر هنا . ان حواء تريد حقوقا متساوية مع الرجل . انه يقرا جراة ما يكتبه : « فكتور مرجريت » فى هذا الشأن .

انه يذكره بجراة قاسم امين ، الذى جعل من حياته مشعلا فى مصر ينير به قضية اقتنع بها . انه لا مجتمع صحى يعيش على نصف المجتمع . والرجل نصف مجتمعه . ان هذا الكتاب الفرنسى يناصر ايضا قضيتنا . قضية استقلال مصر . او مطالبتنا بالاستقلال والجلاء .. لقد أصدر كتابا كتب مقدمته آناتول فراس .

. . . . . .

. . . . . .

ان الحكيم يعيش نهاره وليله .. بين الثقافة والمفاتن .

بين اغلفة الكتب وتحت أسقف المسارح ..

انه يتنزه بين خضرة اشجار والوان ازهار غابة بولونيا وحدائق التويلرى .. ويقف مشدوها كلما دخل الى اللوفر .. او الى متحف الفن الحديث .. نفس انبهاره من اضواء الليل وهو يهم بدخول الأوبرا .

ان اذنيه يتفتحان الآن الى الأعمق نغما .

انه يصاحب سيمفونيات فاجنر وبيتهوفن وبرليونه .

لقد استمع اكثر من مرة الى [ذهب الراين] لفاجنر . وسادكو لرمسى كورساكوف .. ان العالم كله أصبح مفتوحا عليه من المانيا والنمسا .. الى روسيا . ان باريس فترينة العالم حقا . انها اشبه بكرة الساحرة البلورية .. التى ترى من خلالها وتسمع الى العالم المسحور .

ببغاء الحب

□■□ .. ان هناك اشياء اخرى فى دنيانا ... لو بحثنا عنها نجدها اقرب منالا . حتى تلك التى راح اصحابها .. ولم تذهب هى معهم . بعد ان اصبحت شاهدا على ما اعطوه لحضارة وفكر البشر من بعدهم . انه يسمع كثيرا ويقرا كثيرا متتبعا : والتر رالى . و . فولتير . و . روسو . و دوماس . و. هوجو .و. ديكنز .و. زولا .و. برنارد شو .. و ابسن .. الروائى الشاعر المسرحى النرويجى ..صاحبمسرحيات :[اعمدة المجتمع] و .. [بيت الدمية] و [اشـــباح] و [عدو الشعب] و [عندما نستيقظ نحن الاموات] .

ليس مهما ان يبدا المرء اديبا .

ليس هنـــاك شىء ان يتعلم المرء الادب حتى يصبح مفكرا . يجوز ولكن لا الزام هنـــاك .

فقد سمع أن : ابسن ، قد بدأ حياته عاملا فى صيدلية وله من العمر ١٥ ســـنة !

هل تخرج شكسبير من جامعة ..

هل تعلم العقاد .. ما بعد الابتدائية . ان كان قد اعطى الفكر بلا حد ولا حدود . لقد كان هو نفسه اشبه بالجامعة .

ان العقاد بدا يلمع فى مصر .

ومع ذلك فان الدنيا تتغير .
ابسن : بأفكاره القادمة من الشمال .

انها شيء آخر غير تلك الرومانسية الفرنسية التى تجسدها : [غادة الكاميليا] و [النسر الصغير] . انه يسمع الآن عن مؤلف ايطالى يقولون ان عمره الآن ٥٨ سنة . اسمه لويجى بيراندللو . احدث عجبا فى ايطاليا وهو يعرض رائعته [ست شخصيات تبحث عن مؤلف] .ان مسرح فاللى دى روما نصفه يصفق له ونصفه الآخر يلعنه . ان المسرح الآن يتجه الى الرمزية ومنها الى السريالية . ان الاشـياء تتقـارب فى عـالم الفنون . اللوحات والتماثيل .. يتجه بها اصحابها الفنانين .. الى اساليب جديدة . التكعيبية .. ثم السريالية ثم .. ان الحكيم مبهور . مبهور . مبهور . ومع ذلك لا يترك عتق القديم ولا يرفض تدفق نبض الجديد .
انه حالم بمدارس الشعر الحديث .
لقد تتبع شعر حافظ وجبران خليل جبران واحمد شوقى وخليل مطران.. وقرا بعض ما تركه هومير وفرجيل ودانتى وملتون فى مصر .. بالعربية . ولكنه هنا فى باريس .. ان أعمال : جوته وشيللر وبايرون ركيتس وبوشكين وتينون وهويتمان وبودلير وكبلنج قريبة منه .

انه مفتون بخيال : رمبو .. آرثر رمبو [٣٧ سنة] الذى بدأ مع عمر الورد وله ١٦ سنة فقط يتسيد شعراء الرمز والرمزية فى فرنسا وامعن خياله الى غير المعقول . سبق زمانه لقد عاش عمره ولم ير القرن العشرين لانه مات قبل ان يبدا بتسع سنوات .
وبدأ الحكيم رحلته الجديدة .

شيء غير المسرح والقصة والرواية . انه يستلهم ذاته فى اسلوب ينفرد به وكأن السريالية قادته الى المعنى بعيدا عن البناء الشعرى المـألوف
ان الحكيم مشدوه بالمعنى مشدود بموسيقية الكلمات وجرسها .
انه يذكر دائما ويقول .. انى لا اذكر الآن من حيث « الشـكل » ، كيف كان القرآن يثير فينا التأمل بأسلوبه الفريد . لا هو بالشعر المنظوم . ولا هو بالنثر المرسل . لكنه طاقة شعرية موسيقية معجزة .
الم يقل طه حسين يوما عنـدما سألوه : ما موقع القرآن الكريم بين الشعر والنثر . فقال : العربية ثلاثة : شعر ونثر وقرآن يعنى ان القرآن تنزه عن الشعر والنثر وجاء اعلى منها مرتبة واجل ذكرا .

ولقد قرات هذا الراى ايضا من الشـاعر : صـالح جودت .
ومع ذلك فان الحكيم لا يبدو تائها فى باريس عند نهاية الربع الاول من القرن العشرين ولكنه محلق .
محلق مع الحب .

انه مشدود الى شباك تذاكر . عفوا . الى من تجلس وراء الشـبـاك وتطل على كل السحب والجمـال . شقراء ذهبية الشعر يتوج بيـاض بشرتها تتطلع من عينيها الفيروزيتين .. بحران . لؤلؤة خضراء هى . زرقاء هى .. فى كل منهما تشعان بالربيع . ربيع العمر . ربيع الحب . وصاحبنا الحكيم .. مأخوذ بكل هذا مسحور .
انه شهد الأوديون ، اى ما يعرضه الأوديون اكثر من ٥ مرات .
وكان هدفه اولا الفن .

وما ان اقبل على الشباك . على النافذة . حتى اخذته ابتسامتها . كمن لم ير حواء فى حياته من قبل . ظل مسمرا بعض الوقت حائرا بعد نظرتها. لقد انسته حتى ما كان قد جاء من اجله .. أصبعه فى الهواء يشير الى « التابلوه » .حتى اصبعه قد أصبحت فى حالة ضياع . ماذا ؟ أين يامسيو.. تود أن تجلس ؟

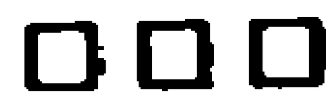
المسيو .. واقف لا هو قادر على ان ينطق ولا هو مركز للاختيار ولا هو يريد أن يمشى .

... مسيو ... سيلفوبليه مسيو : لقد حزمت امرك يا سيدى .
ان طابورا طويلا وراءك .

يبتسم القادم الواقف ... وفجأة يضع اصابعه فى اى مكان .. وعيناه عليها لا على تابلوه المقاعد ! ومن حظه ان جاء اصبعه على الترسو .. والا كانت المسألة حب من اول نظرة وخراب جيب فى آخر اللحظة .

ويدخل « الاوديون » .. انه لا يرى شيئا . الا عينيها الفيروزيتين . وشعرها الأشقر المتهدل . انها لم تقصه آلاجرسون .. كبقية عاملات شباك اى مسرح ! انها مميزة .

ويخرج من المسرح . يصحو من حلم اليقظة الذى طال ٣ فصول .. على تصـــفيق الجمهـــور . يهبط .. الى حيث يمشى ويمشى ويمشى .. الى البنسيون ، الذى يحتل حجرة فيه وسط أسرة اندريه وزوجته جرمين وابنهما جانـــو ..



الأسرة مازالت ساهرة .. تأتنس فى الصالون المتواضع نسبيا للدار . يستمع افرادها الى برنامج : سهرة اذاعية .

جرمين : هالو .. بونسوار مسيو توفيك .. ماذا رايت الليلة ؟
.. : عيناها فيروزتان . بحران ..

جرمين تنظر الى زوجها فى دهشة من امر هذه الاجابة الغامضة : .. اتتحدث معى بالرمز . بالشفرة . أم هذا لون من الأدب السيريالى .
... — ابدا انها جميلة الى حد انسانى كل الذى فات . تصورى .
جرمين — اين هى هذه المعبودة . انى لم ارك فى مثل هذا الانبهار من قبـــل ؟

... — نعم .. انى اسالك .. ماذا افعل حتى تكلمنى ؟
جرمين — ولمـــاذا لا تكلمك . انت هنا فى باريس .
... — ولكن هناك من هو قبلى ومن هو بعدى !
جرمين — انا لا افهمك الليلة . من لحظة ان دخلت . اذا كان لك منافس فلماذا لا تسألها . اما اذا اردت ان تميلها اليك . فهدية صغيرة قد تحبها. فستروق لهـــا .
... — الهدية ام انا ؟

جرمين — أووه توفيك ... وكانك لا تعلم المراة . وكانك لا تعرف شيئا عن الباريسية . اى باريسية . اى حواء . لمـــاذا يجب ان تكون فرنسية. ان المراة تريد أن تشعر بالاهتمام بها .. ثم ربما تتظاهر بالعكس ! ولكن قطعا ستحس بك . اذهب واشترى زجاجة عطر . زجاجة : [هوبيجان] او [بارى سوار] او [شانيل] يعنى ٢٠ فرنكا تكفى !

... — زجاجة واحدة فقط .. ده انا اضع قلبى وكل ما املك تحت شـبـاكها !

جرمين — انت المريض .. الذى تحسب حسابا لكل غرفك .. تضع كل ما تملك .. تحت ماذا يا مسيو توفيك ؟ اسمعت انا شباكها ؟

اى شباك مسيو توفيك ؟

بدأت جرمين تسأل زوجها .. عن سر هذه الالغاز . وكأنها تستمع ولا ترى كلمات متقاطعة . اندريه يرفع يديه ويفردهما الى جانبيه .. وكأنه يؤدى لمحة من رقصة فرعونية : لا اعلم . ولا علم لى بما يقوله : توفيك .

جرمين — اذا كنت انت لا تعرف وانا لا اعرف . وهو لا يدرى . اذن من يعلم ؟ قوللى توفيك .. اهى هنـا فى باريس .. أم تجسدت بعض احلامك .. أم واحدة من حريم شهريار فى الف ليلة ؟ .. وهل هى تطلعت اليك من قصر هارون الرشيد ؟ يا ترى هل هى ابنة السلطان ؟

... — ولماذا تسخرين منى كل هذه السخرية يا جرمين . الا تقدسون الحب فى باريس . فلماذا كل هذا العبث . ببساطة لا هى بنى السلطان ولا ابنة الامبراطور ولا هى من خيال الأساطير . انها هنـا فى باريس . متواضعا تماما . فى شباك التذاكر !

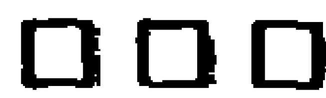
جرمين واندريه : يتطلعان الى بعضهما وفى ذات اللحظة ..

... — فى شباك « الأوديون » . ما تقولها من الأول .

ثم تنفرد جرمين بالحديث : انا اسفة جدا . لم اقصد ابدا ما تصورت . وانما انت حيرتنى . اسمع منى .. زهرة او باقة زهرة صغيرة .. تقدمها لها ثم اعزمها على العشاء .. فى مطعم وليس فى ..

... — واذا لم تقبل هذا ولا ذاك ؟

ومن جديد يرد كل من اندريه وزوجته جرمين : لا .. لا توجد امرأة واحدة فى باريس ترفض زهرة او كلمة اعجاب . ثم تنفرد جرمين : لا .. تقدم غدا اليها وسترى توفيك . بدلا من كل هذه الحيرة التى بدات تسحر افكارك وتنثرها الى بعيد .



تمر ليلة ارق .

الحكيم الشاب وله من العمر ٢٧ سنة : يصحو من قلقـه مع اشراقة الفجر . تبدو عليه السعادة .

انه يرتدى ملابسه بسرعة . البذلة السوداء . المعطف الأسود . القبعة السوداء . يحيى جرمين وابنها . لقد سبقه صاحب الدار الى العمل . يهبط الى طريق . الى السوربون . انه يضيع وقته . يخرج منه دون أن يقرب مدرجا او كتابا .. يطرق الطرقات . يحوم حول الأوديون . يجلس على المقهى القريب الذى يمكنه منه ان يتتبع — على بعد — شباك التذاكر. ومن تجلس وراءه .

الليل ياتى من جديد .

الناس تقف فى الطابور .. الـذى يبدو انه يجمع من كل لون وصنف وقيمة وعمر وجنس . طوال . قصار . مثقفين . فقراء كانوا اغنياء . او

موسرين . عمال . سياح . طلاب . سيدات . ولكن لا اولاد . المسرح هنا له تقاليده . وبالطبع ليس فيه عن قرب او بعد بائعى سميط او لب وفول سودانى او اكواز درة سخنة !

. . . . .

. . . . .

☐ .. فجأة يفيق العاشق على يد تباغته من خلف .

... — من ؟ .. اوه اهذا انت يا أندريه . ماذا جاء بك الى هنا . اليس من المفروض انك فى البيت بعد جهد نهار ؟

أندريه — كان فيه اضراب . عمال المصنع عندهم مطالب . هيا بنا من هنا .. آه نسيت انك تجلس بقرب محراب الحب .. ام محراب الفن .. يا توفيك ؟

... — لا سأبقى هنا ؟

أندريه — افعل ما شاء لك قلبك . ولكن بحق السماء لماذا لا تذهب اليها وتحدثها . تقول لها شيئا . كلمة . كلمة حب . تحية مساء .. افعل شيئا . انك فى باريس مون شيرا آمى !

... — لا انى سوف لا أتحدث اليها وانما سأفعل شيئا آخر .. انظر؟
وأخرج العاشق من جيب معطفه حزمة ورق مطوية . ملفوفة . سأعطيها هذا عن اذنك .

أندريه — ماذا .. تعال . كلمنى . طيب كلمنى انا .. قبل ما تفعل ما انت مقدم عليه . توفيك . توفيك .
ويغيب العاشق .. فى زحام الطابور . ولا ينصت الا الى قلبه النابض بالحب .

ويأتى دوره أمام الـ « جيشيه » او شباك التذاكر .
انها تتطلع اليه . انها بدأت تعرف ملامحه . بل تعرف ملابسه : القبعة السوداء . المعطف الاسود . تنظر اليه فى لهفة . وكأنها تريده ان يتكلم. ولكنه لم يستطع الا ان يمد يده الى معطفه . يخرج لفافة الورق . ليضعها امامها وبسرعة يترك المكان . انه ليس فى حاجة الى تذكرة . ثم أن هذا الحب سوف يكلفه غاليا . ولكن لا داعى للدخول ورؤية ذات الشىء اكثر من كذا مرة . والا ايه ؟

وأخذ الحكيم يحدث نفسه . وهو يبتعد متمهلا على أرصفة الحى يدور ويلف وكأنه يضيع وقتا .. ضاربا أخماسا فى أسداس . يا ترى ستعجب بتلك الكراسة التى تركتها امامها ام ستلقيها فى سلة المهملات الى جوارها؟ لقد سهرت كل الليلة الماضية استوحى وأكتب حكاية رجل غريب جاء الى باريس واعجب بعاملة شباك التذاكر . لقد عنونتها [امام شباك التذاكر]. ترى هل ستفهم ما اعنى ؟
سـارى

الحكيم يستوقف أول مار .. ليسأله الزمن ؟

. . . . .

. . . . .

بسرعة يمد الخطى . الى الباب الخلفى للمسرح .

انه صمم ان يعرف عنوانها هذه المرة . شيء من شجاعة عنترة او اقدام: مجنون ليلى او جسارة ابن شداد أو روميو .. اليست هى جوليت القلب والفؤاد . ويبتسم الحكيم شاكرا الله . .انه على الاقل يعيش زمانه ليس زمان شكسبير والا غرم ثمن سلم يصعد عليه الى شرفة حبيبته او ان يشترى مندولين ليعزف عليها .

... — يا ترى هل تسكن وحيدة . لوحدها . ام مع عائلتها ؟ سأعرف على كل حـــال .

يسأل العاشق نفسه ويجيب قاطعا ملل الانتظار .

وفجأة يتنبه . يعتدل . ان طيفا من بعيد يخطو فى رشاقة الغزال . انها هى ولكن ما اسمها . ليس مهما . سأعرف بعد قليل.انه يتجنب الطريق. لا تلحظه بادىء الأمر . أو تتظاهر بذلك . انكم تعرفون حواء أكثر منى . يجعلها تتقدمه بأكثر من ٢٠ خطوة . يراقبها وهو يخطو وراءها بالطبـــع ليس فى رشاقة الغزال . وهو يهرول فى معطفه السميك الطويل . الحمد لله أن السماء لا تمطر الليلة . والا كانت ليلته بلل وبرد وانفلونزا أعوذ بالله . ان الله يحب الجمال . ويرعاه . ان هدفه هو الحب . ولا شيء الا جمال الحب . انها الآن تهبط درجات تؤدى الى نفق « المترو » . وهو وراءها . وبسرعة تبرز كارنيها صغيرا امام عامل البوابة الذى يحتجز ذلك الشاب المندفع وراءها : هل معك كارنيه . لا .. اتجه الى هناك اقطع تذكرة اذن وأحضر .

ويضيع الوقت . يقف فى طابور آخر . امام موظف منتفخ الأوداج وبقية من سيجارة ينفث دخانها فىوجه حضرته . أى واحد يقف فى حضرته ! ويتعجل . ويقطع التذكرة ويهرول . ولكن المترو وصل وقام بحبيبة القلب الولهـــان .

. . . . . .

. . . . . .

ويعود ادراجه .. انه عرف على كل حال .. انها تسكن شمال باريس وليس غربها ولا شرقها ولا جنوبها . عاد سعيدا يصغى لهذه النتيجة التى وصل اليها . شيء احسن من لا شيء .

. . . . . .

. . . . . .

وتمر ليلة ونهار ويأتى المساء .

ومن جديد ينتظرها .. يتعقبها .. يهبط السلم وراءها . ان شيئا سوف لا يمنعه هذه المرة من اللحاق بها . عمل حسابه وقطع التذكرة قبلها . قبل ان يروح لينتظر خروجها . دلفت من البوابة . اظهرت الكارنيه الصغير . اظهر تذكرته .. ركبت هى الدرجة الأولى .. فى اللحظة التى اندفع فيها الى الدرجة الثانية ليلحقها .. فوجىء بأن لا باب أو ممر بين العربتين .ماذا

يفعل . اخذ يتتبع فى اى محطة ستنزل من المترو . ولكن وسط الزحام ضاعت منه . ضاعت فى الزحام .

وعاد ادراجه .. من جديد .. وعلى الرصيف يقف لحظة داعيا الى الله ان ياخذ بيده فى الغد . يلفت نظره استدارة البدر المضىء . اهو ساهر مثلى .. يا ترى من يحب هذا البدر .

ويبدأ الحكيم شابا .. يسرد بعض كلمات يتغنى بها شعرا وقد اختلفت صورة حبيبته فى دائرة البدر .. لا يعرف هل لون البدر فيروز .. أم لون حبيبته فضة وضياء .. هل هو يقول شعرا . هكذا يبدو ..

تعالوا بنا نستمع الى بعض همساته .. وهو يترنم بها .. على نغمة يهواها من أوبرا شمشون ودليلة :

عين ذهبية تطل علينا

من برقع مثقوب .

هكذا يقولون ولكنى اقول

هى سن ذهبية لالهة لعوب

تضحك لنا بملء الفم

فيصنق لها النبت فى الحقول

ويزول من الصدور الغم

ولكنهـــا تذهب

ولا يبقى منها الا حاجب يلعب

الى ان ينام فى الظلام

وتتكرر الحكاية . هو يذهب لينتظر ملتف بمعطفه الأسود وتحت قبعته السوداء وكأنه حضر من مصر لهذه المهمة . انها مســـألة مصير قلب . ثم ما لذته فى الحياة اذا لم يرها بعد أن تعلق بها .

انه احتاط للأمر . قطع مثلها كارنيها صغيرا . فى ذلك الصباح قبـــل أن يراها ولا تراه أو هكذا كانت تتصنع .

يأتى المترو . يفتح بابه تدلف منه لتجلس الى يسار وهو الى يمين . فى اقصى اليمين . قلبه يعزف رقصة افريقية سريعة حادة الضربات على الطبول والدفوف . انه الحب .

تهبط . يهبط وراءها . تمشى . يمشى وراءها . تدخل . لا يدخـــل وراءها . وانما يتطلع الى الرقم . ويعود ولو كان التعبير : طائرا .. لكان أصدق . عرف أين هى ! انه الآن عائد يشم العبير ورطوبة الليل عندما

تتلامس مع ازهار واوراق اشجار الزيزفون .. التى تعلو الأرضية . انهم لا يقطعون شجرا هناك . ولكن يبقونه . انهم غير مصابين بعقدة نصاب بها أحيانا فى بلادنا . وهى عقدة كسر أو تحطيم او نزع او نشر الأشجار : الـــ « كلفتومانيا » أو الـــ « شجرومانيا » !!

. . . . .
. . . . .

☐ .. دخل شقة البانسيون .. ليفرك يديه .. متهللا .. وجدتها . وجدتهـــا ..

جرمين تدير زر الراديو لتخفض من صوت ما يحمله الأثير لتستطيع مع زوجها أن يسمعاه . يستوضحاه . يعلمان بالحقيقة . انه اشبه بأرشميدس عندما وجد حل معضلته ! او بديوجين الذى راح يبحث عن الحقيقة ممسكا بمصباحه المضىء ليل نهار .. فما ان عثر عليها حتى هتف وقال .. وجدتها!

وجدت من ؟

... — عنوانها . فندق « زهرة الأكاسيا » . ومن الغد .. آسف . سأضطر ان اترككم الى هناك . هل تسمحوا . صحيح انى .. ولكن قدروا موقفى !

. . . . .
. . . . .

ويأتى صباح الغد . هو وحقائبه فى سيارة اجرة . ان الحكيم هنا ينسى قيمة النقود .. فى لحظة حبه . ولهذا وجب التنبيه الى هذه اللمحة .. الى .. بورت دى ليلاس مسيو .. فيه شوفير .

وتسرع السيارة . لايرى شيئا من تفاصيل باريس .. من نافذة سيارته وانما يرى الوانا تنبسط مع كل أعمال الساحر .. بلا تفصيل . انه الحب الذى تغلب عنده حتى على صوت المسيقى .

... — بونجور كونسيرج .. هل لى من غرفة مناسبة .

وكأنه يتحدث الى نفسه .. تبقى والله مصيبة لو لم تكن مقيمة هنا . او تكون قد جاءت لمجرد زيارة . لماذا لم اتأكد أمس من ادارة هذا الفندق؟

وقبل أن يجيب الى نفسه . دفعت اليه مديرة الفندق بمفتاح كبير فى آخره كورة خشبية حتى لاينساه النزيل فى جيبه عندما يغادر حجرته .. الدور الخامس مسيو . ثم أشارت .. بورتيه . من فضلك احمل حقيبة مسيو حكيم الى فوق . وكان الحكيم قد أعطاها جواز سفره وتلبث فيه لحظة قبل أن تسجل له حجرته .

. . . . .
. . . . .

الحجرة صغيرة نعم . ولكنها نظيفة . نافذتها لامعة الزجاج .

... — يا ترى .. فى أى حجرة هى . فلأسأل مديرة الفندق بشىء من المواربة . وسأعرف . ونزل الحكيم متمهلا على درج السلم ولكنه ما أن رآها حتى أحجم عن السؤال . وبقى بعض الوقت فى الردهة . لعلها تهبط وتقابله . وقد كان . بعد دقائق خرج الغزال يتهادى . أعنى بائعة التذاكر. وقف لها محييا . وقفت . لم يقل شيئا . بحلقت فيه بعض الشىء .. أهذا أنت ؟ من اين لك أن تعرف . كيف ؟ .. ألست أنت ؟ نعم هو انت ذات المعطف الأسود . ذات القبعة السوداء .. فقط انها فى يدك هذه المرة . كيف عرفت . أهو انت ؟ صاحب المسرحية التى دفعت بها الى من خلال الشباك ؟ يا لك من طريف جرىء .

... — بونجور مدموازيل . هل لى ان اقدم نفسى ؟

الفاتنة — ليس مهما . بالله قل لى كيف حضرت الى هنا . هل انت تقيم هنا من زمن ؟

... — أبدا .. اعنى .. أعنى .. ثم لـــاذا كل هذه الأسئلة . لقد جئت لأحجز هذا المساء .

الفتناة — شباك التذاكر هناك .. فى « الأوديون » .

... — وما يمنع أن يكون هنا . الشباك . الناس . كل الشبابيك والناس . كل شىء يجب أن يتبعك ..

الفاتنة — هل تسمح لى أن اتبع انا قطار المترو ..والا فاتنى . أورفوار مسيو .

ويقف العاشق مبهوتا ولكنه سعيد . لقد تحدث اخيرا مع القمر . ان القمر يقفز على الأرض ويدخل المترو . ان القمر يبعد جسدا وموجود معه فى ناحية اليسار وعقله وكل وجدانه .. موجود معه روحا .

. . . . .
. . . . .

عاد الى الفندق . والى مديرته توجه مبتسما محييا . يا له من فنـــدق جميل . أيعجبك ؟ .. لم اتصور انه هكذا جميل ومريح .. وحلو .. ياترى الصوت الحلو اللى سمعته ده من الراديو ده ؟

... — راديو ايه . لا احنا فى منتهى الحرص على راحة النزلاء فكيف نذير ونفتح الراديو فى الصباح مش معقول .. ثم ضحكت فجأة وكأنها تذكرت شيئا .. آه فهمت لا انت على حق يا سيدى المصرى .. انه صوت حلو فعلا ، ولكن مصدره كائن آدمى وليس من اسلاك وكهرباء . انه صوت سوزى ؟

... — سوزى من ؟

المديرة — الم ترها منذ لحظة . حسبتك تعرفها عندما حييتها . انها جارتك . فى الحجرة التى تحتك مباشرة .

... ــ ألا تخاف أن تصحى زوجها أو ابنها وهى تغنى هكذا .

المديرة ــ لا .. انها وحيدة مسيو حكيم . انها من بنات اليوم اللائى يعتمدن على انفسهن فى العمل مثل الرجل تماما .. المســاواة . والاخاء والحرية . هكذا شعار ثورة بنات فرنسا الآن !! شىء غير معقول . حرية قال ؟ ولكن اشهد بأن سيرتها عال العــال . انهــا الحرب يا سيدى . ستخلع الأنوثة عن بناتنا .

. . . . .
. . . . .

ويتعجب الحكيم لهذا اللغو . اذا كانت هذه .. قد فقدت مظهر الأنوثة. فكيف تكون الأنوثة اذن ؟ ان هذه السيدة عجوز مخرفة . انها غيرى .. تريد أن تقارن شبابها الذى مضى بشــباب هذا القمر ! .. ويتركها محييا مبتسما يقفز السلم درجتين فى كل قفزة . الى فوق لا الى الدور الخامس ولكن الى الدور الرابع . يعاين المكان . ثم يترك الممر الى فوق . ليستمع الى اسطوانته المحببة يضعها على الجرامفون . انهــا بعض من أوبرا « شمشون ودليلة » ذات الفصول الثلاثة التى لحنهــا سانت سانس عن نص للامار وقدمه لأول مرة فى ١٨٧٧ فى فمار ثم بعدهابــ ١٦ سنة فى كوفنت جاردن فى لندن .. حيث تم توزيعها لثالث مرة فى ذات المسرح ولكن ١٩٠٩ ومنه هذا التسجيل الرائع .

يصغى ويغنى . ويقلب الصفحات . لقد ارتاح باله بعض الشىء . ثم ينزل الى باريس . ليمشى متهاديا فى حدائق « لوكسمبورج » وبعدها يعرج الى مكتبة ليرى الجديد . ثم يهرش راسه فجأة . ان خاطرا غريبا هتف به . اخذ يبحث عنه مسرع الخطى هذه المرة . انه يتذكر دكانا يبيعه . عثر عليه . دخله . واشار الى احداها .

... ــ هذا الببغاء الملون يا سيدى ؟

الحكيم ــ ايوه .. الصــغير .. ايوه . لا . الأصفر ! . ايوه .. الأرخص !

دفع . واخذه فى قفص غطاه بناحية من معطفــه .. ركب المترو الى الفندق . الى حجرته . ترك كل شىء .. واصبح مدرسا خصوصيا للببغاء . الذى اخذ يعلمه كيف ينطق ويعيد ويقلد جملة واحدة : احبك . أحبك .. ثم اخذ يردد اسمه ايضا .

انه يتحايل لشىء فكر فيه .

تمر ليلة .

يسمع جارته . من اهل تحت تغنى فاصلا من أوبرا [كارمن] .

انه سوف لا يخرج اليوم . سيبقى ليعلم هذا الببغاء الغبى بعض التقليد. ان عليه سيتوقف مستقبل حبه ؟ ياليته كان قد اشترى الأكبر ثمنا . كان على الأقل سيكون أرشد واذكى ؟ وتأتيه عاملة الفندق بالغسيل نظيفا مكويا. عليه ورقة ايصال دفع قيمته ١٠ فرنكات . تبرق فكرة يقول لها هل تنتظرين

لحظة . يمد يده الى قلم يدون به سطرين الى جارته التى تقيم تحت ويعطى الورقة . بعد أن طواها الى العاملة لتسلمها لها . طرقت بابها . ناولتها. فضتها . ابتسمت . يبدو أن السنارة شبكت . ودفعت نيابة عنه الـ ١٠ فرنكات !

. . . . .
. . . . .

واخيرا ينطق الببغاء . الظاهر أن الدروس الخصوصية ذات الجملة القصيرة الواحدة المكونة من كلمة واحدة وامضاء واحد . نجحت معه آخر الأمر !

الحكيم يصحو قبل الفجر . يدلى القفص وفيه الببغاء من نافذته .. الى مستوى النافذة التى تحته . الببغاء يعمل هيصة . الدنيا برد . ولكن الحب لا يعرف عقلا . قلب الحكيم يشفق على الببغاء . ولكن ما أن يمد يده ليسحب الببغاء من هذا الصقيع .. الا وضياء الشمس . تبدأ فى رحلة النهار . تصحو جارة الهناء . تفتح الشباك لتغنى .. شباك حجرتها .. وتفاجأ بالببغاء . ليس فى عش على فرع شجر ولكن فى قلب اسلاك قفص ! تفهم . تضحك جدا . تهتف وهى تتطلع برأسها الى فوق . ما هذا ؟ ! لمن هذا ؟ لى انا . مش معقول .

... — انه رد الجميل . انه سيشكرك . أرجو أن تقبليه هدية منى . هذه أغرب هدية تقبلها باريسية طوال تاريخ باريس ! كم انت لطيف وغريب اشكرك . وادخلت الببغاء . واقفلت النافذة . والحكيم يتمنى لو كان هذا الطائر السعيد الحظ ! انه معها وهى بقميص النوم . ربنا يضع سره فى اضعف خلقه . ثم يتطلع الى السماء سعيدا . يرتدى ملابسه بسرعة . ذات البذلة . ذات المعطف . ذات القبعة ويهبط لينتظرها ..

... — هل ممكن أن اقدم نفسى .. انا ..
الفاتنة — الله .. اسمك زى الببغاء بالضبط .
... — كيف عرفت ؟ .

قالت ضاحكة .. لقد ظل يكرر كلمة واحدة واسم واحد . احبك . احبك . ثم اخذ يكرر اسمك على انه اسمه !
يضحك الحكيم قائلا .. متأبطا ذراعها .. يا له من رسول غرام .. شقى ! يا مدموازيل ؟

... — انت الشقى . وتضحك عن اسنان كاللؤلؤ بيضاء : .. انت الشقى . اى فكرة جهنمية أورجينال . انت أورجينال . انت فنان مصور او موسيقار او سينمائى اتصور انك مخرج للسينما .. هل فيه سينما عندكم . ؟ حدثنى عن نفسك وعن السينما . انى مولعة بالأفلام أكثر من المسرح . يبدو أن فاقد الشىء يحبه اكثر . على فكرة انا اسمى مش مدموازيل .. انا اسمى : سوزى .

الحكيم — اولا انا كاتب اديب يعنى مهتم بالمسرح وفى نفس الوقت أنا محامى جاى اتعلم هنا . واحضر الدكتوراه . ومع ذلك أرجىء الكلام عن نفسى .

أما السينما فقد بدأت فى بلادى بداية غريبة بعض الشىء .

تصورى أن فرنسيا جاء مصر ليزورها . من ١٢٠ سنة . كان معه فانوس سحرى . عكس صورا منه على شاشة بيضاء فى بيت عمدة الاقصر زمان . كاد هو وصاحبه ـ مبهورين ـ أن لا يتصوروا كل أمجاد الماضى . أمجاد أجدادهم . فما كان من صاحب الدار : مصطفى اغا .. الا أن قايض الزائر . أعطاه فى مقابل ان يترك عنده الفانوس .. تابوتا لمومياء و ٤ أوانى للأحشاء .. ثروة ! وقد ترك الفرنسى الزائر : فانوسه السحرى . الذى فعل السحر وأتى له بما لم يكن به حالما ؟

أما العرض السينمائى لأفلام قصيرة اجنبية فقد بدأ ١٨٩٥ فى عرضه ببعض مقاهى الاسكندرية فى يومين كل أسبوع .. وفى فندق الكونتيننتال بالقاهرة .

وابتداء من ١٩٠٣ بدأ اهتمام المواطنين بالتصوير السينمائى .. وبدأ الاقبال على مسرح خيال الظل يقل وينكمس . لمشاهدة الفيلم الصامت . وقد ازداد الاهتمام بالعروض السينمائية من خلال حفلات الترفيه التى كانت قوات الحلفاء تقيمها أثناء أقامتهم ابان الحرب العالمية الأولى . الا انه بالقرب من نهايتها بدأ الكسار .. الكوميديان المصرى فى تصوير فيلمه الصامت الضاحك [**البحر يضحك ليه ؟**] . كان ذلك ١٩١٧ ومن ثم بدأت ظهور جماعات وندوات سينمائية . الى بداية عام ١٩٢٥ . لقد سمعت كلاما وحديثا حول انتاج أول فيلم مصرى متكامل سيتكلف فيلما خاما وايجارا لآلات التصوير حوالى ١٠٠٠ جنيه . مبلغ كبير . أليس كذلك يا مدموازيل .. هل تسمحين لى بأن انطق أسمك مجردا .. سوزى . سوزى تقبل .. ولكن على شرط .. أن انطق اسمك الحقيقى . لا المستعار .. فلنترك مسيو « محسن » الى الأبد . الا ترى ذلك يا فاتنى المصرى.. يا توفيك .. ما أحلى أسمك .. انه اشبه بنغم الموسيقى .. توفيك .

. . . . . .

. . . . . .

فى الصباح الباكر التالى . يصحو الحكيم على من تناديه .. توفيك . توفيك . يفتح النافذة . يتصور انها سوزى . ولكنه الببغاء يعلن لأول مرة رسول الغرام الذى يهزأ بقلبه ويسخر ! ان هذا الطير ليس غبيا كل هذا الغباء بل ذكى كل الذكاء .. لقد تصنع الغباء حتى يطيل البقاء عنده لمزيد من التقرب اليه واطعامه اكثر وأحلى حتى يطاوع ويردد الكلمات . ياله من ببغاء لعين . ولكن الحب له ثمن . الحب بهدلة . هكذا قال بعض الأولين !

. . . . . .

. . . . . .

ارتداء ملابس بسرعة . انتظار متجدد . يرفع القبعة السوداء تحية . والالفة تزيد . الرغبة تجمعهما . فى مطعم . كل مساء . بعد ان تقفل شباك التذاكر . اكثر من حوار . اللقاء يتطور . فى حجرتها أحيانا وان

لم يكن ففى حجرته .. وكلام وحديث وحب وغرام حتى تنام نجوم الليل وتهدأ مع القلبين والجسدين .

. . . . .
. . . . .

وفى يوم . حدث ما لم يكن له أى حساب . هو الذى دائما يدقق فى الحساب . حساب الفرنكات .

وفى لحظة . فى مطعم تعودا أن يلتقيا فيه . تراقصت عقارب الساعة المعلقة ودارت دورتين . تأخرت جدا .

سوزى — كنت أحضر لك تذكرة دعوة لرواية جديدة .

... — دعوة . انى أحبك . أحبك . أحبك . أحبك يا سوزى .

سوزى — هل طلبت طعاما ؟

... — اقول لك انى مهووس بك ..

سوزى — لماذا لا تأكل سريعا لنذهب سريعا . ألا تشعر ببرد وتود ان تشعل الدفء من حولنا .

ويتضاحكان ؟ . يأكلان . يشربان . يتأبطان . يصعدان الى واقع الحب ولهب اللقاء .

. . . . .
. . . . .

ويتكرر اللقاء . المطعم . وما بعده .

وفى يوم .. بينما السعادة كورق السوليفان تلمع وتلف راس الحكيم وقلبه مع حبه الجالس أمامه .. يتناقشان فى الأدب . فى الحب . فى الجنس. فى علم الأجناس . داروين . تحليل الأفلام . فرويد . السياسة : هريو .. التمثيل .. سليمان العظيم .. انه هو .. هو نفسه الذى يقبل علينا من باب المطعم انظرى ..

ولكن نظرة سوزى . تغيرت .

ان شابا وسيما أسود الشعر فاحم سواد العينين .. يقبل عليهما . انها تحاول ان تغطى ملامحها بجريدة كانت للحكيم قد اتى بها ووضعها جانبا . الحكيم يشعر بأن شيئا يحدث . ماذا يجرى ؟ هل تعرفينه ؟ واذا كنت فماذا تحاولين تقليد النعامة .. لا الببغاء انطقى . لماذا كل هذا الدهاء ؟

ولا يجد هو جوابا . ولا يجد الا أن يقوم . تقوم فعلا .. ولكن لتجلس تعتذر للقادم أسود العينين الشاب عريض المنكبين . انه مديرها فى المسرح وعلى علاقة بها .



. . . . . .
. . . . . .

ويخرج توفيق الحكيم الشاب .. الى فندق [زهرة الأكاسيا] . يكتب لها خطابا ويلم عزاله من جديد . ويعود الى دار صديقه أندريه وزوجته جرمين وابنهما جانو ..

انهم مهذبون . لا يغمز احد منهم ولا يلمز بعين أو لسان . انه يحـــرم نفسه من بعض الطعام . لا للتصوف ولكن لمعادلة ميزانيته . انه يكتفي بشراء كيلو واحد من الأرز وموزة واحـــدة .. يعيش عليه مسلوقا لمـــدة اسبوعين هى طوال مدة عشقه هذه .

. . . . . .
. . . . . .

وتمر الأيام .

ويزول الغيام وتجرى سحب الشتاء تفسح لصفاء ربيع قادم .

ويمد الحكيم قلمـــه الى ورق .. ليكتب رائعته [عصفور من الشرق] يحكى فيها قصته .

□□□

ويذهب الحكيم الى المقهى من جديد . وهنـــاك يجتمع بأصدقائه طلاب العلم .. الذين جاءوا من مصر . ومن بينهم د. سعيد . لقد كان فى رحلة الى القاهرة ليطمئن على عائلته وعاد منها .. ليحكى الأخبـــار . أكثرها اثارة بالنسبة للحكيم كانت تلك الزوبعة التى هزت أوساط العلم والأدب والايمان فى مصر .. حول شاب صعيدى ظهر اسمه د. طه حسين .. اثار كتابه الجديد : [فى الأدب الجاهلى] ضجة . دعوى . ونيابة . وخصومة وهجوم فى الصحافة وفى البرلمان . وفى الوزارة . كيف يجرؤ هذا الشاب على اصداره . صدر حكم على كل حال بمصادرة الكتاب . مع انه اســـتاذ فى الجامعة لتاريخ الأدب العربى .

□□□

... ــ من هو طه حسين ؟

... ــ شاب ازهرى . ولد بالقرب من مغاغة فى صعيد مصر . تعلم فى الأزهر . ثم الجامعة . كان اول من تخرج منها . فبعث الى باريس . وتزوج زميلة له . انه نبيه جدا وعنيد جدا ومثقف . أعتقد انه سيكون له شأن كبير مع مستقبل الأيام والثقافة والتعليم فى مصر .

□□□

أنا . أنا . حياة أنا

□■□ .. ابجدية اى لغـــة تزيد أو تنقص عن ٢٦ حرفا هو متوسط اغلبهـــا .

ولكن هل فكرنا كما أتخيل الآن فى هذا العدد الهائل بلا حد تقريبا من امهات الكتب والأبحاث والروايات وتفاصيل العلوم والأغانى والقصـــائد بما فيها الألفيات غير مسرحيات وحكايا الزمان . على مدى التاريخ .. فى كل امة بل فى كل دولة أو اقليم ؟

كثيرا اليس كذلك ؟

هل لو لم يكن قلة من البشر اهداها الله موهبة .

هل كنت تتصور أن يبلغ تراث الانسانية هذا الكم على مســـتوى ذلك الكيف ؟

فالأديب والفنان . اعنى المفكر والمبدع . الصانع والخالق .. لهم دخل كبير .

والكاتب والمصور والمثال .. يترك كل منهم نماذج لوحيه وما يجـــول فى خاطره او يتجسد خياله .

ولكن من يكتب عن هؤلاء . من يسجل أعمالهم . طباعهم . تصرفاتهم .. كيف كان نبتة كان منهم وهى ارض خصبة أو فقيرة لتتلقى بذرة .. ما تلبث

ان تتحول مع بيئته المــاء والهــواء ودفء الشمس . أعنى بذرة الخلق والوعى والشىء النادر ذلك الذى ينبت منها .. ويعلو .. فيصبح زهرة . او يعلو ويظلل بعد ان يصبح شجرة لها جزع راسخ ثابت وفروع خضراء الورق واحيانا ايضا تعطى فاكهة الفكر بعدد اكبر .. كمــا تعطى الزهرة العبق لمن يتحرك حولها .. او الجمال لمن يتطلع اليها .

ولكن ما قلته .. ان يترك اديب او فنان منهم كتابا يعكس على صفحاتا ويسرد تاريخ حياته .

واذا ترك فهناك اكثر من أسلوب . حتى يبعد عن الـ « أنا » ويجد حيرة وبعدا عن الاحراج او التحرج .

فى حالة اديبنا : توفيق الحكيم ، نجده مرة يتحدث عن نفسه صريحا .. كما حدث فى [سجن العمر] الذى أصــدره ١٩٦٤ وكان له من العمــر ٦٦ سنة .. حكى فيه على كل الوضوح والصراحة الجريئــة .. الصراع الذى كان قائما فى اختلاف شخصيتى والديه .. ثم كانت طفولته واقاربه وبوهيمية اخيه زهير . ذكر كل ما اراد بقلم فنان تأثيرى .. أعطى النبض من خلال الهواء والضوء . وضع حياته تحت النور ليراها كل قارىء يريد أن يتتبع حياته فى فترات معينة .

ثم أحيانا يتخذ لنفسه اسما آخر هو : من بينه وبين نفسه مثلما اتخذ « محسن » تورية لذاته .. ووضعه بطلا لروايته [عصفور من الشرق] التى الفها ونشرها من ٥٠ سنة وكان له من العمر ٤٠ سنة . احتواها بعض ايام وليال وعشق له فى باريس . عندما أحب : سوزى : بائعــة تذاكر « الأوديون » وحتى عندما دخل فى تفاصيل هذا الحب ، يفرده — بعد أن انتهى منه — على ورق .. ظل يسمى نفسه « محسن » .. حتى عندما اراد أن يجعل من ببغاء رسولا للغرام . علمه كيف يكرر ويعيد ويزيد ليشدو اسم : محسن ! .. محسن !

وتعلمها . ونسى . ونتركه يصف مشهدا خطه فى الفصــل ١١ من كتابه هــذا .

فتح « محسن » عينيه فى الصباح ، على صــوت شــبه ملائكى ينادى اسمه ! .. أتراه صوتا آتيا من السماء ؟ .. ولــكن النداء تكرر واضحا عذبا ، فوثب الفتى من فراشه واصغى ، ثم ابتســم : انه آت من النافذة السفلى ... عجب ! .. انها « سوزى » تقول فى نغمة موسيقية .

— محسن ! ... محسن ! ..

فأسرع الفتى الى النافذة كالمجنون :

أتنادينى ؟ ..

فرفعت الفتاة أهدابهــا الجميلة فى شىء من الدهشة ! .. ورأى الفتى يدها على قفص الببغــاء ، تقــدم اليه حب « القرطم » فأدرك كل شىء ، فتخاذل وارتبك .

— معذرة ! .. لقد نسيت .. انى اشترك مع ببغائك فى عين الاسم !
ورآها تبتسم ، ورأى جمالها فى ذلك الصباح الباكر أنضر من زهر النرسيس ، فى أصص نافذتها ، فتشجع وقال :

— نعم .. .. انى اشترك مع هذا الببغاء فى الاسم ، ولكنى لا اشترك معه فى الحظ ! ان الفرق بيننا عظيم . انه هو الذى يحظى بعنايتك ، فتنادينه وتناجينه ، — هذا الأحمق الذى لا يشعر بمقدار ما يناله من سعادة ! .. آه .. لاولئك الاشتراكيين الذين يطلبون المساواة بين الناس فى الحظ والنصيب ، وأنا لا أستطيع ان اطمع من مساواتى فى الحظ والنصيب بهذا الببغاء !

و « محسن » الذى هو « توفيق الحكيم » يمثله شاب هو [٢٧ سنة] ..

انما فى هذا الكتاب هو صديق للفرنسى رجل الصناعة — مسيو اندريه المتزوج من جرمين ، ابنة صاحبة المنزل أو البنسيون الذى أقام فيه ابان رحلته التى اتجه فيها الى عاصمة فرنسا لعله يفوز بدرجة الدكتوراه.. وهو الذى كانت تديره وتشرف عليه حماة أندريه العاشق للموسيقى والأوبرا .. والتى أثرت وفتحت له آذانه أكثر على النغم العالمى .. من سيمفونية وغنائيات أوبرا .. ثم كثيرا ما لعب وداعب ابنهما الصغير جانو ابن أندريه وزوجته جرمين ، التى كثيرا ما كانت تصاحبه أو يصاحبها لعله يبعد وحشة سفر الزوج الى المصنع الذى يعمل فيه بعيدا .. فى مدينة ليل بشمال فرنسا .

نجد أن توفيق الحكيم يكشف النقاب فجأة عن شخصيته فى « محسن » هذا عندما يلغيه ويضع نفسه : توفيق الحكيم واضحا صريحا ، بديلا عنه.. وذلك فى كتابه [زهرة العمر] الذى نشر من ٤٥ سنة . أى بعد صدور العصفور بخمس سنوات .. وكان له من العمر ٤٥ سنة . وهو يذكر فى مقدمته .. هذه رسائل حقيقية كتبت بالفرنسية فى ذلك العهد الذى يسمونه « زهرة العمر » ، وهى موجهة الى مسيو « أندريه .. » والذى جاء وصفه فى كتابى « عصفور من الشرق » . وقد بدأنا نتراسل بعد مغادرته « باريس » للعمل فى مصانع ليل ، ولبثنا على ذلك الى ما بعد عودتى الى مصر، والتحاقى بالسلك القضائى. ثم انقطعت بنا الرسائل والأخبار .وانتهى كل شىء . وجرفنا تيار الحياة ، كل فى واديه ، **فلم نلتق بعد ذلك الا فى عام ١٩٣٦ . اذ سافرت لتمضية الصيف فى فرنسا** . وكنت قد تركت القضاء وصرت مديرا لادارة التحقيقات بوزارة المعارف ، ونشرت فى الادب عدة كتب، فوجدت « أندريه » قد أصبح رجلا مهما ، ذا مركز مستقر فى الصناعة الفرنسية . ووجدت زوجته « جرمين » على عهدى بها ، لم ينل الزمن كثيرا من سالف جمالها . ولم أر للأسف طفلهما الصغير « جانو » فقد غدا بالطبع شابا يسعى مع الطلاب فى الحى اللاتينى ويشاركهم تلك الحياة الصخبة النشيطة الهوجاء .... » .

ويستكمل الحكيم ويتابع مقدمته ثم يفرد رسالته .. ان عددها ٢٦ رسالة من باريس اليه .. يعكس حياته وآراءه فى الفن والسياسة والفكر ويقول

رأيه فى كثير .. بل احيانا يخيل الى ان شخصية «أندريه» ما هى الا تكأه.. مثل عصا أو حمار الحكيم .. شخصية ربما وجدها فى حياته كزوج صاحبة بنسيون ... ولكن يهيأ لى أنها شخصية وهمية فى تركيبها الفنى . فلا يعقل أن يتحدث أديب الى رجـــل صناعة وفرنسى . عن رأيه أو آرائه فى النثر العربى والأدب العربى أيام الجاهلية والموعظة والحكمة فى شعر أبى العلاء والمتنبى والنابغة الذبيانى .. واسلوب بن المقفع .. وابن خلدون والطبرى وابن رشد والغزالى .. وعن مدرس اللغـــة العربية بالمدارس الابتدائية والثانوية .. واختيار النماذج والنصوص وسبب اذلال اللغة . التى يجهلها ولم يقرأ حرفا واحدا منها ذلك المتصل بالصناعة لا بالأدب .. ويزيد ويبالغ الحكيم فانه يود أن يقول شيئا .. يجد سببا لســـبب . فاذا به يحكى له ضمن ما يكتب ويروى له .. الشعر الموسيقى والشعر التصويرى فى أعمال البحترى وابن الرومى .. ثم ماذا ؟ المويلحى بين الجاحظ وابن المقفع وبين الحريرى وبديع الزمان الهمذانى .

انه اتخذ من أسلوب كتابه هذا الذى اراد أن يحكى فيه بعض لمحات من نفسه وذكريات له فى باريس .. أن يستند الى انسان . فوجده أو أوجده.. فأضاف ما أراد من شخصية المفكر الأديب الفنان المبدع الخالق : توفيق الحكيم .. لا مجرد لغو صديق الى صديق .

وغير تلك الرسائل الـــ ٢٦ نجد أن الحكيم يذيل كتاب ذكرياته فى تلك الفترة من العمر التى طالت بين ١٩٢٥ حتى ١٩٤٣ أى طوال ١٨ سنة .. عاش ٣ منها فى فرنسا ثم عاد فنجد أنه يضيف اليها ٤ رسائل الى صديقه أندريه كتبها من طنطا ـــ أو هكذا تصور ـــ يخبره فيها بتعيينه وكيلا لنيابة طنطا .. وعن دنيا الجريمة والقضاء .. واصفا له ميدان « الســـاعة » بطنطا وكأنه ميدان « الكونكورد » بباريس .

ثم رسالة خامسة منه : دسوق : غربية .

ثم ينهى صفحات كتابه .. بأن الفن جدير بأنه يمنحه المرء زهرة حياته.

. . . . .

. . . . .

ونعود الى الاسم المستعار الذى اختاره الحكيم : نجـــده أيضـــا بطلا لمسرحية [رصاصة فى القلب] التى اختارها الموسيقار محمد عبد الوهاب ليمثل ويغنى بطولتها ـــ فيلما ـــ أمام راقية ابراهيم . التى تنـــاديه .. « محسن » فى هذا الفيلم أكثر من ١٠٠ مرة . وقـــد أخرجه محمد كريم . ومما يذكر ويحكيه توفيق الحكيم مداعبا نفسه . « مشنعا » ببخله أمامى .. أن محمد عبد الوهاب أعجب جـــدا أثناء تصوير هذا الفيلم بمواقفها . فما كان منه .. الا أن انتهز فرصة زيارة توفيق الحكيم .. على بداية الأربعينات ـــ لمكان التصوير فى استديو مصر : مجاملا .. أن قرب منه محمد عبدالوهاب ـــ متباطئا ـــ وكان نظره ـــ قبيل اجراء جراحة ناجحـــة فى عينيه على يد د. باراكير فى أسبانيا ـــ قد بدأ فى التدهور .. وبعد التحيات وكلمـــات

الاعجاب — المتبادلة أن قال له عبد الوهاب .. « الحقيقة حاجة شـيك قوى . شيك هاندز ! » .. فما كان من توفيق الحكيم الا انه رد عليـه بسرعة .. والله بلاش الحاجات دى كلها . أنا عاوز [شيك] بس !

ويكرر يوسف وهبى هذه القصة احيانا على انها جرت بينه وبين توفيق الحكيم . اى يؤكدها . ويبدو أن الحكيم كررها فى أكثر من مناسبة . اذا صدقنا يوسف وهبى .

. . . . . .

. . . . . .

ثم لـمـاذا نلف وندور بينما قد اختار توفيق الحكيم اسمه المستعار من زمن بعيد عنـدما نشر أولى واشهر رواياته [عـودة الروح] فانه البطل « محسن » الذى يحكى ويصف ذكريات عمره — وعمته وأعمامه وأقاربه .. حتى مبروك خادم البيت — عندما حضر فتيا الى مصر .. وكيف عشق أولى حبيبات قلبه : « سنية » بل يعود ليصف دور الأم فى حياته . والثورة التى أحس بها ومصر المستقلة تتفتح زهرتها فى دفء التطلع الى الحرية . وكرامة الوطن .

. . . . . .

. . . . . .

ولكن احيانا يسأم توفيق الحكيم اختياره اسم « محسن » « برفانا » يختفى وراءه ليجـد الحرية فى السرد . أحيانا يختار مثل طه حسين اللغويات ستارا فيذكر عن نفسه : ترك الفتى . أو عندما ذهب فتانا . أو . صاحبنا.

وهكذا نراه بين الصراحة والوضوح .. أو الغموض .. أو حتى من وراء اسم هو كالقناع .. أو أحيانا يتجه الى ضمير الغائب . .

ونستطيع ان نتتبعه .. أعنى نتتبع حياته وآراءه الشخصية فى المعانى والأشياء والبشر وما خلفه عن التاريخ . أو تخلف عن الناس أو أقبلوا عليه.. فى ضمير الغائب الذى كثيرا ما اتجه اليه د. طه حسين .

ولو تتبعنا فى يسر كتب توفيق الحكيم — غير ما سردت — مثل : « نائب فى الأرياف » حيث كتب الحكيم فى مقدمته لكتابه « لـمـاذا أدون حياتى فى يوميات ؟ الأنها حياة هنيئة ؟ كلا ! ان صاحب الحياة الهنيئة لا يدونها ، انما يحياها . انى أعيش مع الجريمة فى أصفاد واحدة . انها رفيقى وزوجى أطالع وجهها فى كل يوم ، واستطيع أن أحادثها على انفراد . هنا فى هذه اليوميات أملك الكلام عنها ، وعن نفسى ، وعن الكائنات جميعا . ايتها الصفحات التى لن تنشر ! ما انت الا نافذة مفتوحة أطلق منها حريتى فى ساعات الضيق ! ... »

وذلك غير : .. « الرباط المقدس » . و . « ياطالع الشجرة » . و . « ذكريات الفن والقضاء » وحتى قصة : « أصحاب السعادة الزوجية » التى يحكي مداعبا ... د. محمد لطفى بيومى : عميد كلية طب طنطا ، والذى انشأها ، أن الحكيم — الذى لا يهدى له كتبه وانما يشتريها . ان فيهـا ذكرا لأخته : قرينة توفيق الحكيم وعن اختها وزوجها أحمد قنديل : المدير العام بالمعاش وهو عديل الحكيم .. وانما بصور ورمزيات . ولابد من الانتقال الى طه حسين : اشهر من كتب ذكريات طفولته وصباه وفترة عمره وسيرة شبابه فى اجزاء كتابه « الأيام » الثلاثة . والتى كان بدايتها ١٩٢٨ أى من ٦٠ سنة وكان لطه حسين حينذاك من العمر ٣٩ سنة .

وقد رمز طه حسين الى نفسه بضمير الغائب .

ولا شك ان الأولين فى الفكر الأوروبى خاصـة للأدب الفرنسى عنـدما سجلوا أو كتبوا بعضا من الوان حياتهم : أن تأثر بهم طه حسين وتوفيـق الحكيم .. فى الصراحة التامة .. أو الاختفاء وراء قناع . بعدا للأنا .

نجد مثلا وعلى سبيل الذكر لا الحصر ! اعترافات جان جاك روسو دفاعا واعترافا للناس وقد بدأوا يقرأونها من ٢٢٣ سنوات . وهى من جزءين . ومن قبل ج.ج. روسو كان الكردينال دى رتز ثم عاصره سان سيمون ، خاصة فى الجزء الثانى من اعترافات روسو وهى الفترة التى قضاها فى عاصمة فرنسا مضطهدا .

ولكن لماذا نروح لنرى الغريب ونبعد عن القريب !

هل ينسى أحد مذكرات « سنوحى » البطل المصرى الذى اضطرته الظروف أن يهجر مصر زمنا ثم يعود . لقد عاد مع الشوق الى بلده . مصر الفرعونية وكتب مذكراته وتركها لنا . وكان ذلك من ٤٠٠٠ سنة ! ومن قبـله ذلك الملاح الأديب الذى أخذ يحكى رحلته البحرية وكيف ...

واذا عددنا بعض ما كتب توفيق الحكيم عن كتب احتوت ذكريات له فان طه حسين قد فرد لحياته بعض صفحات غير كتابه [الأيام] ذلك أيضا فى كتابيه : (أديب) و (شجرة البؤس) .

. . . . .

. . . . .

واذا كنت قد أوردت تاريخا لرحلة قام بها توفيق الحكيم ، الى فرنسـا وذلك فى صيف ١٩٣٦ . .وذلك لو عدت الى الوراء نحو ٤ صفحاتفانه ذكرها فى كتابين ونصف من كتبه : وهى : [راقصة المعبد] التى حكى فيها رحلته الى النمسا حيث قضى وقتا يزور فيه مهرجان الموسيقى هناك وفى رحلة العودة أحب فى القطار حبه الذى لم يستكمل ٢٤ سـاعة وتلك آخر من أحب فى

عزوبيته وهى الراقصة : ناتالى . التى هام بها ثم تركها فجأة لمـا أحس غموضا يجتاحها .

أما كتابه الثانى فكان : زهرة العمر : الذى حكى فيه كما أسلفت لقاءه مع عائلة مسيو أندريه ورسائله ومن بينها وصفه لغرامه براقصة الملهى الروسية البروسية الأصل : ساشا .

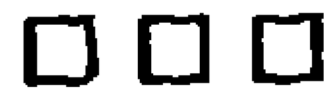
ومن عجب أنه فى القضيتين : يجد ثالثا يمهد له اللقاء . فى الأولى كان الصياد السمين الذى قابله فى القطار ثم سهل له المهمة . وفى القصة التى قبلها كان هناك مسيو هاب .

ولكن ما هى حكاية النصف كتاب . اذ ذكرت ان عطلة صيف ٣٦ طرحت على الحكيم : كتابين ونصف . ذلك غير الترجمة الفرنسية لكتابه شهر زاد . وقد أصدرته باريس بمقدمة لجورج ليكونت عضو الأكاديمية الفرنسية ونشرته دار نشر « نوفيل ايديسيون لاتين » .

ما هى حكاية النصف كتاب ؟

صبرا .

فلأبدأ قصته لك لو تطلعت الى الصفحة التالية .
وله حكاية تتصل بالمـال وبالمناصفة . وبالبخل ايضا . اذا كنت قد نسيته ، فان الحكيم دائما حريص على ماله كل الحرص .



الأسطى حميدة على رصيف المحطة !

□■□ .. توفيق الحكيم : موعود دائما كلما خطا أو تحرك أو سافر .. برفيق ثان معه أو برفقة شيء ما ؟ .

اما .. عصا : من خشب .. يتوكأ عليها ، ويتحدث معها كلما اراد .. لا كلما ارادت هي .

واما حمار : من عظم ودم ولحم يعلوه ، ويتكلم معه ويجادله او يطرح عليه سؤالا فيجيب أو ربما يرفض الاجابة فنسمع له نهيقا !

أو .. قطار من حديد : يحتويه ويجلس فيه .. مفترجا من احدى نوافذه على عالم فسيح رحيب . ومن قطار الدلتا الذى يبدو وهو « يهكع » مهتزا على جانبيه فى ريف مصر متثائبا .. فيه رائحة بصل وثوم وعرق الناس . ناس كثير . زحام . و « لبش » أعواد قصب ومش وبيض ولبن وعرقسوس وتمر هندى وفسيخ وسمك وسردين « يشر » وينقط ! .. بما علق به من ماء ، وأوزة تصيح وبط يتطلع من أقفاص الجريد برأسه .. وفوق كل هذا غبار وأحيانا : قملة تسرح على قفا فلاح صغير .. زاحفة الى عصفورة خضراء مرسومة « مدقوقة » بالوشـــم الأخضر ، بالقرب من أذنه وفوق جانب الجبين ! أو بين طرف حاجبه وطرف أذنه اليمين . بينمـــا طير ذباب حقيقى يلف ويزن ويدور حول رأسه ، تتعجب لهذه البطـــة أو العصفورة المرسومة ... ولا تدرى أنها وشم على .. الجبين لا تراه العين !

ومعزتان وخروف تتطلع الى الحكيم تلميذا صغيرا .. وسميط وجبنـة وتراب متراكم على بقايا النافذة المكسورة الزجاج .. و .. وسع يا جدع .. يا راجل أنت وهو .. أوعى يا حرمة .. وسع يا عبد المقصود .. الله ويعدين يابسطاويسى .. الله .. أمال ... أيوه كده .. اتفضل يا حضرة العمدة .. اتفضـل يا عمدة .. الله : ما تقومى تفـزى من هنا يا بت يا فاطنة أنت والكتاكيت بتاعتك جاتك الـ ..

الحكيم صبيا .. يرى . يسـمع . يتأمل .. تعى ذاكرته كل هذا . وتخـتزن .

هكذا شـأن الكاتب والموسيقار والمخرج والـراوى .. عندما كانوا صـغارا .

انهم بين البشر ، الذين يولدون ولهم رصيد من ثروة الموهبة فى طفولتهم . لا يتعمدون جمعها .. ولكن لكل موهبة صغيرة « ابريال » .. لاقط : تتجمع عنده موجات الفكر والرؤى والرؤيا .. ثم لا تفلت .. لا تذيعهـا الذاكرة الا عندما يحرك هذا الخزين المعـين المحجـوز .. شيء غير عـادى .. نسميه : « الوحى » .

لحظتها .. يكتب .. يعزف . يؤلف . يخرج .. يمثل .. يروى : الموهوب . لا يهم ولا يعرف متى واين ؟

مثلما حدث لتوفيق الحكيم مع عالمته التى اهدى اليها : [العـوالم] .. وجعل اهداءها اليها .. (الى الأسطى حميدة الاسكندرانية اول من علمنى كلمة .. الفن ..) والعوالم .. لا يعنى بها الحكيم : عوالم الفضاء .. ولا عوالم العلوم والعلماء .. ولكنها هى طائفة من اهل الفرفشة والحظ والهيصة ، كان لها مكان معلوم فى أزقة متفرعة من شـارع محمد على فى القاهرة من أواخر القرن الماضى حتى العشرينات من عصرنا هذا .

واذا كان الحكيم قد شاهد وراى واستمع فى قطار يتحرك لهذا العالم الذى قابله فاحتواه .. وكان له من سن العمر مرحلة المراهقة الأولى .. فى قطار يتحرك من رصيف محطـة العاصمة متجها الى الاسكندرية يبتغى محطة سيدى جابر هدفا ووصولا .. فان رواية مسرحيته كتبها على ورق .. لا فى القاهرة أو عند شاطىء بحر .. ولكن تحت غيوم باريس ، وان كان وسط صيف .. فالجو الأوروبى حاد المزاج متقلب بين حـر وصـقيع . وهواء ساخن جاف .. وبلل ومطر وبرق ورعد ورياح وثلوج . لا تعرف له وسـطا ولا اتزانـا .

ومع ذلك لقد كتبها بعد ٢٠ سنة من يوم أن عاش اللحظة !

مد قلمه يغمس به من مداد الفكر والذاكرة .. على أرض غير ارضه .. وهو فى باريس عاصمة النور والجمال : قابع على مقعـد ثابت . فى مقهى « بيس تو » .. مطلا على رصيف يجاور عظمة مدخل كنيسة الملدلين بين واعمدتها العملاقة . يحاول ان يستجمع من الهواء .. صـور أطياف .. تأتى من بعيد . بعيد . من مصر . من داخل قطار واحيانا من نافذته .. عند رصيف محطة مصر .. بقيت دقيقتان على السفر .

منظر الرجل السمين المنفوخ البطن الذى تحليه لمعة سلسلة .. « كتينة » ذهبية تتدلى على جانبيه .. وعلى رأسه طـربوش احمر فاتح معوج ، والزر الأسود يهتز . تماما مثل المنشة التى فى يده .. بينما يده الأخرى .. تنساب فى دفء جيب سترته . شياكة . أهمية . وقار ضـاحك مصطنع . ربمـــا .. ؟

ومن ورائه حمال عجـوز فى عمر والده أو جده . معروق اليدين اللتين تبدوان كشهادة ميلاد لعمر طويل واضحة على ظهر كفيه ! يحمل على كتفه حقيبة كبيرة ، وفى يده الأخرى توأما لها . بائعو الجرائـد والسـميط والشوكالاته .. يزعقون .. ولكن هناك زحاما يندفع الى عربة الدرجـة الثالثة .. التى لا يبحث عنها سعادة البك المتهافت فى رشاقة الوجاهة أمام حقائبه . درجة أولى طبعـا .. ولكن وسط الزحام .. هنـاك من « يتشخلع » و « يتثنى » رغم القوام المترهل للمعلمة التى تبدو وجها فى الزحام . وجهها ملطخ بزينة الألوان . حاجباها مرسومان . واحد منهمـا يلعب . يتراقص . تعبر به بدل الكلام .. واذا فتحت شفتيها .. فان عـددا من طرابيش الذهب يكسو بعض أسنان ضبة فكها الأعلى . انها تلمع فى عز الظهر .. كهلال يلمع فى فم ظلام الليل .

رنة الخلخال الفضي من « شقى » العمر .. يرن ! مثل رنـة الصاجات كلما احتك بزميله خلخال القدم الأخرى .

سـعادة السمين صاحب الكتينة الذهب عيـار ١٨ .. متأفف لأنه وجد نفسه فجأة فى زحمة الزفة .. زفة العوالم .. متأفف اكثر من حمل المنشة فى يده بينما الحمال العجوز فى عمر والده أو جده .. حامد ربنـا على الرزق الوفير .. لا يشعر بما يحمل على كتفه أو يمسـك فى يده من متاع ثقيل .. لرجل تخين ثقيل متعجرف !

فرق بين الغنى والفقر .

الغنى دائما عطش نهم .. لا يرى فى الدنيا الا وحدة . الكل يجب أن يكونوا عبيده . والفقير شاكر الله على الونس وعلى الرزق الحـلال . والشغل للرجالة يا رجالة .. كل الذى يلمع فيه هو نمرة الرخصة ... « نمرة الشيال » من نحاس .. الأرقام محفورة فيـه من فوق . كلمتين . محطة مصر .

اشياء اخرى تلمع .. يرى الحكيم : صبيا متنبها .. زراير النحاس : التى ترتص عمودية على صدر الكمسارى .. ثم تلك اللمعة البعيدة ليد جرس المحطة .. انه مشدود اليه .. ينتظر أن يسـتمع الى الرنين .. ولهذا تجد عينيه تركزان على عقارب الساعة الكبيرة .. ساعة المحطة .. ثم الى الجرس النحاسى اللامع .. ان حضرة ناظر المحطة .. مهتم بالنظافة وبالتنظيف .

هيصة زحمة فرقة العوالم تقترب .. تقرب من نافذته .. عدد منهم يحاول أن يتجه يمينا بحثا عن مدخل عربة السكة الحديد . أيوه مدى يا اختى اسم الله عليك . ايوه هى دى الترسو .. اتفضلى يا معلمة .. بينمـا العدد الآخر يبحث عن مدخل العربة من ناحية اليسـار .. الكل مستعجل خائف من الجرس .. مثل تلميذ جاء متأخرا الى الفصل .

المنظر كله هرجلة . الناس مثل الفئران .. الكل يبحث عن مخرج أو مدخل لحظة الخطر أو سرعة التصرف . وهكذا منظر محطة السكة الحديد .

وفجاة يشخط فى كل هذا الجمع المبعثر الحاج محمد المطيب : المسئول و « مشهلاتى » الفرقة .. « فرقة الاسطى ست حميدة » وصديقها احيانا .. ثم هو الادارى ايضا او المتعهد الذى ينسق أعمال الست حيثما تكون حسب المقاولة والعربون المدفوع لمن ياتى ويتفق .. من اقاليم مصر واريافهـــا وصعيدها .. فهو والست جاهزان لأى مناسبة مفرحة من احيـــاء ليـــالى الفرح والزفة والطهور . عقبال عندكم .. أيوه أمال .. ما تشـــد حيلك يا بت يا نجية .. الله . الله . هلبت القطر يقوم من غيرك يا نجيـــة يا حلوة يا سكر ..

ولكن الست حميدة : المعلمة .. صاحبة الفرقة وكل هـــذا الجو .. تأخذ بالها من هذه المسائل التى يريدها الحاج محمـــــد المطيب أن تكون مستورة بينه وبين صغيرات الفرقة .. انها « حدقـــة » . تزغر له وتزغده من النافذة : عيب يا حاج .. وقدامى كمـــان يا معلم . ! بقى كده يا بت يا ملعونة يا نجية .. ما كنش العشم . آل ايه ! نعلمهم .. يسبقونا على الرجالة .. لا .. دا راجلى يا بت يا نجيـــة . متتخمدى أمال . بس قبـــل ما تقعدى خدى بالك من العود يادلعدى .. الرق .. حاسبى على الرق احسن يقع على العود . تنكسر رقبته .. جاتك كسر رجلك .. ايـــوه اتحشمى كده يا بت انت وهيه .

يتنحنح المعلم المطيب .. يبرم شنباته .. واضح جدا أن شاربه مثل شعره مصبوغ بالصبغة الألمانى المعتبرة .. : الحمد لله اللى احنا لحقنا يا ست حميدة .. متخديش بالك من هزارى مع البنات دول .. دول لســـه مطلعوش من البيضة .. صغار على ! وغلاوتك عندى يا اسطى يا كبير انت .. يا غالية الهوانم والستات ! آه أمال يا اسطى . بسمة والنبى يا ســـت .

الست المعلمة تحاول أن تطمئن منه بعد أن أوصته على كذا وكذا .. على أن القطار هو ده مضبوط يا حاج ؟

.. — أيوه أمال .. هو .

... — ولكن قل لى يا حاج .. دى المستعجلة والا المفتخر الاكس ؟

... — اكسبريس ايه يا ولية يا معلمة يا رئيسة عوالم مصر وكيداهم .. انتى بتهزرى والا ايه ؟ . هو من غير مؤاخذة .. الاكس بتاع الاكسبريس . ده .. يبقى فيه : ترسو .. متفهميها أمال يا ست يا حلوة الحلوين !

والنبى متنسوش الفاتحة عند سيدى جابر .. يا بنات .. خدوا بالكم قوى من حميدة .. ست الفنون كلها !

. . . . .

. . . . .

الحكيم تلميذ صغير .. معجب جدا بكل هذا الحوار .. متعجب جـــدا من أمور يراها لأول مرة .. العقارب .. عقربا الساعة يعانقان بعضهما : الوداع . مع أن أحدهما سوف لا يتحرك من مكانه .. وانما سيدور بعيدا

ملتفا عنه لمدة ساعة . وبعدها لقاء جديد ، ٢٤ لقاء كل يوم . ومع ذلك الشوق كله واضح على الميناء . قرص ميناء الساعة المنور .. لكل عين . والعقربان لا يهتمان بالعيون . هل هما مصابان بعقدة الاستعراض . المهم عندهما التموين . أن يمتلأ تروس جوفها بالزيت .. كل أسبوع .. ثم يد تصلهما بتيار الكهرباء .. أو تمتد لتملأ الزنبلك الذى لا يظهر ولا يبان .. مثل ضمير كل انسان . هل رآه أحد . ربما أحسسنا به أحيانا ولكن هل رأيناه رؤية العين ؟

رنين الجرس .. حركة تصدر عن القاطرة . زفرة بخار أبيض يندفع فجأة . صفير عال .. الحديد بيتكلم ؟

الحكيم : التلميذ الصغير القابع على دكة خشبية فى القطار .. مازال يتطلع من النافذة ...
اختفى الرجل السمين ...

عاد الحمال العجوز .. ضاما أصابعه على قطعة نصف فرنك يحركها بين شفتيه وجبينه شاكرا عدة مرات .. هامسا داعيا : رضا .

. . . . .
. . . . .

القطار يشد نفسه ..

المعلمة الأسطى ست حميدة .. تبحث عن ورقة « العلوان » .. فى صدرها .. لا تجده . تبحث عنه من جديد فى قلق داخل صرة صغيرة تحملها .. يا خيبيتنا يا ختى .. أمال حنروح للفرح فى اسكندرية ازاى .. ؟ يا بت يا سلم : ما شفتيش العلوان . سلم رقاقة الفرقة .. ضريرة لاترى . تبتسم مطمئنة .. لتطمئن المعلمة : أيوه يا أسطى .. العلوان معايا .. وتدس أيدها فى صدرها .

... — طيب أقريه يا بت .. آه لا مؤاخذة يا سلم .. انا نسيت .. الله أنا مالى النهاردة . ماتشوفوا حد يستقراه لحسن ميكونش هو العلوان المظبوط !
هنا يتقدم واحد من ٤ شبان .. يجلسون على دكة خلفية تماما للمجموعة وينتهزون الفرصة .

... — هو فين العنوان .. ويمد أصابعه يشد بها الورقة من سلم ويقرأها : .. بيت محمد بك قطبى .. سيدى جابر .. فيه فرح كبير وتناوير حتعرفوه على طول .

الأسطى حميدة .. بعد ان اطمأنت واستراحت .. تعدل هندامها حريصة على وقارها بين بنات الفرقة : سلم « الرقاقة » ، ونجية « الطبالة » ، وفاطنة « الرقاصة » .

شىء ما ظهر للسائق على مدى النظر .. يبدو أن حمارا يجتاز الشريط من بعيد . يحاول ان يتفادى الاصطدام . يبطىء فجأة من سرعة القطار الذى ترتج عرباته بعض الشىء .. فتتضارب فى بعضها وكأنها طرقعة قبلات من حديد !

بالطبع الاسطى حميدة خائفة على الصرة .. صرة الشغل اللى فيهـا الصاجات يا بت يا فاطمة .. خدى بالك جالك ضربة لمـا تصحيك .. خدى بالك من العود والرق والطبلة والدربكة .. الله امال .

وفى هذه الاثناء يتزحلق راس الملاية من فوق راس الاسطى .. يبـدو المنديل الترتر « ابو أويه » ينافس فى لمعتها لمعة الصفيح .. المطلى بقشرة الذهب .

الا ان الاسطى حميدة الاسكندرانية ذات الاصل الممتد الى المحلة الكبرى . والتى تفخر ايضا بأن لها اسـما آخر ينتسب الى هذه البلدة : حميـدة المحلاوية .. تبدو فخورة بلمعة شعرها الاسـود الفاحم المزيت بالعتـر والياسمين بأطيب دهان وصل مصر المحروسة .. امال يا بنات .. مفيش حـد معاه عود كبريت .. شوفوا والنبى يا بنات شوفوا حد ؟

فاطمة : عيب يا اسطى .. ده الدنيا رمضان .. الناس يقولوا علينا ايـه ؟

الاسطى : احنا على سفر يا اختى .. معذورة والنبى .

واحد من الاربعة يجدها فرصة سانحة جدا للاشـتباك .. بعـد ان ارتضى واختار ٣ منهم فى سره متمنيا : .. احدهم الذى فقد الامل .. فالباقون « مش ولابد » ! لا تتبادل معه النظر ولا النظرات ولا عندها نظر .. بادئا اكبرهن بالست الاسطى حميدة .

والثانى بالراقصة فاطمة

والثالث بالرقاقة نجية

اما رابعهم .. فلم يرض بمصيره .. آه بقيت البنت الرابعة : سلم : الضريرة ... وشكلها لا يسر .. ربما فنها . من يعلم ؟

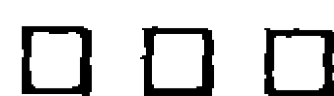
فأراد اولا ان يرتضى القسمة والنصيب فى ان يتطلع الى حيوانات الريف الاخضر من النافذة .. يلعن حظه . ثم اذا بخاطر يقفز اليه . ربما تكون أوحشهن احلاهن فنـا .

... ـــ طيب والنبى يا اسطى .. عاوزين نسمع حاجة آه يا سـلام : « لو غنيت فى العشق قضيت زمانى » .. اللى سمعناه آخـر مرة من الاسطى نعيمة المصرية .

حميدة ـــ .. الاسطى مين يا عمر . .ايه ده يا سى ده اللافندى ! انت عارف حضرتك .. قاعد قدام مين .. فشر يا اخويا .. قال ايه .. قال : نعيمة .. نعيمة مين يا سيدنا اللافندى ! قال نعيمة قال . ده انا حميدة المحلاوية يا حضرت . قال ايه .. سبوا ده واسمعوا ده .. قال .

بدأ حاجبا حميدة يتراقصان غضبا لكرامتها المجروحة .

كيف يتجاسر وينطق باسم واحدة فى « الكار » غير اسمها .. ومفيش حد راح والا حيجى .. الا حميدة المحلاوية . بتاعة مصر كلهـا وشرفك يا سى اللافندى .



يا سيدنا ده اللافندى .

فاطمة ونجية وسلم : تشترك أيديهن فى تهدئة صدر الأسطى حميدة الناهض . يساعدهن الأفندية الثلاثة . فرصة !

الأفندى الرابع .. يحاول أن يفسر موقفه .. انه لم يجد فى الدنيا صوتا أجمل من صوتها .. ومين هى دى نعيمة المصرية ؟ . دى فرصة العمر والسعد مناه عندما جاءت جلسته فى جوار الأسطى حميدة .. والنبى أبوس راس الأسطى ... ويقف ليجد فرصة له هو الآخر .. أن ينظر من عال يختلس نظرة وهو يقبل الرأس ليرى ما ظهر من بين النهدين من انحناء صدر الفستان الأحمر المدندش .

تفتر ملامح الأسطى حميدة بالسعادة . تبتسم .
تشع أسنان الذهب ..

وبحركة من أصبعها .. وبغمزة عين .. تقوم الفرقة .. البنات على سن ورمح ويتناولن عدة الشغل .

ويلعلع صوت الأسطى حميدة :

« .. فى العشق قضيت زمانى

« وهمى اليوم يكفانى

« آه .. انظروا جسمى السقيم ..

« آه من الحب !! » .

وترد البنات مع الأفندية .. آه من الحب .. كورس ..

حميدة ـــ قومى يا بت يا فطنة .. اتمخطرى . اتشخلعى . ورى حضرات الأفنـــدية .

وتقوم فاطمة تتحزم . وعلى صقفة الأفندية الأربعة ، ترقص فاطمة وتتمايل مع الدلال كله فى طرقة القطار .. وأيدى الركاب .. تصفق على الواحدة .. وفاطمة رائحة جاية تتمخطر . تهتز . جسدها الطرى الأبيض الناعم يلفه فستانها المحبك . يحتضنه من الداخل . تعتصره من الخارج عيون الركاب . تحملق أكثر ...

كمسارى التذاكر .. يظهر من وراء حضرة المفتش مع « مقرضة » فى يده : تذاكر .. قلنا التذاكر . التذاكر يا خلق . طلعوا التذاكر من فضلكم .. قلنا ايه ..

لا أحد يأخذ باله من أحدهما .

حضرة المفتش مع الكمسارى .. فى عجب عجاب .
الأيدى مشغولة مع العيون والعقول الملفوفة مع اهتزازات البت فاطنة . ايوه كده يا بت ... ويلعلع صوت الأسطى حميدة ...

« فى العشق قضيت زمانى
« وهمى اليوم يكفانى
« آه .. انظروا جسمى السقيم

« آه من الحب

أعد .. أعد ..

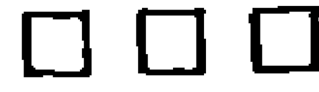
ويبهت حضرة المفتش الذى يزغر للكمسارى .. الذى لا يجد الا أن يفتح ذراعيه : طيب وأنا مالى .. يا حضرة المفتش .

وفجأة تتحول « زغرة » حضرة المفتش الى نظرة اعجاب بعد أن كانت خلفية فاطمة الراقصة .. تمسه .. وفتح ذراعيه واذا بيديه تصفقان على الواحـدة : بتقـول وانت مالك طيب وأنا مـالى . وأنا مـالى آه .. يا ست يا أسطى حميدة قوللى من الأول ..

وأصبح الكمسارى والمفتش وكل الترسو كورس للست الأسطى التى أخذت تعيد وتزيد من :

« فى العشق قضيت زمانى

« آه من الحب

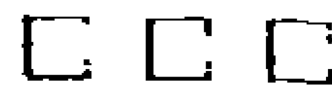


والعجيب .. ان الذاكرة فى كل انسان .. هى خزنة أفـكاره .. هى رصيد كل ما يرى ويسمع . ولكن الحرص عند توفيق الحكيم يجعل ذاكرته تختزن أكثر وأكثر وأدق التفاصيل لدرجة ان لغو ولهجة العوالم والأسطى حميدة والحاج المشهلاتى محمد المطيب .. من : « هلبت » . و « النبى تنسدى . وتحطى على ميلتك برش » . و « براوة عليك يا أسطى .. أهو بلا قافية ان ماكنش حد فى استنظاركم ، اديك معاك العلوان .. »

تعابير أو تعبيرات .. كلها تحتفظ بها ذاكرة الحكيم وتعيها .. وكأنك تسمع الآن بعض كلمات يشتهر بها الفنان الكوميديان محمد رضا عندمـا ادى مسلسلة المعلم عكاشة عماشة .. أول فيلم بطولة : صفاء أبو السعود وعادل امام ومحمد رضا ونبيلة السيد وسيد زيان .

بينما الحكيم عاش اللحظة .. فأصدر كتابه فى مطلع شبابه ومن زمن حتى أصناف الدخان : « باكة السمسون » .. وحتى قلب حروف الكلمات فى اللغة — الخاصة — التى تتخاطب بها العوالم بحيث لا يفهمها أحـد غيرهم . وما زال بعض القدامى من أهل الفن فى بلادنا يتحدثون بهـا . ولقد سمعت مرة محمد عبد الوهاب ويوسف وهبى يتفاهمان بهـا ذات صباح فى يوم قضيته معهما وعديد من الأصدقاء فى حديقة بيت يوسف وهبى . وارادا أن يتفاهما وسطنا دون أن يعلم واحد منا ما يجول ويصول بينهمـا لغة أشبه بالشفرة . وهى تقريبا قلب حروف الكلمات .. يأتون بالحـرف الأخير ليضعوه فى الأول وهكذا ما يليه !

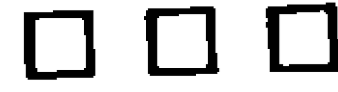
وكثيرا ما نسمع مثيل هذه اللهجة بين الصـياغ فى الصاغة .. بحيث لا يتحرجوا امام الزبائن .



هذه اللغة .. او لهجة اللغه .. ما زالت فى ذاكرة توفيـق الحـكيم الحساسة القوية جدا .. حتى فى أجواء باريس .. عندما طلع الفنان فيه

يتذكر ويحكي للورق خيال بعض ما عاشه .. حركة قطار وحوار فكر .. لم تختلط بها صور وخيالات ونغمات والحان مدروسة استمع اليها ضـمن ما استمع فى دار أوبرا باريس والأوديون .. ولم تمحها ألحان : فاجنر وهـاندل وموتسارت وهـايدن وبتهوفن ومندلسون وشـوبان وشـومان وليست وفـيردى وشـتراوس وبرامس وبيزيه وتشـايكوفسكى وكريج ورمسكى كورسـاكوف وبوتشينى وسـبيليوس وتوسكانيتى وبارتوك .

ولا خطفت انظار ذاكرته .. رشاقة راقصات البالية .. فحجبت عن وعيه هزات وشخلعة « البت فاطنـة » .. الرقاصة راقصة القطار .. التى اهتز لها ووقف على رجل .. حتى وصل الى رصيف محطة سيدى جـابر . بالسـلامة .



واذا كان أحد يشـير : بأصبع الحـرص ـ لا ـ البخل الى توفيق الحكيم . وأداعبه أنا فى عنوانى لهـذا الكتاب : « الحكيم بخيـلا .. » ، فيضحك قائلا : يعني على وزن : اوديب ملكا . فأرد على الصديق الكبير : أيوه « ملك البخلاء » .. فأجدها فرصة طيبة لأشهد أن الحـكيم لو اراد أن يجمع وفرا من مال .. لأنتهز اول مناسبة وباع ما باع . وأزاد رصيده ارتفاعا وأرقامـا .

بمناسبة اصـداره طبعته الثانية من « راقصـة المعبد » كتب فى مقدمته « .. انه راعى أن تكون مسبوقة بقطعة « العوالم » لاتحادهما الى حد ما فى الموضوع والاطار : فهما تدوران حول طائفة بعينها من أهل الفن ، كما أن حوادثهما تجرى ، بالمصادفة فى قطار ... » .

وكان هذا من ٤٩ سنة .

ولكن المناسبة حدثت من ١٩ سنة عندما جاءت الى : نجوى فؤاد : راقصة مصر الأولى والأشهر .. لتحدثنى عن رغبتها فى أن اقنـع توفيق الحكيم أن يتفق معهـا .

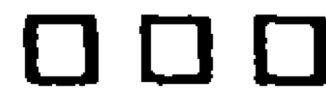
سألتها : عن ماذا ؟

قالت : العـوالم ؟

قلت لهـا : أعتقـد ان الحكيم زوج بناته كلهن . يعنى خلص افـراح اتامهـا فعـلا .

قالت ضاحكة .. لا لا .. عاوزة اشتريها .

فهمت . وبدأت تسرد التفاصيل وكيف أنها « تود أن تصبح منتجة فجسد الراقصة لا يعيش طويلا . مثل فينوس . اخاف بصمات الزمن . عاوزة انتجها وامثلهـا .



اصابعى امتدت الى التليفون الداخلى فى « الاهـرام »

رد الحكيم . حكيت له أن نجوى تود ...

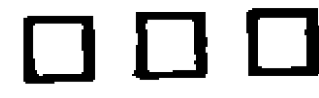
.. ـ تتفضل تطلع معاك يا كمال ..

وبدأت المناقشة بين المؤلف والمنتجة الراقصة .

عينا الحكيم تتراقصان .. أمام هذا الاقبال والجمال النابض بلا اهتزازات وكأنه يتخيل ويقارن .. بين ما رآه عند نجوى الراقصة ذات مساء .. ولو فى فيلم معروض .. وبين نجوى المنتجة ست الأعمال التى جاءت تتحدث اليه .. وبين البت فـاطنة راقصة القطـار . يا ترى أين هى الآن .. وما شكلهـا ؟

احسست أن الفن عنده تغلب على المـال .

لم يهمه كثيرا أن يتفاوض فى الأرقام . بقدر ما كان يسألها فى تفاصيل ما انتوت من اخراج .. ومن سيكون المخرج . وأجل الموضوع كله بلباقة .



اذن هو حريص كل الحرص على فنه خوفا من أن يراق ولو كان كل الذى يبتغيه مالا فما كان أسرعه فى الاتفـاق غير مهتم بما سوف تأتى به الأيـام من نجاح أو ...

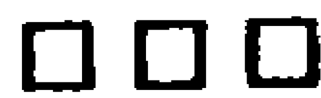
ولعل ما حدث يذكرنى بأديب آخر ومنتج لا منتجة . وهو المخرج عاطف سالم الذى جاءنى مع أمنية له أن يبدأ رحلة الانتاج وأنه بحث طويـلا عن قصة جديدة تصلح فوقع اختياره على قصة : « سارة » لرجل صعب هو : عباس محمود العقاد . فهل لى أن اوسطك ؟

تليفون .. انبساط من العقاد .. واتفقنا أن نتقابل عند صبحى جريس ، صاحب مكتبة الأنجلو : الذى كان يتخـذ منها عملاق الأدب : العقـاد .. مكتبا له فى النهار يقابل فيه من يود من أصدقاء فكر .

وكان كل الذى يهم العقاد .. غير حسن اختيار الممثلين والممثلات .. هو أن لا يكون أجره أقل مليما واحدا عن ما يأخذه : طه حسين .. فى مثل « دعاء الكروان » .

وهى حكاية يطول شرحها وليس لها مكان على صفحات هذا الكتاب وربما رجعت لها يوما ما فيما قد اكتبه مع مستقبل الأيام .

والعقاد كان كريما . لا تهمه المادة . ولكن « الكرامة » عنده هى قاعدته الاولى فى التعـامل .



مونتسارت: كان يرتدي جواربه في يديه فقراً !

□■□ .. ويمر زمن .

مصر تعقد معاهدة ٣٦ بينها وبين الانجليز .

هى اقرب الى المهادنة منها الى المعاهدة .

النحاس : يوقعها فى مونترو .. تلك القرية الخاشعة مع الجمال القابعة عند سفح الجبل الشاهق امام بحيرة فى ريف سويسرا .

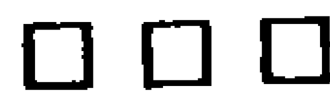
بعض صحافتنا تصفها بأن مصر وهى تقبلها انما ترفضها . فما زال للانجليز بقية من معسكرات فى منطقة القنال . مهما كانت الحجج والأسباب.

هتلر فى المانيا يقيم الدنيا .. بدورة الأولمبياد الرياضية التى يقيمها فى برلين . انها فرصة العمر عنده .. كان يهيىء ذاته لسيادة أفسح أملا وارضا وشعوبا على خريطة أوروبا وشمال أفريقيا وفوق سهل الاتحاد السوفيتى .

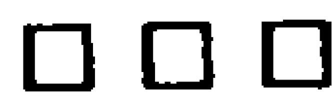
فرانكو .. فى أسبانيا يصطدم مع بقية اسبانيا .. الحرب الاهلية الطاحنة تقوم : ارنست هيمنجواى و سارتر و ايليا اهرنبورج وبيكاسو .. وبعض ادباء اوروبا .. يحسون بالطغيان قادما . ينضمون الى الاحرار . ليس مهما أن يكون واحد منهم له صلة بأسبانيا — فيما عدا بيكاسو الأسبانى الأصل — ولكن المهم — هو الحرية . حرية شعب . وهى الحرب

التى مهدت له ان يرسم اشهر لوحات عمـــره وهى الـــ [**جرونيــكا**] .. بعدها بعام . فكانت مع سوادها وبياضها ، من لونيها الاثنين فقط . صرخة داوية لعلها تصحى الضمير العالمي . وهى ذات السنة التى أصدر فيها توفيق الحكيم « يوميات نائب فى الأرياف » . وكتب بعدها : « عصفور من الشرق » ولكن قبلها بعام أى فى صيف ١٩٣٦ ترجمت له باريس مسرحيــة « شهر زاد » الى الفرنسية . وكتب الحكيم وقـــدم للحرف العربى المطبوع كتابين اولهما كتابه [محمد] وثانيهما اشترك فيه مع طه حسين وكان عنــوانه : [القصر المســحور] وله قصـــة سأفردها فى بداية فصول ستلى هذا الفصل الذى سأتقدم فيه الى كتابه الآخر [راقصة المعبد] الذى جعله يحوى قصتين .. حكاية « العوالم » يسرد فيها حكاية « الأسطى حميـــدة اول من علمنى كلمة : الفن » .. ورابع قصة اهتز له قلبه حبا وهيـــاما . وهى حكايته مع الراقصة الأوروبية الايطالية « ناتالى » .. والتى احتواها فى عنوان افرده للقصتين وهو [راقصة المعبد] ... وكان اهداؤه فى كتابه .. قد ذكره وخطه تحت هذا العنوان عندما كتب : ذكرى : سالزبورج. صيف ١٩٣٦ . وان كان قد اصدر ونشر هذا الكتاب بعدها بثلاث سنوات قبيل قيام الحرب العالمية الثانية مباشرة .. وكل الناس الغرباء عن اوروبا. كل يحاول ان يتعجل العودة الى بلده .

وفى [راقصة المعبد] .. يحكى الحكيم ايضا قصة خفقة قلبه بالحب .. داخل قطار !



فبعد أن ذهب اليها من اجل اجمل ما فى الدنيا عنده : حسا واحساسا ، وهو النغم . حيث حضر مهرجانها الموسيقى الذى تعودت سالزبورج أن تقيمه كل صيف . وشاهد خلال اقامته فيها معالمها .. فانه فى طـــريق العودة الآن راجعا الى باريس ... ليقـــابل تلك الأسرة الفرنسية التى عرفها هناك أيام ان زارها أول مرة فأقام عندهم فترة .. الا وهم : مسيو أندريه وزوجته مدام جرمين وابنهما جانو .. وقد جاء ذكرهم فى كتابه : « عصفور من الشرق » .. ولكنه فى رحلته الجديدة لهم .. انما ستتجدد عنده ذكرياته معهم .. وسنجده يبدأ نسيج كتابه « زهرة العمر » .. من رسائل كان قد خطها اليهم طوال ١٠ سنوات . بدأ يجمعها ويترجمهـــــا من ١٩٣٦ .. من زيارته الثـــانية لهم وان كان قد اصـــدرها كتابا بعـــد ٧ ســـنوات .



على رصيف محطة سالزبورج : يقف الحكيم . قبعته الســـوداء فوق رأسه وسترته السوداء تلتف وتستر جســـده .. معطفه الأســـود مطوى على ذراعه . بينما يتكأ بيمناه على عصاه .. فالجـــو مازال حـــارا رغم اننا على نهاية صيف الآن . وحقيبة ملابس واحدة صغيرة نسبيا تركن الى ظل توفيق الحكيم . ثم زحام لطيف على ذات الرصيف . اغلب الوجوه تتصل بالفن خاصة بالموسيقى . اغلبهم واغلبهن .. كانوا يشتركون مثل الحكيم فى مهرجان « سالزبورج » بلد الموسيقار موتسارت .. وتقيمه كل صيف فى مبنى « الموزارتيوم » أو « الموتسارتيوم » نسبة الى الموسيقار العبقرى

الكبير فنا والصغير الشاب عمرا فانه لم يخط على دنيانا أكثر من ٣٥ سنة . اذ اختطفه الموت وهو فى عمر عرسان الزهور والورود . ومع ذلك فهو لم يزل حيا على ارضنا حتى الآن . رغم أن ١٩٧ سنة قد مرت على وفاته . فما زالت ذكراه عاطرة النغم حلوة الالحان . واذا كانت الحيرة قد وضحت فى نقل اسم مبنى « الموتسارتيوم » ، ذلك أن المعربين لاسم هذا الموهوب انما اختلفوا . فمنهم وهو القديم نسبيا يكتبون اسمه : **« موزار »** بينما أحب ان انطقه كما ينطق اسمه أهل بلده عندما أناديه بـ **« موتسارت »** .

على كل حال .. فان الـ « موتسارتيوم » : مبنى ساهمت فى اقامته هناك عديد من الدول والأمم عرفانا بقدر الموسيقار موتسارت . وجعلت جانبا منه متحفا لأعماله ومعهدا للكونسيرفتوار ودراسة اعماله الموسيقية ومن بينها أشهر أوبراته « زواج فيجارو » التى لم تنجح الا بعد ١٠٠ سنة من وفاته .. ذلك أنه عندما بدأ اسمه يسطع ويسطع عاليا منذ نعومة أظفار أنامله وهى تعزف وتؤلف .. حتى اغتاظ منه العازفون — وكان اغلبهم ايطاليين — ذات ليلة . فاتفقوا على اسقاطها ليلة الافتتاح . كل يعزف النغمة الشاردة الفارقة التى يريدها .. لا التى أرادها : موتسارت . فكان الفشل ليلتها ..

اذ كيف يجرؤ هذا النمساوى .. على اغتصاب سيادة النغم الأوبرالى من جيل من الايطاليين .. رغم انهم احبوه جدا لقيمة موهبته النادرة ، لدرجة انهم اطلقوا عليه هناك لما ذهب الى روما : آماديوس (المحبوب) . واصبح اسم موتسارت الثلاثى لدى الجمهور : فولفجانج آميدوس موتسارت .

كل الواقفين على الرصيف . يتحدثون فى همس . لا زعيق ولا هيصة ولا « قنفف » ولا اسبتة ولا أقفاص جريد : يطل منها رؤوس بط أو وز « يكاكى » .. ولا تزاحم وتراشق وشتائم وبصقات هنا أو هناك واعقاب سجائر وبقايا « قوالح » كيزان الذرة .. أو تلاحم وتكاتف .. واوعى وسع يا جدع .. حضرة العمدة جاى .. قوم . قوم .. فز أمال .. وانت يا بت يا كيداهم .. الله متختشى على دمك وتلمى نفسك أمال .. وسع لحضرة العمدة .. منك انت وهوه .. اتفضل يا سعادة العمدة .. الدنيا نورت . هلت الأنوار .

ان توفيق الحكيم : الواقف على ذات رصيف المحطة .. ينتظر قطار [السهم الذهبى] يتذكر ويقارن .. بين هذه الورود المدلاة فى رشاقة من سقف خفيف يقى الناس من لفحة هواء أو رذاذ مطر . ويلقى ظلا .. اذا ما خرجت الشمس عن بيت الطاعة .. طاعة الغيوم والسحب التى تتلبد بها سماء أوروبا خاصة وسطها طوال ايام وليالى شهور السنة . ومع ذلك فالدنيا الآن حر . حر .

أخذ يقارن بين التقدم والتخلف . ويسأل نفسه كيف أن بلادنا أهدت الحضارة الى ما جاء بعدها من بشر وأمم ؟ كيف لا نسترد بعض بضاعتنا . وننادى . وتكون عندنا الجراة فى أن نقيم مجتمعا صحيا جديدا يتصل بالذوق والجمال ورفعة الذوق .

ماذا خسروا هؤلاء . عندما أخذوا يتكلمون فى همس . ويتعاملون فى لطف وكياسة وادب . على الأقل احتفظوا بأعصابهم .

ثم لماذا هذا التضارب .. غير موجود هنا ؟لانهم عرفوا النظام.. عرفوه صغارا .. فشبوا عليه .

ثم لـــماذا كل هذه النظافة والجمال المزدهر بالزهور والورود . لانهم حريصون على التمتع بحياتهم وسمعة بلادهم . ان المدينة هى بيت كل مواطن هنا . فلماذا يهملها ؟ ان عنصر المبالاة موجود عند أهل سالزبورج وعند زوارها . وكلهم قد جاءوا من اجل الرفيع من الثقافة . وهل هنـــاك اجمل من الطبيعة التى خلقها الله .. وهى تحتوى النغم . ارقى النغمات والألحـــان .

الحـــكيم مازال ساهما .. وكأن خاطرا قد الح على ذاكرته بأن تنفتح على مشهد القطار الذى راى فيه الأســـطى حميدة والبنات : « فاطنة » الرقاصة و « سلم » الرقاقة و « نجية » الطبالة ..

والذى كان يرى ملامح الحكيم لحظتها .. مبتسما .. قطعا كان سيتصور ان به مسا . كيف يضحك بلا سبب . آه لو سمعوا معه تلك الجمل التى اخذت تتكرر امامه — قادمة من بعيد — هنا على رصيف محطة سالزبورج واصوات الماضى قادمة اليه وهو يكاد يسمعها على بعد المســـافة وعمق الزمان الذى طال أكثر من ٢٥ سنة .. الحاج محمد المطيب الذى جاء مودعا الأسطى حميدة وبنات فرقتها الثلاث :

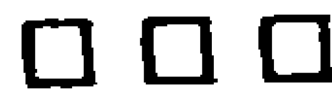
... — براوة عليك يا اسطى حميدة .. أهو بلا قافية ان ما كنش حد فى انتظاركم ، اديك معاك العنوان .

حميدة — بنت يا فاطنة .. الورقة اللى اديتها لك فين ، واحنـــا فى الحنطور .

فاطنة — ما هى ملفوف فيها الصاجات .

... — صاجات يا بت ؟ الورقة اللى فيها العنوان .. الهى يسخطك .

المطيب — بقا بلا قافية مش عارفين تستحرصوا على حتة ورقة ..



عبق رائحة حلوة .. تهفو الى انف الحكيم .. رغم انفه . غادة هيفاء تخطو فى هدوء أمامه .. وقد ادلت ذراعها ليتشابك فى رفق الحب مع ذراع صديق لها . نظرات الغرام تكاد تنطق بمشاعرها دون أن تهمس .. انها تخطو على سحاب .. او هكذا تبدو وليس على رصيف محطة .. اين الشيال العجوز ورقعة النحاس اللامعة تلتف حول ذراعه ، وكتفـــه يلفح شنطة ســـعادة البك التخين السمين ابو كتينة ذهب على كرشه المدور المنفوخ .. ويكاد ثقل يد المنشة التى يهفهف بها .. يزعجه !

اكل هذا .. جهل .. ام فقر .. أو مرض .. أم جدعنة استطاب لهـــا أولاد البلد فى جو من الرضا والقناعة وبوهيمية الفن .

ثم ذلك الابن ذوات .. وبالقطع هو ليس بذوات الأربع يتحـــرك على اثنين ، ولكنه أصبح متبلدا وكأنه يخطو على أربع . انه يعيش بعقليـــة

السيد والعبد . عقلية راحت . غابت عن الوجود الأوروبى . الكل يعمل ويكدح . والكل يتطلع الى فرصة احسن ولكن بشرط أن يتحرك على جسر العمل والجهد . يعمل ويجد ويدرس ويتمتع بالدنيا دون أن يزعج الآخرين. ثم لا تواكل هناك . ابحث تجد .

وما اكثر الرؤى التى كانت تروح وتجىء الى الحكيم واقفا فى انتظار القطار على رصيف سالزبورج : أشهر مدن النمسا بعد عاصمتها فيينا .

وما أكثر ما يتذكره الانسان فى ومضة الزمان التى لا تكاد تحسبها رفة عين .

ان الحكيم يفكر فى حاله ومآله ومستقبله وماله .

.. ماله ؟ . نعم . انه يحمد الله على أن أعطـاه الصبر والخيـال والاتزان .. والاقتصاد .

ان تاريخ من سبقوه من خالدين اصـحاب مواهب .. ذاقوا الأمرين لو كانوا على موعد من الاسراف .

.. طالما ان المكان يوحى الآن بواحد منهم : موتسارت . على سبيل المثال . ما أكثر ما رآه موتسارت من أجواء النجاح والفخفخة والحرمان ..

ان موتسارت .. سار وخطا على السجاد والرخام وجلس على الحرائر والأرائك المذهبة الموشاة بـ « البتى بوانت » .. دخل القصور ورأى لمعة ذاته تعكسها المرايا والبلور ولمعة الباركيه والموزاييك .. ولكنه مشى وقبع أيضا على طريق العذاب . تحت سقف الجوع والحرمان .

لا أحد يصدق بسهولة .. أن موتسارت : « الطفل المعجزة » . وهكذا أطلقوا عليه هذا اللقب عندما رآه أهل سالزبورج مع الست سنوات الأخيرة للقرن الثامن عشر [أيام كان نابليون يحلم مع طموحه بغزو العالم بادئا بمصر التى اتجه اليها ثم خطا عليها قبيل نهاية ذلك القرن بأقل من عامين].

اسماه أهل النمسا من بعدهم بالطفل المعجزة .. عندما سمعوا به .. ان هناك طفلا اسمه موتسارت ابن عازف كمان .. يستطيع ان يعزف على البيانو وله من العمر ٣ سنوات فقط .

فى الرابعة عزف على الكلافيكورد .

ثم الف اول قطعة موسيقية ولم يبلغ من العمر ٥ سنوات .

فى السادسة انتقل به والده واخته ماريا [١١ سنة] الى ميونيخ .. ثم الى جولة فى عواصم أوروبا العاشقة المتلهفة للنغم .

فى السابعة يقود الفرقة .

البعض يتصور أن والده انما هو العازف .

البعض يتخيل ان والده يستعين بالعفاريت والجن والشياطين.. لتجعل ابنه يلعب فى اتقان رائع ويعزف هـكذا . استكثروا عليه هـذا النبوغ والعبقـرية .

طلبوا ان يجعلوا من انفسهم حكما قبل أن يعطوه صك النبوغ .

حبسوه وحيدا فى حجرة محكمة الأبواب . وضعوا الى جانبه قليلا من طعام وماء . واحكموا غلقها بالضبة والمفتاح .

النتيجة .. كانت قطعة جديدة الفها الطفل : موتسارت .

الامبراطور .. امبراطور النمسا غرانسيس الأول .. يطلب الاستماع الى الطفل المعجزة . آتوا به . صفق له . فصفقت الحاشية فى النمسا .. ومشى مع كل الثقة غير وجل ولا خائف . انه يملك الثقة فى النفس مع الاعتزاز بفنه المبكر .

الامبراطور : مبهور . يدعوه ويدعوه . ويدعو أمير بافاريا للاستماع اليه من جديد .

تبدأ رحلة الفن مع خفقات الحب .. الذى غزا قلبه الصغير .

انه الآن على بداية مراهقة .. يعجب بلويزا .. وكانت ابنة ممثل فقير . تقبل عليه أول الأمر .. ثم تبعد عنه .

يبدو ان لها تجربة فى الغرام .. موهبة مبكرة ايضا .

والد موتسارت .. يحاول ان يبعد ابنه . ان مقدرته حتى الآن ، فى اعجوبة كونه : انه مازال ولدا صغيرا . طفلا . فلو أضاع فكرة الصغر.. ضاع الانفراد ودخل الفقر من البـاب والنافذة .. بل كل نوافذ الدار. فلماذا .. يذبح الأوزة التى تبيض له بيضة ذهبية كل صباح ! .

ان هذا يذكرنى بوالد فنانة .. كانت موهبة صغيرة لامعة .. فكان — كما يقال خطأ ام صواب — يسقيها بالخل احيانا .. حتى يبقى شـكلها صـغيرا .

رفض موتسارت الكبير غرام العيال . واتجه مع ابنـه الى باريس . ليعزف وسط التصفيق والاعجاب واثارة الابهار . ليس معقولا ان يعـزف كل هذا العزف المتقن والتاليف الساحر ممن يجتاز هذا العمر الفتى !

وبدأ مع ابنه .. رحلة تثبيت قواعد نجاحه حتى يكون عملاقا .. فيثير حبيبة القلب اكثر .

ويعود الى النمسا .. الى سالزبورج . ويفاجأ بالبرود كله .

حبيبته لويزا : تكاد تصده .

يعزف لها مقطوعة الفها خصيصا لها : وهى غنائية (ايدومينيو) ولكن قلبها غطاه صدأ الهجران .

ماذا يفعل موتسارت ؟ . وقد بلغ به الهوى وتباريح الغرام .

فلتكن هناك وسيلة ليراها ..

فليجد سببا ليدخل دارها . بيت الهنا الذى كان يحلم به ويمنى نفسه بالسعادة تحت سقفه . اذن فليتزوج اختها التى تصغرها: «كونستانس».

ولكنه كمن ترك النار ليستعين بالرمضاء .

ان كونستانس مسرفة جدا . اربكت ميزانيته الصغيرة . انها تطالبه . تنفق بلا حساب .

انه يحاول أن ينسى ديونه .. أن يستغرق فى احلامه الموسيقية. يؤلف [دون جيوفانى] و [الاختطاف] .. أو الهروب من حواء .. ثم [النـاى السحرى] !

ان الحب يطرق بابه . وللسخرية يبدأ أن يحب زوجته كونستانس بعد زواجه منها . يحاول أن يدللها اكثر واكثر . يعرف قيمتها بعد أن عصفت لويزا : اختها الكبيرة بقلبه الولهان . ولكن موتسارت لا يجد ما يسد رمقها! انهما يعيشان مع العوز دائما .

لا يجد موتسارت أحيانا ثمن الحطب والخشب الذى يمكنه ان يشتريه ليشعله فى مدفأة . لتدفىء حجرته المتواضعة جدا . ومع ذلك تأبى عليه نفسه واعتزازه .. أن يمد يده للامبراطور . امبراطور النمسا الذى تكاتف مع أمير بافاريا .. ان يقدم يديه فقط لجواريه الصوفية القديمة التى هلهلتها الثقوب .. ليرتديها ويحمى بها اصابعه من صقيع البرد .. وهو يعزف بها على البيانو .. مؤلفا جديدا .

ان الحكيم يتتبع صور حياة موتسارت .. منذ طفولته الناعمة .. حتى قبيل وفاته .. وهو يؤلف قيثارته السحرية .. عندما يحكى الزمان ويقول ان رجلا غريبا طرق بابه . يطلب منه قداسا موسيقيا .. فيؤلفه .. وهو ادرى الناس انما هو يؤلف قداس نهايته التى تقترب منـه . وقد كان . ولا احد يعرف من كان هذا الغريب الذى قدم طارقا على الباب . هل هو القـدر ؟ .

لأنه لم يعاود الحضور .

الذى حضر فقط كان .. الموت .

الذى اختطفه ليزوجه سعادة السماء .. ليزوجه الخلود .

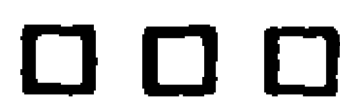
بعد ان مشى على طريق العذاب . والجوع . والحرمان .

جنازته ايضا كانت فقيرة . لم تتكلف الا جنيها واحدا بفلوس زمان . هى ثمن نعشه . صندوقه . ولم يمش وراءه الا ستة فقط من البشر . بينهم الحـانوتى .

ويهطل مطر غزير .

يهرب خمسة من الجنازة ولا يبقى الا الحانوتى . من اجل لقمة العيش. الذى يدفنه .. مع الفقراء .. ثم لا احد يهتم ان يسأله فيما بعـد أين جثمانه .. فلا يعرف أحد حتى الآن اين مرقده الأبدى .

لقد ضاع جسدا وبقى فنا .



بيتهوفن : سـيد النغم مثلا .. عندما جاءته غفوة الموت . فى شهر مارس ١٨٢٧ .. كلل الشتاء بالثلوج البيضـاء كفنا للطبيعة . وعزفت السماء : رعدت واضاءت . ابرقت . تعلن النبأ على الدنيا .. بأن موسيقارها

راحل عنهـا صاعدا الى السماء . مشى جيش المانيا فى جنازته متقدما ٢٠ الف حزين ومعترف بجميل انسان أعطى الدنيا .. فأعطته العلة حد [الصمم] والمرض حد (الاستسقاء) وأحزان الحب .. خرجوا وراءه ليودعوه بالعرفان . وأقامت له المانيا التماثيل خاصة فى « بون » مسقط رأسه ومكان ميلاده من ٢١٨ سنة .

ولا أروح بعيدا .. وانما الى فرنسا : واديبها الشاعر الكبير فيكتور هوجو [٨٣ سنة] الذى اشتهر برائعته : « البؤساء » .. حيث حياه فى عيد ميلاده الثمانين : ٦٠٠ الف من مواطنيه ، تحت شرفة داره فى باريس بعد أن عمل فى السياسة ونفاه نابليون الثالث ١٨ سنة فى جزيرة (جيرنسى) وسط أمواج بحر المانش بعدما استوى زعيما للثورة الرومانسية فى الشعر والمسرحية والرواية .

وما اكثر ما كان يقال ويحكى عن علاقة نابليون الثالث وفيكتور هوجو.. او علاقة القط والفار . عندما أمر نابليون سائق عربته المطهمة .. بأن يتمهل قليلا حتى يرد تحية الجماهير المتجمعة . ذات نهار وهو يشق طريق الشانزليزيه .

وكانت عربة الامبراطور أن تتمهل . أن تقف . لكن سرعان ما اكتشف الامبراطور ان احدا لا يحييه . لا يرد تحيته ولا يعبره . ماذا جرى ؟ انه يعلم ان الفضول جمع هذا الزحام من أجل غيره . من اجل واحد من المارة. كان بالصدفة يتمشى لحظتها . وكان هذا الواحد هو فيكتور هوجو . ومن ثم بدأت فى ان تهتف للشاعر الروائى السياسى .. للذى الف « البؤساء ».

لحظتها أمر الامبراطور فى ثورة الغضب .. بأن يحرروا محضرا لـكل هذه المظاهرة . وكانت التهمة أسخف : تهمة الاخلال بالنظام . والتجمهر بلا سبب !

وهذا الخطاب .. ما زالت تحتفظ به فرنسا الدولة كذكرى .. ضمته الى مخلفات فيكتور هوجو !

وما زال جسده مدفونا فى (البانتيون) مدفن عظماء فرنسا فى باريس بعد ان ابقته ليلة معروضا وسط الشموع تحت قوس النصر ، وأعـلام فرنسا تطل عليه وترفرف وكأنها تودعه شاكرة له ادبه الذى اعطاه .

ومن عجب ان فيكتور هوجو . كان قد أصر فى وصيته ، بأن يختاروا له صندوقا بسيطا من نعوش الفقراء . وقد كان له ما أراد . وشيعه أكثر من نصف مليون نسمة من أهل باريس وزوارها .

ثم هل ننسى احترام مصر .. للعقـاد : اديبا وكيف ودعه ادباؤنا فى مشواره الاخير .. فساروا كلهم من وراء نعشه ، قبيل ان يسافروا به ليرقد رقدته قبل الاخيرة فى مدفن مؤقت فى أسوان على أمـل أن يدفن فى

مكان لائق به عند مدخل فندق كتراكت بالقرب من بيته الذى ولد فى ظلاله . ولم تتم رغبته حتى الآن . رغم حسن النوايا .

فكل محافظ يجىء اسوان .. يبدأ حماسه ثم يفتر .
حتى جاء محافظها قدرى عثمان بدر وكلف الفنان الكبير فاروق ابراهيم محمد : عميد كلية الفنون الجميلة بالقاهرة فصمم له فى شتاء ١٩٨٧ تمثالا ضخما لرأسه [٧٠ر٢ متر] واقامه فى حديقة ضريحه الذى اقيم فعلا عند مدخل فنادق اسوان الكبرى ، ازاح الستار عنه فى عيد ذكراه الـ ٢٣ فى مارس ١٩٨٧ بعد أن اختار له المهندس الفنان النوبى حسن فخر الدين : رئيس قصورها الثقافية كتلة ضخمة جرانيتية ليقام فوقها . وذلك غير تمثال ضخم للعقاد العملاق يقام فى حديقة المحافظة بارتفاع ٦ امتار عن قاعدته : صممه ذات المثال .. الذى نحت تمثالا للشاعر حافظ ابراهيم فى حديقة الحرية بجزيرة القاهرة وتمثالين لطلعت حرب فى اسيوط والمبنى الرئيسى لبنك مصر .

فالرجل الأديب .. يستحق .. ويستحق اقليمه اسـوان أن يفخر به وبأنه قد أنجب أديبا عملاقا .

الخروج من الجنة

□■□ .. الحكيم يفيق من سرحته التى طالت وجمعت الشرق والغرب فى لحظات من الأسطى حميدة الاسكندرانية ..الى موتسارت وحبه وزواجه واسرافه وعوزته .. وعدم تقـديره للأمور الاقتصادية المـالية .. وأن الحرص أحسن حالا ومستقبلا ومالا ومآلا !

فالقرش مع القرش يساويان قرشين . والقروش تجمع جنيهـات .. للأمن والأمان .

يفيق على جرس محطة سالزبورج .

القطار يدخل كالسهم النظيف اللامع .. الى المحطة .

لا تزاحم ولا اندفاع . حتى يقف القطار تماما .

ثم تتقدم بنات حواء اولا .. قبل السادة الرجال . ذوق . اتيكيت .

توفيق الحكيم يتأخر . قليلا . يرفع قبعته السوداء .. لسيدة تجـاور وقفته . انه يدعوها لتتقدم وتصعد قبله . يحمل حقيبته فى هدوء . ويصعد . يبحث عن مكان الى جوار نافذة . يجلس بعد أن يضع حقيبته على الرف .

لا فضول مطلقا ..

الكل مشغول بنفسه الى حد ما . — دون أن يجرح شعور أو هدوء الاخرين — يرتب حاله . يخرج مجلة أو كتابا ليشغل فكره طوال الطريق.

جرس . ثم صفير .. يتحرك القطار .. فى اتجاه باريس .. ومروج خضراء تكاد تختلط بزرقة الأفق قبل مغيب .. وغابات الصنوبر تعلو الهضاب التى تحيط بمدينة سالزبورج .. التى تصغر مبانيها . تكاد تتلاشى . كلما بعد القطار عنها .

ان الحكيم يتصور أيامه ولياليه فيها .. وطائر النورس يتزايد عددا عند رجل عجوز تعود أن يرش له بعض فتات الطعام حيث يقف بالقرب من بداية جسر .. يتجه ويعلو بدوره نهر صغير .. يشق المدينة .. والواحد متجه الى بيت موتسارت المذهب .. أو الذهبى الواجهة .. ثم تلك البحيرة الشهيرة : فولفجانج ، التى اشتهرت ببحيرة (الحصان الأبيض) وهو اسم الفندق العريق الذى يطل عليها فى الجانب الآخر ..

كل هذا الجمال شاهده موتسارت .. فى بعض أيامه .. فأستوحى من الطبيعة بعض معانيها .. ان كنيسة : سان بيتر ، فى سالزبورج مازالت تعزف ألحانه الدينية . ويسأل الحكيم نفسه متسائلا : أترى عبقرية موتسارت هى التى خدمت الكنيسة .. أم أن الكنيسة هى التى أظهرت عبقرية موتسارت ؟ ان الحكيم يذكر الآن.كيف رأى اخراج رينهارت لقصتى **« بين رمان »** و **« فاوست »** بالقرب من هذه الكاتدرائية وعند حضن الجبل . ثم هل ينسى الأوبرا التى سمعها ورآها منذ قريب . وهى أوبرا : (أورفيوس وايروديس) للموسيقار كريستوفر جلوك [٧٣ سنة] والذى ولد بعده موتسارت ، الذى استمتع بتقديم هذه الأوبرا لأول مرة فى فيينا وله من العمر ١٦ سنة .

وأوبرا أو غنائية : أورفيوس .. لحنها : جلوك ، عن نص لرانيرى دى كالزابيجى . فى٣ فصول . فى حوار بالايطالية رغم أنها قدمت فى عاصمة النمسا . وهى أوبرا مستوحاه من اسطورة يونانية قديمة . شخصياتها الرئيسية : اربع .. هم حسب ظهورهم تحت أضواء المعرض : أورفيو .. أموور .. اله الحب .. طيف روح هائم .. ثم : ايروديس .

حيث يروى الفصل الأول .. كيف أن (أورفيو) : المطرب الشاب الحلو الصوت يكاد الأسى يدميه بعد أن فقد زوجته (ايروديس) : التى اختطفها الموت .. فترك له الدموع .. ولا يجد فى حلقه الا نداء واحدا .. ايروديس .. ايروديس . يناديها عند قبرها الذى تجمع عنده واليه عديد من شباب ينتحب وينشد مع الحزن ألحانه . وينثرون الزهور قبل انصرافهم ..
اورفيو : يتعلق بالأمل الكاذب .. أن يرى ولو طيفها مغنيا منشدا الى السماء لعل الآلهة ترضى عنه وتجيب .

لابد لأمنيتى أن تتحقق . انى أنادى الأرباب .. بأن يتيحوا لى أن أرى عروسى ايروديس ، من جديد .. ولن تحيل بيننا حتى ولا ابواب الجحيم .

وفجأة يظهر (أموور) : اله الحب .
يبدو أن نداء وتوسل أورفيو .. قد أثر فيه ..
انه قادم اليه ينصحه . يعطيه قيثارته الذهبية .

ناصحا له .. اهبط الى العالم السفلى . واعزف وغن لحكام اهل تحت. لعلهم يشفقون ويتأثرون بغنائك ويطربون . أؤكد لك أنهم سيعطفون .. وستعود : ايروديس معك . ولكن احذرك يا أورفيوس . اكلمك فى منتهى

الجد . أحذر من أن تتلفت الى الوراء لترى زوجتك . حتى تصـــعد الى ارض عالمنا . لحظتها افعل ما تراه وما تحس به ... لا قبلها . احذرك من جديد يا اورفيوس .

يحاول أورفيوس أن يتخلص من هذا الشرط الغريب . كيف لا يتلفت الى عروسه التى فقدها لتو اللحظة التى سيراها فيها والوحشة قـد قطعت به

وأخيرا يرى أن يضغط على نفســـه مؤكدا ارادته . حتى تلحق به فى دنياه . المهم من يضحك أخيرا ويسعد .

وتبرق السماء وترعد . ويمسك أورفيوس بقيثارته .. ويبدأ الغنــاء وهو يرحل الى عالم أهل تحت

. . . . . .

. . . . . .

يبدأ الفصل الثانى من مشهدين أولهما ، وهو أقل عرضا زمنيا من نصف طول الفصل الأول . اذ أنه يستغرق ١٤ دقيقة فقط ..

ان صوته الساحر يعلو عالم الظلمات .. والأرواح تتعجب لهذا القادم من عالم الأحياء . أنها ترفض بادىء الأمر طلبه ... ثم ترق قلوبهم مع الغفران الى حاله ..

أما المشهد الثانى .. وهو فى طوله الزمنى مثل الفصل الأول تماما أى ٣٠ دقيقة.. وأورفيوس: استطاع أن يجتاز اجواء العذاب .. الى أرض الجنة والنعيم حيث الأرواح المباركة تخطو على أرض السلام الأبيض فى طهر ونقاء .

ويتغنى أورفيوس: .. هل سأعثر على حبيبتى فى هذا الفردوس المقيم.

ترد عليه أصوات الأرواح الطيبة : ان ايروديس على بعد خطوات منك. تقدم اليها .

أورفيوس .. يحاول أن يتلفت ليراها .

هى قادمة اليه .

لكنهيحجمعن اظهار شعوره وعواطفه بعد أن نصحه اله الحب : آموور ماذا يفعل وقد تظن به حبيبته الظنون . ولكن لاحق لها فىأى شك . انه ترك الدنيا من أجلها وحضر اليها على جسد الأهوال لعله ينقذها ويعيدها ليرشف الحب ، الذى كان .

.. انه يسير . يخطو دون أن يتلفت الى الوراء .

وزوجته الحبيبة فى حيرة من أمرها وأمره .

لــماذا يتجاهلها كل هذا التجاهل ؟

ماذا فعلت حتى أغضبته . وهى لا تدرى بالطبع نصيحة اله الحب له . وكيف أسر له سره . الذى هو مفتاح الخلود . ويخرجان فى طريقهما الى الأرض .

هو أولا .. ثم هى تتبعه .

وكأنهما آدم قبل حواء .

ويبدأ الفصل الثالث والأخير عن مشهد من مشهدين .

أولهما يستغرق نحو ثلث الساعة .. منظره يمثل مروج الجنة . اضواء واجواء حلوة مريحة .

اورفيوس : مازال ممتنعا عن التطلع الى : ايروديس ، حتى لا يفقدها من جديد والى الأبد !

ايروديس : تعجب لتصرفه الذى يجافى الحب . هل كرهها .ان شعور المرأة مع القلق ينتابها .

انها تبدأ المشاجرة . تعنفه . توبخه . لكل هذا البرود الذى لم تنتظره لحظة .

لم يقو اورفيوس على تأنيب عروسه ايروديس .

انه يريد أن يعنفها . يقول لها شيئا . يحكى لها سره .

ولكنه يخاف ان يغضب الآلهة التى رثت لحاله ، بعد أن تشفع له : امورر اله الحب .. الذى ضحى وأعطاه قيثارته الذهبية ليعزف بها فيسحر الكون كله .

الا ان الهوى غلاب .

ويعصف به الشوق . يتوقفجأة . يحتضنها . يقبلها . وحقت اللعنة. تتحول ايروديس فى لمح البصر.. الي جثة باردة من جديد .. ماتت للمرة الثانية .. ولا أمل فى بعث أو عودة .

اورفيوس : يحاول الانتحار : حتى يلحق بها . يخرج خنجره وما أن يهم .. حتى تحدث المعجزة .

يظهر اله الحب : آموور .. يشق السحب ويهبط وسط أضواء تعكس قدسية الغرام .. يظهر مثل السوبرمان او « فرافيرو » المنقذ العجيب . يمسك بيد أورفيوس التى امسكت بالخنجر . يبعده عما اعتزم : قائلا منشدا له : لقد تأكدت الآلهة الآن فقط من قوة حبك ونقاوة ودك وعمق وفائك . ان الآلهة ستعيد اليك ايروديس متمتعة بالحياة لتشاركك الهناء على ارضك . ثم يمس اله الحب : ايروديس .. فتدب فيها الحياة . وتقف وتعانق عريسها الذى تحمل كل هذا العناء من اجلها . من أجل الحب .

اما المشهد الثانى والأخير فلا يستغرق الا ٥ دقائق فقط .

حيث يظهر كل من أورفيو وايروديس: وقد وهبا حياتهما للعشق ولعبادة اله الحب : آموور .. يقفان ويبتهلان فى صحة الجمع الراقص المغنى : يتراقصون حول معبده . وسط المروج الخضراء والسهول الممتدة بالخير كله .

الكل يتغنى بالحب . وحلاوة الحب .. الذى لا يناله الا الصابرون على اليأس مع قوة الارادة فى الدوس على الاشواك والصعاب .. فتتغلب الحياة حتى على الموت .

. . . . .

. . . . .

القطار .. مازال يسير . يتحرك فوق سهول ووديان . ان سرعته الآن تزيد . لكن سرعة سرد الفكر اسرع منه . ان الحكيم يتأمل هذه الاسطورة. الرقيقة النغم .. كأنه يحياها من جديد . وكأنه يمنى النفس ويسأل ..

هل عداوته للمراة جدية . ام هزار ؟ هل حبه لسنية بنت القـــاهرة . او لبائعة التذاكر سوزى او ساشا شوارتز الذى انتزعها بادىء الأمر من ذلك الفتى الأسبانى المفتون .. هل للسماء أن تهبه حـــواء يعشقها بل ويستلهمها وتكون له وحيا . أسيضيع كل حياته شـــارد الفكر هائما فى عوالم أخرى يستمع فيها هو وحده الى حوار .. صامت للآخرين .. مسموع له ويصفه على ورق . هل سيمضى أيام حياته قارئا لورق . وكاتبا لورق . ومبتدعا شخصيات من الوهم والخيال .. ليضـــعها على المسرح وتحت الأضواء .. تتحرك لتقول ما يريد . ترى اين تلك التى تحرك افكاره هو .

ونظرة شاردة منه الى الافق . من خلال نافذة القطار .

ان الطبيعة تكاد تفترش بألوان الورد . الشمس الى مغيب وغزلان .. تظهر بقرونها .. بعد أن استمعت الى ضجيج عجل القطار . جاءت من مثل فراغها وصمت مأواها .. ترى ما الذى يحدث ومن يمر . انها تعودت فى مثل هذا الوقت بالذات .. أن تتحرك لترى القطار لتشـــغل ذاتها . ثم ما أن يمر حتى تذهب الى جـــدول قريب لترتـــوى قبـــل ان تعـــود لتنام مع غيبة شمس النهار التى هى على وشك الغروب .

. . . . .

. . . . .

القطار .. يستمر . تزداد سرعته . انه يمرق احيانا داخل انفـــاق .. فتزداد الأضواء الـــكهربائية داخـــل القطـــار .. ضوءا . كلها اصبحت محصورة فى العربات . لا تبديد لها من النوافذ . ويتخيل الحكيم اشياء مضت . أو يحلم بأشياء سيجىء بها الزمان .. ويصحو مع حلمه الجديد . ان سكرتيره الفرنسى موريس : وقد جلس الى جواره يدق على آلته الكاتبة مترجما بعض اعمال أدبية لتوفيق الحكيم . ويخاف أن تنتهى الصفحات التى يترجمها . يخاف من معين البئر أن يجف . يخاطب توفيق الحكيم .. عليك أن تعشق . أن يهتز قلبك . اين حواء فى حياتك يا بروفسير . على الكاتب أن يطحن أعصابه مع الحب . أن يلتهب . ان يشتعل . فينير قلمه بأفكاره وخيالاته على الورق .

ان عداوتك للمراة .. تلك الفلسفة التى اشتهرت بها فى وطنك مصر : ستقطع عيشى . ستأخذ اللقمة من بين اسنانى وأسنان عائلتى . عليك يا أستاذ بالمراة . بالحب . حتى تحيـــا أنت انســـانا . واحيا انا ايضـــا مترجما .

الحكيم ـــ .. من فضلك . كفى . اريد أن اتمتع بمنـــاظر الطبيعـــة كفاك نقرا وضربا على الآلة . اجعلنا نستمتع بالرحلة يا موريس .

موريس ـــ آلة ايه وكاتبة ايه ؟ ..

اولا : الشمس انسحبت . فلا نرى شيئا .

ثانيا : يجب علينا فى الغرب ان ننتهى مما نحن ملتزمون به فى اقل وقت ممكن . انسيت ان الناشر ينتظرنا . ينتظر هذه الأوراق التى يجب على ان انتهى منها ! هل تتصور انى مجنون حتى ادق واعمل رحلة قطار . لولا ان الوقت ازف .

ثم هذا عملى يا اخى .

واذا كان ولابد فلك أن تخطو خارجا من هنا . لعلك تجد رزقا جديدا

لأفكارك . ان على الفنان أن يجرب ويعيش اللحظة .. وبعد ذلك ينصهر معها .. حتى يعطى فى يوم ما تجربته للناس .

لقد سمعت همسا هنا .. ان الراقصة العالمية ناتالى هنا . احدى راكبات هذا القطار . ثم أعتقد أن وقت تناول القهوة أو الشاى قد حان .. ألست جوعان أو عطشان لماذا أنت ثابت هنا يا عدو المرأة ؟

الحكيم — كفى . كفى . انك لتعكر على صفو ومتعة الركوب . ثم زاد علينا الصفير . صفيرك هذا .. هذا « المزمار » غير « المسحور » . ما حاجتنا اليه الساعة . كفى صفيرا بالله عليك يا مسيو موريس .

ويتابع الحكيم .. لم أنبس .. وملت بجسدى اتطلع الى النافذة . أحاول أن أهرب بالرؤى فى عتمة مساء يقدم . لكن صوت طنين وضجيج الآلة الكاتبة بدأ يزعجنى حقيقة . اخذت أخطو بعيدا

رقصة الجوع ، بدأت تتلوى فى بطن الحكيم . أخذ يخطو عددا من دهاليز عربات القطار .. فى اتجاه عربة الطعام . القطار مازال سريعا لا يلوى على شيء . انه يعرف بالضبط أهدافه . محطاته . بعض الركاب أتعبهم الجلوس . هم واقفون الآن فى الممرات . اغلبهم من النساء وقلة منهم سمينات ولكن يسدون عرض الممر أحيانا. كنت اخاف ان يختلتوازنى واقع على واحدة منهن . ويا فرحة موريس فى وحى جديد قد يملأ جيوبه مزيدا من الجنيهات !

ويا ويلى أنا من عدم التدقيق فى حسن الاختيار ومغبة التسرع .

وفجأة اقف .

لا لتحاشى وحيا ثقيلا .

ولكن رجلا سمينا قد اعترض طريقى . ان عرضه يسد عرض الممر فعلا . عملاقا أطول منى . زراير نحاس تتوسط فتحة سترته المكورة عند بطنه . سترته ليست بالجديدةوانما رثة . يبدو عليها انها مستعملة منذ ١٦سنة على الأقل . وأنها كانت لواحد غيره من رجال بافاريا .. ذلك الاقليم التيرولى الذى اشتهر بهذا الزى الرمادى ذى الياقة الخضراء الزيتية الداكنة .. ثم تلك القبعة الصغيرة التى تعلوها ريشة طير صغيرة حمراء اللون ! ربما ريشة من ذيل طائر الفيزان ، الذى كانوا يقدمونه أيام زمان كزخرفة ملونة فوق أطباق الخزف الصينى .. الى الملوك والأمراء ومن يدعونهم فى مآدبهم .

يبدو ان الرجل السمين الأبيض الشعر .. لا يريد ان يتزحزح .. يريد أن يتحدث . يقطع ملل الوحدة فى الرحلة . لقد وجد على ما يبدو شيئا فى هذا الغريب الحكيم .. يشده . يثيره . يجعله يفتعل حديثا وحوارا معه.
الحكيم لا يعبأ به . فأخذ السمين يتحرك . يعطى له الطريق ولكن قبلها أخذ يخطو قبله . يفتح له باب العربة التى أراد ان يدلف منها الى عربة الطعام التى ستليها . هكذا عرفتها حاسة الشم عنده .

وما اذكى المعدة فهى التى تجعل الانسان حليما أو ثائرا .. جائعا اكولا أم متعففا أنوفا .

الانسان السمين: يرمق الحكيم الذى لا يعرفه .. بنظرةكلها استغراب.
لمـــاذا لا يريد أن يتحدث اليه .

ويبدو أن الحكيم دائما على موعد مع شخصية رجل سمين .

اما يتمخطر متهفهفا على رصيف محطة مصر . والكتينة الذهب متدلية فى استدارة وكأنها تحضن بطنه المنفوخ من الهطول والوقوع اكثر . فاكر حكاية الأسطى حميدة ...

الزمن تغير . المكان أيضا تغير . لكن السمنة بين البشر كائنة لا تتغير.
الىجانب الاشكالالأخرى المتعددة من الطويل والقصير والنحيف والعريض .. وهناك من الناس من يتصف بخفة الدم أو العقل أو بثقل الدم أو تخن المخ . وهذا ايضا لا يتغير . فطبيعة الناس مثل طبيعة الأرض . معادن واشكال . مثل السحب .. تروح وتجيء .. الحكيم يشق طريقه فى ممر عربة الطعام .

ان عينيه تتلمظان .. فطائر ساخنة شهية . دخان هادىء يتصاعد منها وبجواره عسل وزبد و ..

ما كاد يقبل على مقعد .. حتى رأى ٤ عيون وكأنها عيون جنيتين ..
عينا الأولى بلون الذهب عند الفجر.. مشعة بالجمال . بالدفء . وعينا الجنية أو الحسناء الثانية فى لون زرقة البحيرة الصـــافية . فيهما عمق وسحر دفين .

انه حائر الآن بين مقعده الذى اختارته عيناه .. بجوار العيون الملونة المنادية وبين أول مقعد .

يفضل المشوار الى جوار الحسن والسحر والجمال .

يجلس على الجانب الآخر من الممر . ولكنه يكاد يسمع كل كلمة . انها النغم . الحلو .. تعزفه شفتاهما .

عقل الحكيم .. يعمل بسرعة مليون خيال فى الثانية . انه يتخيل كثيرا . ولكنه لا يحلم الآن . فليكن واقعيا . انه يبحث عن وسيلة .. ينفذ منها الى الحديث والكلام والحوار .

ان التفاتة جاءت عفوا منه اليها . بسمة عابرة من الثلاثة أطراف المعنية . عندما تلاقت العيون الست .

ولكن مال هذا السمين الذى يحضر الآن ويسد بظهره، بواجهته الخلفية العريضة كل هذا الجمال .

ان الرجل السمين يجلس امامهما. ويبدو انه صديق لهما.. لأن سرعان ما بدأ الحديث ويبدو انه كان متصلا من قبل .

الحكيم فى حيرة من أمره . ان الندم يسعى اليه . يا ليته كان قد رد على هذا السمين عندما جاءه متعرفا مقبلا عليه . يا ليته .

الرجل السمين يجدها فرصة يصفى فيها حسابه لهذا الشرقى المتعجرف الذى لم يرض بأن يحاوره الحديث . انه ينظر له من فوق الى تحت . وكأنه لم يقابله . لم يره من قبل . لقد جاءت لحظة الشماتة .

عقل الحكيم يعيد حسابياته بسرعة المليون خيـــال .. يقلب كومبيوتر الذهن ، لعله يجد حلا .

انه قد نسي رقصة الجوع التى تجول وتصول فى بطنه . لم يمسس ولو فطيرة واحدة مع أن شهيته أصبحت مفتوحة للحياة . انه يرى حواءتين مرة واحدة وجمالهما المثير يكاد يجعله هو ذاته — وعلى البعـد — بين قوسين من الفتنة .

لم يرشف الحكيم شيئا من فنجانه .

يبدو ان روحه الهائمة لا تود طعاما وشرابا وانمـا فتة ولو من فتـات مائدة الجمال التى تجاوره .

يبدو أن السمين أحس من وراء زجاج نظارته .. ما يدور وراء ملامح الحكيم أن له نظرة ثاقبة .. ترى وتحس بغير المنظـور . ويبـدو انه لحظ الآن .. انه سكون مصطنع .. فماذا لو كان لطيفا كعادته ليعاود الحـوار معه : .. يبدو انك من الشرق الأوسط . تركى . لا .. أعتقد انك من ارض النيل : مصرى . اليس كذلك ؟

الحكيم — .. انا سعيد بذكاء لماحيتك :

السمين — هل لى ان أعرف نفسى اليك .. آه .. ان اقدم لك اولا الحسناوتين . فلنتبادل البطاقتين .

يبتسم الجميع . ولمـاذا جئت ؟ مهرجان سالزبورج . وأنت يا سيدى ؟ كنت اصطاد فى غابات اينسبروج .

يتطلع الحكيم الى الحسناء فى الركن ذات العيون الكهرمانية التى اختلط فيها دفء الحب .

اشعاعة الكريستال . لا بل الماس وحلاوة العسل .

... — وسيدتى هل حضرت المهرجان ؟

حواء — اكثر من رائع . بديع .

... وأى ابداع .. لقد أمرضنى المطبخ النمساوى .. ورمى معـدتى بالداء .. فشفانى النغم النمساوى ووجدت فيه الدواء .

هنا تدخل السمين وكأنه يقرب .. خدمته الى الحكيم : ما تتفضل هنا الى جوارى حتى نتمتع بما شاهدت واستمعت واستمتعت هناك .

الحكيم يقوم بسرعة . يجلس بسرعة . يقـرب بسرعة : شـاهدت واستمعت .. لكنى أستمتع هنا فى هذا القطار اكثر .. ومع ذلك فأنا لا أنسى منظر الواجهة المذهبة للموتسارتيوم .. ولا بحـيرة الحصان الأبيض .. ولا النورس الذى يطل مرفرفا من فوق النهر الصغير الذى كان يتمشى عنده موتسارت .. ولا مشاهدتى لأوبرا الموسيقار جلوك الرائعـــة : (أورفيوس وايروديس) .

حواء : نعم لقد حولتها عصا المايسترو الموسيقار « برنو فالتر » الى متعة حقيقية جعلها اشبه بأجواء حالمة راقصة .

الحكيم — فعلا .. انى كنت اتخيل ايزدورا دونكان .. وكأنها هى التى ترقصها . على كل حال .. لقد كان رايها دائما .. ان هذه الأوبرا كانت للباليه افضـل .

... — يبدو لى يا سيدى المصرى . انك مثقف .

الحكيم مقاطعا — هل لك أن تسديني خدمة — دون أن اقطع حلو كلامك .. هي أن تناديني باسمي .. مباشرة بلا مسيو .. ولا حكيم .. وانما توفيق .

حواء .. وكأنها لم تسمعه .. ولكن ذكاءها جعلها تختصر اللقب والاسم معا وتكمل كلامها مع ابتسامتها وكأنها تناديه أكثر .. واكثر اليها : هل قابلتها ..

الحكيم — رأيتها مرة واحدة .. ولكنها مرة بألف مليون مرة .. منذ عشر سنوات . ومن حسن حظى أو سوئه .. أنها فقدت حياتها فى يومها التالى .. عند شاطىء : نيس بعد أن تواطأت نسمة الشاطىء على جمال عنقها .. فأطار « الايشارب » الذى احاط به .. الى عجلة من عجلات سيارتها « الأسبور » الواطية .. فشبكت فيها . فكان اختناقها وحتفها المروع !

انها مأساة .. أن نرى من نعجب بهن .. ثم يكون سلام التلاقى تحية الوداع !

حواء ذات العيون الذهبية تفهم قصده .. وتحاول أن تغير الموضوع قليلا : تعرف دى أول مرة أتكلم فيها مع واحد من أحفاد أحفاد « شهريار » و « شهر زاد » ... وابن سيناء و .. كم كنت أتصورك ولك لحية صغيرة مثل « عمر الخيام » .. لابد أنك تعرف تـ .. تو .. « توفيك » مئاتمن النساء . لابد أن حريمك .. مثل « هارون الرشيد » .

... — ياريت . انى أكره المرأة .

حواء — وتجالسنى .

... — لا . لا . أنا أتمنى جلستى هذه أن تدوم . مرة قلتها عن نفسى .. فقالوها عنى للايقاع بينى وبينها .. فأكون أنا الخاسر وهم الرابحون

ولكن حواء أحيانا تجعلنا نرتبك .. انظرى ما فعلته ابروديس بأورفيوس .. انها سريعة الشك فينا نحن أبناء آدم .

□ □ □

ويستمر الحديث .. حول أهل الموسيقى والأوبرا .. وسالزبورج وجمالها .

وتقوم حواء .. لتعود على موعد العشاء .

ولكنها تفاجأ بأن يشكرها الحكيم : مرسى بوكو .. مدموازيل .. مدموازيل ناتالى . انا سعيد جدا بأنى قد التقيت بك . لا غرابة فاليوم يومى انى اتفاءل بيوم الاثنين .

يتضاحكان ..

الرجل السمين يبتسم . شىء ما يدور فى مخيلته .

□ □ □

السمين يبادل الحكيم النظرات .. وهما يهمان بالجلوس من جديد . ولكن هذه المرة أمام بعضهما .

... — اهلا بالمسيو .. عدو المراة .. لقد قلتها بلسانك .. ولم تقلها بوجدانك ..

الحكيم — وهل انت صديقتها .

... — افهمنى يا سيدى . ما من آدم يستغني عن حواء .. حتى لو كان المشوار بينهما اشواك وعذاب . ان الوحدة قاتلة .

تعود حواء . اعنى ناتالى — والحديث عن حواء بين آدمين : حـــار . ســـاخن .

.. — انتو لسه بتتكلموا عن المراة ؟ .. لمـــاذا تكره المراة يا تو .. توفيـــك ؟

الحكيم — الكون صريحا .. لأن المراة يا سيدتى مخلوق .. ماذا اقول .. باردون .. انى كلما تذكرت اثرة المراة وظلمها ومنطقها الغـــريب . اليك يا سيدتى مثلا بسيطا .. ما جرى فى تلك الغنائية الأوبراليـــة التى شاهدناها .. لقد رأينا اورفيوس .... المسكين فى الفصل الأول يبكى على قبـــر زوجته ايروديس ، ويستبكى الآلهه بألحانه الحزينة وقيثارته الشـــجية ، حتى اذنوا له اخيرا بالبحث عنها فى الجحيم والفردوس .. الى ان وجدها .. واراد الخروج بها الى الدنيا . فلم تأب عليه الآلهة ذلك ، على شرط .. وانت تعرفين الباقى . لم تصبر لتنال . دائما متعجلة .

ان حريتى اثمن عندى من روحى .

فالمراة يا سيدتى هى السجان الدائم لنا نحن الرجال نتخبط وندور ونلف كالفئران بين جدران بطنها ونحن اجنة .. نعلم ما تريد هى أن تطعمنا اياه ... فاذا خرجنا وقعنا فى سياج حجرها . نتغذى بما نلعقه من صدرها فاذا كبرنا فانها تحيط بذراعيها اعناقنا واجسادنا . فمتى الخلاص ؟ ومتى الحرية؟
ناتالى — الى هذا الحد تكرهنا . تكرهنى ؟

... — أنا قلت .. اللهم انى اقبل السجن المؤبد مع ... مع .. معك .. بين جدران لا تهدم وفى اغلال لا تحطم .. ان الحياة بعيـــدة عنك خارج هذا السجن هى السجن . لكن معذرة كلامى السابق قلته فى العشرين. وانا اليوم تخطيت الثلاثين . وليست هى المرة الأولى التى ..

ناتالى تقوم . نسيت شيئا فى حقيبة يدها ..

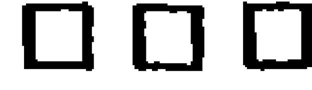
السمين .. يحاول يفهم الحكيم .. انه سيتركهما وحدهمـــا . لقـــد حدثته لحظة ان غاب دقائق عنهما .. بأنها بدات تحن اليك . هى معجبة بك كل الاعجاب . ومن حظك ايها الغريب .. انها اقبلت عليك مرة واحدة . ستدعوك فى فندقها فى باريس . ستقيم فى فندق « ادوارد السابع » . وقد استأذنتها ان تترك لك احدى الحجرتين المحجوزتين لها .

الحكيم .. يقرص ذراعيه . كأنه لا يصدق هذا الحلم ان يصبح حقيقة فى لمحة عين .. انا .. ادوارد السابع .. اعنى فى ادوارد السابع . هل هذا معقول . انا رجل مؤلف بسيط .. ثم انى أخاف أن تتصور هذه الفنانة الراقصة . بالقلوب انى مليونير او غنى سأشترى لها ما يكفيها . انا على قد الحال .. ثم ربما هى تريد مداعبة رجل من العبيد على انهـــا هى كليوباترا .. تريد متعة طارئة .. ثم الى بئر الحب تلقنى ؟ هل تريد أن تسلمنى الى جلادى .

السمين ــ دعنا من الجلاد والعبد وهذه الكلمات التى تملأون بهــا الروايات والقصص . ان كل الذى أعرفه الآن .. انها قد اصبحت طوع بنانك !

... ــ بنانى انا .. اللهم لطفا بعقلى .. اللهم .

السمين ــ أنت رجل سعيد . فكيف أتمنى لك السعادة وانت تملكها من الآن هى لك .



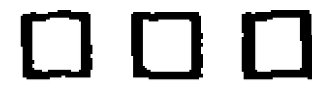
يغيب السمين .

يستمر الحديث مع ناتالى .

القطار السهم الفضى السريع .. يقرب من ضواحى باريس .

ان حركة القطار .. اصبحت كالنغم الى سمعى وقلبى وهى تختلط بكلمات أذكرها لأغنية مستنجيت :

« باريس غادة هيفاء
باريس جميلتى الشقراء
باريس يا ملكة الدنيا
عيناك تغمزان وتبتسمان
انى عائد اليك يا باريس
كل من زارك
كل من عرفك
كل من سكر بجمالك
ربما يذهب عنك
ليعود ويرجع اليك دائما
باريس يا ملكة الدنيا »



يصل القطار . هدوء . انه يحس بالطير المهاجر الذى يعود الى احضان عشه الدافىء . عطر لم يتعوده يفوح حوله . على الرصيف . انه لا يستغرب ولا يتعجب فصديقة القطار : ناتالى .. انما تهفو وتخطو الى جانبه . الذراع فى الذراع والقلب ولهان نابض بالعشق كله . كلها ساعة وتصبح يا قلبى الى جوارها حيث اختارت . ولكن مالى أنا وفندق الملوك .. ادوارد السابع والثامن والتاسع .. لا .. لا .. انى شرقى . انى مصرى . لماذا اذهب أنا معها .. ولا تحضر هى الى حيث أقيم فى مرسم صديق فنان تركه لى الى أن يعود . فلأقنعها أن تحضر معى . فانى لست رجل اعمال . لست بائع حديد خردة . لست غنى حرب . انى اكره التظاهر والنشاء . أكره ثياب السهرة والحذاء اللميع والروليت والسيجار .

اقتنعت ناتالى .

تاكسى .. تاكسى الغرام .

مونبرناس : من فضلك . شارع « دى لامير » .

طلعا . دخلا . تفرجت فى بساطة على البساطة . راق لها . أو هكذا تظاهرت . ثم أصر توفيق الحكيم أن يصعد معها السلم الحلزونى المؤدى الى حجرته . انها حجرة نومه ولها نافذة تطل على ردهة صغيرة تنضم الى ركن الصالة وفيها أريكة ومكتبة صغيرة .

وتستأذنه . حمام .

ثم تطل عليه من الشرفة بعد قليل .. وقد ارتدت روب دى شامبر .. أحمر هفهافا غلالة شفافة وكأنها فاترينة تكشف كل هذا القوام الساحر الذى كان مستورا داخل قطار . ولكنها الآن داخل هذا الاطار . داخل هذا العشق . انها وهو فقط تحت سقف واحد .. مع أفكار ورغبة تغلفها كلمات.

وكلام على اللوفر ولوكسمبرج و .. و .. عن نباتى الـ (هورتنسيا) والـ (ميموزا) وقد تدلت أوراقهما فوق مائدة فى الركن .. ثم يستأذن الحكيم .. ويعود وقد تدثر بعباءته الزرقاء « الألاجا » .

بدأ توفيق الحكيم كأمير اسطورة .

مع أنه منذ قليل كان يغير ملابسه لا فى ايوان كسرى . ولكن فى مطبخ الاستديو المحدود المساحة جدا — حتى لا يجرح حياء ضيفته التى أفرد لها حجرته العلوية وحمامه . ويكاد وهو يغير أن يصطدم بحلة أو آنية هى الوحيدة التى يأكل فيها ويطبخ طعامه هذا اذا لم يكن جاهزا أو مشويا : تعود أن يضعه على آلة الشواء الخفيفة الصغيرة قطعة واحدة صغيرة تكفيه ثمنا وطعاما .

ناتالى فى روبها الاحمر المطرز بخيوط الذهب مثل لون عينيها . مندهشة لهذه الفوضى المنظمة ان صح هذا التعبير . فمن كتب وأوراق ونبت وسجادة ووسائد ملونة وقد ألقيت على الأريكة التى تعلو بدورها سجادة ارتمى فوقها دب أبيض . عفوا أعنى أن جلد دب أبيض قد ألقى فوقها وبينما اعتلت لوحة تمثل عروس الرقص « تربسيكور » لرسامها النرويجى آرتو .. قد احتواها اطار محمول على « شيفاليه » .

... — ما أجمل هذا المكان .

انى أحب أضواءه . وأجواءه . انه عش الحب والفكر .

الحكيم — وانت وانا .

ابتسما . تضاحكا . قربا من بعضهما أكثر . وكان الحكيم قد اتخذ من ظهر الدب الأبيض مجلسا بالقرب من ساقيها . هى تداعب شعر رأسه الأسود « الأكرت » .. وكأنها شهر زاد جالسة بلقاء واقعى مع شهريار .. وانما قد قدمت عقرب الساعة .. قبل الحوار والكلام الذى سوف يسكت عنه ديك الصباح .

... — أووه تو .. توفيك . أنك دافىء مثل الربيع .. مثل من لم يستكمل العشرين ربيعا . آه ... منكم انتم أبناء الشرق .

انكم دفء فكر ودفء جسد وحيوية نبض .

الحكيم ينهض لتوه . باحثا عن اسطوانة يحبها — تناسب جو هذه اللحظة الحالمة التى قد تتبخر كالأحلام وتصبح مجرد ذكريات . يبحث عن اسطوانة يجدها . انها « رقصة الأزهار » للموسيقار تشايكوفسكى . يضعها على سطح الجرامفون .. ثم يلامسها بالابرة .. وكأنها الوخزة

السحرية .. يتمايل النغم . يتهادى معه توفيق الحكيم شبه حالم .. بينما تقوم ناتالى وكأنها نسيت حاجة لها فوق . فى حجرته التى كانت له قبل مجيئها وأصبحت حجرتها الآن . اهو فى علم أم فى حلم ؟

لا أنه يرى بعينيه التى يدعكها الآن .. برج ايفل .. ورقبتة الـ « ساكركير » البيضاء .. وقد اعتليا بيوت باريس .. التى بدأت تغفو مع بداية الليل وكأنها فى حماية : الحديد والايمان . العلم والرحمن .

لقد بدا المنظر وكأنه لوحة ليل من نافذة مرسمه .

ولكن أين ناتالى ؟

انها تظهر من جديد .. أين الأحمر القرمزى الذى كان يهفو فوق قدها المشوق . منذ لحظة ؟ . لقد غيرته . انها ترتدى الآن ثوبا للخروج .. انها قادمة اليه مثل فراشة . مثل سنبلة ، هفا اليها النسيم واشتاق .

... — انك أجمل من النغم . اجمل من الألوان . اجمل من تلك .. من عروس النيل . اجمل من تربسيكور ! لقد اختلط على الأمر . تصورت انها خرجت من اطارها فأصبحت انت . كدت انطق باسمها ولكن وجدت القادمة الى . أحلى انك السحر ذاته ايتها القطة البولونية المدللة .. قطتى ناتالى .. كأنى أحلم الآن يا جاريتى .

ناتالى .. حالا كده اصبحت جاريتك يا هارون .. الرشيد . لماذا تبرق عيناك هكذا .

انى أرى فيهما الرغبة .

قالتها .. وهى تقرب بيدها من كتاب . بجسدها منى . بشعر رأسها الذهبى الذى بدأ يتهدل عند كتفى . وبدأت أشم رائحة عطر اختلط على امره أهو:« سوار دي بارى » أو « شانيل » أم « أوربيجان ».. أم عطر جديد وباريس عاصمة الجديد خاصة اذا كان خاصا بحواء . التى لا تستقر على راى . هل رأيتم ولو مرة ان الموضة لم تلف برأس الغوانى ولو فى السنة مرة . طويل السنة دى . قصير السنة الجديدة . أحمر هو لون الموضة للربيع . أخضر زيتونى للشتاء وأبيض للخريف . والله الناس .. والا انا اللى با اخرف . أنا مالى بالموضة وببنات حواء .. اذا كان كل هذا السحر يقرب منى . يغيرنى . يميل بى اليها .

... — أتحبنى . اعنى هل بدأت تميل لى .. ؟

الحكيم — لست أدرى . لا أعرف . لماذا قلتى هذا .

وبدأ يهمس الى نفسه .. انى حتى اللحظة لا احس ان للحب وضعا فيما نحن فيه فلا أنا أنقص حياتها حتى تحبنى ولا أنا فى حاجة الى التجرع فى كأسه المرة مرة اخرى .. اذن فلماذا لا يكون لقاؤنا هادئا بعيدا عن عمق الحب ؟

.. — ولكنك بدأت تحبنى ياتوفيك . مون شير آمى .

الحكيم — انا ؟ من قال .

... — أنت تخاف الحب كمن يخشى الموت .

الحكيم — نعم .

... — احسست بموقفك هذا منذ اللحظة الأولى . انك ترغبنى ولا تود ان تدخل معى تجربة جديدة . انك تخاف الحب . تعشق لمجرد لحظة

واقعيه .. أو الانطلاق فى خيال .. الخيال المطلق . اتود أن نخرج قليلا .
الحكيم ـ دقيقة حتى استبدل ملابسى .
.. ..
.. ..
والى المطبخ دخل الحكيم من جديد . ليغير ويرتدى ما خلع وهو يكمل حواره معها : .. اذن نخرج للعشاء . ياترى .. اين ؟
.. ـ اذا اردت دجاجا مشويا .. فلنذهب الى مطعم « الاب لويس » .
.. ..
.. ..
وينزلان . تحييهما بوابة البيت . والى جانب مدفأة المطعم يجلسان . وهج النار يتراقص عن ملامحهما . ٧ دجاجات وقد امتدت الأسياخ داخلهـــا تقلبها خادمة الريستوران بعد أن تسكب عليها قليلا من النبيذ .

الحكيم يصرف فى بذخ تلك الليلة . زجاجة « شابلى » لهــا وزجــاجة « بومار » له من النبيذ المعتق المفتخر الغالى . لم يكتف بكأس واحدة لكل منهما . قال ضاحكا .

... ـ يبدو ان لب مولاك « هارون الرشيد » .. قد ذهب . لمــاذا هذا كله ضحكا . وكان الحكيم هو الضاحك الباكى . الضاحك للسعادة الباكى للاسراف ولأن شيئا غامضا ظل يحدثه .. احساس غريب ينتابنا أحيــانا .

استأذنت للتواليت . غابت . عادت . شربا كثيرا وسعدا كثيرا وبينما هما يقضمان دجاجتين .. اذا بجرسونة الريستوران .. تحضر اليها . انها ترددت من قبل على المكان الذى اختارته . تقول لها : تليفون .
وتغيب فى حديث . مع من ؟
وتعود لاهية . ترفع الكأس : فى صحة مولاى .

الكأس فى يد الحكيم . تهتز . تكاد تنسكب . وهو يرد لها ما شعر به : فى صحة جاريتنا .. هل نذهب بعد العشاء لنستمتع بالنغم . لمــاذا لا نذهب الى حانة « الأرنب الخفيف » لنسمع خفيفا من أغانى باريس القديمة .
وذهبا معا . والفكر كله يدور بذهن وسمع الحكيم . وعادا . ودخــلا الاســتديو .
... ـ نوما هادئا يا سيدتى الى أن نلتقى .
وذهب كل الى سبيل . صعدت هى لتنام . وقبع هو فى الركن ليسهر مع القلق . مع الســهد .

لم يجئه نوم . ولا استطاعت عيناه ان تقرأ ولو صفحة من كتاب فتحه . وظل كعين نجمة الليل ساهرة .. الى أن بدأت ضوضاء الطــريق مع نور الفجر .. تزحفان من خلال النافذة الى الأذن والعين .

وقبل أن يهبط الى الطريق .. للاشىء مّد يده الى ملابسه ارتداها من جديد : « سيدتى : لم يبق امامى غير الفرار » ..

وجد نفسه يتجه الى عنوان صديقه .. صديق القطار الذى اعرض عنه اولا ثم سعى وراءه ثانية وفى الحاح . اتتذكر الرجل السمين ؟ نعم . اتذكر البطاقة التى اعطاها له تبادلا للتعارف ؟ نعم . اذن الى عنوانه . الى فندق « جراند أوتيل » ما زال الصباح طفلا . حاضر مسيو .. هنا فى البهو حتى

يصحو . نصف ساعة . تمر المدة . اتفضل . انه يريدك فى غرفته لما عرف بقدومك .

.. أوه شيرآمي . بونجور . بونجور .. ما الذى .. !

الحكيم متجهما : طلقتها . طلقت السعادة .

.. — أنت ؟ أنت الذى كدت تقبل قدمى من اجلها . ليس معقولا .. انت ؟ طلقتها ؟ وبهذه السرعة .

[يضرب كفا على كف] .. وهو يتابع تساؤله فى عجب : طلقها هارون الرشيد .. شهريار باريس . بعد ليلة .. لا بعد الف ليلة وليلة .

الحكيم — الا تسمعنى . لم يأتنى نوم ولا زارنى الهدوء من لحظة دخلنا الى مرسمى .

لقد أحسست ..

عجبا لهذا الرجل . انى أرى فيه شيئا غريبا . انه سعيد بعذابى . ثانيا .

.. — هل تعرف شيئا عنها ؟ فقط مجرد امرأة فاتنة ... انها المرة الاولى التي يتركها فيها أحد وما تتركه هى .. انى أعرف على الأقل ثلاثة قبلك . أولهم : انتحر .

الحكيم — الله اكبر .. والثانى والثالث .

.. — لا تكن فى عجلة من أمرك . ان العجلة من الشيطان .. الثانى فقد ثروته .

الحكيم — الحمد لله أنى لا أملك شيئا وان كنت اتمنى . اتمنى .. والثالث ؟ .. أريد أن أعرف ما حدث للثالث .. ارحمنى وقل .. فقد تبت وانبت .

.. — كان فنانا مثلك . ولكن موسيقيا . ألف لها « فالس » من أحلى ما لحن .

الحكيم — اذن لقد كتب علينا رب الفن أن نعطى ونحن نتعذب .

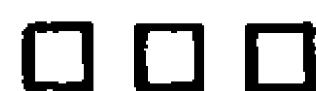
لقد كتب لنا العذاب طريقا لنؤلف . لنروى . لنعزف . ان سهاما صوبها الى قلبى .

... — من الذى صوبها ؟

الحكيم — رب الفن .. لقد رمانى بسهام ثلاثة من قبل هذا السهم الرابع .. سنية . وساشا وسوزى و .. وفاتنتك : ناتالى .

.. — هون عليك . لم تكن حكايتك معها جدا على ما أعتقد .

الحكاية كلها كانت هزارا . على الأقل من جانبنا . لما شعرنا من بداية كلامك معنا فى القطار . انك عدو المرأة .. اتفقنا عليك . لا تنس أنى اهوى الصيد . ولهذا حاولت أن اصطادك . أن أحدثك فى بداية الرحلة واغربت عنى وجهك . وهربت . هى أيضا أعنى ناتالى . تهوى الصيد . ليس بالضرورة أن يكون حيوانا . ربما انسانا . أو لؤلؤة أو ماسا من وراء زجاج الجواهرجى . ولهذا جربت عليك سحرها ثم انسحبت . وهذا هو سر الشعور الذى كان ينتابك دفينا وانت تتحدث معى او معها دون أن تدرى . وهو السر فى هربك منها . هرب الانسان من صائده . انها الغريزة فى كل منا يا صديقى .



ويعود الحكيم الى فندقه على أمل . ان يراها ولو ثانية .

بالطبع لم تكن هناك . أخذت حقيبتها وتركت المنزل هكذا قالت البوابة .

ولكن أما من رسالة . اخذ يبحث عبثا . والطبيعى أن تترك له ردا بجـوار ورقته . ولكنها لم تفعل .

راح يرمي بكل همه داخل كيانه على الاريكة .. سارحا . ولكنه سرعان ما تنبه . وثب الى الدب الأبيض . أعنى الى جلد الدب الملقى على أرضية القاعدة من يده الى فمه المحنط المفتوح . وبين أنيابه استخرج رسالة كانت تطل ببعض منها . فضها وقرأ .

« سـيدى

وانا لم يبق لى الا ان اطرح القوس والنشاب وأذهب .

نفير السيارة يدعونى بالباب . ونفير الصيد يؤذن بالانتهاء . قبل صياح الديك !

لقد فرت القنيصة والسهم عالق بقلبها وكل قصدى كان الرياضـة لا الاحتفاظ بالجلود . شكرا على لطفك وضيافتك ! » .

ناتالى

. . . . . .

. . . . . .

فجاء أسود بياض الجواب فى يده . اسود الأمل . طلت نفسيته جدران مرسمه بالرمادية . حتى أوراق الـ « ميموزا » والـ « هورتنسيا » جفت .

آه من فرحة الحب أن تذوب وتصبح فى خبر كان . آه من السهد . وآه من حواء !

حتى النغم الراقص صار حزينا . أصبح كالأنشودة .

□□□

وبسرعة خرج من مرسمه . الى الطريق . الى فندقها الذى ذكرت اسمه من قبل الى فندق « أدوارد السابع » .

لا انها لم تحضر بعد . يمكنك ان تنتظر .

وينتظر الحكيم الى أن تدور دورة الشمس . تغيب . يظهر القمر . أعنى تظهر ناتالى وهى تمرق الى المصعد .

يثب الحكيم الى الكونسيرج وهو يمد بطاقة اليه .

يبعث بها موظف الاستقبال . شاب مرتديا الاسموكنج يعود اليه برد شفهى مقتضب . ان السيدة مشغولة . تعتذر . وتشكر زيارتك .

ويتمالك الحكيم امر هواه . يجلس وبينما هو يتطلع فى ارجاء البهو الفخم : اذا ببصره يتشعلق بالمصعد : الهابط ، فيه ناتالى .

ويهم بالوقوف . بالاتجاه نحوها . ولكنها كملكة ساحرة الجبين وضاءة القد المشنوق .. تخطو .. ويخطو ورائها والى جانبيها ٣ من الشـباب الوسيم وكأنهم على موعد للسهرة .

يتحرك الاربعة . بينما وقف توفيق الحكيم . . متعجبا . . لحواء .

□□□

الميزان والعقرب فى كتاب؟

□■□ .. ماذا لو بدأت هذا الفصل بجملة :

ان يشترك عقرب مع ميزان ..

يبدو أنى سوف استكمل الجملة . كلماتى تبدو شيئا عابثا . او كأنى ابدأ فقرة بيت شعر من قصيدة أؤلفها فى اتجاه العبث والعابثين فى عالم الأدب المعــاصر !

كلام غير مفهوم . وعجيب بعض الشىء .

ولكن الاغرب والأعجب أن يشترك فعلا : طه حسين وتوفيق الحكيم فى تأليف رواية ضماها فى غلاف كتاب واحد !

ترى هل كان الاتفاق المــادى أولا .. ثم الأدبى ثانيــا ؟ . اليس ذلك من وجهة نظر احدهما وهو توفيق الحكيم !

ثم أين كان مكان الاتفاق ؟

وحتى كتبا ما كتبا وأصدراه تحت عنوان واحد لكتابهما الذى يعتبر فريدا فى عالم أدبنا المعاصر حين يتفق فيه اديبان وكبيران !

عنوانه : القصر المسحور .

زمان اتفاقهما ومقابلتهما كان عام ١٩٣٦ .

واذا كان برج ميلاد الحكيم : هو : [الميزان] الـذى يمتـاز بالاتزان والتعادلية فان طه حسين من مواليد برج [العقرب] الذى يتصف صاحبه بتغلب عاطفته والعناد والوضوح اما هذا او ذاك .. لا شيء بين الاثنين !

وسيظل عام ٣٦ حجر الزاوية فى شهرة توفيق الحكيم وادبه المطبـوع ورحلاته التى اتجه بها بحرا ثم ارضا الى اوروبا الفكر — مرة ثانية — وأوروبا النغم . **وهى مشاركة عميد لغتنا العربية فى عمل واحد لم يتكرر . وشـهر واحد قضياه معا فى جدول ومحاورة وحديث لا ينضب عن شرق وغرب عن أمس ويوم وغد .**

فكتابه [محمد] يصدر له فى ذلك العام ويترجمون خـلاله كتابه عن (شهر زاد) الى الفرنسية فى باريس .

ويترك قلبه الى حبه الرابع : ناتالى حيث احتواهما قطار فى طريق عودته من سالزبورج الى باريس ، بعد أن حضر مهرجانها الموسيقى .

وسنجد أن عام ١٩٣٦ ايضا يحضر فى حياته ذكرى وفاة والده .

. . . . .
. . . . .

□ اتفق طه حسين والحكيم ان يجتمعا فى صيف ذلك العام فى قـرية فرنسية نائية قابعة مع الهدوء كله عنـد سطح قمة الجبـل وفوق ربوة خضراء ترتفع اشجار الغابات حارسة لها من بعيد . وهى قرية : «سالنش» .

وما أكثر الآراء التى اتفقا عليها ثم اختلفا .. أو اختلفا عليها ثم اتفقا .

ولكن يبدو أن كلا منهما انتهزها فرصة ليقول رايه فى الآخر صريحـا غير متوار .. الا وراء الرواية . كل على انفراد وهو يحكى ويلمز ويغمز ويلسع غريمه كلما قابل احدهما شهرزاد . !

أو طيف .. شهرزاد .

كما تهيآها بطلا لقصتهما . وسرح خيالهما وانفرد على ٢٠٠ ص . تصورا فيها أن شهر زاد قد تركت الزمان والمكان .. زمانها العتيق ومكانهـا من أجواء العراق القديم العبقة بعطر المـاضى وخيالات العباسيين لتبعث به برسولها الأمين .. تقابل طه مرة .. ثم تطرحه جانبا الى مقابلة مع صديقه الحكيم الحاضر من ارض النيل ، المشدوه بكل هذا السحر والنغم والجبـل والثلج الذى يكلل رأسه شامخا كالتاريخ نفسه لو تصورنا رجلا مهيبا وقـد انسدل شعره الأبيض يكسو راسه منسدلا . على كتفيه . عملاقا يرتفع . فوق الأيام والليالى والشهور والسنين وحقب القرون . هو ثابت . والكل من حوله .. يتحرك ليموت . هو الخلود والبشر والطير والحيوان حتى الشجر . حتى الثلج . الكل الى فناء . رماد . ماء سرعان ما يتبخـر الى دخان وهواء يروح مع الرياح . ولا يبقى الا الجبل !

. . . . .
. . . . .

□ وعلى الجبل .. وعند سفحه اذا اردنا دقة الواقع لا مبالغة اللغة .. كثيرا وعديدا ما جلس طه حسين والحكيم : يرويان ما دونا وكتبا بعد أن يقسما مقاطع يتخيلها كل واحد منهما .. ينتهى بها ليبدأ الآخر ...

واذا بأحداث مصر والدنيا من حولهـا وحولهما .. تفرضـان أكثر من حـديث .

فلقد جاءتهما أنباء ٩ مايو ١٩٣٦ عندما ضمت ايطاليا الحبشة الى تاجها . حيث وقف الدوتشى فوق أفواه المدافع عند ساحة ميدان الشعب فى روما معلنا مع جنون الفرح .. بأنه قرر أن يضم الحبشة الى الامبراطـورية الرومانية التى يبعثها خياله مع حلمه الجديد. أن يعيد مجد روما . ولهذا فهو ينادى بالملك فيكتور عمانويل الثالث — وكان قصيرا جدا جدا . أعنى فى قامته لا طول عمره اذ عاش بعد الدوتشى الذى مات مقتولا نهاية الحرب العالمية الثانية بينما مات الملك الامبراطور — عجوزا — منفيا فى الاسكندرية بعـدها .

وكان الخوف كل الخوف فى ذلك الصيف أن يتجرأ موسولينى دوتشى روما ليضيف الى تاجها أرض مصر وليبيا وبعض مستعمرات فى شرق أفريقيا . كما كان يحلم .

ويسأل الحكيم .. طه حسين : ولكن عصبة الأمم ؟

ويومىء طه حسين بالنبـأ الذى استمع اليه منذ قليل عنـدما قرأه له سكرتيره ورفيق عمره وجهاده ونور عينيه : فريد شحاته : يبدو أن القـوة ستصبح مع فلسفة التقدم الصناعى : هى الأمر الواقع .

ان فرنسا وبريطانيا اتفقتا على أن يؤثرا سياسة التهدئة . ولهمـا مصالح فى شرقنا . سياسية واقتصادية وحربية حينذاك .

ويتحدث الثلاثة وسوزان قرينة العميد : الى جوارهم ولكن عن بعـد قريب : تشترك معهما فى الحوار ، وان تنشغل أحيـانا بما تنسـجه بين أناملها .. هذا اذا لم يكن كتابا جديدا أو قديما هو أنيسها اذا ما تحـدث الثلاثة بالعربية .

ان موت (بيرانديللو) : يجعلهم يذكرون ايطاليا كثيرا ..

ويستمرون فى حديثهم عن ايطاليا وابتلاعها الحبشة .. ويخافون من أن أوروبا بدت تحت رحمة ووطأة تلك الروح الفاشية الجديدة التى بدأت تتفشى فى ايطاليا والمـانيا وأسبانيا .

ان هتلر .. اسم يظهر ويلمع — أصبح رئيسا للجمهـورية ومستشارا للرايخ . انه يتبوأ مركزه منذ سنتين .. بدأ يزيد فى قـوة المـانيا البحرية . خرق اتفاقية أو معاهدة فرساى . تساهلت بريطانيا التى وافقت على أن يزيد قوته البحرية الى ثلث مجموع الأسطول البريطانى .

هتلر المـاكر اراد ان يتفق مع بريطانيا او يتظاهر بذلك السنة الماضية (١٩٣٥) فيؤثر على علاقتها بكل من فرنسا والاتحاد السوفيتى .

انه الآن يكشف بعض أقنعته .

انه يتحدى الأمم المتحدة مدعما حليفه الجديد : موسوليني .

بدأ هتلر متحديا لفرنسا ، مسألة تحصين أراضى الراين .

وكانت قد جردت من سلاحها حسب ما اتفق عليه حلفاء ١٩١٨ عندما أنهوا الحرب فيما أسموه معاهدة فرساى .

شيء جديد يحدث بتوجيه خفى أو معلن فيما بعد من روما وبرلين .

اندلاع الحرب الأهلية فى أسبانيا . وكان ذلك فى ذات الصيف الذى يجتمع فيه الحكيم مع طه .

... — يبدو أن الحرب .. قادمة لا ريب فيها ؟

... — أنا معك ولكن ربما تتأخر قليلا العالم يغلى . اليابان على البعد البعيد فى الشرق الأقصى تتهجم على أبواب الصين . أعلنوا منشوريا دولة مستقلة .

... — ولكن ماذا سيكون موقف فرنسا . انى أراها بعد أن جافتها بريطانيا تتجه بمصالحها نحو الاتحاد السوفيتى .. فى الوقت الذى تتقرب فيه ألمانيا الى اليابان ويتفقان على اقامة حلف ضد الشيوعية . اننى أخاف أن يبتلع الرايخ الألمانى النمسا ..

... — الله .. ايه الحكاية . أنا شايف أن احنا تعمقنا قوى .. فى السياسة حتى حد الحرب . ده أعصابنا حاتتشد يا دكتور .. ده على كده صيد السمك أحسن .

ويرد د. طه حسين ، مقهقها بلغته أو لهجته العامية التى كثيرا ما يتحدث بها فى مجالسه الخاصة ولا يرى غيرها .. وبالعكس صحيحا وتماما .. اذا كان المجلس فيه غرباء : ... ده للى بيعرف يصطاد .. ولو سمكة « بسارية » صغيرة : يا سى توفيق . والا ايه ؟ طيب عاوزنا نغير الحديث . قولنا — وانت لسه واصل من مصر .. فيه ايه جديد فى المسرح . على الأقل مسرح الريحانى .. علشان أعصابنا تستريح مع المرح والضحك والكوميديا .

... — قسمتى !

... — قسمتك . الله احنا بنهزر يا توفيق . ده مش معقول .

الحكيم — لا .. أنا با أتكلم جد الجد . الريحانى بيقدم الآن مسرحيته . الضاحكة الجديدة : « قسمتى » . وانت عارف يا دكتور .. ان دى ثالث محاولة جادة له ليرفع من مستوى فرقته بعد أن قدم السنة اللى فاتت « حكم قرقوش » و « الشايب لما يدلع » و « الدنيا لما تضحك » و « الدنيا جرى فيها ايه » .

وبين الجد والهزل .. وقرص الشمس .. مازال فى السماء لامعا من غير دفء رغم الصيف .. ومنظر الوادى يتلوى بين حنايا الجمال والسحر ..

تمرق خلاله سيارة دون أن تثير ضجيجا ولا عفارا . كل شيء نظيف هادىء هنا ... انتقل الكلام الى موضوع ووضع المسرح المصرى الجديد .

ان طه حسين يذكر لحظتها ــ بعد أن يتذكر .. أنه من ١١ سنة [١٩٢٥] وكان عضوا فى أول لجنة للفنون الجميلة فى مصر قد رات أن تشجع الفرق الخاصة : ماديا وأدبيا .حتى تستمر فى أداء رسالتها . فأنشأت مصر وأقامت اول معهد عال للتمثيل [١٩٣٠] وبعدها بأربع سنوات اقامت الدولة فرقتها القومية منذ سنتين [١٩٣٤] ولكن بين هذين التاريخين اهدت لجنة الفنون الجميلة جوائز مادية الى الفرق الخاصة .. أذكر ٥٠٠ جنيه ليوسف وهبى وفرقته و ٤٥٠ لفاطمة رشدى و ٣٥٠ للريحانى ومثلها للكسار .. وأنت تعلم الباقى يا توفيق من اقامة مسابقة بين كتاب المسرح وقد أعلنتها وزارة المعـــارف .

التربية والتعليم + التعليم العالى + الثقافة : كلها مجتمعة فى وزارة واحدة وقتئذ .

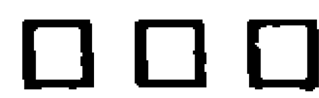
من ٤ سنوات . اشترك فيها على ما اذكر نحو ١٤٠ أديبـــا وروائيا . وكانت جائزتها الأولى ١٠٠ جنيه . مش كده ؟

الحكيم ــ أيوه .. انا فاكر كويس كيف اخترت مع من أعتز بهم فــكرا وأدبا .. الشاعر خليل مطران مديرا للفرقة القومية . منذ سنة . وقد ضم اليها العديد من أعضاء فرقتى يوسف وهبى وفاطمة رشدى فكان ان اعطت الدولة ١٥ الف جنيه مســاهمة للفرقة وقد التحق بها عزيز عيد وزكى طليمات كمخرجين .

... ــ على كل حال لا أنسى مطلقا يا توفيق . ليلة أن افتتحت هذه الفرقة بمسرحيتك : « أهل الكهف » . لقد كان حدثا . وأعتقد أنه سيظل حدثا فى تاريخ المسرح المصرى عندما يؤرخون له فى المستقبل . لقد خطوت به الى المسرح الذهنى الأسطورى .

الحكيم ــ تعرف يا دكتور .. انى لم أفكر وأنا أكتب « أهل الكهف » .. من ٣ سنوات أن تكون للمسرح . وانما الحوار هو الذى شدنى الى خيالها فسكبته على ورق !

... ــ يا ريت : « شهر زاد » التى تسرى الينا الى هنا تشد خيالنا اليها فنسكبه على ورق من جديد . وياليت مسرحنا الناهض يفيد بها .



□ ولأعد الى كل منهما لحظتها . عمره وماضيه وما أعطى :
ان طه حسين له من العمر وقتئذ ٤٧ سنة بينما كان توفيق الحكيم يقرب من الـ ٣٨ سنة لم يتمها الا بعد رحلتهما وفى خريف ذلك العام . وان جمع سواد الشعر شبابهما غير المفقود . ربما بعض شعيرات . بيضاء من غير سوء . بدأت تقفز هنا أو هناك فوق راس هذا أو ذاك .

طه حسين : حضر آخر ما القاه الشيخ محمد عبده فى رواقه بالأزهر .وكان من أوائل الذين التحقوا بالجامعة المصرية عام افتتاحها ١٩٠٨ حيث بدأ يلتقى بالغرب من أساتذة كبار . وبدأ يتعلم الفرنسية التى كلف بها وأعجب .وكانت

رسالة الدكتوراه التى تقدم بها هى [كتاب ذكرى أبى العلاء] . فكانت أول درجة دكتوراه تهديها جامعتنا . وطبعت فى كتاب صدر له بعد سنة وان كان سيشعل ضجة فكرية قد تتصل بالايمان . فأخمدها ـ الزعيم ـ سعد زغلول الذى كان يرأس الجمعية التشريعية يوم أراد أحد أعضائها أن يحركها .

وكان أن بعث طه حسين مع بداية الحرب العالمية الأولى الى باريس .. ولكن دقات الحرب جعلتهم يولونه شطر جامعة مونبلييه أولا ثم ما يلبث أن يعود الى القاهرة بعد سنة واحدة ليجهز نفسه لرجوعه للمرة الثانية ولكن الى باريس هذه المرة . الى السوربون ، التى ينال منها درجة الدكتوراه الثانية فى آخر تلك الحرب ١٩١٨ عن فلسفة ابن خلدون . ثم يعود الى مصر . واذا أردت أن تعرف مدى تعلق طه حسين بالفرنسية وفكر فرنسا فلك أن تقرأ كتاب « طه حسين وأثر الثقافة الفرنسية فى أدبه » الذى قدمه الأب كمال قلته للحرف العربى .

وقد لمس طه حسين أدب الترجمة . بينها رواية [الواجب] لجول سيمون حيث اشترك معه محمد رمضان وكان ذلك عام ١٩٢٠ . ثم ترجم [الزنبقة الحمراء] لأناتول فرانس وترجم (أندروماك) عن راسين سنة ١٩٣٥ ولكنه قبل هذا وبين ذاك الف كتابا أثار ضجة كبرى بين أوساط المثقفين فى مصر وكاد يهز الجامعة ومن بعدها البرلمـــان المصرى عندما أصدر كتابه [فى الشعر الجاهلى] سنة ١٩٢٦ وكان طه حسين وقتئذ أستاذا لتاريخ الأدب العربى فى الجامعة بعد أن حولت قبلها بعام واحد من أهلية الى حكومية . ثم توالت أزماته مع الأحزاب الى أن كان عام ١٩٣٠ فأصبح عميدا لكلية آدابها . وبين كر وفر فى المناصب الجامعية جذبته الصحافة الحزبية فجعل من مداد فكره منبرا كلما تحولت كلماته الى مقـــال أو تعليق أو ما اشتهر به من أحاديث الأربعاء ..

ولكنه يعود فى بداية صيف ١٩٣٦ ليكون عميدا لكلية آداب جامعة القاهرة هذا فى الوقت الذى كان فيه توفيق الحكيم : مديرا لتحقيقات وزارة المعارف. ولكن له من رصيد الأدب .. ما يجعله يجلس مع طه حسين . الند للند ولأنه هناك دائما صداقة وألفة فكر ومصاحبة أدب مكتوب تجمعهما بعد أن أعجب كل منهما بالآخر وان اختلف أسلوب كل منهما فى الحياة والمزاج .. وحتى فى أسلوب الكتابة والتعبير عن نفسه . والى هذا سأعود بعد قليل .

قبل أن يجلس اليه توفيق الحكيم كان قد أصدر (أهل الكهف) و (عودة الروح) التى هزت الوجدان الوطنى المصرى ١٩٣٣ . ثم قدم شهر زاد للكتاب ثم المسرح فهز بها الوسط المسرحى الذهنى ، وأحيا أدب الأسطورة . ثم اذا به يتفرغ لبحثه العميق فى كتابه [محمد] الذى أصدره ١٩٣٦ .

. . . . . .
. . . . . .

□ اذن كل منهما يقابل الآخر وله رصيد من فكر مطبوع .

وكل منهما يجالس الآخر وله معجبون . ولكل منهما مدرســـة وأسلوب وطبع واتجاه .

وان اختلف العمر بينهما فطه حسين يكبر الحكيم بـ ٩ سنوات .

وطه حسين من صعيد مصر الأوسط ، من مغاغة .. أو قرية ــ الكيلو ــ التى كانت بالقرب منها أو ضاحية لها فى سابق الزمان ثم ما لبث العمران أن زحف اليها فأصبحت بعضا منها خلال ٨٤ سنة هى عمر بليغ لغتنا .

والحكيم فى الدلتا . بل من شمالها كما اسلفت وقد ولد فى الاسكندرية التى كانت خليطا من اتصال الفكر الأوروبى والآسيوى والافريقى .. بل كانت ايضا بوتقة لأهل البحر وجــزر بحرنا الأبيض المتوسط .. غير زوارها من بحارة من كل جنس ولون .. وسياح وتجار وزوار . ولم تكن معروفة كمصيف الا للقادر ــ جدا ــ من أبناء مصر . الذين لهم أطيان ارض وعزب وحدائق ولا يعرفون للمال حدا . فكان لهم بيوت يهجعون اليها كلما زاد القيظ وانصهر الجو حرا فى الصيف .

وكان هناك فارق بين اثنين . فطه حسين الذى لا يرى الضوء انما يرى السعادة الزوجية . فهو متزوج . وهو أب مرتين لابنته الكبرى امينة ولها اسم يدللها به مع زوجه سوزان : عندما يناديانها فى البيت « مرجريت » ولهما ولد واحد هو مؤنس وكانا يناديانه أحيانا : بـ « كلود » .

بينما توفيق الحكيم مازال على عهد حريته الذاتية وفيا . كان اعزب . بل كان عدو المراة . فان الحكيم لم يتزوج الا بعدها بـ ٨ سنوات من لقائه بهذا الجو العائلى . اذ تزوج الحكيم فى ١٩٤٤ أى قرب نهاية الحرب العالمية الثانيــة وتمر أكثر من ٣٧ ســنة على زيجته الســعيدة : حيث أنجب خلالها : زينب ويدللها ايضا باسم سوزى ووحيده الموسيقار : اسماعيل . ويموت اسماعيل بين وفاة والدة الحكيم وحرمه .

الا أن الاثنين وان بدا كل منهما رائدا لفكر ومسرح .. مسرح الحياة أو مسرح الفن . الا أنهما قد اتفقا فى أن يتخذا من الأدب حياتهما ووسيلتهما وتأثرا بالفكر الأوروبى وبالنظرة العالمية .. يوم ان وطأت اقدامهما باريس فى مطلع الشباب وفى رحبة العلم والبحث عن الرسائل الجامعية والدكتوراه.

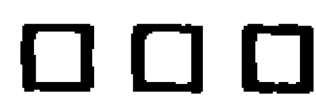
وطه حسين نالها بالطبع .

ولكن هل لو كان فاز توفيق الحكيم واصبح دكتورا فهل كانت تضيف هذه الدرجة العلمية شيئا الى قيمته الفكرية !

ابدا .. انها لن تزيد أو تنقص من اعتبارى أى واحد منهما .

ولكنى اعجب لدرجة الابتسام . ومن البسمة الى الضحكة الى القهقهة .. لو تصورتنى انادى صديقى الكبير وصاحب فكرى : يا دكتور توفيق الحكيم ؟!

لقد أعطاه ادبه وخياله قاعدته التى يقف عليها عاليا .



ونعود اذن اليهما وقصرهمــا المسحور .. الذى اختارا منــه عنوانا لكتابهما الذى اصــدراه عندما حمل غلافه اسميهما : طه حسين وتوفيق

الحكيم فوق عنوانه [القصر المسحور] ، والذى اشتركا ايضـــا فى اهدائه الى سيدة هى قرينة طه حسين عندما وقعا هما الاثنان بعد أن كتبا :

« الى : التى كانت تشيع ذهابنا الى القصر المسحور ، وتتلقى عودتنا منه بنظرات حائرة وبسمات ســاخرة ولكن فيها مع ذلك الرحمة والاشفاق والتشجيع ، لأنها تعرف كيف تحيى زهرات الأدب وتبحث نشاط الأدباء .. الى : مدام طه حسين نرفع حديث : القصر المسحور » .

توفيق الحكيم وطه حسين

| سالنش ١٩٣٦ |

ونرى هنا أن اسم الحكيم متقدما اسم طه .. طالما ان التحيـــة لمدام طه حسين وهو غير ما جاء ترتيبه على الغلاف . وهذا منطقى فطه اكبر عمرا وكان أشهر من خلال مقـــالاته التى كانت تلف برؤوس الاحزاب .. تروح بها وتدور كما أنه اعترك الحياة فى الأزهر والجامعة واهاج قيمـــة الرأى العام بآرائه الجريئة ـــ وقتها ـــ بينما كان الحكيم ينسج مع الحوار دوامات فكر قد تبدو على السطح هادئة .. وبدأ يلقى اضواء لا قرار ولا غور لها فى عالم الفن خاصة ما اصطلحنا بتسميته عالم الرواية والمسرح .

يتفق الاثنان معا على ارتياد ذلك المجهول . كتاب واحد يجمعه خيالان. خيال مسترسل الكلمات بليغ الاسلوب فخم الكلمـــات . عربى الجـــرس منغم للنفس قبل الأذن .. وخيال يقفز مع البعض من الصورة الى الفكر مباشرة . لا يهمه التنميق ولا الابداع اللفظى وانما الذى يعنيه أولا واخيرا المشاركة الفكرية التى تختزل وقتا هو حريص عليـــه كل الحرص . أليس الحكيم بخيلا . ؟ والاختزال لون من الحد من الاسراف .

يتفقان أن يسرحا . يسرح كل منهما بخياله فى فصل من الفصول .. يلى فصل صديقه . أى يبدأ طه بفصل وتخيل .. ثم يتركه الى الحكيم ليكمله الى نهاية فصله الثانى فيتركه من جديد الى طه حسين فيكتب حتى ينتهى من الفصل الثالث ليعطى ما أنتهى منـــه الى الحكيم الذى يبدأ وهكذا .. وكأن الخيال كرة .. بين الاثنين يداعبانها . يحركانها حتى انتهت فصول الكتاب وعددها ١٦ فصـــلا ، اقتسماها وقد بدأت : « سمير شهر زاد » ثم بـــ « سجين شـــهر زاد » « من شـــهر زاد » الى « من الحمـــام » و . « ثورة الأشباح » . و . « فى الحبس الاحتياطى » .. الى . « القلق على توفيق الحكيم » . و . « فى الحبس الاحتياطى » . و « المحاكمة » . و . « الدفاع » .. « الى غضب شهر زاد » وتنتهى كما بداها طه حسين بفصل : « حكم الزمان » .

يبدو من هذه العناوين التى مهدت لفصولها .. أن فى الأمر حبا وغراما وانتقاما وسجنا وبهدلة لتوفيق الحكيم .. لأنه جرؤ على اقتحـــام عـــالم « شهر زاد » فتخيلها وتحدث اليها خياله عندما اصدرها كتابا منذ سنتين.

يا للهول .. والآن هو بين يديها حقيقة . أو هكذا تصـــور طه حسين وجعل صديقه توفيق الحكيم يتخيل ايضا ما أوحى به ..

فى القصر المسحور !

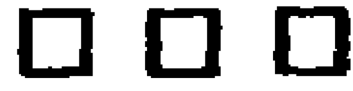
□■□ .. ولعل الاثنين — والمفروض أنهما صديقان كل الصداقة وعلى صدق الوفاء اجتمعا . وعلى الاعجاب بفكر بعضهما اقتربا . وعلى جسر الذكاء لكل منهما يكتبان روايتهما معا وهى التى أسمياها : [القصر المسحور] .

ولكن طه حسين وتوفيق الحكيم .. ينتهزان مع روح التهكم بعيوب أو فضائل بعضهما ينشرانها أمام عيون القراء ، وكل واحد منهما يعرض من وراء زميله وأمام ذات القارىء والقارىء .. ما يود أن يفصح عنه من رأى وآراء فى زميله — من وراء أقنعة الحوار .

وكان الاثنان على بداية صراع . سبق للفكر العربى . ولكن فى جو من الملائمة أو المعايشة . مع التطور والجديد — وقد عرفا قيمة بعضهما كل المعرفة . فهما حريصان على المساندة والبناء . ولكن كل هذا لا يمنع من الغمز .. واللمز .. يقدمانه . كل فى فصله . يحاول أن « يقرص » به زميله .. الذى لا يصرخ ، ولا يتوجع ، وانما ينتظر قليلا حتى يأتى الفصل الذى يليه فيتخذ منه حلبة لشقاوته !

والقارىء هو المتفرج والحكم وهو الذى يتسلى آخر الأمر بذلك الخيال الذى يكاد أن يكون مطلقا .. وبتلك الدعابة التى يتناولها كل منهما فى جو من المرح وصدر رحب .. خاصة وأن القلم طيع والتعبير سهل ميسور .

واللمز والغمز ممكن أن يكون ناعما مغلفا بحرير ، نسيجه حروف كلمات مطبوعة أو ألوان قناع تحمل مفاتن ملامح الحلوة : شهر زاد .



ولنستعرض أسلوب كل منهما بما فيه من خيال أو بلاغة أو معاكسة ومداعبة :

يصف طه حسين فندقه الصغير فى أعطاف ريف فرنسا قبيل أن يقف على بابه ذلك الرسول الطيفى .. الذى بعثت به شهر زاد اليه :

« وانى مع صاحبى [سكرتيره : فريد شحاته] ذات يوم خلونا الى ديوان من دواوين الشعر ننظر فيه وانقطعت الصلة بيننا وبين العالم الخارجى حتى ما نسمع هفيف الريح ولا حفيف الأغصان ، ولا غناء الطير ولا صياح الأطفال الذين يلعبون فى حديقة الفندق واذا الباب يطرق طرقا خفيفا لا نحفل به ولا نلتفت اليه ، نظن أنه لا يعنينا وانما يعنى الحجرة المجاورة ، ولكن الطرق يتصل ويلح ، ثم يشتد شيئا فشيئا ، ثم يضطرنى الى أن التفت ، ويضطر صاحبى الى أن يضع الكتاب ثم يضطره الى أن ينهض فيفتح الباب ليرى ما دونه ، وكان قد أغلقه فأحكم اغلاقه ايثارا للعافية واغراقا فى التحفظ والاحتياط ، ولم يكد صاحبى يفتح الباب حتى رأى شخصا غريبا . كان يقدر أن يرى كل انسان وأن يرى كل شىء دون أن يراه شخصا شرقيا فى زى أهل العراق لم يعرفه قط ، وهو من أجل ذلك ينكره فى هذه القرية المنعزلة ، وينكر اهتداءه الى هذا الفندق وصعوده الى هذا الطابق وطرقه باب هذه الغرفة .

وكان صاحبى مقتنعا بأن هذا الشخص قد أخطأ طريقه وجار عن سبيله وقصد الى غير مقصد . ولكن الشخص يسأله عنى ويدفع اليه كتابا يطلب منه أن يتلوه على . فيعود صاحبى الى حيران دهشا ، وقد كان يدركه الاختلاط لولا أنه تعود مثل هذه المفاجآت منذ امتحنته الأحداث بمصاحبتى . فهو يفض الكتاب ويقرأ على هذه الأسطر » .

. . . . . .

. . . . . .

يتضح أن الخطاب من السيدة الأسطورية شهر زاد . وأنها طالبة اللقاء .

. . . . . .

. . . . . .

يستكمل طه حسين بأسلوبه ... « كان الدهشة والذهول ينتهيان بصاحبى وبى الى الجنون أو الى ما هو أكثر من الجنون ، وقد خيل الينا لحظة أن خيالا من هذه الخيالات التى تملأ الضمائر وتنكرها نفوسنا الشاعرة قد عبث بنا وأن الذى أثار هذا الخيال هو حضور الأستاذ توفيق الحكيم الى قريتنا منذ يومين .



« فقد حضر صديقنا توفيق الحكيم الى هذه القرية فى قصة لعلك تظهر عليها وقتا ما ، ومنذ انتهى الينا كثر الحديث بالطبع عن : « أهل الكهف » و « شهر زاد » و « عودة الروح » وما يتصل بذلك كله من الأدب والنقد والانتاج والتقصير ، وكل هذا العناء الذى فررنا منه الى فرنسا مقسمين أن نتجنبه فى أثناء الصيف . فخيل الى صاحبى والى أن كثرة الحديث فى الأدب وفى أبطال توفيق الحكيم قد سحرت عقولنا وصورت لنا هذا القصص الذى عرضته عليك ، ولكن الكتاب كان بين يدى صاحبى يمسه بيديه ويراه بعينيه ويقرأ على ما فيه من الكلام .

وجعلنا كلما تقدم النهار ودنونا من المســـاء اشتد اضطرابنا وامتلأت قلوبنا وجلا ورعبا حتى انكرنا خلطاؤنا واشفق على اهلى وخيل اليهم انى اتهيأ من العلل أو للون من ألوان الحمى .

ولست اخفى عليك انى اجتهدت كما اجتهد صاحبى فى ان نخفى هذه القصة على من حولنا مخافة أن يظن بنـــا الجنون وأن ندخل الروع على قوم آمنين » .

ويستمر طه حسين فى اسلوبه الممتع — وتلاحظ معى فى انه لا يستعمل النقطة بين الجملة والجملة .. ولكنه يسترسل فى جملة طويلة المقـــاطع وربما يضع « شاولة » .. وكأنها لحظـــة بين شهيق وزفير للفكر ، أو للتنظيم . وهذا اسلوبه على اى حال وقد انفرد فيـــه . ولهذا عرضت سطورا منه لتؤكد ما أذهب اليه من اختلاف أسلوبه مع الحكيم .

. . . . .

. . . . .

تأتيه وتزوره شهر زاد ويجزع أول الأمر لهذا الاعجاز . كيف تبعث من جديد . وتجيب عليـــه بأنها خالدة وان أقـــلام الكتاب والأدباء يلاحقون أسطورتها فكيف تموت . ثم تسأله ألم يهتم بها منذ عامين وتمنى لو عاش زمانها ورآها وقابلها بعد ان قرأ كتاب الشاعر هنرى دى رينييه عنها ؟ وآنسته وانسته هول المفاجأة . خطاب مقامها بجـــواره واخذ يدعوها لقضاء شتاء فى مصر .. طالما انها استردت حريتها وتستطيع أن تصطاف فى أوروبا بعد أن تركت قصرها السحرى عند شاطىء دجلة .. وها هى الآن بجوار جبال الألب وبدلا من أن تشتى فى الريفيرا .. فلمـــاذا لا تأتى وتزور مصر : أرض النيل والشمس ؟

. . . . .

. . . . .

ينتهزها طه حسين هنا فرصة .. وهو يستكمل بأسلوبه الغامز الواصف لزميله فى الكتاب :

« قلت : وما يمنعك أن تقضى الشتاء مرة فى مصر ؟

قالت : لا شىء . لقد هممت بذلك فى الشتاء المــاضى لولا هذا الفتى الغريب الذى تسمونه توفيق الحكيم ، هو الذى ردنى عن مصر بكتابة هذا الذى لم احبه ولا أستطيع أن أحبه .

قلت متعجبا : لماذا ؟ !

قالت : لأنه كشهريار لم يفهمنى وما اظنه سيفهمنى .

قلت : وهو فهمك أحد ؟

قالت : وما حرصكم على أن تفهمونى أو ما هذا المرض الذى افسد عليكم كل شىء فأغراكم بفهم كل شىء ؟

. . . . . .

. . . . . .

ويستمر الحوار . ويقنعها طه حسين أن تتخذ سميرا لوحدتها .. يبعد عنها الملل ويسرى عنها ، فاختارته هو ، ولكنه رد رغبتها ورد حيرتها عندما قال لها : كلا يا سيدتى ، انى اقل الناس حظا من الخيال وأعجز الناس عن القصص ، واضيقهم بنفسي وبالوقت . ولولا أن الله قد ملأ الدنيا كتبا واذن أنها ستظل أبدا مملوءة كتبا لما استطعت لهذه الحياة احتمالا .

« قالت : ومن لى اذن بهذا السمير ؟

قلت : وأنا لك به يا سيدتى ، انه صديقك ، العزيز عليك الأثير عندك ، الحبيب اليك .

« قالت : ارجو

« قلت : انه توفيق الحكيم ، وهو منك قريب ليس بينك وبينه الا ما كان بينك وبينى من الآن حين كتبت الى ، انه فى الفندق الذى أنا فيه .

قالت : وقد ملأها النشاط وأخذها الاهتمام وأمتزج فى صوتها الغضب والفرح معا : — هو اذن هذا الاسم، ليعلمن كيف تكون الكتابة عن شهر زاد .

قلت : ولتعلمن أنت يا سيدتى كيف يرضيك اذا أقبل النهار وكيف يسليك اذا أظلم الليل ، لو تعلمين كيف سقط على قريته هذه النائية المعتزلة مثل سقوط الندى .

قالت : كيف سقط على هذه القرية ؟

قلت : سبقته اليها البشائر بمقدمه السعيد ، أو رأيتنا والباب يطرق علينا طرقا عنيفا مع الصبح حتى اذا فتحنا للطارق رأينا ساعى البريد يحمل الينا كتابا مستعجلا من صاحبك ينبئنا فيه بمكانه فى باريس ورغبته فى أن يلحق بنا ، ويسألنا أن نختار له فندقا يأوى اليه وغديرا يصطاد السمك فيه . وما نكاد يا سيدتى نفرغ من قراءة الكتاب حتى يطرق الباب علينا طرقا عنيفا فاذا فتحنا للطارق رأينا ساعية البرق تحمل الينا رسالة من صاحبك ينبئنا فيها بأنه قد ركب القطار ، ولم ينتظر رجع الجواب ، ونحن نلتمس له الفندق ونلتمس له الغدير ونلتمس له المواضع التى يجد فيها أدوات الصيد ، وهو يقبل مع المساء كما تعرفينه .

قالت : ومتى عرفته ؟

قلت : الم تعرفينه من كتابه عنك ؟

قالت : كيف اقبل عليكم

[وهنا يقول طه حسين رأيا فى شقاوة .. يصف فيه توفيق الحكيم]

قال طه حسين : اقبل كما ستعرفينه يقظان كالنائم ، حاضرا كالغائب ، وغائبا كالحاضر ، قد أخذ من باعة الصحف ما استطاع ان يأخذ ، وقضى نهاره فى القطار بين الكتب والصحف مختلسا بين حين وحين نظرة من نافذة العربة ، مفتونا بما يرى ، حتى اذا اطمأن به المكان بيننا أخذ يتحدث فاذا هو دهش لكل شىء ، سائل عن كل شىء ، عارف بكل شىء ، جاهل بكل شىء ، يتحدث عن الجو ، ثم يثب الى مقالة قرأها فى هذه الصحيفة ، ويتحدث عن الجبل ثم يقفز الى فصل قرأه فى ذلك الكتاب ، يقبل على الطعام ويأخذ فيه ولكنه مشغول بالنشاط الأدبى فى مصر . وبهذا الفصل الذى كتب عن ذلك المعرض الفنى فى باريس ، ثم يصبح مشغولا بالصيد مشغوفا به ، متهالكا عليه يلتمس له أدواته ويعدها ويهيؤها وهو يفكر فيك وفيما آل اليه امرك . وفى كتابه عنك وفى ترجمة هذا الكتاب الى الفرنسية وفيما يمكن او لا يمكن من تمثيل قصتك !

« قالت وقد نهضت مغضبة : ويل له ، أو يريد ان يظهرنى فى الملاعب ويعرضنى على النظارة ويسلمنى الى الممثلين .

رد عليها طه حسين وهو يحيك مقلبه وينوى الشر بصديقه : ويعترف طه عندما يقول : « قلت فى شىء من المكر : اظنه يطمع فى ذلك يا سيدتى

« قالت : ليعلمن ما جزاء من يعبث بشهر زاد .

« قلت : لا تنغصى عليه راحته ، انه سعيد راض مبتهج مغتبط يزور الجبال لأول مرة ، أو رايت ابتهاجه حين استكشف فى الغابة شجرة البندق. لقد كان يأكل البندق جافا ويأكله رطبا ، ويأكله صرفا ويأكله ممزوجا ، ويعرف انه ثمر لشجر ، ولكنه لم يكن يعرف أين يكون ؟ ولا كيف يكون ذلك الشجر ؟ فلما رآه ورأى عليه ثمره لم يملك نفسه ابتهاجا واغتباطا ، وما ارى الا أنه سيكتب عن شجر البندق فصلا او كتابا ، وما ارى الا انه سيحدث بين الشجر وثمره حوار لذيذ . لا تنغصى عليه راحته يا سيدتى ، لقد رأى الثلج يغطى رؤوس الجبال لأول مرة ، وكان يقرأ ذلك فى الكتب ويسمع عنه فى الأحاديث وما كان يقدر أنه سيراه ، فلما رآه لم يسع نفسه فرحا وسرورا ، واقسم لا يطمئن ولا يستريح حتى يدنو منه ويتصل به ، ويملأ منه يديه ، ولو استطاع لاحتمل منه ذخيرة الى مصر .

ويستكمل طه حسين [تريقته] وسخريته من صديقه الحكيم .. ويمعن فى شقاوة القلم حين يتابع كلماته الى شهر زاد فى كتابهما [القصر المسحور] .. لا تنغصى عليه راحته يا سيدتى . لقد قرأ وصف الجبل الأبيض حين كان تلميذا وطالبا ، وسمع اخباره من السائحين ، ولم يخطر له قط أن الجبل الأبيض شىء يرى ، **فلما رآه كاد يخرج عن طوره ، لولا أن تمالك واصطنع الوقار ، وهو يقسم لنا جهد ايمانه ليصعدن فيه وليبلغن قمته ، فاذا صعبنا له ذلك قال فى براءة الصبى النقى : ماذا ؟ اليس يكفى ان اغدو اليه مع الصبح واعود منه حين ينتصف النهار فادرك معكم الغداء ؟**

. . . . . .

. . . . . .

وتغرق شهر زاد فى الضحك من سذاجة الحكيم — هكذا يصف : طه حسين صاحبه وضيفته .. فى ضحك متصل لا يريد أن ينقضى ، قد ردها الى مكانها بين الوسائد لأنها عجزت عن القيام فسكت عنها الضحك .

« واذا هي تسألني : أهو من السذاجة بحيث تصف لي ؟

قلت : وما وصفته لك من سذاجته الا اقلها .

قالت : فان كتابه يصوره معقدا أشد التعقيد .

قلت : هو كذلك معقد اشد التعقيد ، فاتخذيه لك سميرا فستجدين عنده السذاجة المريحة حين تحتاجين الى الراحة ، والتعقيد المضني حين تحتاجين الى الجد والتفكير .

قالت : [او قال طه حسين .. او قال عقله الباطن الذي يضمر لا الخير كل الخير بالنسبة لتوفيق الحكيم ولا الشر كل الشر له وانما بين بين في تصوري] ... قالت : وسيجد عندي ما لم يعلم من أمر شهر زاد .

والى هنا لا تنتهي شقاوة شباب : طه حسين ولا مداعبته لصديقه على ورق .. ولكن ؟

ولكنا نجد في الفصل الثاني مباشرة وتحت عنوان سجين شهر زاد .. يتناوله توفيق الحكيم بقلمه . فلا تفاجأ بالطبع أن اغلبه حوار — فهو سيد من يكتب الحوار في ادبنا الحديث — ولا تفاجأ بأن جمله مختصرة وأن هناك نقطة سريعة تنهي الجمل . كما لا تفاجأ للمرة الثالثة .. بأن ادب الاسترسال ليس له وجود وبالتالي لا تكرار هناك . بل ولا استغراق في الوصف الذي يعتمد على ٤ حواس فقط .. وهي اللمس والمذاق والشم والسمع مثلما عند طه حسين . فان عمق الرؤية وسرعة النفاذ لها عامل مهم في أدب الحكيم الذي يعتمـــد على سرعة البديهة والتلقائية أو توارد الخواطر الى حد بعيد .

فنجد الحكيم يسخر من نفسه وملابسه . ومن طه حسين ويرد الصـــاع صاعين ويكيل له الكيل كيلين . مدافعا عن نفسه حينا . دافعا بقلمه في صدر صديقه طه احيانا عابثا بشهر زاد والمرأة كل الأحيان ! . وذلك بعد أن تصور مثوله بين يدي شهر زاد بعد أن اختطفه عبدها الهمام .

العبد : خطفناه يا مولاتي .

شهر زاد : وماذا فعلتم به ؟

العبد : القيناه في جب القصر المسحور .

شهر زاد [ضاحكة عن در منضد] : هذا الساذج المعقد !

العبد : معقد ! ؟ هذا الرجل ؟ كلا يا مولاتي ! .

شهر زاد : كيف ؟ ماذا رايتم ؟

العبد : انه السهولة بعينها . لم نكد نقبـــل عليـــه بسلاحنا حتى خلع في الحال معطفه وعصب ببعضه رأسه واتقى ببعضه جسمه . ثم انطرح على الأرض في هدوء رزين ، وجعل كأنه صريع قد اصيب ، وما وصلت اليه بعد يد ، وما لمسته اصبع .

شهر زاد [باسمة] : لقد كفى نفسه شر القتال .

العبد : لما وجهتنا اليه يا مولاتي حسبنا أنا سنلاقي هزبرا .

شهر زاد [ضاحكة] : هزبر ؟ توفيق الحكيم ؟

العبد : بل أكثر من هذا يا مولاتى . قد وجدناه يحمل ...

شهر زاد : كتابا ؟

العبد : بل سنارة صيد مما يستعمل فى صيد السمك الصغير . وقد علق « خطافها » بثيابه من الروع لمرآنا !

شهر زاد : [وهى تضحك] الم تجدوا معه قلما وورقا ؟

العبد : كلا

شهر زاد : لم تجدوا معه غير « سنارة » صاد بها نفسه ؟

العبد : بل انا يا مولاتى لم نجد معه « طعما » مما يجتذب به السمك .

ولم نجد معه سلة يضع فيها ما يصيبه . كل ما معه ذلك العود من « الغاب » الذى لا نفع فيه ولا ضر .

شهر زاد : [كالمخاطبة لنفسها] : نعم . انى اعرف هذا الصنف من الرجال . انه لن يصطاد سمكة فى حياته . ولا احسب أنه يذهب يوما الى بحيرة أو نهر أو بحر ، انما هو يحلق فى راسه كل الرغبات ويعد للوصل اليها المعدات ، ويغمر نفسه فى ذلك الجو الذى ابتدعه خياله . حتى اذا كان على بعد خطوة من التنفيذ . والحقيقة ، انتهى حلمه ولم يعد يعنيه من الأمر شيئا .

العبد : أو مثل هذا الانسان نائم او يقظان ؟ !

شهر زاد : [على الفور] انه نائم كاليقظان ويقظان كالنائم

العبد : مولاتى

شهر زاد : ما بك ؟

العبد :انك ترددين العبارة التى قالها هنا البارحة ذلك الرجل الذى كنت تنادينه بالدكتور

شهر زاد : تكلم !

العبد : شديد الدهاء

شهر زاد : [باسمة] ماذا رايت من دهائه ؟

العبد : لست ادرى على التحقيق . انما فى كلامه وابتسامة شىء ينم عن شيىء مبهم وعرض خفى .

. . . . .

. . . . .

ويستمر الحكيم فى حواره بين شهر زاد والعبد .. او يستمر قلمه للفرصة التى يجدها ليقول رايه فى صديقه الذى اتفق معه ان يكتب معه كتابا واحدا .

. . . . .

. . . . .

وقبل هذا يتهم نفسه بشىء من المكر حتى لا يغضب صاحبه باسوا منه . وكأنه رسام كاريكاتير .. يرسم نفسه أولا قبل الآخرين ..

فهو يقول عن نفسه متصورا امامه شهر زاد بعد ان اختطفته كي تسامره.

توفيق : انك خلقت كي تتكلمي انت .

شهر زاد : ماذا تقول ؟

توفيق : اقول أن كل عملك في الوجود ان تتكلمي فيصغي اليك الناس . لا كل الناس . بل المجددون والموهوبون !

شهر زاد : صدق طه حسين . انك معقد ! بل أكثر من معقد . انك خبيث .

توفيق : وطه حسين ! أهو البراءة بعينها ؟ الا تعرفين انه مكر بك مكرا جميلا .

شهر زاد : كيف ذلك !

توفيق : انه هو الذي كان يستطيع ان يسامرك ابدع مسامرة ولكنه مشغول ليله نهاره « بالمتنبي » ولقد اغراك بي ليفلت هو ويخلص الى شاعره . وهكذا آثر « المتنبي » على « شهر زاد » .

شهر زاد : أهو فعل هذا ؟!

توفيق [منتصرا] : عليك به ! وخطفه هين سهل . فهو يجلس حينا بمفرده يفكر تحت شجرة الزيزفون الكبيرة في حديقة الفندق وأحيانا يجلس معه صاحبه « فريد » يقرأ له . ولا جناح ولا تثريب في خطفهما معا .

□ □ □

يرد طه حسين بأسلوبه بعد حين .. في فصل يكتبه : « لقد صدق توفيق الحكيم يا سيدتي فأنا في هذه الأيام مشغول بالمتنبي ولكني مشغول به عن كل شيء وعن كل انسان الا انت ، فان امنيته الملحة عليه المضنية له المنغصة لليله ونهاره ، تشبه امنيتي الملحة على المضنية لي المنغصة لليلي ونهاري، ولكني لا اتمنى كما كان يتمنى ملكا وسلطانا ، ولا اشتهي كما كان يشتهي ثروة وغنى ، وانما اتمنى لقاءك والاستمتاع بجوارك القريب ، واي ملك يشبه الخضوع لك أو يعدله الاذعان لأمرك ، واي ثروة تشبه الشعور بأني قريب منك ليس بيني وبين الغنى الذي يمنع القلب والعقل .. الا انه اتجه اليك فاسمع منك واحس قربا مني .

« رحم الله المتنبي يا سيدتي ، فقد اعانني على احتمال الشوق ويسر على بعض الشيء ثقل الليل ..

. . . . . .

. . . . . .

ولا ينفع هذا السهم الذي أراد به الحكيم مقتلا ، فقد نفذ منه طه بلباقته.

فبدأ الحكيم في فصل آخر يحيك له واصفا له تمسكه وعناده : عندما كتب واصفا طه حسين يريد من فريد أن يصحبه .

... — هلم بنا

... — الى اين ؟

... — الى الفاتنة ربة القصر المسحور

ففكر فريد ثم قال في تردد :

... — ولكننا لم نتلق بعد منها دعوة الى المثول بين يديها !

... — لا حاجة بنا الى دعوة ولا احسبها تكره لقائى فى اى وقت .

... — ولكننا .. نجهل مسالك هذا القصر وهو كثير الدهاليز ،والوقت ليل ولم نعتد دخوله بغير رسول منها او دليل .

... — قلت لك هلم ولا تزد .

... — انها المخاطرة

فضغط طه على يد صاحبه ضغطا قويا كاد يؤلمه وصاح به :

— انى قد عزمت ، وانا رجل — كما تعرف — صلب الراى عنيد . ولا شيء يثنينى عن اقتحام المخاطر وارتياد المجاهل .

... — هذه الصلابة قد عرضتك احيانا الى ما نكره .

... — حقيقة . ولكنى هكذا خلقت ولا قبل لى بتغيير طبعى وسجيتى هلم .

ويستطيعان بطريقة أو بأخرى .. ان يدخلا المسالك المظلمة . ولكن « جب » يعترض طريقهما فماذا به يسأل فريد :

... — وما الراى ؟

... — تسألنى الآن يا دكتور ؟ ! لم يبق من راى الا ان تختار لنا طريقا من هذه الطرق ونسير فيه الى النهاية .

يرد طه [وكأنه راى الحكيم فى طه حسين] . كلا .. تلك ليست عادتى. اضرب بنا فى كل طريق .

. . . . .

. . . . .

ويحاول الحكيم الايقاع به بعد قليل فى فصل آخر .. عندما تصور وقوعهما فى الأسر ونهايتهما قد قربت منهما يحاول الافلات برقبته : فيكتب ضمن ما يكتب :

توفيق : [يلتفت الى طه] : ما رايك يا صديقى الدكتور ؟

طه : عجبا لك ! الآن تطلب الى الكلام فى هذا الموضوع الشائك حيث يجب على السكوت ؟ !

توفيق : [لشهر زاد] : ارجو منك يا سيدتى ان تطلبى الى صديقك الجريء أن يلقى الآن كلمة حق صريحة !

طه : [لشهر زاد] كلا يا سيدتى العزيزة لا تفعلى ، انى الآن عميد مسئول . ولا شأن لى بالكلام فى الأديان والآلهة . وحسبى ماحدث لى قديما.

شهر زاد [لطه باسمة] : يظهر ان صديقنا ليس ساذجا الى الحد الذى نظنه .

توفيق [لطه] : انا معتقد لانى طلبت رايك فى موضوع دقيق ؟

طه : استعود اليه ؟ رجائى الخالص منك أن نترك آلهة الاغريق والرومان وشأنهم !

وتستمر المحاورة الأدبية . وكأن كل منهما — **فى جو المداعبة** — قد امسك قلمه سلاحا يبارز به فكر صديقه .. فى مباراة شيقة يراها فقط قارىء كتابهما وكأنه لها ناظرها .

كيف اقتسما القصر ؟

□■□ .. وسيقفز الى لسانك سؤال .. وجهتــه نيابة عنك الى الحكيم ، عند شاطىء البحر ، لعله ينسى ويقول الحقيقة التى طالما سألته واجاب عن ذات السؤال . كما سألت طه حسين واجاب مداعبا . ! عن كيف اتفقا على كتابة [القصر المسحور] وكيف اقتسما مبلغه . ارباحه ؟ وهل كان هناك [صك]مكتوب بينهما ؟ .

قال الحكيم : .. عندما افتتحت الفرقة القومية عند تأسيسها عام ١٩٣٥ بمسرحيتى : أهل الكهف وكان مديرها وقتئذ الشاعر خليل مطران راى أن تكون المسرحية التالية فى افتتاح موسم العام التالى بمسرحية من تأليف طه حسين . ولكن طه حسين اشترط ان يشترك معه الحكيم لخبرته فى الحوار . فالتقينا فى مصيف عند جبال الالب بفرنسا . ولكنا بدلا من ان نكتب المسرحية . جعل كل منا يداعب صاحبه فى مقال . بداه طه حسين بوصف حضورى الى الجبل وسؤالى عن بحيرة اصطاد فيها السمك لاسلى نفسى. وتصور طه حسين أن شهر زاد التى كنت قد الفت عنها مسرحية موجودة تصيف فى الجبل وانهــا علمت بحضورى .. فأرادت ان تناقشنى فأمرت عبيدها باختطافى .. وعندما اطلعنى طه حسين على المقال ، قمت بدورى وتصورت أن شهر زاد ارادت ان تتسلى بحديث احد يجيد الحديث فأغريت بها طه حسين فاختطفته هو ايضا . وهكذا جعل كل منا يتســاجل بالمداعبة والملاعبة وتصوير الآخر بأسلوب ساخر الى ان انتهى الصــيف ولم نكتب المسرحية ولكن كتبنا هذه المداعبات وسميناها : [القصر المسحور] .ونشر هذا الكتاب عدة مرات . وكانت حقوق النشر تقسم بينهما مناصفة بالعدل والقسطاس وان كان طه يزعم احيانا وربما من قبيل المداعبة ايضا انى اذن بنشر الكتاب من خلف ظهره واقبض كامل الأجر . ولكن اقسم انى بریء وأن حقوق صديقى طه حسين محفوظة دائما لم تمس ولكنه النسيان، لعنة الله عليه هو السبب .

ولا ادرى اذا كان فى كلمات الحكيم معنى .. ان المقصود هو نسيان طه ام نسيانه هو .. ؟!

الله أعلم .

. . . . . .

. . . . . .

واسأل كاتبنا الكبير الحكيم .. عن احساسه بالنسبة لطه حسين وقرب عيد ميلاده الرابعوالثمانين — وكانآخر عيد عاشه طهحسين — وهل ينوىأن يسجل فى مذكرات قادمة حكاياته مع طه حسين . فيرد الحكيم : .. ان د. طه حسين هو اسطع ضوء للفكر العربى فى هــذا القرن . اما محبتى الشخصية وصداقتى الدائمة له .. **فانى اسجل ذكرياتى معه فى فصول طويلة فى الجزء الثانى — الذى كنت انتهى منه الآن من كتابى [ســجن العمر] الذى ارجو ان يطول بى العمر لأنشره . وان يطيــل الله عمــر صديقى العزيز طه حسين . ليقراه .**

□ □ □

□ .. لا لم انس ان اذكر لك : المبلغ الذى يقتسماه كلما اعيــد طبع كتابهما القصر المسحور فلتقرا الصفحات التالية حتى تجـد ما تريد أن تعــرفه .

طه حسين عاتب على الحكيم؟

□■□ .. نعم انى اقفز بعض ايام الزمن .. الى الأمام لا الى الوراء.. وستجد بالقرب من آخر حديثى رايا لطه حسين فى [القصر] المقسوم !.
.. ما اكثر الخيالات والرؤى ، التى جالت فى خاطرى وبدت كالأطياف تروح وتجىء وأنا فى طريقى اليه .. الى عميد الأدب لأهنئه بمناسبة يحتفل بها يوم عيد ميلاده .

طريق الهرم مساء هدفى .. بيت : طه حسين ، وصورة وكأنها لقطات من فيلم تتداخل وتتشابك فى عرض سريع تخرجها ذاكرتى عنه :

.. صعيد مصر الأوسط . عزبة اسمها [الكيلو] عل . بعد كيلو متر واحد من مغاغة بالقرب من عاصمة قديمة لمصر .. عاص ة العمارنة ابان عهد التوحيد وحضارة الفرعون والمتعبد لوحدانيــة الخــ .ق : اخنـــاتون ونفرتيتى .. وطفل صغير لا يدرى من أمره شيئا .. الا انه يسمع فى غيبة والده الموظف الصغير حسين على ، بشركة السكر وبين اخوته الـــ ١٢.. حكايات وحكايات .. كلما راح اليهم بعد ان يجد طريقه بين غيطان اعواد القصب .. ولكنه لا يستريح فبعد دقائق .. يدعك عينيه الضعيفتين .. ينشغل والده عليه كلما سمع شكواه . ويأتى حلاق القرية ليعالجها كعـــادة

اهل الريف فيفقد الولد الصغير نور عينيه الى الأبد ولم يبلغ الخامسة من عمره .. فينكفىء منصرفا الى الله الواحد والى ذات السماء . سماء الايمان يشكو الى ربه همه .. ويستلهم كتابه فيحفظ القرآن الكريم وآياته .. ولم يبلغ التاسعة من عمره عندما أصبح البيان عالمه السحرى والبلاغة بيان عقله ولسانه .

صبى القرية .. يترك الكيلو الى مغاغة . ليركب اول قطار فى حياته.. متجها به الى الشمال . يترك زحام عيدان القصب — الى زحام العاصمة: القاهرة . خلع جلباب كتاب القرية . ارتدى الجبة والقفطان .. وقورا. ليتعلم فيها دون أن يراها . يتفوق فى الأزهر ولكنه سرعان ما يتبرم ويختلف وله من العمر ١٩ سنة . ان الجامعة المصرية تفتح ابوابها من ٧٧ سنة . يلتحق بها ، ويتخرج . بل يكون أول من ينال فيها درجة الدكتوراه وكانت رسالته عن [ذكرى أبى العلاء] .يبعوثنه الى اوروبا مع نذير الحرب العالمية الأولى الى باريس مدينة النور خلع القفطان ليرتدى بذلته . انيقا ، لايرى منها الا العلم ينهلمنه . ويدق قلبه محبا زميلته سوزان فيكمل دينه ويتزوجها [من ٧٢ سنة] ثم ينال درجة الدكتوراه عن [ابن خلدون] ويقدم رسالة فى [القانون الرومانى] لدراساته العليا .. ثم يعود مع نهاية الحرب الى مصر راضيا ليبدأ جهاده الحقيقى .. حسامه قلمه . زاده الفكر والمعرفة. مع البصيرة والعزيمة .. يدق ابواب الثقافة والمعارف الموصودة فى مصر الحديثة .. فيفتحها وكأنه ساحر .. لينهل منها من يريد من شعب مصر وابناء أرضها .. وكأن الثقافة هى . الماء والهواء : حق لأى مصرى .. حق الحياة لمن يريدها .

ويتحرك الوجدان الثقافى فى مصر .. تتحرك المعرفة . يزهو الأدب على الجهل وما أكثر المعارك التى اقتحمها طه حسين او اقحمت عليه ، فوقف لها بالمرصاد ، شجاعا بالرأى ، وبالاصالة .. فاذا بصبى القرية .. يصبح وزيرا للمعارف والتربية فى مصر عميدا للغتنا الجميلة فى عالمنا العربى .

انى اكاد اقترب من طريق الهرم .. وصدى كلمات امس سمعتها من الروائى : نجيب محفوظ عنه :

الحقيقة ان : طه حسين .. أول من أيقظنا . كنا فى سبات . انى أحب أن أستعير ما قاله « كانت » عن الفيلسوف البريطانى « هيوم » .. انه كان فى سبات عميق حتى ايقظه هيوم منه .. ان : طه حسين .. صاحب أول ثورة ادبية فى عصرنا الحديث خرجت منها مدارس ذات فرعين . مثل فرعى النيل .. رشيد ودمياط .. اولاهما فى البحث .. وثانيتهما فى الانتاج الفنى .. وهو الذى اعطى اسمهما وبعد هذا انجازات طه حسين فى التعليم. كشخصية عامة . كوزير . اعماله خالدة . متمشية مع الخط الاشتراكى الحديث . ونحن كادباء شاعرون بأن وراءنا احتياطا فيه دفعة الحياة .. نرجو الله أن لا يحرمنا منها .

واسمع صدى سؤالى لنجيب محفوظ عن كتب طه حسين الاربعين :

فيقول : اثر فى فكريا كتابه « الأدب الجاهلى » وفنيا « الأيام » .. اما تأثيره الشخصى على .. فان أى لقاء مع طه حسين .. فى الواقع درس كبير .. ثم لا انسي أن تقديمه لى كأديب اعتز به اكثر من مادة الجوائز التى حصلت عليها . أن المادة تذهب ، ولكن كلماته باقية .

.. ويذهب حوارى مع نجيب محفوظ . لتقترب كلمات اخرى قالها لى موسيقارنا الكبير م. عبد الوهاب عن ذات العميد . عن طه حسين . وكيف التقى به فى حياته مشجعا فنه .. وكيف اقنع طه حسين ، عبد الوهاب .. فى أن يغنى بعدما سمع الموسيقار بوفاة والده .. وكان متفقا مع المتعهد اللبنانى ان يغنى ليلتها فى مصيف علياء فى لبنان . وكان راى امير الشعراء احمد شوقى من رأى عبد الوهاب .. أن يتنحى عن حفله ولا يغنى . ولكن طه حسين استطاع بعد حوار قصير ان يقنع الاثنين قائلا لعبد الوهاب ... ان الفنان يعطى دائما ما يحسه او يشعر به . فاذا كانت شاعرا حزينا اليما .. اجعل الناس تبكى معك . وهكذا غنى عبد الوهاب ليلتها والناس معه .. فهون عن مصابه .

ويتابع عبد الوهاب كلماته عن طه حسين :

ثم .. هو الذى شجعنى أن انتقل الى القصائد الغنائية الطويلة .. التى بدأتها بالجندول .. هو كان من محبى الشاعر الكبير : على محمود طه الذى كان من الشعراء المثقفين الذين سافروا ورأوا وعاشوا . وكان يعجبه . فغنيت الجندول وانكر ان طه حسين رأى أن يحضر تسجيلا للجندول . صعد فى دار الاذاعة القديمة .. اكثر من ١٠٠ درجة سلم .. ليتعرف على اللحن وتلحين الكلمة السريعة .. ثم قبلنى بعد ان أعجب بها .

.. واصل الى [رامتان] بيته الأبيض : اصعد الدرجات الى طابقه الثانى حيث يجلس د. طه حسين فى زيه الكامل . وفروع خضر تطل فى فضول على جلستنا بعد ان علت تتلصص ما يدور وراء زجاج شرفه الغرفة.

اهنىء طه حسين .. قائلا له .. الدنيا حر النهارده .

ويومىء العميد قائلا متلفتا : لا احس بالحر ولا بالبرد . الحمد لله .

... — هل قرات تحية توفيق الحكيم لك بمناسبة عيد ميلادك ؟

... — نعم .. وانا شاكر له كل الشكر . وان كنت عاتبا عليه عتبا شديدا .

... — ولماذا العتاب .. والرجل يهنىء ؟

... — لشيئين . احدهما .. أن اعواما طويلة تمر . دون أن القاه او أسمع صوته بعد أن كان فى أول عهده محبا كثير الزيارة — والثانية — انقطاعه عن متابعة مجالس المجمع اللغوى اعواما ايضا بحيث لا يأتى الينا الا اذا مر عليه الأستاذ القللى واتى به فى سيارته وانا الذى استقبل توفيق الحكيم فى المجمع عندما اصبح عضوا فيه .

ان آخر عهدى بتوفيق الحكيم عندما اهدى الى الرئيس جمال عبدالناصر قلادة النيل .. فبعث الى برقية تهنئة .. انما .. زيارة أو كلام .. لا ..؟

... — أعتابك .. عتاب صديق ؟

... — طبعا .

... — كيف تقابلتما فى الحياة ؟

... — كنت فى مصر الجديدة اقيم . عندما نشر كتابه « اهل الكهف » وجاءنى صديق بهذا الكتاب . قراته . قرظتة تقريظا به اشتهر توفيق الحكيم .. ارسل لى برقية شكر . واظنه كان فى دمنهور . ولا ادرى . كان

فى النيابة . ثم جاء الى القاهرة . حيث كثرت زياراته لى .. واحيانا وحده . او مع الأستاذ القللي او مع بعض الأصدقاء الآخرين . وانما كانت الزيارات كثيرة ومتصلة .. انس بها كل الانس . ولكن من سنين طويلة انقطعت اصبحت اقراه ولا اسمعه الا كلما زار المجمع اللغوى . وكان لماما وقليلا .

... — يمكن بيوفر اجرة التاكسى ؟

ويضحك طه حسين مقهقها هاتفا .. : جائز ! هذا يذكرنى فى خطبة استقبالى .. عندما استقبلته فى المجمع .. قلت ان « توفيق يقول للناس انه بخيل وانا اشهد للناس انه ليس بخيلا .. وعندى ما ادلل به على ذلك. ففى سنين متعددة . كان ينتظرنى فى عودتى من الخارج . من أوربا فى الأسكندرية .. ويدعونى مع زوجى ومع الأستاذ حسين فوزى الى الغداء . ويدفع هو الثمن .. ولكن اللطيف بعد انتهاء الجلسة جاءنى عاتبا .. لماذا قلت لست بخيلا .. ستسلط الناس على .. وسيأتون لى ويطلبون المزيد .. !

... — ولكن كيف اشتركتما سويا فى تأليف كتاب واحد هو [القصر المسحور] .. ازاى . ؟

... — سنة كام لا اذكر . وهو يذكر زمان كنا فى فرنسا .. تقابلنا فى بلدة « ميرانو » وبها كتبنا هذا الكتاب .. وكان نوعا من المزاح بينى وبينه . كان هو صاحب الفكرة . هو كتب جواب .. ولما شفته كتبت ارد عليه .. وبهذه الطريقة المتتالية كثرت الرسائل . وجمعها ومنها تألف الكتاب .

... — والفلوس . كيف اقتسمتما ايراد كتابكما ؟

ويرد طه حسين مبتسما ولكنه يعود مؤكدا كلماته المبتسمة .

... — اللهم اشهد انى لم آخذ من هذا الكتاب مليما واحدا ولا ادرى.. هل اخذ توفيق شيئا ام لم يأخذ .. ؟

لانه لم يخبرنى بشىء .

... — ولكن رأيك فيه كاتبا .. لا صديقا .. ؟

... — توفيق .. كاتب ممتاز لعالم المسرح اما الرواية فلا اعرف له الا [عودة الروح]

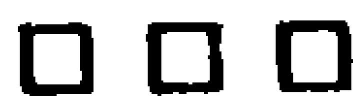
... — ونجيب محفوظ ؟ امس استمعت الى تحيته اليك .

... — هذا فضل منه يشكر عليه . انه قصاص ممتاز فى غاية الجودة . لقد كتبت عن قصصه كثيرا .. خاصة خان الخليلى — قصر الشوق — السكرية — وزقاق المدق .

انى عاتب عليه مثل عتبى على توفيق الحكيم ..
لا .. انه زارنى مرة .. اظن من ١٠ سنوات ؟ !

... — وعرفت من الموسيقار عبد الوهاب حكاياتك وتشجيعك له .

... — انى احب فنه .. نعم اذكر عندما جاءنى شوقى فى لبنان وانبأنى بانه تم اتفاق مع عبد الوهاب على أن يغنى فى فندق القهوة فى عليه .. ثم جاءه نبأ وفاة والده فعدل عن الغناء . الححت على عبد الوهاب . حتى قبل . وفى اثناء ما كان يغنى اخذه البكاء . وكان مؤثرا جدا .



دخول القصر ولا الخروج منه!

□■□ .. واعود بالعتـــاب والسؤال عن الفلوس . فلوس الـــكتاب [القصر المسحور] الى الحكيم :

□ .. اسأل توفيق الحكيم .. ما ردك على عتاب د. طه حسين لك.. فى انه اصبح يقـــرأ لك ولا يسمع منك .. ولا يراك ، بعد ان انقطعت زياراتك له :

يصمت توفيق الحكيم ثوانى .. ثم رد مبتسما :

.. انا الآن لا ازور احدا .. لانى لا اخرج من بيتى بعد الظهر منـــذ سنوات طويلة .. اما الصباح فهو كل ما يتبقى لى لانجاز مشاغل الحياة، وجزء منه ايضا انفقه فى المشى البطىء على الاقدام فى شوارع القاهرة ، عملا بمشورة الأطباء .. هذا ونحن الآن فى مرحلة من العمـــر نكتفى فيهـــا بذكرياتنا القديمة عن الناس والأشياء والزملاء ..

... ـــ وماذا عن كتابكما المشترك [القصر المسحور] .. وقصة ايراده التى لم يحصل طه حسين على نصيبه منه ؟

يبتسم الروائى الكبير توفيق الحكيم . يرجع براسه الى الوراء مسندها الى اصابعه اليسرى ليقول :

... — أما عن كتاب [القصر المسحور] الذى قال شريكى فيه د. طه حسين انه لم يقبض منه شيئا .. وانا وحدى الذى وضعت يدى على الايراد .. فالظاهر ان ذاكرة الزميل العزيز قد خانته فالكتاب طبعه باديء الأمر الكاتب الكبير احمد الصاوى محمد ، بذوقه الرفيع من ٤٠ سنة وأخذنا منه ما اخذنا ثم أعاد الهلال نشره آخر مرة من ٣٠ سنة وتولى توزيع الأجر .. وكان المرحوم طاهر الطناحى مدير التحرير وهو القائم بصرف المستحق لكل منا .. وقد انقدنى ١٠٠ جنيه ، وقال انه انقد شريكى طه حسين ١٠٠ مثلها ..

ومنذ ١٦ سنة اذيع الكتاب فى حلقات وقررت الاذاعة لذلك مبلغا من المال قسم بيننا واعطى لكل منا نصفه . هذا ما حدث ولا يمكن ان يحدث غيره لأن الذى ينشر أو يذيع كتابا هو دائما جهة مستقلة عنا ترسل الى كل منا نصيبه .. والا ايه ؟ ! .. مش كده ؟ !

ولكنها السمعة التى لحقت بى ظلما فى مسائل الفلوس .. دى ويبدو انها قد لصقت بى نهائيا .. بالحق وبالباطل وربما .. الباطل فيها اكثر من الحق .. !! ولا سبيل الى دفع ذلك عنى وأمرى الى الله .

وما تلبث ابتسامة توفيق الحكيم .. أن تكبر الى ضحكة .

. . . . .

. . . . .

☐ .. نفس السؤال اعود لأسأل روائينا نجيب محفوظ : هل من رد او جواب .. ؟ ؟

فيرد : « انا من النوع الذى يحب عن بعد .. ان حياتى فيها انطواء يمنعنى من الزيارات حتى الى اقرب المقربين واخيرا وليس آخرا .. فان مثول أو حضور .. طه حسين فى روحى دائما يجعلنى احس بأنى فى زيارة دائمة له .. ده حتى توفيق الحكيم .. انا لا اراه الا من السنة للسنة فى الاسكندرية بس .. شهر كده فى الصيف .. اللى يعرفنى لا يعاتبنى .. ولكن أقولك الحق انى انكسفت قوى من نفسى عندما قرأت عتاب طه حسين .. رحت لبتاع الورد .. وبعت .. !! ؟

... — وردة واحدة .. زى توفيق الحكيم . ؟

... — وردة توفيق الحكيم دى تبقى تساوى حديقة منى .. !!

☐ ☐ ☐

واعتقد انه يكفى القصر الذى اضاف خياله الى مكتبتنا العربية شيئا جديدا يجمع بين طه والحكيم وشهر زاد .. وانه يجمعهما على بعض صفحات كتابى هذا .

خصموا مني نصف شهر!

□■□ .. وتنتهى المداعبة .

ويسرع الحكيم الى سالزبورج .

ويعيش أيامه بين مروجها ومعالمها وامسياته مستمعا الى سحر الألحان التى جاء من أجلها الآلاف يستمعون اليها خلال مهرجانها ..

ثم هو يعود وقلبه الراقص فى قطار نابضا بحب راقصته البولونية : « ناتالى » ، الى باريس .. ليودع أصدقاءه ويلملم خطاباته ، التى نشرها فيما بعد فى [زهرة العمر] وكانت عند صاحبه : أندريه وزوجته جرمين . وكان الزوج كثير التغيب ، وكان الحكيم شديد الصلة بها وبصـــداقتها ، والخروج معها .

وقد سألته حديثا .. اكانت حبك الخامس ؟

الحكيم — ماذا تعنى ؟

... — جرمين ؟ ؟

الحكيم يتطلع الى الأزرق . الى البحر . وكأنه يتذكر أياما كانت حلوة . أيام الشباب ، ويرد سارحا ساهما باسما :

... — جرمين كان شعرها أسود . وهو ما لم يكن يستهوينا فى الشرق أيامنا لاعتيادنا على سواد الشعر وسمار البشرة . اما من احببتهن فكن

شتراوات . سوزى مثلا كان شعرها اشقر وعيناها زرقاوتان وهو مايلفت نظر القادم كالعصفور من الشرق الى الغرب ، لأول مرة .

. . . . . .

. . . . . .

ويعود توفيق الحكيم الى مصر ليعود وينشر فى ١٩٣٧ بعض ملامح وذكريات له عندما كان وكيلا للنائب العام فى طنطا ودمنهور وفارسكور ودسوق .. ولكنه كساها بالفن ليفردها من جديد على صفحات كتابه [يوميات نائب فى الأرياف] .

ثم يشتد به الهزر حول بخله أو حرصه . سمه ما شئت وان كنت اصفه بخيلا . فينشط وهو يذكر بخيل العرب [أشعب] فيؤلف حول شخصيته ونوادره كتابا فى ١٩٣٨ وكانت سنة خصبة الانتاج بالنسبة للحكيم اذ أنه اصدر فيها ايضا كتبه : [تحت شمس الفكر] و [عهد الشيطان] و [عصفور من الشرق] و [حمارى قال لى] .

ويستمر خياله متدفقا العام الذى يليه فنجده فى ١٩٣٩ يقدم كتابين : [براكسا : أو مشكلة الحكم] و [راقصة المعبد] .

وهو العام ذاته الذى يغير من وظيفته مديرا لتحقيقات وزارة المعارف الى وزارة كان يتمنى وجودها ودعا الى اقامتها وهى وزارة الشئون الاجتماعية ، فأسندوا اليه وظيفة جديدة نقلوه اليها وهى مدير مصلحة الارشاد الاجتماعى . لعل تجاربه فى ريف مصر .. تجعله أقرب الناس الى حلها .

ولكن الأدب يغلب عليه .

يقدمونه لمحاكمة تأديبية [!!] . النتيجة خصم نصف مرتب شهر ! ويضحك الحكيم جدا .

ولكن قبلها بقليل تقوم الحرب العالمية الثانية .

الأزرق القاتم يطلى كل زجاج . كل النوافذ تغلق . كل فوانيس الطريق . حتى كشافات السيارات .. حتى لا يتسرب ضوء تصطاده طائرات الأعداء . اعداء من ؟ ان الحرب بين قوات الحلفاء الذين ملأوا القاهرة والاسكندرية وبعض معسكرات فى صحرائنا الغربية .. وبين قوات المحور ؟ مالنا نحن . ولكن الحرب كتبت علينا ان نشهدها . بعد ان جعلوا مصرنا قاعدة ومخزن تموين لها !

ان مصر كانت اشبه بمعدة حرب لقوات الحلفاء ومرفأ راحة وأمان لهم وسندا فى عمقها لحظة الخطر .

ففى اول سبتمبر ١٩٣٩ اكتسح الرايخ الألمانى بولندا . ثم سقطت بعدها فرنسا كورقة خريف فى ١٤ يوما فقط !! وكان ذلك فى يونيو ١٩٤٠. وتتحرك قوات الاتحاد السوفيتى وتهاجم الألمان .

وتستمر الحرب حتى ١٩٤٥ . عندما اعتصرت الاحداث كل العالم المتمدين تقدمه قربانا بدماء البشرية شرقا وغربا وشمالا وجنوبا . حرب

جمعت امريكا الى روسيا وبريطانيا ونصف فرنسا واليونان وقوات دول عديدة ضد المحور اليابانى الألمانى وبينهما ايطاليا حائرة . واهلها مولعون بالموسيقى وتذوق الطعام اكثر من الحرب وويلاتها !

نرى الحكيم مستمرا فى وظيفته .

ولكن قلمه . قلم الفكر يشده الى ان يكتب ويقدم جديد !

فنجد له [نشيد الأنشاد] . و [حمار الحكيم] : كتابان طلعا له فى ١٩٤٠

تبعهما بأن نشر : [سلطان الظلام] . و [من البرج العاجى] فى ١٩٤١ و [تحت المصباح الأخضر] . و [بجماليون] ١٩٤٢ .

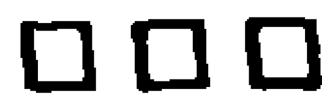
ويستقيل من وظيفته الحكومية ١٩٤٣ . وهى سنة تحول فى حياته . انه يصدر فيها كتابه [زهرة العمر] .. وينبض قلبه بالحب . انه يخطب سيدة أعجب بها كل الاعجاب . سيدة عرفت كيف تمحو من خطيبها عداوته للمرأة .. فقدم لها زهرة شبابه وعمره . كان له من العمر وقتئذ ٤٥ سنة. وقد اختارته [اخبار اليوم] ليكتب فيها ما يرى ومتى يرى . وقد عمل فيها ٩ سنوات حتى جذبته وظائف الدولة ثانية فاختارته مديرا عاما لدار الكتب . وظل فيها ٥ سنوات حتى أقيم مجلس الدولة فى ١٩٥٦ فاختارته مصر عضوا دائما ومتفرغا فيه [درجة وكيل وزارة] .

ونعود الى سنة ١٩٤٣ . ان الحكيم ينال فيها جائزة من الدولة عن كتابه [مسرح المجتمع] ويقدم [سليمان الحكيم] .

ويمر عام فينشر : [الرباط المقدس] حيث يتزوج عام ١٩٤٤ فتشغله سعادة الأيام عن ما مضى ويندم على تلك العداوة التى افتعلها فان بيت الزوجية ظلله بالهناء . فلماذا يسرح الى بعيد ويتخيل ويكتب .

ثم يتباطأ انتاج توفيق الحكيم نسبيا .. انه يصدر عملا واحدا فى ١٩٤٥ هو [شجرة الحكم] ..

ثم تمر فترة سكون .. دائما يجتازها أصحاب المواهب . الم يبعد بيكاسو انامله عن الفرشاة والالوان والاقلام سنتين .. ان توفيق الحكيم يتوقف عن تقديم ولو كتاب جديد للحرف العربى طوال ٣ سنوات هى ٤٦ و ٤٧ و ٤٨ ولا ينقطع خلالها عن كتاباته الأسبوعية فى « اخبار اليوم » . ولكنه يفكر ويتأمل . لحظة نفس فكر بين شهيق وزفير تدفق الأيام . انه يعيش ويختمر لفترة قادمة .. يتهيأ لها فكرا ووجودا . حتى اذا ما هل عام ٤٩ فانه يقدم لنا [الملك اوديب] ثم يتبعه بـ ٢٠ مسرحية ضمها كتابه [مسرح المجتمع] عام ١٩٥٠ .



من كشكش حتى غانزى !

.

□■□ .. وما ان ينتصف القرن العشرين أو قبل هذا الانتصاف بشهور حتى نجد ان الحياة الفنية والأدبية فى مصر تفقد نجمين . هما : الكوميديان الأول نجيب الريحانى وابراهيم عبد القادر المازنى . والاثنان كانا صديقين للحكيم .

نجيب الريحانى [٥٧ سنة] او « كشكش بيه » : الذى قدم للمسرح ٨٢ مسرحية مرحة ثلثها الأخير هادف للحكمة والعظة من خلال سخرية القدر والمفارقات وذلك مثل : « الدنيا جرى فيها ايه » . و « حكم قراقوش ». و . « مين يعاند ست » . و . « فانوس أفندى » . و . « قسمتى » . و . « مندوب فوق العادة » . و . « الدنيا على كف عفريت » . و . « الستات ميعرفوش يكدبوا » . و . « استنى بختك » . و . « الدلوعة » . و . « ماحدش واخد منها حاجة » .و. « حكاية كل يوم » . و . « مدرسة الدجالين » . و. « ٣٠ يوم فى السجن » . و . «ياما كان فى نفسى» . و . « حسن ومرقص وكوهين » . و. « الا خمسة » و « سلاح اليوم » .. يحاول من خلالها كشف سيئات المجتمع واصلاحه .. بينما كان الثلث الأول مما قدمه للمسرح الباسم الساخر خلال ٣٤ سنة .. مجرد متعة العرض والاستعراض . وما بينهما كان لمسرح الفرجة والنقد اللاذع فى مجتمع غريب الشكل والتشكيل للأوروبى اكثر من ميزة فيه على ابن البلد.

كان نقدا لاحياء الشعور الوطني . وأن الأرض ياناس هي أرضكم والأجانب دول قاعدين بيعملوا ايه . يتآمروا عليكم ويستغلوكم بس ! اصحوا ياناس. يا عالم . اتحركوا . اضحكوا صحيح ولكن اتحركوا !

ويمثل نجيب الريحاني ايضا ٥ افلام من بينها : « سلامة فى خير » و « سى عمر » . و . « غزل البنات » .

ولكن قدره يتتبعه الى الاسكندرية فى آخر مايو ١٩٤٩ حيث يصاب بالتيفود ويغلقون مسرح محمد على حيث كان يمثل . ينقلونه فورا الى مصر. الحقن الجديدة للمضادات الحيوية ضد الحمى لم تكن موجودة فى مصر . يأتون بها بالطائرة من أوروبا . ولكن ممرضة تحقنه باحداها . فيموت فورا . حزن يعم البلاد . البسمة راحت . او بطلها بدأ يغيب . وكانت له شعبية فى كل بيت . كرمته الدولة : اطلقت اسمه على مسرحه فى القاهرة وكان اسمه ريتز . واسمت شارعا قريبا من مسرحه باسمه . واعلنت عن جائزة ..١٠ جنيه لأحسن طالب فى معهد التمثيل يؤدى الكوميديا كل عام ، وايضا ان تخصص ليلة فى دار اوبرا القاهرة كل موسم تقدم فيها احدى روائعه للجمهور .

وبعد شهرين مات ابراهيم المازنى وعمره ٦٠ سنة تماما . ولد ومات فى نفس اليوم مثل ما كان من قدر شكسبير الذى جاء موعد ميلاده هو تاريخ وفاته فيما عدا ٥٢ سنة تفصل بينهما وكان ذلك من ٣٧٢ سنة .

واذا كان المازنى جليس فكر للحكيم كما كان الريحانى جليس فن لهما. فان المازنى كان متقدما ببساطة أسلوبه وعمقه عن العديد من كتاب مقال عصره عندما اتجه للصحافة بعيدا عن الوظيفة التى استقال منها . ومن عجب انه كان سيصبح طبيبا . ولكنه ما ان دخل اول درس فى التشريح فى كلية الطب حتى وقع مغشيا عليه . فاتجه الى الحقوق .. ولكن نفقات التعليم وقفت حجر عثرة .. فغير تعليمه لثالث مرة الى مدرسة المعلمين التى تخرج منها ١٩٠٩ . حيث بدأ اتصاله بعباس محمود العقاد . وكانا متقاربى المزاج .. رغم ان هيئتهما اذا ما وقفا او مشيا فانهما يبدوان للرائى وكأنهما رقم ١٠ واحد طويل جدا وهو العقاد . بينما كانت قامة المازنى تميل الى النحافة والقصر . ومع ذلك فالتفكير والعقل والذكاء واحد فى الاثنين . اعنى على قدر واحد . مما دعاهما أن يكتبا للصحف ويوقعا معا فى ذيل اغلب مقالاتهما عند بداية حياتهما المتصلة بالراى والجمهور عندما اختارتهما الصحافة .. فتتدرجا فيها .

وقد اختار محمد حسين هيكل : المازنى نائبا له .. كرئيس تحرير « السياسة » حتى ينيبه عنه اذا ما جاءه الحكم بالوزارة . وكان المازنى يبدى دائما تبرمه من ان يظل صحفيا طوال عمره . فالادب هو حلمه وميدانه ورغم قدرته العجيبة وسرعته الفائقة فى الترجمة . حتى كان ابرع مترجمى زمانه ، فى اسلوبه المتدفق السهولة فى التعبير .

ثم كانت ملاحظة غير عابرة . فالمازنى هو الوحيد بين كتاب جيله الذى تطور واسرع فى أن لا يستعمل قلمه ليكتب ، وانما يجالس آلته الكاتبة .. « التايبريتر » . يكتب عليها ويدق مقاله ــ دون مسودة ــ مباشرة .ومنها الى المطبعة .

اما ياقارىء وقارئتى .. ولو كنتما من جيل معاصر حديث جدا فاقول لكما ان : المازنى الذى كان احد كبار الفكر العشرة فى النصف الأول من قرننا الذى نحياه .. انما ترك للمكتبة العربية عديدا المعــه : « ابراهيم الكاتب » . و . « فى صندوق الدنيا » . و . « الطريق » . و . « حصاد الهشيم » . و . « قبض الريح » . و . « خيــوط العنــكبوت » . و . « ابراهيم الثانى » . و . « ع المــاشى » . و . « من النــافذة » . و . « ثلاثة رجال وامراه » ومسرحية : « بيت الطاعة » يناصر فيها حــرية المراة مؤكدا : صرخة قاسم امين ، لتحريرها .

ويترك المــازنى حياته ساخرا كأسلوبه ، الذى عبر به عن فكره الذى تأثر بالأدب الدينى فى التوراة والانجيل والقرآن ..

من بداية سفر الجامعة .. « باطل الأباطيل الكل باطل » . ما الفائدة للانسان من كل تعبه الذى يتعبه تحت الشمس ، دور يمضى ودور يجىء. والأرض قائمة الى الابد والشمس تشرق والشمس تغرب وتسرع الى موضعها حيث تشرق .. ..

ويهضم المازنى ادب الدنيا الذى لحق به قديمــا ووســيطا ومعــاصرا لزمنه وزمانه من فلسفة الأغريق الى انجلو ساكسون ومن شكسبير الى كيتس وشيللى وبيرون .. الى ادب العرب والمستعربين .ليختار طريقه ، فى وقت كانت تتفتح مصر فيه على نوافذ الفكر .

. . . . .

. . . . .

□ .. ولكن الشمس تشرق دائما من جديد .

وتعلو نصف القرن العشرين .

لتبدأ ١٩٥٠ ويبدأ يوسف وهبى محاولته الثانية فى جمع شمل فرقتــه رمسيس فيقدم : [المائدة الخضراء] . بعد ان تفرقت فرقته الأصلية بعــد انشاء الدولة للفرقة القومية واستعانتها بأغلب ممثليه القدامى .

كان قد بدأ فرقته رمسيس من ٦٥ سنة ، فى ١٩٢٣ ، حيث بدأ بمسرحية « المجنون » وتلاها بـــ : « الشياطين السود » وذلك ضمن ٣٠٢ مسرحية. منها اكثر من ١٠٠ مسرحية عالمية و ٦٠ من تأليفه والباقى اقتباسا ، وذلك غير ٧٠ فيلما مثلها وقام باخراج نصفها للسينما .

□ الا اننا نشهد مع ١٩٥٠ سطوع ادب الحكيم عندما يترجم بعضــه الى الفرنسية فتنتشر باريس ترجمـــات له : [بجماليون] . و . [سليمان الحــكيم] و . [نهر الجنـــون] . و . [عـــرف كيف يمـــوت] . و [المخرج] . و . [بيت النمل] . و . [الزمان] .

□ .. ثم هناك رجلان .. لهما على نهاية النصف الأول من هــذا القرن .. تأثير على الفكر العالمى .

غاندى : أو « الروح العظيم » وهو معنى غاندى زعيم الهند الذى نادى بالسلام سلاحا وبالعصيان ضد المغتصب البريطانى . كان مثــل الانبيــاء

□□□

متبتلا صالحا لا يريد من زخرفة الدنيا مغنما . كان يحرص على ان يظهر للناس فى الهند وحتى خارجها وفى صقيع لندن كلها ركع من أجل قضية بلاده .. يظهر شبه عارى الرأس والصدر والساقين ولا تحمل قدماه الا صندلا كالخفة خفيفا . يجر وراءه غذاءه . وهو معزته . التى تعود أن يشرب لبنها . عرف السجن والتشرد بعد أن خلع رداء المحاماة .. ليصبح المحامى الأول لقضية الحرية والتسامح فى بلاده . حتى ظفـــر بمشروع اســـتقلال الهند .. بالاتفاق مع بريطانيا ١٩٤٦ . ولكن ما تمر ســـنتان حتى تغتاله رصاصات سفاح فى بداية ١٩٤٨ .

وتذهب سيرته عطرة الى كتـــاب العالم وشعرائه . يدونون ويكتبون ويعبرون . عن رسول الحب والاخاء الذى عاش ٧٩ سنة .

. . . .

□ ورسول آخر للفكر الباسم وقد عاش طويلا حتى نوفمبر ١٩٥٠ وهو الساخر البريطانى ــ الايرلندى الأصل والمولد ــ الكاتب الطويل الرفيع القامة : جورج برنارد شو [٩٤ سنة] .. والذى قرأ له الحـــكيم كثيرا وتابع مسرحياته .. مثل : [ميجور بربارا] . و . [وظيفة مستر وارين] . و . [حيرة طبيب] . و . [جان دارك] . و . [عودة الى بيت الأسى] و . [عـــودة متوشـــالح] .

وقد بدأ حياته صرافا صغيرا يعد الفلوس ويعطيها أو يأخذها للبنـــك لا فى جيبه ثم تطور وأصبح ناقدا ــ جدليـــا ــ فنيا ومسرحيا .

وسوف يذكره الأدب وعالم الفكر طويلا ..

فاذا عددنا بين أدباء الانجليزية .. فأننا سنجد دائما برناردشو .

وسنجد سخرية منه وبعيدة عنه فى مظهر حوار الحكيم أحيانا . روح التهكم فى الحديث . والرمز وأدب العبث ، أسلوبا .

وان كان الفرق بينهما أن برنارد شو ترك ثروة قدروها بأكثر من ثلث مليون جنيه استرلينى بالعملة الصعبة طبعا !

وربما هناك اعجاب خفى من الحكيم ببرنارد شو من ناحية فلسفته التى كثيرا ما كان يرويها خاصة فى أواخر أيامه ــ رغم غناه ــ وتهافتت صحافة الدنيا لعلها تفوز بكلمات من حكمه السيالة فكرا الى ورق .. وذهبا الى جيبه ــ ذلك ان شو كان يرى أن أهم دعم فى دنيانا هو الفلوس .. التى هى تمثل الصحة والقوة والشرف [!!]

. . . .

□ وتمر سنة .. لا ينتج فيها الحكيم كتابا وهى عام ١٩٥١ .

حريق القاهرة ٢٦ يناير ١٩٥٢ .. حدث أسود يطوف بالنار والدخان يملأ سماها بثورة شعب لايريد عسفا ولا يرضى ضيما .

٢٣ يوليو : شعب مصر يثـــور .

يسقط فاروق ويخرج مبعدا من مصر ٢٦ يوليو ١٩٥٢ .

يصدر للحكيم كتاب هو : [فن الأدب] .

ثم ينشر فى ١٩٥٣ : [ارنى الله] . و . [عدالة وفن] .

وكأى كاتب عميق .. انما يتفاعل بالأحداث لا على السطح انما يعايشها فانه أصدر فى ١٩٥٤ رواية [الأيدى الناعمة] التى اصبحت فيلما ثم مسرحية .. مثل بطولته يوسف وهبى واحمد مظهر واشتركت معهما الممثلة المطربة صباح . وتحكى قصة أمير .. وفترة انتقاله . او انسلاخه من حالة انعدام العمل والتعايش بالوراثة .. الى سعادة المشاركة .. أن يصبح واحدا من الناس لا عالة على واحد من الناس !

وفى نهاية ذات العام ينشر [تأملات فى السياسة] ويجمع مقالات له وينشرها تحت عنوانها [عصا الحكيم] فى كتابه . ثم يكتب قصته [مراكب الشمس] تو كشفى لهـا بعـد أن احدثت دويا علميا واسطوريا عالميا لعقيدة مصر فى البعث والخلود بعد الحياة والموت . وكيف انها وسـيلة لتحمل الروح الى أبد الآبدين فى موكب الخلد ، موكب الشمس ، رب الارباب .. كما تصورها الأجداد .

وتدفعه مراكب الشمس وكشفها ، جنوب قاعدة الهـرم الاكبر ، على ربوة اهـرام الجيزة الى ان يحلق فى أساطير الخلود عند الفراعنـة . فيتجه الى [التاسوع] .. أو اسطورة الخلق والخليقـة . حيث تخيـل الفراعنة عند بداية الايمان .. بأنه من المـاء الأزلى طلعت الشمس واصبحت عجوزا .. وعطست لحظة .. فخرج من فمها هواء ورذاذ . اصبح الهواء الهـا للفضاء [شـو] والرذاذ الهة للرطوبة [تفنوت] ، فاندفعت « العطسة » حيث كانت ربة السماء [نوت] فوق رب الارض [جب] رتقا منسيا .. ففصلتهما .

وصعدت السماء الى أعلى وبقيت الأرض مكانها والهـواء فاصـلا بينهما .. الا أن السماء تنجب اربعة توائم : هما الأخان أوزير [اله الخير] وست [اله الشر] حيث تزوج كل منهما باخته التوأم أوزير من ايزيس [ربة السحر والجمال] وست من [نفتيس] .

ويدور عراك .. بين ست واخيه اوزير حبيب الشعب . حـول ملك مصر . ويتآمر ست مع صحاب السوء على أخيه الطيب أوزير ليتخلص منه .. فى أسطورة طويلة .. ولكن الوفية ايزيس تبحث عن زوجهـا الشـهيد .. حتى تعيده بقوة السماء الى الحياة وتنجب منه : حـورس وليدهمـا .

ولقد تلحظ انى دائما أذكر أوزير بدلا من اوزيريس . لان النطق المصرى القديم له كان أوزير كما احب ان أكتبه دائما لاغيا ما اضافه الأغريق فى زمانهم ثم أصبح خطأ مشاعا وهو اضافة (يس) غالبا الى نهاية الأسماء المصرية العتيقـة .

ثم تترجم له باريس فى تلك السنة : (مشكلة الحكم) . و . [السياسة والسلام] . و . [الشيطان فى خطر] . و . [بين يوم وليـلة] . و . [العش الهـادىء] . و . [اريد ان اقتـل] . و . [السـاحرة] . و . [دقت الساعة] . و . [أنشودة الموت] . و . [لو عرف الشباب] . و . [الكنز] .

وهنا يكتب توفيق الحكيم فى ١٩٥٥ مسرحيته : [ايزيس] .

ويبدأ فى اعلان فلسفته حول [التعادلية] فى كتاب ينشره فى نفس السنة .

"التعادلية" بين آدم وحواء؟

□■□ .. من منا من لم يدفعه الفضول — مهما كان عمره أو كانت ثقافته — فيقلب صفحات الجريدة او المجلة ، ليرى — خلسة وفى طرفة عين — باب [حظك اليوم] .. أو [حظك هذا الأسبوع] . او هذا الشهر .. باحثا عن اسم : برجه ، الذى ولد فى احد أيامه .. فيتتبع المكتوب لعله يكشف المستور . وما ستأتى به الأيام من حظ سعيد باسم يقبل عليه أو قلق يود الابتعاد عنه .. أو نصيحة يلتزم بها او بشرى خير يتعلق بها . أو وظيفة .. سكة مفتوحة يقبل عليها .

انت بالقطع تعرف برجك . اى « البرج » الذى ولدت فيه . لا البرج الذى يطير من الدماغ لحظة غضب ما .

ون النادر ان يهتم احد بأبراج غيره — الا برج من يشغل باله .. — وهى الأبراج الـ ١١ الأخرى التى تستكمل الاثنى عشر برجا ، والتى فكر فيها أول من ابتدعها وهم اهل مصر القدامى ومن جاور بلادهم أو عندما رحل بعضهم فجعل يحكى عنها للآخرين من غرباء وأجانب .

والأبراج الاثنا عشر هى : الحمل والثور والجوزاء والسرطان والأسد والعذراء والميزان والعقرب والقوس والجدى والدلو ثم تنتهى دائرتها بالحوت الذى يبدأ ٢٠ فبراير من كل عام لينتهى فى ٢٠ مارس لتبدأ من جديد دورة الحمل فى ٢١ مارس . ومن المألوف لدارسى الفلك مع ابراج

السماء فيما يعرف بالـ « زودياك » فان كل برج تبدأ دورته مع العشرين من كل شهر أو من الأرقام الأربعة التى تليه مباشرة فلا تزيد عنها : يعنى .. من ٢١ أو ٢٢ أو ٢٣ أو ٢٤ من كل شهر . ولكن ليس تاريخ الميلاد نفسه فى ذات اليوم هو الذى يهم . اذ انه يحسب بكامل الدقة لحظة دخول : الشمس .. برج المولود . فى اى ساعة من ليل او نهار ثم ان هناك بروجا (متقلبة) مثل الحمل والسرطان والميزان والجدى . وهى تمثل اتجاه الجهات الأربع من شمال وجنوب وغرب وشرق .

ولأن كل برج منها متساو مع الآخر فهى دائما على غير وفاق وتتصادم ولهذا نجد ان الأول (نارى) والثانى (مائى) والثالث (هوائى) والرابع (ترابى) بينما هناك ٤ أبراج تالية (ثابتة) وهى تقابل الفصول الأربعة من ربيع صيف وخريف ثم شتاء ويمثلها : النور الثابت الترابى والأسد الثابت النارى والعقرب المائى والدلو الهوائى .

أما الأربعة ابراج الباقية فتمثل ساعات الليل والنهار فى فجر شروق الى عز النهار الى غروب الشمس ثم من منتصف الليل حتى بزوغ شمس جديدة :

وهى تتصل بالجوزاء (هوائى) . العذراء (ترابى) . القوس (نارى) الحوت (مائى) .

والهواء : رمز للمعة الذهن .
والماء : للعاطفة .
والنار : للنظام والنشاط .
والتراب : يمثل الواقعية .

ثم هناك تأثيرات كهربائية ومغناطيسية غير تأثير القمر ضمن الكواكب . الشمس . المريخ . نيبتون . عطارد . المشترى . بلوتو . الزهرة . رحل . القمر . أورانوس .

ومن الغريب ان اغلب مواليد ذات اليوم تتفق مشاربهم وطباعهم اذا ماكانت ولادتهم فى ذات اللحظة .

انظر على البعد الى ملامح وجه كل من الزعيم الراحل : سعد زغلول (٦٧ سنة) والاديب الساخر جورج برناردشو (٩٤ سنة) . ستجد شبه وجه كل منهما والأسد . غير طول القامة وطول العمر نسبيا . ان كلا منهما من مواليد برج الأسد .

— ستجد ان طبيعة بلزاك (٥١ سنة) وقبله الشاعر المتحرر بيرون (٣٦ سنة) وقبلهما وليم شكسبير (٥٢ سنة) .. من برج الثور .. ولو دققت ولاحظت لوجدت عديدا من الصفات المشتركة بين الثلاثة .. على اختلاف ازمانهم وأماكنهم سواء فى فرنسا او بريطانيا واليونان .. او بلاد الانجليز .

ونعود فى كل هذا الى اديبنا توفيق الحكيم . ستجد انه من مواليد برج (الميزان) .

الميزان : يمتاز بالحكمة والتوازن والاتزان والاعتدال .
والميزان له خاصية الهواء . التى ترمز الى النشاط الذهنى .
فهل نعجب اذا ما طلع علينا توفيق الحكيم بنظريته : (التعادلية) وهى

رمز كفتى الميزان .. ثم اذا ما وصفنا مسرحه بـ (المسرح الذهنى) !!

واذا كان لكل موهوب أو عبقرى متعدد الانتاج .. زهرة يانعة لامعة اللون بين أعماله ، تجذب الناس اليها . واذا ما ذكرت فهى رمز له وعلم عليه .. مثل :

لوحة الجوكندا	:	لـ . ليوناردو دافينشى
دون كيشوت	:	لسير فانتيس .
روميو وجولييت	:	شكسبير .
أوبرا عايدة	:	فيردى .
أزهار الشر	:	بودلير .
بيت العرائس	:	ابسن .
الحرب والسلام	:	تولستوى .
التكعيبية	:	بيكاسو .
تاييس	:	أناتول فرانس .
تمثال نهضة مصر	:	محمود مختار .
الأيام	:	طه حسين .
الوجودية المعاصرة	:	جان بول سارتر .

وبين شكسبير وفيردى سنجد :

السيمفونية الناقصة : لمؤلفها سيد الموسيقيين : بيتهوفن ، وهى سيمفونيته التاسعة التى تبدأ متهادية النغم رقراقة اللحن .. وتنساب الى حركتها الثالثة والتى ينتهى مع روعة المشاركة العازفة والآدمية المتدفقة الايقاع والقرار والصدى .. اذ تنتهى بأصوات ـ الكورال ـ الكورس الكبير حول رباعى المنشدين الذين يبتهلون بأذرعتهم الممددة فى ضراعة الى السماء .. وشفاههم التى تصبو وتدعو وتتضرع الى الله رب السموات . بأبيات الشاعر العظيم شيللر التى يعبر فيها عن الفرح :

ليحتضن الناس بعضهم بعضا
هذه قبلة للناس اجمعين
اسجدوا ايها الملايين لخالق السموات
وابسطى ايتها الارض أمام ربك صاحب الجلال .

وهى السيمفونية التى قدمها بيتهوفن لأول مرة فى أوبرا فينا من ١٦٤ سنة واحتفل بها عالم الموسيقى طوال ١٩٧٤ بمناسبة مرور ١٥٠ سنة على الاستماع اليها ويضحك القدر ويسخر طويلا وعاليا . فصاحبها بيتهوفن .. هو الأوحد الذى كان يصاحب ألحانها دون أن يستمع اليها .. حائرا متأملا .. فقد حرمته السماء قبلها من السمع .. هدمه الصمم !

. . . .

. . . .

واذا ما قلبنا انتاج توفيق الحكيم .. فاننا سنجد علما عليه
عودة الروح : فى الرواية
أهل الكهف : فى المسرحية .
التعادلية : كمذهب جديد للحياة والفن .. التزم به خلال اغلب انتاجه .

. . . . .

. . . . .

ان التعادلية .. بذرة عاشت فى وجدان توفيق الحكيم .. من يـوم ميلاده .. وتحت كفتى ميزان برج حياته .. دون أن يدرى بقدرية وجوده .. ولكنه وثب معها وجرى طفلا وصبيا بين مروج الأخضر .. فى ريف مصر .

مشى معها متأملا الأزرق على شاطىء بحر الاسكندرية .. فتيا .

حلق بها شابا فوق الأبيض .. فوق ثلوج الألب .

عاش تعادلية الفكر النبض .. نور نهاره وعتمـة ليله مع دفء الحب وصقيع الوحدة .

التزم بالتعادلية : عرف وترى .. ام لم يدر . او لم يعرف لحظة ابداعه اعماله الأدبيـة .

ان الفنان الحق هو الذى يستوحى ويستلهم ثم يضـع ما حمـل بعد ان جال وصال وتخيل .

ان غيره يشاركه فى وصف ما ولد . على ورق . على الوان التـوال .. اعنى مساحة اللوحة !

ان الأم لها راى فى اسم الوليد تماما مثل والده .

والكتاب ما هو الا كاتب وقارىء .

المسرحية ما هى الا مؤلف وفنان يمثل ومتفرج يرى .

ان هناك المشـاركة .

ان الحكيم يفسر ما ذهب اليه فى كل انتاجه انه يتجه الى الانسان .. فى وضعه العام . من الـكون بزمانه ومكانه . وفى وضـعه من المجتمع بيئـاته واجيـاله .

ان الانسان مخلوق مفكر : يعيش على الأرض .

الأرض بيضة مكورة فى الفضاء .. ترتبط بـكرة اكبـر . اضـخم هى الشمس ...

توازن ما .. مغناطيسية ما .. تربطهما فى دائرة المصير .

اذا اختلت معادلة التعادل بينهما .. بقى الأكبر وانتهى الأصغر . وقعت الأرض وهوت .. او تبتلعها السماء .

من راى الحكيم : ان التعـادل .. هو الحقيقة الأولى للواقعية .. للواقع فوق الأرض . بل لحيـاة الأرض ذاتها .. التى تعيش بالسالب والموجب . ان الحياة ما هى الا نبض . تنفس . تعادل بين زفير وشهيق . ضجيج ثم صمت .

حتى التركيب الروحى للانسان .. هو ايضا زفير وشهيق .. فـكر وشعور ارادة ونبض .. عقل وقلب .

فالانسان اذن كائن متعادل ماديا وروحيا . فيه قدر من الخـير ومثله من الشر . فيه الفضيلة والرذيلة . فيـه القوة والضعف . فيـه الوفاء والخسة . فيه الاندفاع والاستقرار . فيه الوعى واللاوعى . فيه المنظور وغير المنظور فيه المادية البحتة والايمان المطلق .

ان التوازن العقلى نتيجة انفلات وقيود . خيال وتمنيات وواقع وانتاج .

وانا ارى أن الجسد .. فيه توازن التماثل بين يمين ويسار .

الوجه ذاته فيه تماثل وحد فاصل هو الأنف .

الحياة بين بدايتين : ولادة ثم موت .

ان الحكيم يرى .. أن الانسان كلما عاش .. يناضل لترجح كفة على كفة .. اعادة التوازن بين الكفتين .. ولا يجد الا صراعا ابديا .. متصلا بلا نهاية .

ان الجسد رهين المحبسين .. بين وهن وقوة وبين مرض وصحة . بين بداية ونهاية . لابد من الصراع فى سبيل الحصول على التوازن ، التعادلية اذن عند الحكيم هى ضد طغيان القوة على الضعف وضد سيطرة العقل على الوجدان .. أو تحكم الوجدان على العقل . ان التعادلية ليست الا استمرارا للحياة . وليست مسك العصا من نصفها . انها بعيدة عن فلسفة اليونان التى تعكس الصراع بين القدر والانسان . ان التعادلية عندى ما هى الا قوانين تعيش فينا علينا ان نوازن بينها ، ان المصرى الذى عرف من واقع الحياة ان الموت مكتوب على البشر ومع ذلك حاول ان يتغلب على الفناء . حنط جسده . نجح الى حد ما فى صراعه حتى ضد العدم .

ان التعادلية عقيدة فكر .. تهدف فى النهاية الى الغاء الضعف . الغاء الجريمة . الغاء الهزيمة . بالتوازن مع القوة والفضيلة والعزيمة .

ان التعادلية صراع بين الأضداد .. وجود الخير والشر يؤدى الى وجود الضمير . والضمير خاص بالانسان . الذى يحس به الحيوان .

فالحيوان قد ينفع ويضر . ولكن بفعل الغريزة . من جوع أو شبع . والضمير كالخير . والشر لابد لوجوده من وجود الغير . اى المجتمع فالانسان الفرد المنعزل فى جزيرة نائية لا يهمه كثيرا او قليلا .. ان يصحو ضميره أو ينام . انه لا يتعامل مع احد . انه يعيش اذن بلاخير أو شر .

واذا كان توفيق الحكيم قد قدم مذهبه : التعادلية .. فقط فى عام ١٩٥٥ .. فقطعا قد عاشها متأملا الدنيا وما خفى منها . جسر ترعة يتأمل عصفورا يبنى عشا فوق فرع شجرة .. أو تحت ضوء مصباح كلوب .. يحقق فى جريمة وهو سعادة البيه وكيل النيابة .. أو وهو قادم الى القاهرة ليرى مسارحها .. يتردد مرتين قبل ان يدفع ثمن تذكرة الدخول عند الشباك من حر ماله الحلال .. أو وهو يفرد شمسيته ليدرأ رذاذ مطر بالقرب من برج ايفل وهو يتمشى عند السين .. ثم وهو يمرق من ازماته العاطفية . والعملية . انه صاحب قلم وراى . وقبلهما صاحب ارادة وضمير .. وقلب يخفق وشعور مرهف .

ويهمس الى توفيق الحكيم : ابن برج الميزان . وهو يقول : انى اريد أن لا تؤخذ كلمة التعادل فى تعادلين بمعناها اللغوى الذى يفيد (التساوى) ولا بمعنى (الاعتدال) أو التوسط فى الأمور . بل أعنى التقابل . القوة المعادلة . الحركة المقابلة للتغلب على هبوط كفة . للتوازن آخر الأمر . فالحياة عندما تبدأ من رقم ٢ عندما يجتمع واحد مع واحد . فالواحد المفرد يساوى صفرا .

كل حركة تقابلها حركة .

كل فعل له رد فعل .

كل قوة تعادلها وتقابلها قوة .

قلت لتوفيق الحكيم .. ان الانسان ليس واحدا .. انه آدم وحواء ..!



حمار يشعل ثورة أدبية !

□■□ .. لا أعتقد أن حمارا اشتهر فى تاريخ العربيـــة الحديثة مثـــل : حمار الحكيم .. الذى جلب له صيتا ومالا وفتح أمامه خيالا وآفاقا واطاعه طاعة عمياء منذ نعومة طفولته حتى طل الشعر الأبيض ليداعب سواد شعر راسه ساخرا .. اذ كلما كبر الناس اعلنوا ان بياض الشعر هو الحكمة بذاتها تقفز من الرؤوس لتعلوها .. ولا أحد يعترف بأن لسنوات العمر دخـــــلا .

والعربية ليست هى كلمة دارجة تعودنا أن ننطقها لعربة كارو .. يجرها حمار وانما اعنى بها لغتنا العربية الحلوة فى نبضها السريع المعاصر .

ولا أعتقد أن حمارا جلب السعد والصداع لصاحبه مثل حمـــار الحكيم الذى كان مع عصاه وحيا ومميزا .. بل كان الحمار وحده وحيا لكتابين للحكيم .. استطاع الحمار أن يقفز فوق الأدب . اعنى فوق غـــلاف كل منهما ليثبت وجوده كتابة .. لم يشق لحظة ليتعلم حتى ابجديتهـــا ولـــكنه استطاع ان يتخذ من غلاف كل كتاب منهما (موقفا) .. فكان عنوان الأول (حمارى قال لى) من ٥٠ سنة .. ثم يبدو أن الحكمة .. التى جعلهـــا توفيق الحكيم تجرى على لسان حماره فاستطاع ان يجعل من الفســـيخ شرباتا . وجعل من نهيقه أدبا رفيعا فيه افكار الفيلسوف تعلو تصرفات البشر .. وما أن اطمأن الى عمق حكمته .. فاذا به وبعد عامين يصدر

كتابه الثاني الذى يعتز به فيه .. وكان توفيق جريئا وكريمـــا لأنه وضع اسمه يجاور اسمه تماما فجعل عنوانه (حمار الحكيم) .

فى كتابه الاول عنه . . جعل يحكي على لسانه كل ما يود . . حيث فرد آراء ما بعدها آراء وكأنها حكم الزمان واذا تصفحنا كتابه هذا فسنجد فيه ١٨ فصلا كلها عن آراء صاحبه حيث تبدأ بكلمة : حمارى .. ثم يثنيها او يثلثها بكلمة او كلمتين بعده ونجد من بينها على سبيل المثال : « حمارى والطوفان » . « حمارى وهتلر » . « حمارى ومؤتمــر الصـــلح » . « حمارى والذهب » . « حمارى وعداوة المرأة » . « حمارى والنفـــاق » وهكذا . . تستمر جراة الحكيم معلنة من خلال ذلك الرأس الكبير . عفوا . اعنى رأس الحمار . حاول ان تتذكر الآن نسبة راس الحمار . الا تجدها كبيرة وممددة وهو يطرق الى امام وكأنه فيلسوف الزمان !

ولثالث مرة .. لا اعتقد ان شعبنا عرف الحمار واستغله واستفاد منه ونفر من عبادته دون الحيوانات والطيور المميزة .. مثل اجدادنا فى مصر .. فهم اول من استأنسوه ورعوه ثم ركبوه وجعلوا من ظهره مطية يركبون فوقها و .. « شي » .. و « حا » ويقرعونه ويوخزونه ليتحركوا من فوقه فى منتهى الكسل : اسفارا . قد تطول من قرية الى قرية ومن الدار الى السوق .. ويجعلوا من ظهور حمير زملاء لحمارهم الذى يركبونه..وتكون بالطبع اقل منه وسامة واكبر عمرا .. ولا تصلح الا ان يحملوها احمـــالا واثقالا وغلالا او عزالا . خضارا ام حصادا .

بل ان كلمتى « شي » و « حا » . كلمتان مصريتان قديمتان .. ومعناهما امشى . اخطو وتحرك واسرع !

ولـــماذا نروح بعيدا . . فالحمار وهو صغير . . نطلق عليه فى لغتنا العربية كلمة « جحش » ! .

هل يدور بخيال احد .. انت أيتها القارئة أو أنت .. بأنها كلمة فرعونية دخيلة على العربية . وان اصل نطقها هو كما ينطقه اطفالنا حتى الآن .. يعنى « جحس » اى السين بديلا عن حرف الشين الذى احتل مع الأيام مكانها . والمعنى واحد بالطبع وهو الحمار الوليد الصغير !

اذن الحمار .. كان فى حياة الرجل العادى من اجدادنا هنـــا وفى كل المشرق والمغرب العربى فيما بعد والأصل البعيد .. من شرق افريقيا من الصومال واريتريا والسودان القديم . وكان متوحشا يصارع قوى الحيوان الكاسر الاقوى .. مثل ملك الغاب الأسد ثم النمور والفهود .. من اجل البقاء . ثم استأنســه الأجداد . ليستعملوه ركوبا وحملا .. لدرجة انهم لم يعرفوا غيره بادىء الأمر .. عرفوه قبل الحصان والجمل والجاموسة ودواب الأرض . لدرجة ان قدامى المصريين اعنى الفراعنة .. نقشـــوا صوره حتى على جدران مقـــابر لهم وممرات وسراديب حتى يخـــدمهم فى عوالمهم الخالدة .. عندما يبعثون من جديد . بعد ان تجتاز الروح يوم الحساب الاخير وتثبت براءتها وطهرها امام اوزير الجالس على عرشــه فى قاعته الـــكبرى . هـــكذا كانوا يؤمنون ويأملون فى أن يحيوا .

ومع ذلك فاننا وان وجدنا للحمار ذكرا فى كتبنا المقدسة:التوراةوالانجيل والقرآن . فالسيد المسيح كان طفلا وليدا تحمله السيدة العذراء مريم فوق حمار يقود رحلتهما الى مصر يوسف النجار طلبا للأمان من بطش اليهود والرومان .. ثم عندما يحل السلام يعود المسيح ليدخل فوق حمار وديع.. مدينتنا القدس يوم الزعف .. ولكنا نذكر حمار عزير الذى ذكره القرآن الكريم فى سورة البقرة آيات رقم ٢٥٩ .

واذا كان لبعض الحيوان والطير والزاحف والسابح ذكر ورمز فى الآيات البينات والكتاب المقدس من حوت يونس الى بقرة بنى اسرائيل وطير ابراهيم وذئب يوسف وهدهد سليمان وكلب اهل الكهف وعنكبوت الغار وغراب ابن آدم وفلك نوح .. وحمار عزير الذى جاء ذكره فى سورة البقرة : ثم تلك الصورة الرمزية للآية التى قال السيد المسيح لتلاميذه : الحق اقول لكم انه يعسر أن يدخل غنى الى ملكوت الله . واقول ايضا ، أن مرور جمل من ثقب ابرة أيسر من أن يدخل غنى الى ملكوت الله . .

وهى آيه تضايق — على مدى الزمان — من غير شك كل امرىء مكتنز مالا . يأخذ فى جشع ولا يعطى فى سماحة . يرى الخير ولا يفعله وانما يغتصب ولا يهب فقيرا ولا غلبان .. وانما يصل ان يمد يده الى رزق الآخرين ، يقتنص لقمتهم ويفى على غيره . بل وعلى نفسه .

وبالطبع هذا المعنى سوف لا يسر خاطر رجل مع الشح يعيش ولا هدف له الا المال حرام .. حلال .. ليس مهما . بل المهم هو أن يغتنى ويكنز ويجعل من ذاته عبدا من عبيد الذهب !!

وشرقنا .. على ربا وسهول أفريقيا ثم آسيا .. كان اجدادنا أول من يضع الحكاية والعظة والحكمة والرمز على السنة الطير والحيوان .. وامثلة تدور حتى حول أشكالهم .

حاول الآن .. ان تتذكر هيئة تمثالنا [ابو الهول] الرابض صخرا منحوتا من نتوء جبل عند سفح ربوة أهرام الجيزة ، التسع .. ثلاثة للفراعنة من الرجال : خوفو .. و .. خا — ا ف — رع .. ومن — كاو — رع .. أصحاب الأهرام الكبرى فى ظلالهم ٦ اهرامات أصغر لست زوجات اخوات لهم .

تخيل تمثال ابو الهول ، جيدا .

نعم : ستجده يمثل خليطا من حيوان وانسان من جسد اسد رابض .. وراسه المتوج لانسان هو خا — اف — رع — .. صاحب مدفنه : الهرم الثانى هناك .

وتمثال ابو الهول .. يرمز الى القوة ..

قوة الفكر فى راس الانسان وقوة الجسد فى جسم الأسد .. اى تكوين سيريالى .. وكان هذا من ٥٠٠٠ سنة قبل ان يبتكر فنانو العالم المعاصر السيريالية .

وفى سوريا العراق القديم .. سنرى الحيوان المتأهب وله اجنحة طير ورأس انسان .

ثم لمحـــة .. الى بعض رموز قدسها قدماؤنا من صقور وقردة وقطط وخراف آمون رع وخنوم و .. و ..

ولنذكر كيف عبرت هذه الرموز والصور والنقوش والأشكال حتى الى اساطير اليونان فنجد ابولو فوق عربته السارحة تشق فضاء السماء تجرها الاحصنة والخيل المطهمة المجنحة .. ثم لنصلف الأرباب عند أهل مقدونيا وجبل أوليمب .. عندما يتصورون حصانا لم يكتمل راســا وانمــا يكمله رأس وصدر انسان لم يستكمل ساقيه وانما حل بقية الحصان مكانها !

ثم .. هل ينسى أحد أن شرقنا ايضا ابتدع من الأدب والأفكار .. على لسان الطير والحيوان ما انتشر وكان عنوانه : [كليلة ودمنة] .. التى ترجمت عن القصص الهندى الغائر فى القدم وخيال الانســـان نقلت الى اللغة البهلوية الفارسية ثم ترجمها عبد الله بن المقفع الى العربية وأضاف اليها مبتغيا من تقديمها .. ارشاد الخليفة المنصور ، لعله ينتصح بالايحاء ، الى ما يجب أن يتمسك ويتحلى به من مبادىء وخلق رفيع .

وقديما قالوا .. خذ الحكمة من الطير والحيوان .

ويبدو ان توفيق الحكيم تأثر من كل هذا .. حتى الأعلام الذى تعود أن يراها طفلا أو صبيا ثم عندما خطت به الحياة الى عمر الفتوة وسن الشباب فالرجولة .. وعبر المسقى ثم الترعة والنيل عبر البحر .. فانه بالقطع رأى وقرأ كثيرا وعديدا وعلم أن بعض دول وعواصم عصرنا انما تتخذ حتى من الحيوان او الطير رمزا : مثلا ..

الأسد : رمز الحبشة وبريطانيا وايران .

الصقر : رمز مصر وليبيا وسوريا .

النسر : رمز الولايات المتحدة الأمريكية والمانيا البروسية والبرازيل .

الدب : رمز برلين وموسكو .

بينما الحمار والفيل : رمزا لأكبر حزبين فى أمريكا !

ثم .. هل ينسى أحد .. ذلك العدد المحترم من رموز وصـــور الحيوان والزاحف بين نجوم وأبراج الحظ ! وبختك اليوم وأبراج السماء .. ومن عجب ان هذه الأبراج لا تحمل رمزا لطيرا واحد .. وانما للانسان والحيوان والسمك فقط . ويمثل الاثنان الآخران غالبيتها مثل : الحمـــل . الثور . الجوزاء . السرطان . الأسد . العقرب . الجدى . الحوت .

. . . . .
. . . . .

بل ان توفيق الحكيم عاش بعض طفولته فى الريف . وبالقطع استمع الى بعض اسماء القاب العائلات ومنها : الضبع والنمر . الحيوان . الديب . تعلب . القط . الفأر . الوحش . الحمار !! وبالطبع كان هناك رمز وراء الايحاء فى اطلاق هذه الأسماء واطلاقها فى يوم ما على طفل وليد . ذلك حتى يدرأوا الحسد عنه . لهؤلاء الذين يحرصون على ان يكون الوليد ذكرا .. خاصة اذا ما جاءت ولادته بعد عدد من الأناث .. أو لو جاء بعد وقت طال وبدا اليأس يسعى الى قلب الوالدين .. لعل هذه التسمية تبعد عين الحسود التى قد ترقى الى الطفل فتصيبه ولهذا اراد الأهل — خاصة فى الريف القديم — ان يمتهنوا الاسم حتى اذا ما سمع احد باسم الوليد .. فانه سيسخر ولا يحسد !

لى صديق زميل هو الصحفى اللامع : محمد الحيوان .

لم أكن قد قابلته الا فى مطار القاهرة مع وفد زملاء يتجه الى موسكو فى طائرة خاصة وفيها ام كلثوم .. وكانت على موعد لتغنى هناك منذ ١٧ سنة . فكنت طوال وقتى احرص ان اناديه باسمه الأول دائما . وهو يبتسم .

وكلما زاد ندائى كان يزداد ابتساما . حتى عندما كنت لا اناديه باسمه الأول .

وفى الطائرة .. نتجانب الحديث .. ويناديني بلقبى .. لعلى اجد الفرصة فى أن ابادله لقبا بلقب .. ولكنى كنت اتحرج واصر على ان اتحدث اليه بلا مقدمات .. أو اذا كان ولابد : يا استاذ محمد .. او يا محمد .. أو اتناول الموضوع على طول دون اسماء .

ووصلنا موسكو .

وتكررت الحكاية كذا مرة .. والغربة تصاحبنا وتجعلنا اكثر قربا . وتعشينا . وكل الى سبيل فى فندق « راسيا » .. احدث فنادق الاتحاد السوفيتى وفيه نحو ١٦٠٠ حجرة نوم !

وعلى مائدة الافطار .. ابتسم وقال . مش تاخد على شوية وبلاش حكاية اسمى الأول .. يا اخى متتول على طول وتنادينى .. يا حيوان . قلت له انك تحمل فى اسمك كل الوفاء والجسارة . فما وجدت وحوشا الا بين البشر . وما استأنست وامنت الا الى كائنات الله دون أغلب الناس . وما كنت افرد هذه الدعابة .. الا لأكسر حدة جدية المعلومات التى تكثر وتدور حول خلق الله . واستطاع الضجيج حول هل سرق الحمار ام انه استوحى حمارا وان المسألة مجرد توارد أفكار .. ان يجعل المجتمع يقلب فى صفحات فكر توفيق الحكيم .. الذى اعطى كثيرا واضاء قلمه ومسرحه للنفس والروح والوطنية ضد المستعمر .

تستمر العاصفة شهرين .

تهديه مصر الدولة : أرفع وسام .

والا فانه من السهل أن أتهم توفيق الحكيم انه اقتبس [الأيدى الناعمة] التى قدمها للفكر المصرى بعد ثورته .. عن حياة الدعة التى كان أحد الأمراء قد عاشها فى سالف الزمان ثم جار عليه الزمان .. فاختلط بالشعب وباسطه واستلذ عيشته وحكمته . وهى التى حولتها السينما العربية فيلما مثله يوسف وهبى أمام أحمد مظهر وصباح . وعرض فى مهرجان برلين السينمائى منذ ٢٣ سنة .

ثم أنسى أن هناك حمارا آخر اشتهر فى أوروبا خلال قرونها الوسطى وهو حمار بوريدان .. الذى يمثل الحيرة .. ظل حائرا بين البرسيم والماء .. عاجزا أن يتخذ قرارا هل يشرب أولا أم يأكل ؟ وظل حائرا حتى نفق.

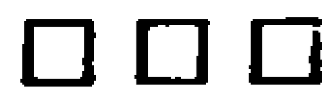
من السهل أن أكتب انه — اى الحكيم — قد اقتبس أو تأثر بفيلسوف الوجودية المعاصر : سارتر ، عندما الف وعرض مسرحيته [الأيدى القذرة] عام ١٩٤٨ التى هاجمها اليسار اينما كان هجوما عنيفا واتهمته جريدة هومانيتيه الفرنسية بأنه كاتب مأجور فئة : « قرش لكل سطر » .. وانه يعمل قوادا لشعور العداء لهم . وتشاء الصدفة أن تتحول « الأيدى القذرة » الى فيلم ايضا .

ولكن ورغم أن هناك خطا أو خيطا سياسيا رفيعا . فشتان ما بين : أيدى الحكيم .. وايدى سارتر ..

ان أيدى الحكيم انظف .. من غير شك .

الأولى : مشكلة مصرية بحتة .. عاشتها مصر فى حركة انتقالها المعاصرة. اما أيدى جان بول شارل ايمار سارتر [٧٥ سنة] . فان موضوعها ومعالجته بعيد كل البعد انه يمس : البورجوازية واليسار .

ربما تشابه نصف العنوان فقط . وهذا لا يعيب تماما .. مثل تشابه نصف عنوان عرف به طه حسين . كاتبا فى صحافتنا عندما كان يكتب تحت عنوان [حديث الأربعاء] .. وذلك العنوان الذى اختاره « سانت بيف » الذى كان — قبله — قد اختار عنوانا لأفكاره الدائمة كلما أراد أن ينشرها بين الحين والحين تحت عنوان [حديث الاثنين] !



على كل حال .. ظل حمار الحكيم : يثير نقاشا . شغل صحافتنا واذاعاتنا . ومجالس الأدب وصالوناته ..

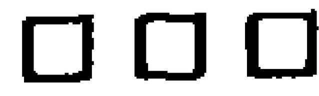
وهل الادب ورسالة الأديب المفكر .. الا حجرا يرميه على صفحة البحيرة الهادئة ليثير النقاش والتعمق فى الأشياء .

اذن اصبح لقضايانا الادبية وجود . اذن نحن نفكر . حمار الحكيم .. بدا مع صفحات الكتاب جحشا صغيرا . جعله منفذا لآراء هى اكبر من عمره ولكن الحكيم اتخذه تكأة يستند من ورائه يقول ما يريد .

وليس بين بلاتيرو وحمار الحكيم مشابهة فى الشخصية ولا فى المواقف المنسوبة اليه .. فحمار الحكيم شخصية حيوانية معروفة فى الادب العربى لا حاجة بالمؤلف الى استعارته من الآداب الأجنبيـــة وفى هذا الحمار يقول الشـــاعر :

قـــال حمـــار الحـــكيم يومـــا لو انصـــف الدهر كنت أركب

فـــان جهـــلى جهـــل بســـيط وصـــــاحبى جهـــله مـــركب



وما أكثر ما اثار « الحمار » من غبار .. خلال تاريخ البشر على صفحات الأدب والفن الشعبى .. جحا وحماره مثلا .

ثم هل ينسى احد كتاب « رحلة على حمار القرية » للويس ستيفنسون الذى تخيل وقدم للأدب العالمى « جزيرة الكنز » .

بل ما أكثر ما قاله الفراعنة . نقشا كأنما هى نكت منقوشة وكأنها حوار بين الحمار وراكبه !

بل ما أكثر ما يتحدث الفلاح الغلبان .. الى حمار .. وهو يشكو له همه أو يتسامر معه ليقتل ملل ووحدة طول المشوار .

ولا اخال أن توفيق الحكيم الذى ترعرع ونما صبيا فى الأرياف .. يتجاهل طفلا وصبيا شكل وهيئة الحمار . فقطعا كانت هناك مشاركة بينهما فى اللعب والصبى توفيق الحكيم يركبه ويداعبه على الأقل فى المشـــوار من مدرسة الريف الى حيث يقيم على الأرض الخضراء ، النابتة بأصالة الخير .

ثم هناك توارد الخواطر .. قد تكون واحدة .. فالأسبانى : خمنيز .. ولد فى اسبانيا التى غزاها الفكر العربى ٨ قرون من الزمان ابتداء من عام ٧١١م . واستمر فيها علوا وارتفاعا ثم ميلا وغروبا خلال ٧٨١ سنة هى طول الحكم العربى الاسلامى فى الأندلس .

منبع التراث واحد الى حد كبير وان اختلفت البيئة .

. . . . .
. . . . .

ولكن مع بداية خريف ١٩٥٨ أى من نحو ٣٠ سنة .. اذا بأدباء مصر ينشغلون فجأة بما اسميته وقتئذ : (ثورة الحمير) . ! والتى سرت وذاعت بين اقلام ادباء أمتنا العربية .

وموضوعها الذى هب فجأة على سطح المناقشة هو : حمار الحكيم : .. هل هو شبيه لحمار آخر وله آراء .. أصدره الشاعر الأسبانى خمينيز فى كتاب عنوانه (الحمار وأنا) ؟

يشير بالتساؤل الناقد الأديب رشـــدى صالح ؟ ومن ورائه يقف كامل الشناوى وجلال الحمامصى . فالذى أثار بداية هذا الجدل كانت جريدة الجمهورية وكانا مسئولين عن رئاسة تحريرها .

هاج قلم يوسف السـباعى .. على فـكرة التهجم الأدبى — وحملة التشكيك — التى بدأت تلف حول حمار . صاحبه هو الحكيم ، الذى يكفى أنه أصدر قصته « عودة الروح » !

يدافع كامل الشناوى ويكتب تحت عنوان : الهدم والبناء .. وتوفيق الحكيم :

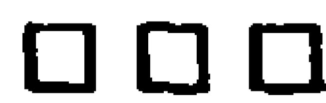
« كثيرون عتبوا على الجمهورية انها أفسحت صفحاتها للتحقيق الأدبى حول (حمار الحكيم) و (حمار خمينيز) ، وقد أشفقوا من أن يكون هدف التحقيق هدم كاتب كبير يدين له ادبنا بأكثر من وثبة الى فوق .. وأكثر من خطوة الى الأمام » .

ويطل عباس محمود العقاد من نافذة « يوميات » جريدة الأخبار ، ليبرىء الحكيم ، وقد نشر بحثه تحت عنوان : العقاد يحكم ببراءة توفيق الحكيم .

قال ان الأديب الأسبانى جوان رامون خمينيز لما اصدر كتابه الذى أسماه « بلاتيرو وأنا » — وبلاتيرو .. هو الاسم الذى أطلقه خمينيز على حماره.. ومعناه صانع الفضة .. انما هو آراء يبديها حماره فى ١٣٨ موقفا .. مثل موقف لعبة الفراشة وفى الرهان والقمار وموقفه من كلب الصيد وموقفه أمام طاحونة الهواء الى آخر هذه المواقف التى تكاد تلم بالحياة الأسبانية فى كل ناحية من نواحيها ..

رشدى صالح يقول .. ولكن قالب بداية التمهيد الذى يجمع بين المؤلف وشقراء وكلب مدلل وحمار .

العقاد يرد .. ولو . !



موقف لأربعة حمير فقط ؟

□■□ .. واذا كان الحكيم يعتز فى حياته بأربعة حمير .

فقد خرج من هذه الثورة « الحميرية » أو الثورة « الحمراء » ولم يلحقه غبار ازعجه بل تكريم أعجبه .

اذا ما هبط ونزل بعيدا عن البردعة .. فاذا بالصحافة والاذاعة والتليفزيون الوليد .. يهتمون به كل الاهتمام بعد أن أهداه ناصر وساما .. أكبر قلادة . وكرمته مصر بعدها بستة اسابيع فعينته مندوبا دائما لها فى مقر هيئة اليونسكو ، وهى المنظمة المتفرعة من الأمم المتحدة لنشر العلوم والفنون والآداب . وبدأ الحكيم يستعد لمرحلة العودة الى مدينة أحلامه ورؤى شبابه : باريس . وكان ذلك فى ١٧ يناير ١٩٥٩ .

اذن سيعود اليها ناضجا هذه المرة . بعد أن قضى زهرة شبابه بين سراديب الفن والفكر ، يحاول ان يختلس من دراسته للقانون ساعات يقضيها فى اجواء الثقافة تحت سماء قلب باريس وظلال حوارى مونمارتر .. متطلعا الى دار الأوبرا وهو يضع أصابع يده فى جيوبه لعله يجد بعض ما تبقى من فرنكات بقيت من شرائه كتبا للقانون . وقصصا للمفكرين والأدباء العالميين . حالما ان يدخل بين أروقة الدار ، ويجلس فى قاعتها ليشاهد روائع الفن : يتكلم يتحرك . فيحرك ما فى الرؤوس .

واذا بالفرنكات اقل من ثمن كرسي قريب من خشبة المسرح . يضطر الشاب أن يتسلم سلالم تقوده الى أعلى التياترو . فهو يصر على غـــذاء الروح قبل غذاء المعدة ـــ ولم أر الحكيم مقبلا على طعام أو شراب !

ويرجع الشاب الى بلده .. الى الشرق .. الى مصر . ليؤلف ويكتب وينشر . ويستقيل ليتفرغ لفن الأدب والقصة . وقال أغلب الناس عنـــه انه مجنون ! .

وسكت هو . لم يتكلم . دائما راح يكتب . يكتب ويكتب .

وبدأ الشاب يكبر مع الأيام . واسمه يلمع . وبدأ أكثر الناس يتحدثون عنه . عن توفيق الحكيم . فقد أضاف الى الفكر العربى : الكثير .

وقد أضاف الى المسرح العربى : بصمة مضيئة .

اذن هى رحلة [عودة الروح] اليه . له دخل ورصيد . سوف يعوض رحلة الحرمان والتلمظ ..

هل يذكر كم من الليالى وقف عند باب مطعم يشـــم رائحة الشـــواء . ويحسبها . ويقنع نفسه بلاش احسن .

رحلة سوف لا تجعله يقف متطلعا الى أسماء الكتب أمام الفترينات .. ليهرع بعدها الى المكتبات العامة ليقرأ ما اثاره أو يتصفحه مجانا . بل سيدخل هذه المرة ، ليشتريها . او ليوصى بشرائها . وارسالها الى مكتبه.

. . . . . .

. . . . . .

اذن لم يضع الحكيم عمره : جائلا مفكرا ساهيا : من صغره وهو يداعب « جحش » الغيط . الى أن غوى وهوى : شكل الحمار ، لا عقله . ربما ايضا شغف بصبره وعناده وتحمله . ثم ان الحمار لا يتكلم كثيرا . ينهق أحيانا . ربما لأن حمارة تمر على البعد وقد هزه شباب الجسد . آخر الأمر أنه لا يحب الا جنسه . ليس مهما أن تكون حمارته !

وربما لأن الحكيم يرى فى الحمار فلسفته : يرى ويسمع ولا يتكلم . تماما : مثل : حكمة القرد التى جاءت من الصين القديمة : حدوتة ، تحكى وتروى وتقال .. كلون من الحذر ، يجب أن يرعاه الانسان : احيانا .

. . . . . .

. . . . . .

والحكيم معتز بأربعـــة حمير .. طوال حياته . جاءته بكتابين وصداع ووسام ورحلة وغيبة بعض الوقت فى عاصمة يحبها . ومن يكره : باريس.

انه يكتب عنهم مقدمة كتابه « حمارى قال لى » : وجعل عنوانها متساءلا : من هو حمارى ؟

الحمار له فى حياتى شأن .. انه عندى كائن مقدس كما كان الجعران عند المصريين القدماء .. لقد عرفته منذ صغرى فى صـــورة جحش جميل اشتراه لى اهلى بثلاثين قرشا ، وجعلوه لنزهتى فى الريف .. وكانت له بردعة صغيرة حمراء لا أنساها .. وكنا خير رفيقين .. لا نفترق الا للنوم.. فقد كان فى مثل سنى .. اى فى طور الطفولة من فصيلته ، كما كنت انا فى طور الطفولة فى جنسى .

على هذه الحال من المودة عشنا حتى فرقت بيننا الأيام ، فذهبت أنا الى مدارس الحضر ، وبقى هو فى ريفه .. وعدت فى الصيف بعـــد اعوام ، فوجدت الحياة قد تنكرت له ، فالبردعة الحمراء قد نزعت من فوق ظهره، والقى بها فى مكان مهجور ، ووضع مكانها « غبيط » يحمل فيه التراب والسماد والطين .. فدنوت منه ، ومسحت رأسه المعفر بكفى ، فنظر الى نظرة حزينة ، وكأنه يقول لى :

ــ « أرأيت ؟ .. لقد ذهبت الطفولة وولت ايام الهنا ؟ .. »

وحزنت تلك النظرة فى قلبى ، ونظرت الى من حولى قائلا :

ــ « أما كنتم تستطيعون ان تجنبـــوه هـــذا العمل الشاق المهين .. وتجعلوه على الأقل للركوب ! ... » .

وكأنه فهم عنى ، فقد رفع رأسه نحوى ، وكأنه يقول :

ــ « لا فائدة ! لا تجهد نفسك معهم .. ما من أحد غيرك يعـــرف لى قدرا .. » ولم تستطع شفاعتى ان تغير شيئا ممـــا كتب عليـــه .. فتركته لمصيره .. ثم بلغت مرحلة الشباب ، وفرغت من الدرس،واشتغلت بتأليف الروايات التمثيلية ... فلم يفتنى أن اجعل من الحمـــار شـــخصية فى رواية لى ، فظهر على المسرح ولم أره للأسف . فقد كنت غادرت مصر وذهبت الى اوربا فجاءتنى الأخبار بأن الحمار ادى واجبه على اكمل وجه، وقام بدوره فى الرواية على نحو يستحق الاعجاب .. ولكنه نظر بعد ذلك الى جمهور المشاهدين نظرة عميقة ، ثم فعل فعلة غير لائقة لوثت خشـــبة المسرح .. وخرج بين سخط الممثلين وهرج النظارة والمتفـــرجين ... وقد بلغنى انه ضرب عندئذ وطرد واهين ، ولو كنت انا حاضرا لدافعت عن ذلك المســـكين .

واغلب ظنى انه ادرك بغريزته ان الجمهور لم يفهم الرواية .. فنـــاب عنى فى اظهار احتقاره له بالطريقة التى رآها موائية .

ومضى نحو عشرين عاما ، فرايت الجحش مرة اخرى فى شوارع القاهرة، واشتريته بثلاثين او خمسين قرشا مرة اخرى ولكن هيهات .. لقد كان هو فى طفولته وانا فى كهولتى .. فلم يكن بيننا غير صمت طـــويل انتهى بموته .. أتراه ادرك بسليقته أن أوان اللعب قد فات بالنسبة الى ! .. فآثر ان يتركنى سريعا قبل ان استكشف بنفسى هذه الحقيقة فأحزن ؟ ...

لقد سميته « الفيلسوف » وقد علمني اشياء كثيرة بمجرد صمته وارتفاعه فوق لجج هذا البحر الخضم : بحر السخف الانساني ! ...

ثم رأيت الحمار بعد ذلك فى الريف اثناء زيارة قصيرة فى احد الأعياد .. ذهبت للراحة بضعة ايام .. وقد خطر لى أن أصطاد السمك فى جدول غير بعيد .. فسرت على أقدامي مع بعض الفلاحين يحملون لى عصا الصيد وساء تقديري لقوة احتمالى السير .. فقد شعرت بالجهد والتعب بعد مائة خطوة .. ولم يجدوا لى حيلة غير وضعى على صهوة حمار من حمير التراب كان يعمل فى حقل قريب .. ولم أر والله فى حياتي اتعس ولا اشقى من ذلك الحمار ..كان الدم يقطر من ظهره ، لثقل « الغبيط » وهزال جسمه، وبروز عظمه . ولا احد يرحم .. وكان يتضور من الجوع ويمد بوزه الى كل عود اخضر يجده فى الطريق فلا يلقى غير اللكم ممن يقودونه ، ولا يظفر بغير اللطم .. لقد كان ذلك الحمار ملكا لبعض المستأجرين الفقراء من الفلاحين ، الذين لا يملكون للحمير قوتا .. ولا يدخرون ما عندهم من « العليق » الا للجاموسة والبقرة التى تدر اللبن .. اما الحمار فهو فى نظرهم لا يساوى أكله .. وهو يذكر عند المهمة العنيفة والعمل الشاق .. ولكنه ينسى عند حلول الاكلة النظيفة ، فعلى المسكين اذن أن يلتقط ما يصادف فى طريقه من عشب مهمل او ورق متروك ، وليتهم مع ذلك يدعونه يفعل .. فهم يدفعونه فى ظهره بالعصا كلما تباطأ قليلا لالتقاط رزقه من الأرض بحجة أنه يتلكأ ويتلاكع ويتكاسل عن عمله المفروض .. اما اذا حدثته نفسه اللعينة ، فمال برقبته على حقل للأذرة ، وفقد رشده وخرج عن وعيه ، وهبر بأسنانه عودا منها او كوزا دانيا ، فهى الطامة التى لا تدانيها طامة .. فان الصياح يعلو من كل جانب ويهرع اصحاب الزراعة بالهراوات ينهالون بها على المسكين وهم يتصايحون : « حوشوا الحمار نزل غيط الذرة ! .. »

ذلك هو الحمار الذى امتطيته ذلك العصر .. وقد وجدت مشيته ابطأ من مشيتي .. ولكنى فهمت السبب ، فتركته يسير كما يشاء ، ويلتقط ما شاء .. ونهرت كل من أراد بالضرب حثه على الركض ، بل لقد فعلت اكثر من ذلك ، لقد تركته — وقد شعر ولاشك بتسامح راكبه أن يمد فمه الى كوز ذرة دنا من طريقه .. وشرع الفلاحون فى الصياح فاسكتهم فى الحال بقولى :

— « اتركوه ! ... اتركوه ! .. » .

فسكتوا مرغمين .. اما هو فقد طحن الكوز بأسنانه طحنا سمع له خشخشة وبلع ، فكان لحركة البلع فى حلقه معمعة ، وخيل الى انى أرى الطعام يحدث عنده لذة لم يحسها المسكين منذ امد طويل .. وسار بعد ذلك وكأن كل خطوة من خطواته تسبيحة حمد وشكر .. الى ان بلغنا الجدول المقصود ، فترجلت ، واخذنا فى الصيد ، واوصيتهم ان يتركوا الحمار يرعى الكلأ النابت على حافة الماء .. وشهد الله لقد كانت ساعة لم ينعم بمثلها .. والله اذا أعطى فانه يعطى احيانا بغير حساب .. فقد تهيأ لذلك الحمار السعيد وقتئذ الماء والخضرة .. فأظفره الله بالباقى :

اى الوجه الحسن فى صورة حمارة شابة كانت ترعى هى الأخرى مع بعض خراف ونعاج على مقربة منه .. فما راعنى — وانا مشغول بصيدى — الا صوت من بين الفلاحين يصيح :

— « حوشوا الحمار والحمارة .. ! »

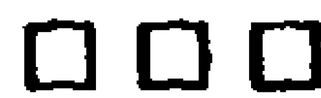
فالتفت فاذا المغازلة على اتمها بين الحبيبين . فقلت :

— « اتركوهما ! .. »

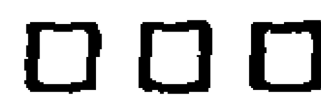
فتركوهما حتى انفصل احدهما عن الآخر .

وفرغت أنا من صيدى ، فركبت الحمار عائدا وهو يركض بى كالمرح ، فقد اكل ، وشرب وتنـزه ، وغازل.. انها لحظة من الهنـاء قد سرنى واسـعدنى انى اتحتها له .. ولكن القدر قد جعله يدفع ثمنها غاليا .. فالمكتوب عليه الشقاء . يجب أن يحاسب على كل فرحة تتسرب اليه خلسة من يد القدر النائم .. ولم تمض بالفعل ايام حتى سمعت أن ذلك الحمار قد نفق جوعا ، وسقط اعياء وسط الحقل ، رازحا تحت أثقال ما يحمل من تراب .. فألقى الفلاحون بجثته فى المصرف .. ولم يكلفوا انفسهم حتى مؤونة دفنه ، وضنوا عليه حتى بذلك التراب الذى قضى حياته التعسة كلها فى حمله على ظهره .. فلما بلغنى ذلك امرتهم أن ينتشلوا جثته من المـاء فى الحال وان يدفنوه .

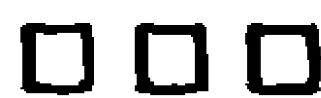
ولست ادرى حتى هذه اللحظة افعلوا أم سخروا وكذبوا على وتغافلوا عنه حتى جرفه التيـار .



من بين هذه الحمير الأربعة : اين حمارى الذى يحادثنى واحادثه ؟ ! ... انه ليس واحدا بالذات من بينها ... انه جميعها انه هو كلها مجتمعة فى واحد .. هو روح هذه الأربعة التى عرفت انه النوع بفصائله ، والفصيلة بصفاتها .. انه أى حمار ، رأيته أو لم أره .. مهما تكن ظروفه ومصائره .... اى حمار من تلك الحمير التى أعرف أو لا اعرف هو لى صـديق .. احبه واحدب عليه ، وافهم ما يجول فى خاطره .. وانظر الى عينيه واصغى اليه ، فيخيل الى ان صمته الطويل قد انفرج عن حديث مؤنس يدلى به الى ، واسئلة طريفة يلقيها على .



وبعد .. هل خسر توفيق الحكيم .. عندما دفع قروشا حين اشـترى ما اشترى . انه لم ينفق على شىء نفق !



اين اختفى صاحب الوسام؟

□■□ .. آخر ما كان يتوقعه توفيق الحكيم صاحب [عودة الروح] ان يتلقى — اكبر وسام للدولة وهو الوسام الذى اهداه عبد الناصر له تقديرا لجهوده الأدبية وما اداه والفـــه وكتبه ، فأعلى من شـــأن الأدب القصصى والمسرحى العربى .

وكان الحكيم خلال دوامة استمرت نصف شهر .. دوامة كانت تدور حول بعض شخصيات مؤلفاته — حول حماره — وسكت الحكيم ولم ينطق حرفا واحدا .. تماما كما تصور ابطال مسرحيته اهل الكهف .

ويفاجأ توفيق الحكيم بأعلان الاهداء .

كان توفيق عائدا مترجلا الى بيته الذى يطل على نيل جاردن سيتى .

وكانت عودته بعد أن تناقلت اذاعتنا الخبر بعد الظهر .. لحظتها كان يمشى تحت شمس هادئة يتطلع الى النيل فى سرحة الفن .

رايته صدفة . حييته وهنأته . توفيق يندهش لا الا دية .. ولـــكن للتهنئة واخذ يستفسر عن السبب ؟ ازاى بقى . وقد بـ الحوار .

.. — تهنئة على ايه .. على الحملة ؟

.. — لا على الوسام .. الوسام الأكبر اللى ...

.. — مش معقول .. بقى كده .. يا سلام .. والله انا مستحقوش؟.

وبدأ توفيق فى فرحته الكبرى يمر بكفه الأيسر على وجهه والعصا فى يده اليمنى تهتز وتقف وتهتز من جديد .

. . . . .

. . . . .

وتوجه توفيق الحكيم الى بيته ليتلقى نفس التهنئة واخذ يسال عن كيفية اذاعة الخبر بالتفصيل .. ثم لجأ الى سريره لشعوره ببعض مبادىء الانفلونزا .

ثم .. ثم لم يصبح حديث لدوائر الثقافة فى مصر .. الا توفيق الحكيم والوسام ..

يومها قال لى يوسف السباعى « .. لو كنت نلت هذا الوسام لما فرحت هذه الفرحة التى افرحها لتوفيق الحكيم فى الظروف التى تعمدت بعض الناس فى مهاجمته مهاجمة تسىء الى ادبائنا وادبهم .. فلا اكاد اتصور أن يرسم قارىء رسما هزليا لتوفيق الحكيم وهو يسرق حمارا . ويبعث القارىء بالصور لتنشر .. وتنشر فعلا ويقولون له احضر لتأخذ جائزة .. ده تشويه واضاعة للقيم .. اعتقد ان الوسام وضع كل شىء فى مكانه الصحيح » .

بعدها بيومين . اى فى اول ديسمبر ١٩٥٨ اجتمع أدباء مصر لتكريم توفيق الحكيم فى نادى القصة والمناسبة : الوسام الذى فاز به : « قلادة الجمهورية » .

ولكن توفيق الحكيم لم يحضر .

واخذ أهل الأدب يمدون اذرعتهم وايديهم لا الى قلم يكتبون به ولكن ليتطلعوا الى الساعات .. فالمحتفى به قد تأخر !!

طال انتظارهم وبدأ الهمس واخذ البعض يبحث عنه . بالتليفون فى بيته .. فى شبرد .. فى اى مكان اعتاد ان يجلس فيه الأديب توفيق الحكيم — وكان له من العمر ٦٠ سنة — ولكن لا وجود لتوفيق ونزل يوسف السباعى الذى ركب سيارته واخذ يبحث عنه .

اعتقد اكثرهم ان عقدة النسيان جاءت لتوفيق فنسى حفلة تكريمه .. ولكن ظهر لهم أن عقدة النفزع من الجمهور والاجتماع به هى التى ابعدته عن الحفلة .. وهى نفس العقدة التى تصيب توفيق الحكيم امام ميكرفون الاذاعة وعدسات التليفزيون الذى يخاف منه ومنها .

وهى نفس العقدة التى تجعله يهرب من حضور افتتاحية اى مسرحية له !

وتوفيق لا يخجل من عقدته بل يعترف بها . وقد خطها فى خطاب الاعتذار الذى بعث به — متأخرا — الى يوسف السباعى ليقرأه على من حضروا اغرب حفلة تكريم . ليكرموه . غاب العريس لحظة فرحه .

ورجع يوسف ليقف ويتحدث .. اعتذر عن توفيق الحكيم وطلب من الحاضرين ان يحتفلوا به على غرار صلاة الغائب .. ووقف ليقرأ خطاب توفيق .

« عزيزى الأستاذ يوسف السباعى

كرمنى الرئيس ، وليس بعد تكريمه تكريم ولم يبق الا الشكر لناصر الفن والفكر فلتتجه اليه القلوب تحمد فضله العظيم .

اما انا فقد تلقيت من اخوانى الأدباء أرق التهنئة وقرات لهم اجمل كلمات التقدير ، ورايت منهم أكبر مظاهر الابتهاج ، مما ترك فى نفسى أعمق الأثر .

ولكن الحضور بالجسد بين اخوانكم يبهرنى ويخيفنى وانت أعلم منى بهذه الحقيقة : انى كالوطاويط افزع من الأضواء .

فكن شفيعى لدى اخوانى ، واشرح لهم امرى . وانى واثق انهم سيعذروننى ، لانهم يعرفون مبلغ ما اكنه لهم جميعا من صادق الحب وخالص الود » .

توفيق الحكيم

. . . . .

. . . . .

اما الحفلة نفسها وجوها .. فقد اعتذر طه حسين عن عدم الحضور ولم يحضر محمود حسن اسماعيل وعبد الرحمن الشرقاوى وكان المفروض ان يتحدث الثلاثة مكرمين توفيق الحكيم وحضر محمود تيمور .. ولكنه اعتذر ايضا واكتفى بالوقوف فى الطرقة مستمعا للمتحدثين !

. . . . .

. . . . .

كان اختفاء توفيق الحكيم عن حفل تكريمه .. حديث الناس . كانوا يحكون الحكاية كلها وكيف هرب توفيق ، ولم يعتذر لأحد فى وضح النهار حتى الى اقرب الناس اليه — مكتبا — وهو يوسف السباعى اذ يعملان معا فى نفس الدار — وقتئذ — فى مجلس الفنون والآداب . وانما ارسل بعد بداية الفرح وتجمع المدعوين خطاب اعتذار عن حفلة التكريم .

وبقى سؤال ؟

سألت توفيق الحكيم : فقال ببساطة :

.. — قضيت صبيحة يوم الاحتفال فى حلوان .. واخذت حمام شمس وشربت من مياهها المعدنية . صحة وعافية .. والا ايه ؟

وضحك توفيق وقال : كنت اخبرت بعض اصدقائى فى مجلس الفنون انى سأتناول الغداء فى مصر الجديدة ثم اذهب مباشرة الى نادى القصة لأحضر الحفل .

ولكنى اختفيت فى حلوان فى النهار .. وفى المساء ابتداء من منتصف الساعة السادسة — وهى لحظة الاحتفال : توجهت الى وسط القاهرة.. واخذت ادخل مكتبة واخرج منها الى مكتبة اخرى . وبعدين دخلت لمحل بوهيجى ليمسح لى الجزمة ! . وبعدين دخلت مكتبة ثالثة .. مكتبة افرنجى !!

وسألت توفيق عما رآه وقلب فيه بين الكتب هناك .. وكان حديث طويل تشابك وتفرع واقتضب منه بعض ملامح الكلام .. وكان رده فيه فرحة الفائز بالوسام ورنة « شقاوة » ومداعبة المفكر الذى ضرب مثلا واحدا لزملاء عددهم ٧٠ حضروا لتكريمه !

وقال : كنت اسأل عن كتاب باسترناك .. كنت عاوزه باى لغة ولكن مفيش . لم اجده .. وقالوا لى ان هناك كتابا جديدا آخر رائجا جدا الأيام

دى فى أوروبا وهو مذكرات : سيمون دى بوفوار . وشفت كتاب عن اقتصاديات الشرق الأوسط .. وكاتبه امريكانى .

.. — ويا ترى بكم الكتاب ده ..؟

.. — شوف بقى .. أنا اشوف سعره فى الأول واذا عجبنى اتصل بدار الكتب علشان يشتروه وبعدين استعيره منهم .. وليه بس عاوز تسألني الأسئلة المحرجة دى .. انا راجل برضه بخيل .. لكن انما مش للدرجة دى يعنى .. الرك على المناسبة.. لما تكون المناسبة اطلق ايدى.

.. — يعنى متوسط ما فى محفظتك كام ؟

.. — شوف بقى .. يعنى .. متوسط كده .. لا يزيد عن ٥ جنيهات ولا يقل عن ٥٠ قرشا .

.. — واذا صادفك نشال ؟

.. — مش ممكن .. واحد يروح السجن علشان ٥ جنيهات .. ودى لا احملها الا فى أوائل الشهر ولكن فى النصف الأخير جنيه .. اثنين جنيه بالكتير .. وعلى كل حال انا بأصرف الايام دى كتير .

.. — ازاى ؟

.. — عشرة قروش كده او ١٥ قرشا شاى كل يوم فى شبرد وانا بادفع الوقت القهوة بتاعتى .. اصلى انا اصدرت امرا فى مجلس الفنون انه لازم تتحسب على القهوة لى ولزوارى .. على شرط أن لا يزيدوا عن ٢ فى اليوم ! مش كويس والا ايه ؟ ! ومتنساش انى بادفع الكتب .. جايز ١٠ جنيه وجايز ٧ حتى ٣ جنيه فى الشهر !

يعنى انا مش بخيل كده زى ..

.. — وآخر فيلم شفته ؟

.. — من يومين .. شاهدت فيلم (جريجى) وكان فيلم راقى جدا يعنى المسألة مش فلوس .. ولكن مسألة مواهب .. احب بتوع السينما عندنا يشوفوا الفيلم ده .

.. — ده بسيط جدا ابيض واسود ولكن فيه مواهب يعنى مفيش حجة لحكاية الفلوس .

الأزمة عندنا .. مواهب بشرية .. ازمة معدات .

.. — وبتكتب ايه الأيام دى .. ايه كتابك الجديد ؟ !

.. — فى الواقع انه يعنى .. عايز اعد نفسى لنشاط أدبى جديد عايز اقول ان الأدب عندى منفصل كل الانفصال فى الحقيقة انى ما اعتبرش انى فى حالة انتاج الا فى نصف العمل يعنى كده .. طول ما الشجرة تحمل زهر فجايز العواصف تأخذ الزهر وتوقعه . انا دلوقت فى حالة زهر غير متكون .. جملة افكار ولكن فى حالة ازدهار .

.. — ولكن اتجاه تفكيرك الآن ؟

.. — فكرتى عن الانسان فى حياته الحاضرة والمستقبل . رسالة السلام . السلام على الأرض . مش معقول نصل الى علاج السرطان ونطلع القمر بالصاروخ .. وكان مجرد خيال .. ممكن نصل الى السلام فى نطاق البحث العلمى اذن .. ممكن نجد له حلا ندرسه لا عن طريق الشعور والخيال والكلام ولكن عن طريق العلم .

□ □ □

سيعيش ١٠٠ سنة!

□■□ .. حكى لى يوسف وهبى عن نجاح : غرفته الزائرة لشمال افريقيا خاصة فى الجزائر وتونس .. تتوالى الى صحافة القاهرة ، بعد ان جعل بعض حوارها فى بلاغة العربية الفصحى وادخل عليهـا بعض تعابير لهجة البلاد التى يقدم فيها مسرحياته .

صحافتنا ودوائرنا الأدبية والمسرحية بدأت تهتم بالوليد الجديد لفكر : الحكيم وهى صفقته الجديدة او مسرحية [الصفقة] وذلك فى عام ١٩٥٦ حيث أصدر فى نهاية [المسرح المنوع] ٢١ مسرحية .

ويقراها المفكرون .. ولـكن الناس تراها بعد عامين عندما أخرجها الفنان فتوح نشاطى .. الذى كان يزورنى — قبيل رحيله — ليقدم لى كتابه الجديد : عن ذكرياته خلال ٥٠ سنة قدم فيهـا للمسرح المصرى العديد .. وكنت قد بدأت فى كتابى هذا عن الحـكيم .. فسألته رأيه كمخرج فى أدب توفيق الحكيم .. لا بخله . وطبـع الانسـان أو بعض صفات هى له وحده او يعكسها على المحيطين به وأصدقائه الذين يرتضون بصداقته . والحكيم لطيف . مرح .ذكى . لماح . طيب القلب مسـتعد أن يمشى الى آخر المشوار معك اذا كان مقتنعا بك وبفنك . فكان رأى فتوح نشاطى :

« .. اول عمل قصصى هزنى حتى الأعماق فى العشرينات بعد قصـة « زينب » للدكتور محمد حسين هيكل كان « عودة الروح » للكاتب النابغة

الاستاذ توفيق الحكيم . لقد لمست فى هذه القصة حياتنا المصرية التى كنا نحياها فى غمار ثوره ١٩١٩ وما ترتب على تلك الثورة العارمة من هزات وطنية واجتماعية وفكرية وقد كان المجتمـــع المصرى وقتئذ يهتز لامرين كما يقــول المؤلف فى مقـــدمة لـــه « الخـــلاص من الاحتلال والتخلص من الحجاب » ثم يستطرد فيقول ولكن كادت الحرب العالمية الاولى تضـــع اوزارها وتهدأ الحركة الوطنية وتصل فى متاهات الحزبية السياسية حتى يطيب للكاتب ان ينطلق من جو المسائل القومية الى جو المسائل الانسانية وهكذا وجدتنى اتجه الى نبع آخر هو الانسان فى افكاره الثابتـــة فى كل زمان وما جاء عام ١٩٢٨ حتى بدات فى كتابة تمثيليات [اهل الكهف] . و. [شهر زاد] .و. [الخروج من الجنـــة] .و. [نهر الجنون] .. وقد اتيح لى ان اقرا هذه المسرحية وان اعجب بأســـلوبها الرفيـــع وغرابة مواضيعها وغموض اجوائها التى تذكرنى بلوحات « رمبراندت » ، ولكن كرجل مسرح كنت اشعر تمام الشعور ان الصراع فيها يكاد ان يكون معدوما ورموزها مستغربة وانها لم تبن البناء الدرامى التقليدى . ومضت الأيام وتالفت الفرقة القومية — وكنت احد اعضائها — وشهدت [اهل الكهف] التى افتتحت بها أول موسم للفرقة الجديدة عام ١٩٣٥ ، وعلى الرغم من الاداء التمثيلى الباهر والمناظر الرائعة والاخراج الدقيق فقد خرجت — بعد اســـدال الستار — وانا اكثر اقتناعا من أى وقت مضى ان امثال هـــذه **المسرحيات الذهنيـــة تحتـــاج** فى تذوقها الى **جمهور واع** وان جمهـــورنا اميل الى الوضوح . فنحن **بلاد الشـــمس المشرقة** .. كما سررت عندما قرات للمؤلف النابغ [الحكيم] فى مقدمة رواية [بيجماليون] الكلمة التالية:

« لقد كان هدفى فى رواياتى السابقة هو ما يسمونه المفاجاة المسرحية. ولكنى اقيم اليوم مسرحى داخل الذهن ، وأجعل الممثلين أفكارا تتحـــرك فى المطلق من المعانى مرتدية أثواب الرموز . انى حقيقة ما زلت محتفظا بروح المفاجاة المسرحية ، ولكن المفاجآت المسرحية لم تعد فى الحادثة بقدر ما هى فى الفكرة » .

وهذا ما ينطبق تماما على [اهل الكهف]. وتوفيق الحكيم نفسه يعترف بأنه لم يفكر فى اظهارها على المسرح بل نشرها دون ان يرضى بتسميتها مسرحية . وقد روى فيما بعد قصة تمثيل الفرقة القومية لرواية [اهل الكهف] ، قال، « بعد مشاهدة تمثيل روايتى ايقنت انها لا تصلح للتمثيل. او على الأقل لا تصلح للتمثيل على الوجـــه الذى الفه اغلب النـــاس ، فالممثلون يعرضون مواقف وازمات لا يرى الجمهـــور ان مثلها مما يكتب للمسارح لاثارة العواطف » .

ثم يستطرد قائلا : « لقد خرجت تلك الليلة وأنا اشك فى عملى وأؤمن بصواب رأى الناس ، فلقد وجد المسرح ليشهد فيه النظارة صراعا يستثير التفاتهم ويهز افئدتهم صراعا هو فى المسرح التمثيلى بين عاطفة وعاطفة ».

هكذا كان المسرح دواما ويكون ، وان الناس ليتأثرون دائما بالعواطف التى يحسونها فى حياتهم الواقعية ، كالحب والغيرة والحقد والانتقـــام والعدالة والظلم والصفح والاثم . لكن ماذا يشعرون امـــام صراع بين الانسان والزمن ؟ .

وهذا الراى الحصيف ينطبق تماما على مسرحية الافتتاح الأول للفرقة القومية ، فلم تنجح [أهل الكهف] النجاح الجماهيرى المرتقب وتاه النظارة فى رموزها المغلقة وحوارها الفلسفى . وذهب بعض النقاد الى اتهام مؤلفها بأنها « ملطوشة » من مسرحية أمريكية ولم يحفل بها سوى بعض الأدباء ، وعلى رأسهم عميد الأدب العربى الدكتور طه حسين الذى كتب عنها عند نشرها سنة ١٩٣٣ متحمسا :

« ان قصة [أهل الكهف » حادث ذو خطر لا اقول فى الأدب العربى العصرى وحده ، بل اقول فى الأدب العربى كله . واقول هذا من غير تحفظ ولا احتياط . نعم ، هذه القصة حادث ذو خطر يؤرخ فى الأدب العربى عصرا جديدا . ولست أزعم أنها حققت كل ما اريد للقصة التمثيلية فى أدبنا العربى ، ولست ازعم أنها برئت من كل عيب ولكنى مع ذلك لا اتردد فى أن اقول انها اول قصة فى الأدب العربى يمكن أن تسمى تمثيلية حقا » .

ويتابع فتوح نشاطى كلماته : « وهكذا اتفق الراى الحصيف للمؤلف مع رأيى » وكرت الأيام وفى سنة ١٩٥٨ كلفت باخراج مسرحية «الصفقة» فاخذت اتصفحها فى شىء من التوجس خشية أن تكون من المسرحيات الذهنية فما أوفيت على الختام حتى استطارنى الفرح فقد أحسست أنى وقعت اخيرا على مسرحية متكاملة استوفت الشروط التقليدية : الصراع والحبكة والأزمة وتعقيدها ثم حلها وحمدت للمؤلف النابغ انه نزل من برجه العاجى واستقى موضوعه وحواره وشخوصه من النبع المصرى الصميم.

وبدانا التدريبات وما أعرف رواية ادخلت على نفسى السرور اثناء اخراجها مثل « الصفقة » وقد كتبت يومها فى مذكراتى كلمة طويلة أجتزىء منها مايأتى :

« ان الحكيم الذى بنى مجده على المسرح الذهنى قدم لنا من صميم الحياة الريفية رواية واقعية مائة فى المائة حين صور لنا قرية مصرية يناضل فلاحوها فى اصرار وسذاجة وعناد من أجل الفوز بقطعة ارض وقد اجاد المؤلف الكبير فى حبكتها وصراعها وتحليل شخوصها وتعقيد أزمتها وحلها كأبرع ما يكون رجل المسرح الخبير ولمع فى حواره كما لم يبرع فى اية مسرحية أخرى » .

واذكر فى حين قصصت على صديقى الشاعر الكبير عزيز اباظة موضوع « الصفقة » انه صاح على الفور : « الله ! دى حادثة وقعت » .

وبعد أربع سنوات وفى الشهر الأول من سنة ١٩٦٢ اخرجت للأستاذ توفيق الحكيم مسرحية [السلطان الحائر] . .

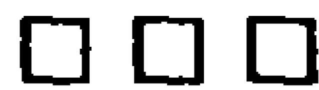
ولم تمض سنتان حتى استقدمنى الأستاذ توفيق الحكيم الى مكتبه بدار الأهرام ودفع الى برواية « شمس النهار » التى ظهرت فى ملاحق صحيفة « الأهرام » قائلا لى فى تقدير اثر فى نفسى ابلغ تأثير « ارجو انك تأخذنا فى تيار نجاحك » .

وقرات المسرحية مثنى وثلاث فاعجبت بها غاية الاعجاب فهى من النوع الذى يقول فيه راسين « البراعة كل البراعة ان تفعل شيئا من لا شىء »

بيد ان ختامها لم يرق لى فعاودت المؤلف ودافعت عن وجهة نظرى باخلاص وحرارة فقد صور لنا أميرة عجيبة لا يغريها مال ولا جاه وقد برعت منذ الصغر فى ركوب الخيل واللعب بالسيف وقراءة الكتب واطالة التأمل والزهد فيما يعجب ويبهر وهى تشترط للزواج ان يفتح قصر ابيهنا السلطان امام افراد الرعية كى يطلبوا يدها ولها بعد ذلك مطلق الحرية فى اختيار الزوج بعد اختبار دقيق ويتوافد الالوف ولكنهم يبوءون بالفشل ولا يرون فى عينيها سوى رجل بسيط من الشعب وهكذا تخرج شمس النهار مع قمر الزمان فتتعلم منه شيئا فشيئا كيف تفكر بعقل جديد وكيف تربى فى داخلها ملكة الاعتماد على النفس وكيف تواجه حقائق الحياة والقيم الاخلاقية العالية ثم تلتقى شمس النهار بعد ذلك بأحد الأمراء فيتعلق بها وتتعلق به وتترك قمر الزمان وتلحق بالأمير .

كنت كلما اعدت قراءة المسرحيه صدمتنى هذه الخاتمة ورأيتها لا تتفق مع منطق البناء الدرامى الذى بناه المؤلف ولا مع سيكولوجية شخوصها او تسلسل أحداثها كما لا تتفق مع أوضاع البلاد بعد ثورة ٥٢ والمحاولات التى تبذل لتذويب الفوارق الطبقية فعرضت على الحكيم نظريتى واشرت بأن يجعل بطلته تختار بعد معركة عنيفة تقوم بين : قمر الزمان والأمير — وفى هذا تقوية للفصل الأخير — ينتصر فيها قمر على حمدان ويقع اختيار الأميرة على ابن الشعب . هذا الاختيار الذى مهد له المؤلف اجمل تمهيد فى الفصلين الأولين ، وتمضى شمس النهار مع قمر الزمان الذى بصرها بمعانى الحياة الكبرى لتحقيق السعادة الحقيقة .

« عرضت هذه الخاتمة على توفيق الحكيم . فلم اجد لديه معارضة واقتنع بها فى الحال واستمهلنى يومين . أرسل الى بعدهما التعديل الذى طلبته والذى انا فخور بتوفيقى اليه . عرضنها على مسرح الأزبكية فى القاهرة ابتداء من منتصف نوفمبر ١٩٦٤ ، وكانت هذه آخر مسرحية اخرجتها للمؤلف الكبير توفيق الحكيم » .



ومع مطلع ١٩٥٧ ينشر الحكيم كتابيه : [اشواك السلام] . و . [رحلة الى الغد] .

ويأتى عام ١٩٥٨ ولا يصدر خلاله شيئا .

ولكن يصدم مرتين بالقرب من نهاية تلك السنة . وان كان يسعد فى آخرها .

فى ١٤ اغسطس يموت صديقه : سلامة موسى (٧١ سنة) الذى كان يكتب مقالاته دائما بالحبر الأحمر ، ويفكر دائما فى جراة اللون الأحمر ، ولكنه لم يعش حياة حمراء ، كان يحيا ويكتب فى ضوء النهار ويفكر فى المساء ليؤلف .. ثم ينام ليصحو مع يوم جديد ، ليتطور مع صراع العلم والحياة . لقد كتب عن داروين . و . ويلز . ووجد من يكتب عنه . عن سلامة موسى ، الذى رثيته بمقال أفرد كلماته التى تحضرنى الآن .. حتى يعرف جيلنا الجديد عمودا من اعمدة الفكر التى جالت وصالت مع الجهد والعمق .. وقدمت له ما ينعم به من آراء يقراها . يرفضها او يقبلها .

وكان عنواني له : « كان سيعيش ١٠٠ سنة »

« .. من شهرين .. كان يجلس على الكرسي الخالي في مكتبي .. وكان يتكلم ، ويبتسم ، ويتساءل عن فائدة الحديث والكلام معه !

وقلت له ساعتها : احيانا يتحول اهل القلم والراى والصحافة .. الى خبـــر !

قال : ومتى ستنشر الحديث ؟ .

قلت : انى اسجله للظروف .. قطعا سأنشره .. ولكن عندما تجيء مناســبة ..

.. ومر شهر وايام .. واذا به يدخل المستشفى ، ليجرى عمليـــه .. ونجحت العملية .. وفهمت انه سيخرج هذا الأسبوع .. وتذكرت الحديث .. واقتنعت بأن انشره لمناسبة خروجه من المستشفى .. على ان ابدا الحديث بمقدمة عن الرجل الذى عاش اكثر من سبعين سنة ، لم يمرض فيها مرة واحدة حتى ولا سن خلعت له طوال هذه السنين .. الا (ســـنة) واحدة كسرت عن طريق الصدفة عندما اصطدمت بحنفية .. عندما حاول أن يضع رأسه تحت المـــاء ليغتسل !

وكنت انتظر اللحظة التى يخرج فيها من المستشفى لاكتب .

واذا به يخرج امس من المستشفى .. ولكن يسبقه لقب المرحوم .. سلامة موسى .. وهو اللقب الذى سيتخلى عن اسمه بعد ايام ليظـــل اسمه فى تاريخ الصحافة والعلم والتطور فى مصر .. فقط ودائما خالدا .. سلامة موسى . فهو الرجل المجدد المتطور مع الأحداث والعلم والمعـــرفة .. الذى ادخل فى عقولنا افكار التطور ونظرية داروين واينشتين والتحليل .. وفى لغتنا اكثر من ١٠٠ مرادف وتعبير ولفظ جديد .. مثل مصرولوجيا .. والشيوعية .. والثقافة والنشـــوء والارتقـــاء .. والنســـبية .. والعقل الباطن .. والحيوانات البرمائية . والطـــابور . وهو أول من دعا الى « السيمائية » أى دراسة اللغه من نواحى المفـــردات وتأثيرها النفسى .

ومع ذلك مات سلامة موسى دون أن يضمه منصب ، ولو استشاريا ، فى هيئة فنية أو ادبية او ثقافية .. وارجع لأسأل نفسى هل مات رجـــل المستقبل ؟ !

. . . . .

. . . . .

ولو رجعت الى حديث سلامة موسى معى .. منذ شهرين .. وقلبت بعض سطوره وافكاره .. لوجدت نفسى ابعد قليلا عن بعض زواياه .. او امسها من بعيد .. فسلامة موسى كان فى عراك عنيف دائم مع العقاد .. وعراك متطور مع طه حسين .. وعراك مداعبة مع توفيق الحكيم .. ولكنه كان دائم الميل الى ادباء الشباب .

وقلت لسلامة موسى (٧١ سنة) .. وكنت اداعبـــه دائما عندما اناديه بالشاب العجوز :

.. — كيف احتفظت بصحتك وقوتك التى تفخـــر بها .. وكيف تمشى وانت فوق السبعين من منزلك الى الجريدة كل صباح لماذا لا توفر شبابك العجـــوز ؟ !

.. ـــ انا معتاد اشرب اللبن (نى) طوال الاربعين سنة الماضية .. ولم امرض فى حياتى مرة واحدة .. حتى ضرس العقل لم اخلعه . ! وعندى ٨ أولاد اكبرهم ٣٣ واصغرهم ١٩ سنة .

.. ـــ برنارد شو عاش وعمر .. تفتكر كم سنة تريد أن نعيش .

.. ـــ عندى احساس انى سأعيش مائة سنة !

.. ـــ وفى الثلاثين سنة القادمه .. ترى ماذا نتمنى أو ندعو او تكتب فيهـا ؟

.. ـــ اكافح من اجل الثقافة العصرية .. على أساس العلوم المادية والصناعية وهدفى أن تحصل كل عائلة عربية على متوسط دخل ١٠٠٠ جنيه فى السنة .

.. ـــ ومن مثلك الاعلى بين كتاب وشعراء العرب ؟

.. ـــ المعرى والجاحظ .. والفيلسوف عندى هو ابن رشد .

.. ـــ ورايك فى الشعر .. رغم واقعيتك !

.. ـــ وماله .. وده يمنع تذوق الشعر .

.. ـــ وبمن تعجب فى الخارج ؟

.. ـــ أحب سارتر كاديب . وانا نشات تربيت على برناردشو و هـ.ج. ويلز . ولكنى اكبر فى تقديرى جوتيه وجان جاك روسو وجميع جبابرة الروس، جوركى وتولستوى وتشيكوف .

وشكسبير اديب عظيم جدا ، ولكنه ليس لعصرنا . انه للعصر الذى عاش فيه . كما وان ادباء العرب كان منهم عظماء مثل : ابن الرومى والمتنبى للعصور التى عاشوا فيها ولكن قيمتهم لنـا الآن تاريخية فقط وليست أدبيه .

.. ـــ ولماذا تمشى .. وانت الذى ألفت ٣٠ كتابا ؟

.. ـــ انا معنديش سيارة ولكن ابنى عنده .

.. ـــ وكيف تفرق بين الأديب وأدبه ؟

.. ـــ اعتقادى ان شخصية الأديب .. جزء من ادبه .. ده أهم شىء .. قبل أن أؤلف كتابا يجب أن أؤلف نفسى .. أول كتاب هو شخصية الأديب . فاذا لم يعرف كيف يؤلف شخصية .. فمفيش فايدة أن يؤلف .

وفى النقد الأوربى عندما ينتقدون كتابا .. ينتقدون اولا حياة المؤلف نفسه .. ومؤلفاتى هى شخصيتى .

.. ـــ بكم بعت اول كتاب لك ؟

.. ـــ كان عن نظرية التطور والفته سنة ١٩٣٠ .. بعشرين جنيها .

ـــ .. ورايك فى الحرب والسلام والمستقبل ؟

.. ـــ ظهور القنبلة الذرية والهيدروجينية سيعمم السلام فى العالم . لأن الحرب اصبحت من الخطورة بحيث لا يمكن لأى امة ان تكون البادئة .. انها قنابل ابادية وليست قتالية !!

.. ـــ والوصول الى العوالم الاخرى ؟

.. ـــ القمر الصناعى هو بداية غزو الانسان للسماء .. للقمر والمريخ .. واعتقد ان استعمار الكواكب ممكن ، ولكنه بعيد وربما يحتاج الى مئـات السنين . وعلى كل حال عمر الانسان على هذا الكوكب ـــ باعتباره نوعا منفصلا ـــ لا يزيد على مليونين او ثلاثة ملايين سنة . وحضـارته لا تزيد على ١٥ الف سنة . وامامنا ملايين السنين القـادمة التى لا يمكن التكهن

بها الا فى الخيال . فليس بعيد مثلا أن تتطور الذراعان الى جناحين وليس بعيدا أن يكبر الدماغ الى عشرة اضعاف حجمه الآن . كل هذا ممكن وكامن فى أجسامنا كما اننا كنا نحن كامنين فى جسم السمكة قبل ٣٠٠ مليون سنة ».

. . . . .

مرة أخرى هل مات كاتب المستقبل سلامة موسى ؟

اعتقد .. ولكن افكار سلامة موسى باقية مع تطور الزمن ، لأنه عاش متطورا ولم يجمد مع الأيام .

□□□

□ هذا ما كتبته لحظة ان رحل سلامة موسى .

ولكن ازمة طارئة هبت فجاة على هدوء توفيق الحكيم وعلى حماره ؟

لقد كانت اشبه بالعاصفة التى اجتاحت طه حسين عندما طلع بكتابه [فى الشعر الجاهلى] من ٥٠ سنة . ولكن هذه ازمة من لون آخر .. اذ طلع اصبع الاتهام يشير الى توفيق الحكيم وحماره !

كيف ؟

□□□

للحكيم مسرح ؟

□■□ .. ولكن لا يبدأ عام ١٩٦٤ ، الا ويكون للحكيم مسرح فى القاهرة.

لا .. أنا آسف لتصورك أن الحكيم يملك مسرحا أوانه غير اسلوب حياته واصبح مفرطا فيما ملكاو يملك . فأصبح صاحب فرقة يديرهـــا لحسابه وانتاجه .

ابدا .. الدولة تريد أن تكرم الفكر فى شخصه وان تكرم كل المعانى الحلوة لانسان رأى أن القلم هو حياته التى يشعلها ضـــوءا للآخرين . فكان ان اختارت له مسرحا أطلقت اسمه عليه عناية ورعاية وخلودا .

وأذكر انى توجهت ليلة افتتاحه وكتبت .

□ ٤ نقط حول موضوع واحد أود أن المسها فى سطورى .. حول مسرح توفيق الحكيم . وما جرى فيه . والمجلة التى تصـــدر عنه . ومسرحية بيجماليون التى قدمها .

فمسرح الحكيم ، يعلن من غير شك قمة نهضة مسرحية تراها البلاد عندما تخصص مسرحا بمثابة قاعدة يعلو عليها الرفيع من فن المسرح والرواية يقبل عليه خلاصة المثقفين والواعين من محبى الفن .. ولكن ؟

ولكن التصفيق ، الذى سمعته يتهالك من ايدى المشاهدين عند ظهور اى ممثل كبر او صغر .. او يصفقون فى لحظة اى قمة انفعال .. مما يقطع من غير شك حرارة الموقف عندما يتتابع ..

فليس التصفيق هنا مظهرا جديا على سلامة الذوق . أو حسن الاصغاء وانما ضوضاء تبعثر جهد الممثل أو الفنانة .. من غير ما حد .

وما زلت اذكر .. ان الجمهور فى لندن — ولندن فيها نهضـــة مسرحية عريقة على ٤٠ مسرحا مختلفا كل ليلة فى عاصمة بريطانيا — لم يصفق ثانية واحدة عندما ظهر رالف ريتشاردصون فى مسرحية « ٦ شخصيـــات تبحث عن مؤلف » لبيراندللو .. ولا حتى عندما طلع عميد مسرحهم : لورانس اوليفيه ، ليمثل على خشبة مسرحهم القومى الرواية المرحـــة : « ضابط التجنيد » لفاركوار .

ان احدا من المتفرجين لم يبد استحسانا خلال العرض كله .. الا فى آخر الرواية وعند انسدال الستار .

تماما كما يحدث عند الاستماع الى سيمفونية . أو قصيد سيمفونى .
وارجع لأذكر أن هدف مسرح توفيق الحكيم هو : الوعى .. فلماذا لا تصبح له تقاليد واعية . ويكف المترددون عليه عن التصفيق المتقطع.وبلا مناسبة . كما يحدث عند اقامة اى حفل فرح ريفى .. بأن تقوم الموسيقى وتدق . . لأى داخل : سلام يا جدع !!؟

اذن شيء من الوعى مطلوب من الجمهور .

ولا أود هنا أن اتحدث عن الطفل الصغير الذى يقل عمره عنثلاثسنوات وقد حضر مع عائلته . ليشرب كوكاكولا .. ثم يشفط فى الزجاجة الفارغة بحس مسموع .. امه تزجره بين الحين والحين .. معجبة به تارة ، لأنه يحمل الزجاجة بيد واحدة .. وتارة هى خجلة منه .. واذا الطفل ينـام ليحدث اصواتا .. كل هذا والعائلة كلها جالسة فى بنوار بين الجمهـور وخشبة المسرح وعليها مطلوب ان ينسى الممثلون كل شيء الا ادوارهم .

فالمطلوب اذن شيء اسمه تقاليد وآدب المسرح .

واذا كان النقد كله يتجه هذه المرة الى الجمهور . فان الاشادة بعمل فنى على مستوى رفيع .. يجب أن يقال له كلمة . فان مجـلة المسرح الشهرية التى كان يرأسها د. رشاد رشدى كجزء من رسالة مسرح ت . الحكيم .. انما جاءت فى وقت يحتاج اليه كل مسرحى ومن يتصل بالمسرح . فيها بأبحاث ومقارنات واخبار ووعى كامل عن المسرح المحلى والمهم الذى يجرى تمثيله على المسرح العالمى .

ويأتى دور اول مسرحية يقدمها المسرح . وهى « بيجماليون » لتوفيق الحكيم .. .. وقد عرضت فى حوالى الساعتين خـلال اربعة فصـول حواها منظر واحد .

ولعل ابطال المسرحية عندما قدمهم : حوار توفيق الحكيم وروعة فلسفة شبابه عندما أخذ يناقش بين الفن والحياة وماهية المراة ودهائها والدين والدنيا . ثم مخرجها نبيل الالفى . واعتقد انه استطاع ان يقدم لأول مرة اطارا ناجحا وضع فيه فلسفة الحكيم . وسيطر على حركة ممثليه وعرف كيف يختار موسيقاه التأثيرية المصاحبة .. وعرف كيف يستفيد من الاضاءة الا هفوة واحدة يمكنه استدراكها عندما اهمل ان يلقى ضوءا فى منتصـف الفصل الثالث على الآلهة .. عندما ظهر فينوس وآبولو . بالقـرب من القاعدة الفارغة للتمثال .

اما البطل الثالث . فكان تصـميم الديكور والأزياء للفنـان صـلاح عبد الكريم . وقد اتجه فيه الى سلامة التبسيط التعبيرى وعرف كيف يبرز جبل اوليمب بحيلة ضوء كلما اراد المخرج .

اما التمثيل . فالوحيد الذى صعد فيه الى قمة المؤلف والمخرج والمصمم كان واحدا . هو بيجماليون . وهو : حسين الشربينى . ثم يليه . عزت العلايلى الذى مثل شخصية الاله الاسطورى ابولو .

اما الباقون .. فعليهم أن يعنوا كثيرا .. بالالقاء . وبالحرص عـلى التمثيل لا القاء المحفوظات ! !



صينية ميكروسكوبية !

□■□ يمر عامان لا يكتب فيهما الحكيم ولا يطلع علينا بشيء . الى أن يصدر فى ١٩٦٠ [السلطان الحائر] وهى نفس السنة التى ترجمت الى الفرنسية فيها مع (يوميات نائب فى الارياف) الى الالمانية والروسية.وكانت قد ترجمت من قبـــل الى الفرنســـية والعبـــرية والانجليزية والأســـبانية والسويدية ثم نجد أنها ستترجم بعد ذلك بعام الىالرومانية .كما ترجمت الى الفرنسية اعماله : [رحلة الى الغــد] و [الموت والحب] وبعضها خلال العام الذى يليه .. دون ان يؤلف الحكيم جديدا . حتى عام ١٩٦٢ عندما طلع على المفكرين بعمله الكبير الذى اثار دوامة فكرية تجريديه : [يا طالع الشجرة].بدأ يتخذ من وراء الشكل فلسفة يود أن يرمز بها . ثم [الطعام لكل فم] فى ١٩٦٣ وبعدها كتابين : (رحلة الربيع والخريف) و [سجن العمر] الذى ضم اليه ذكريات طفولته وصباه حتى لحظة أن ترك الوطن فى طريقه الى فرنسا . كتبه فى كل جراة الكاتب الصريح .. مع ملامحعصره

ولكن يحسن أن نتمهل قليلا الى مارس من ذلك العـــام .

ان شكسبير له تعبير معروف شائع : احذر منتصف مارس .. عندما شد العراف رداء يوليوس قيصر وهو يجتاز مدخل السناتو .. وذلك قبيل ان يخمد أنفاسه سكين طعنه بها اقرب الناس اليه : بروتس صديقه ، أو ريبليه فى رواية اخرى !

فى ١٢ مارس ١٩٦٤ مات عملاق الادب فى مصر : عباس محمود العقاد [٧٥ سنة] وقعت ورقة خريف غالية من شجرة فكر يعتز بهـا الحـكيم ويرويها .. تماما كاعتزازه بنجيب محفوظ الذى لا يفارقه بعيدا او قريبا .. فى شتاء القاهرة او مصيف الاسكندرية . لقد كتب عليهما الاتصال رغم ان العمر يفرق بينهما نحو ١٣ سنة . ومع ذلك نجد ان الحـكيم ونجيب محفوظ تأخذ بهما الفرحة كلما التقيا . رغم أن الفرحة زادت درهما من فضة ما زال نجيب يحتفظ بها ولا يفرط . معتزا بها اعتزاز اهل بيته بها : صينية ميكروسكوبية من فضة .

وللصينية مناسبة . ودفع من اجلها الحكيم : شيئا محدودا .. استطاع أن يوفره خلال سنتين حتى لحظة اشتراكه فى مواساة اهل العقاد . ومن النادر ان يواسى او يبارك توفيق الحكيم احدا . انه عزوف عن الناس.ربما هو فى شعوره الداخلى أكثر حزنا او فرحا من عديدين . حضروا ليظهروا فى الصورة ، ويجاملوا .. او يمضـوا ويضيعوا وقتا . ولاغـود الى الوراء عامين .

. . . . .

. . . . .

□ ٢٠٠ بشرى وكأنها ٢٠٠ مكتبة ادبية فنية قـد علت وارتفعت فوق اجسـاد ٢٠٠ مدعو ومدعوة — سواعدهم وراء كل دفع ادبى فى مصر . وراء كل نهضة ادبية فنية تقدم شعلة الفكر على صفحات الادب — على صفحات كتاب . على خشبة مسرح . على شاشة سينما . على موجات الاثير ليعلنها الراديو او تطبعها شاشـة التليفزيون .. اجتمعوا كلهم بين جدران اربعة ضيقة منذ ساعات بدعوة من « الأهـرام » للاحتفال بعيـد ميلاد الروائى نجيب محفوظ (٥٠ سنة) .

وسطهم جلس نجيب محفوظ من وراء نظارته السوداء — يتطلع ويبتسم ويرحب بمن جاءوا يرحبون به — « وحسنته » من ذات اللون تتطلع على خده . والى يمينه أم كلثوم ويوسف السباعى وفتحى رضوان ومحمدمندور وعزيز أباظة والى يساره توفيق الحكيم وامينة رزق ومحمد كريم وأمامـه جلست د . بنت الشاطىء الى جوار محمد حسنين هيكل .

ووسط بساطة البهجة وصـدق الفرحة وحلاوة اجتماع البعيد بالقريب .. وقف د . لويس عوض . وفى يده ميكروفون . وفى فمه كلام . فتحدث عن المؤسسة الكبيرة التى هى «نجيب محفوظ» ، وقال انه كان اول من انتقد اعماله . لكنه كان أيضا أول من يصفق له فى عيد ميلاده . وضحك نجيب محفوظ . واهتزت يداه تصفقان مع ١٩٨ اديبا — وفنانا وناقدا .

وقف فتحى رضوان ، يتحدث ضاغطا كل حرف من كل كلمة وكأنهيؤكدها فقال ان نجيب محفوظ رفض احتفال وزارة الثقافة به منذ ٥ سنوات لان المديح يعذبه .. ثم طالب فتحى رضوان راجيا من حاضرى الحفلان ينهالوا على ن. محفوظ بالمديح حتى يقتصوا من رفضه القديم الذى حرم محبيه من الالتقاء به .. ثم قال فى أدبه .. كلمة جميلة وقف فيها الى جوار اللغـة العامية . قال ان نجيب محفوظ قد كسب كل هذه الارض فى قلوب الناس لانه منح لغته العربية كل بلاغة اللغة العامية .

وتحرك على احمد باكثير ، ليقدم قصيدة من شعره.مهد لها بأن الاحتفال بنجيب .. قد أعاد ملكة الشعر الى بنات افـكاره .

ثم قدم « الأهرام » كأسا من الفضة هدية الى نجيب محفوظ .. ناولها د. حسين فوزى الى توفيق الحكيم الذى قدمها بدوره الى نجيب محفوظ .

وفجأة . حملقت ٤٠٠ عين . منها ٣٩٨ عينا الى توفيق الحكيم . الى ذراعه وهى تمتد ليدسها فى جيب سترته الداخلى . وعينا توفيق الحكيم . تحملقان وراءها فى اللفة الصغيرة جدا التى اخرجتها انامله من جيبه .. ويحلها . ينفض ورقتها فاذا بصينية (ميكروسكوبية) من الفضة يناولها الى نجيب وكلماته تختلط بابتسامته ليقول للجميع ملوحا بالصينية فى الهواء حتى يتمكنوا من رؤيتهـا !! « هــذا من حر مالى .. والله ! مش كده والا ايه ؟! اى والله من حر مالى صحيح » . ويحتفظ بها نجيب وهو لا يكاد يصدق عينيه . ثم تابع ت. الحكيم قوله بأن .. أدب نجيب محفوظ معجزة لا تتكرر لانه استطاع أن ينتزع منه هذه الهدية ؟ وكانت لحظة سعادة .

ووقف نجيب محفوظ ، وتحدث فى ختام الحفل . وشكر . شكر المـاضى والحاضر . حنى راسه فى عيد ميلاده الخمسين لأساتذته الذين قال انه تعلم منهم .

وتحدث باختصار عن تجاربه فى الثقافة وقراءته للأدب القديم والشعبى وتاريخنا . وقال ان أهم شيء . بل اخطر شيء للكاتب هو : الا يخـون ضميره وان يقول كلمة الحق فى عصره وان يسـتفيد من جو الحـرية الذى كفله الميثاق وأطلق به حرية الكلمة فى كل صورة من صورها .

لم ينس نجيب محفوظ ان يشكر ام كلثوم التى نعم بصوتها جيل كامل ولم ينس أن يشكر الحكيم على المعجزة التى وقعت فعلا من اهدائه الصينية الفضية وأكد ثقته من أن هذه المعجزة لن تتكرر لأن توفيق الحكيم الفنـان العظيم لا يكرر نفسه ابدا !!

وجـائزة نوبل . ؟؟

☐ .. وأخيرا .. يتكلم توفيق الحـكيم .. ومع ذلك لا يتكلم .. انه يكتب .. ويكتب رسالة طويلة . انه يعد فى رسالته بأنه سيتقدم للفـوز بجائزة نوبل العالمية .. انه أول اديب كاتب عربى يتقدم لها .

وتوفيق يرغب فى الابتعاد عن الأضواء يريد السفر بعيـدا عن الوطن ليعاوده ، الحنين .. ويخرج قصة كبرى يتقدم بها .. ويتحدى بهـا أدباء الغـرب .

ولمـاذا الخص سطور رسالة توفيق الحكيم ؟

انى أضعها أمامك .. فهى قطاع من أفكاره وأحلامه وتمنياته .. !

. . . . . .
. . . . . .

□□□ أشعرني الرئيس بأن المعجزات ممكنة وشجعني ذلك على العمل من اجل جائزة نوبل .

أحتاج الى عامين او ثلاثة اعيشها فى وسط ثقافى عالمى ، وانقطع لكتابة عمل ادبى كبير ، اضمنه خلاصة افكارى وتجاربى وآرائى فى الانسـان ومشكلاته أمام العصر الحديث . وستشمل حـوادثه وافكاره مصر والشرق والعالم منذ عام ١٨٨٠ حتى اليوم .

كتبى المترجمة بقصصها ومسرحياتها وافكارها تكفى فى ذاتها كما سمعت للترشيح لجائزة نوبل بالنسبة الى كاتب اوروبى . اما كاتب مصرى عربى ففى رأيى لابد أن يدعم ترشيحه بمجهود أكبر ، لأن النظرة الينا ستكون اقسى واكثر تحفظا وترددا . لأنهم فى أوروبا لا يصدقون بسهولة اننـا فى الشرق العربى يمكن أن نصل الى قمتهم لذلك عزمت — اذا اعطانى الله العمـر والصحة — على القيام بهذا الجهد الاخير لأتم عملا ادبيا أرضى عنه ويعطينى الثقة التامة فى قيمته الفنية الذاتية وتفوقها وامتيازها على غيرها مما عندهم فى الغرب بهذا وحده اقبل الترشيح .

قصة باسترناك جيدة حقا بل ممتازة جدا ولكنها ليست كافيـة وحدها لحصوله على جائزة نوبل فى الظروف العادية . لأنه ليست له أعمال اخرى تدعمها سوى بضع قصائد شعرية لا تجعل منه شاعر العصر . ويبـدو ان جزءا كبيرا من أهميتها يرجع الى موضوعها الخـاص فى الوقت الحـاضر بالنسبة الى الغرب .

العمل الادبى الكبير الذى اعده واريد أن انقطع له فكرت فيه منذ مدة ، وكنت أؤجله واكسل عنه لضخامته . انه بالطبع سيكون خلقا فنيـا . اقرب الى العمل الروائى . وان كنت اريد ان يكون شيئا جديدا . أو على الأقل غير مألوف من حيث الشكل والقالب . انى اتصوره . ولكنى لا اسـتطيع تحديده الآن وليس من السهل وصف مخلوق حى وهو لم يولد بعد خلقـا سويا . انتظروا عامين او حتى عاما واحدا ليكون فى مقـدورى ان اعرف شيئا من ملامحه .

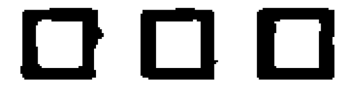
لن اكتبه فى مصر . يجب أن ابتعد عن مصر قليلا لأراها جيدا ارى روحها الجديدة انك لا ترى جيدا اللوحة على الحائط الا اذا ابتعدت عنها خطوتين او ثلاثا . هكذا فعلت عند كتابة « عودة الروح » . ان الحنين الى الوطن له فعل السحر . انه يجعلك ترى بلادك زاهية نابضة حيـة كاملة داخـل نفسك كأنها أم حنون . نحن فى الاغتراب نحمل وطننا معنا لنعيش فيـه بالروح والفكر .

اهتمام الناس باعارتى قصة باسترناك قد اثر فى نفسى ، كما أن تنوعهم قد ادهشنى ، فمن استاذ فاضل مثل الدكتور الساعاتى ، الى فنـانة لامعة

اشتهرت بالشهامة والمروءة مثل تحية كاريوكا ، الى طالبه مهذبة مثل ليلي ..الى اذاعى مثقف مثل عبد الحليم البشلاوى الذى استعار لى نسخة من مكتبة السفارة الأمريكية وارسلها الى فى الحال . الى كل هؤلاء وغيرهم ممن ساهموا بالاهتمام اهدى خالص شكرى ومودتى .

هذا الاهتمام من القراء باعارتي كتابا كشف لى عن اكثر من معنى . انه اكد لى اهمية المشاركة القلبية . ان جائزة نوبل والعمل لها مطلب صعب . ولكنى واثق انى سأظفر به حتما اذا شعرت أن حولى قلوبا كثيرة يهمها ذلك ، وانها تدعو لى وتصلى من اجلى ، وربما تنذر لله شيئا ولو بسيطا مثل اطعام فقير او التصدق بقرش لو استجاب الله الدعاء يوما . ثق أن هذا القرش من قلب انسان يدعو لى خالصا سيدفعنى الى عمل المستحيل .

ادفعونى الى العمل مع الدعوات الطيبات . ثم اتركونى بعد ذلك وانسونى بضع سنوات . انى لا أستطيع ان اعمل شيئا الا اذا احتوانى الصمت والظلام .



رسالة وفاء .. إلى حواء

□■□ .. .. كان الحكيم سعيدا فى زواجه . انه خلع عداوته للمرأة التى ناصبها ــ قولا لا عملا ــ كل العداء . ومع ذلك فنجده يسرع بعد أن أحس قيمة حواء ما تعنيه سعادة الرجل والمشاركة فى الحيــــاة الحــلوة الرتيبــة .

يعلم أن صديقه الشاعر عبد الرحمن صدقى : مدير الأوبرا الاسبق قد فقد زوجته فلا يلزم الصمت . وانما يجعل من مداد قلمه دموعا وكأنه يرثى حال صديقه قبــل أن يرثى من يحــزن من اجلها . نجــده يكتب اليــه رســـالة :

□□ عزيزى عبد الرحمن :

... لا اكتب اليك هذا معزيا . ان فجيعتك ولا شك فوق كل عــزاء . ذلك ان الشعر الذى قرات ينزف من جرح لا يدرك كل النــاس اغواره . انى لأسائل : هل انت نظمت هذا الشعر ، أو انه انسكب وحده مع نفسك كما تنسكب الدموع .. دون أن تمسك حتى القلم ! انه شىء طبيعى . من صنع الطبيعة نفسها مثل عبراتنا . وليس لجمال القصيدة التى قراتها أبعث اليك هذه الكلمة .

ان الظرف ليس ظرف اطراء فنك الرائع هذا . وكل مجــد فى نظــرك الآن ولا ريب هباء . ولكنى اكتب اليك لأنى ابكى حالى انا ايضا المماثل لحـــالك .

ان تقولك :

كان لى فى اخـــريات الـ ـــعمـــر بيت ، فعدمتـــه
ـــنوات اربـــــع ؟ أم كان ذا حلمــــا حلمتـــــه
برهـــة ، وانتبــه الدهـــر فعفى مـــا رســـمته
اترى الرضـــوان ذنبـــا اثمتــــه واثمتـــــــه ؟
اجـــرام ان ســـــعدنا ؟ ام خيـــــال ما زعمتــه ؟
كـــل مـــا اعـــــرف انى كان لـــى بيت عدمتــــــه

هو امر كان يصح ان يحدث لى ، لو انى وفقت لمثل ما وفقت انت له من زواج سعيد . لكن القدر ما كان يتركنى انا ايضا انعم بالعيش الهنىء اكثر من عام او عامين ، كأن السعادة لأمثالنا اثم ـ كما تقول ـ لابد لهـــا من عقاب . لقد كنت اخشاها لأنى أعرف الثمن المحتـــوم . ولقـــد جردت نفسي من كل شيء ووقفت امام القدر وجها لوجه ، وهو ينظر الى يدى الفـــارغة من كل نفيس وعزيز فلا يجد ما يخطفه منى ولا ما يفجعنى فيه . وهأنذا اتحايل على نفسى لأطيق هذه الحياة ـ اذا صح لى ان اســـمى هـــذا العدم حياة ـ ولقد تجلدت حتى تبلدت ، فما احسست للعذاب قيمة ، ولا للدمع طعما ، الا وانا ابكى معك تلك التى قلت فيها :

فغاضت كمـــا غاض الربيـــــع . وانمـــا
ربيعى بعـــد اليـــوم هيهـــات يـــورق
شـــــريكة درسى ! تلك اســـفار مكتبى
خرســـــن وكانت فى جـــوارك تنطـــق
فمـــا لى الى الاســـــفار بعـــدك نهضـــة
ولا متعـــــة فيمـــا يشـــــوق ويونق
وكنت جعـــلت القفـــــر حـــولى جنـــة
وقـــام من الفـــوضى نظـــام منســق
فخـــلفت فى بيتى ســـــرابا بقيعـــــة
صـــوانك بالابراد والحـــلى يبـــرق

لمـــاذا فعل القضاء بك ذلك ؟ ان القدر يعلم انه سلبك شيئا انفقت اكثر حياتك بحثا عنه . ولقد ظفرت به فى النهاية ليكون لك ذخـــرا فى آخـــر العمر وسندا .. الى الوحدة الباردة مرة أخرى وقد ذقت دفء الحنـــان ؟ الى فوضى الحياة من جديد وقد ولى الشـــباب ؟ اللهم الصبر لك ! اللهم الصبر لك ! انى اشعر بمـــا انت فيـــه ، وأحس ما تحس ، وارثى لك ، ولنفسى فى موقفك . واســأل السماء الرفق بك .

مارس ١٩٤٥

توفيق الحـــكيم

. . . . . .
. . . . . .

لكن الرسالة التى كتبها توفيق الحكيم له لم تنشر الا عندما اصـــــدر عبد الرحمن صدقى ديوانه « من وحى المرأة » الذى يحـــوى فى جزء خاص ٣٠ قصيدة نشرها عام ١٩٤٥ فى مجلتى « الرسالة » و « الثقافة » كلهـــا فى رثاء شريكة عمره التى رحلت فى مطلع ذلك العام . ومنها تلك القصيدة التى هزت وجدان توفيق الحكيم !

الصيف والبحر

□■□ .. رنين تليفون يوقف كلماتي من حبر على ورق . توفيق الحكيم على الخط .. ضاحكا هاتفا فى سعادة كمن صنع معجزة : تعال بقى .. احسن القهوة حتبرد !

وصعدت طابقين حيث مكتبه فى برج « الأهرام » .

وابتدرنى مازحا متفائلا ، كعادته كلما لقينى : كنت فين .. القهوة اللي طلبتها .. هو يعني أنا أدفع .. وارمى فلوسى كده .. ايه بأه الحكاية مش تيجى علشان تشربها والا ايه ؟

وكلام يدور بنا .. التمس فيه خيطا الى النار والبحر . اسأله :

.. — ما الذى يثيرك اكثر ؟ أهو البحر ام هى النار ؟

.. — البحر بالطبع — لأنى عندما أجلس اتأمل اليه اغرق فيه بالفكر والخيال . انه عالم واسع عميق يحوى فى جوفه مخلوقات لا حصر لها . نعرف منها على الأقل الأسماك واللآلىء . وهو منبع اجمل الاساطير . وعندما انظر الى صخرة بعيدة منعزلة فى وسطه أتصور فوقها عروسا من عرائس البحر جميلة الوجه ناهدة الصدر ، ولولا ذلك الجزء الأسفل منها الذى ينتهى بذيل كذيل السمكة لتعشقها عين الانسان وروحه ونفسه . وكان له معها شأن . ومع ذلك فان الشاعر الأغريقى القديم هوميروس يقول

لنا انه كان لها صوت رخيم وغناء بديع يجتذب به البحارة فيقبلون عليها بشوق وهيام ، فتسحبهم الى الأغوار حيث يغرقون فى اليم بعد ان غرقوا فى الحب .

.. — والنـار ؟

.. — النار لا أدرى كيف يمكن أن تثير الوجدان الاثارة الخصبة المفرحة . وان كان يقال ان نيرون حرق روما وامسك بقيثارة وجعل يغنى على منظر اللهب . وهذا شىء لا استطيع ان اتصوره . فان اى حريق لا يمكن أن يوحى الى بشىء سوى الاسراع بطلب المطافىء ، أو بالبحث عن اناء ماء لا قيثارة غنـاء .

.. — الم تلسعك النار مرة ؟

.. — حصل طبعـا ..

.. — وماذا فعلت ؟

.. — صرخت صراخا عاليا اطلب الاسعاف .

.. — ومن نار الحب ؟

.. — صرخت صراخا مكتوما لا يسمعه احـد .

.. — ومن نار دفع الفلوس ؟

.. — آه لا تذكرنى . هذا يحدث كل يوم . وهو الجحيم « الأكبـر » المستمر على هذه الأرض . يقال ان عذاب النار فى الآخـرة هو انه كلما حرق جلد الانسان ظهر له جلد جديد ، فاذا حرق ظهر جلد آخـر . وهكذا يتجدد الجلد ويتكرر الحرق الى ما لا نهاية . والفلوس على الارض كذلك . نكسبها ثم ندفعها . وكلما تجدد الكسب تكرر الدفع . واحيانا كثيرة يكون الدفع فى هذا السباق اسرع من الكسب — ولذلك لا فرق بين جحيم الدنيا وجحيم الآخرة . ففى الحالين حرق .

.. — وكيف تتصور الجنة اذن ؟

.. — مكان لا يوجد فيه فلوس . ولا معاملات بالفلوس . لأن الفلوس اذا كانت من المعدن فهى تصهر فى النار . لتصهرك بعد ذلك . واذا كانت من الورق فهى قابلة للاحتراق وتحترق معك بعد ذلك . فى كل الأحوال لها صلة بالنـار .

.. — ولكن النار لها صلة بالشيطان . وشيطان الفن والفكر له صلة بحياتك واعمالك ؟

.. — فعلا . وقد عذبنى هذا الشيطان وأحرق حياتى كلها .

.. — والبحـر ؟ الم تخف منه يوما ؟

.. — أخاف منه عندما يكون هادئا صافيا . نظـرت مرة الى صفاء

البحر الهادىء وانا على الشاطىء .. وانكشف لى القاع العميق . ورأيت الأصداف نائمة فيه . وتخيلت نفسى فى مكانها ففزعت .

.. ــ اذا تخيلت نفسك فى وسط البحر وشعرت بالجوع ، ووجدت سمكة ولؤلؤة فالى ايهما تمد يدك .. ؟

.. ــ هذا يتوقف على مدة وجودى فى البحر ؟ .. اذا كانت المدة قصيرة يوما مثلا أو يومين واستطعت الصبر على الجوع أو الصمود حتى تنتهى المدة فانى أمد يدى الى اللؤلؤة . طبعا لا عن طمع فى المادة . معاذ الله . ولكن عن تقدير للأبقى . فنحن نصبر على الطعام لما هو أبقى من الطعام. ولكن اذا كان الجوع سيطول أمده الى غير مدة معروفة . وكانت المسألة مسـألة حياة او موت فالسمكة هنا بالضرورة هى التى تمتـد اليها اليد بدون تفكير .

.. ــ ما الفرق فى الالهام والوحى بين شيطان الفن وعروس البحر ؟

.. ــ لا فرق . شيطان الفن يحرق وعروس البحر تغرق .

.. ــ وايهما تفضل ؟

.. ــ الواقع هو ان شيطان الفن تجده دائما يجوس خلال كتبى . ولى كتاب على الأقل باسمه هو « عهد الشيطان » ، أما عروس البحـر فلم اتشرف بالتعامل معها بعد .. ربما لأنى لا أعرف السباحة .. وربمـا أملا فى ان تأتى وتعلمنى .

.. ــ ايمكن تصور زواج بين الشيطان الأحمر وعروس البحر ؟

.. ــ تقصد بين النار والبحر ؟

.. ــ اهو مستحيل ؟

.. ــ أحيانا ممكن . اذا ركب الشيطان باخرة او طائرة . ان النـار تتحرك بوقودها داخل اشياء السفينة وهى تمخر عباب البحر .

.. ــ وكذلك نار الحب فى البحر ؟ ! ...

.. ــ طبعا . اى عاشق يتأجج فى قلبه نار الغرام يستطيع بهذه النار ان يسبح فى مياه شاطىء المنتزه أو المعمورة . أو يطوف بهذه النار وسط البحر فى قارب بخارى أو سفينة شراعية . وفى مدينة فينيسيا أو البندقية لا عمل للبحر هناك الا ان يحمل النار المتأججة فى قلوب العشاق وهى تسير بالقوارب تحت جسر التنهدات .

.. ــ الم يسبق لك ان سرت بقارب فى مياه البندقية ؟

.. ــ حدث ذلك يوما . ركبت القارب الشهير المسمى بالجندول وخطر

بى كالطيف الحالم فى مياه ذلك البحر الهادى الجميل . وكان معى ايضـــا شيطان الفن الأشقر يحمل ناره اللاسعة الملهمة .

.. ــ اذن النار والبحر يمكن ان يجتمعا ؟

.. ــ نعم . ويكون بينهما زواج . وقد يحاول أحدهما ان يخمد الآخر. ككل زواج . ولكنهما أيضا قديران دائما على أن ينتجا مولودا .. قد يكون له شأن ..

. . . . .

. . . . .

وأشرب [المعجزة] فنجان القهوة . ويدخل زائر على موعد مع توفيق الحكيم . انا وتوفيق نحاول وبسرعة اخفـــاء المعجزة الفـــارغة . أعنى الفنجان . حتى لا تسرى العدوى ويطلب مثله !

واستأذن الى لقاء بعد ساعة . متذكرا لحظات مع د. طه حسين . عندما سألته ذات يوم عن البحر والصيف . فقال لى أنه ســبح مرتين . مرة عند شاطىء فرنسا عندما كان طالبا مبعوثا . ومرة واحدة على شاطىء الاسكندرية أيام كان أستاذا جامعيا . ولعل اللحظة التى لا انساها معه ذات مساء ، عندما انطفأ وهج الكهرباء وســـاد الظلام ولم يتوقف حديثه المسترسل من قبل ومن بعد . قلت له : النور انطفأ . قال : ليس مهما . انما المهم هو البصيرة لا البصر !!

□ □ □



العقاد .. وديكان روميان !

□■□ .. أخاف أن سرد شريط الانتاج الأدبى والفكرى لتوفيق الحكيم قد سحبنا حتى بداية الخمسينات . واستسمحك ان نعود مرة أخرى الى نهاية الثلاثينات . الى القاهرة . حيث يأتلف شمل كبار أدباء النصف الأول من قرننا الذى نحياه .

المنظر : مائدة صغيرة على رصيف مقهى ريتز تحت عمارة الايموبيليا .. اعلى عمارة فى القاهرة ذلك الحين والتى كان يسميها أولاد البلد [أم بليه] وكأن بلى الصغار له أم !

وهى مائدة وسط عدد ٥ موائد على دائر الرصيف ، الذى لا يتسع فيما بعد ذلك أو قبله الى قدم .

توفيق الحكيم : اختار ركنا قصيا على هذا الرصيف ، ويجلس الى مائدته بحيث لا تتسع الا لواحد أو اثنين فقط ، اذا أراد أن يجلسا معه خارج فاترينة واجهة المقهى . اما فى الداخل فلعدد اكبر . والحكيم حريص على مائدته هذه لسببين . اولا لأنها تطل على الجانب الآخر .. طريق التقاطع على مدخل البنك الأهلى العتيد . وكأنه هو حارسه . يطمئن الى ماله المحدود فيه . أو هى لذة التطلع الى ماله مهما كان حبيسا وراء جدران من حجر وخزائن من حديد فولاذ .. لذة الجوار . وقديما قالوا :

[جاور السعيد تسعد] .. فما بالك اذا جاورت ثروة البــلد من ذهب وينكنوت البلد ؟

ثانيا : .. اختار الحكيم مائدته على الرصيف .. مستوحيا ما كان يفعله كبار القواد فى ان لا يدخلوا اكثر من جبهة فى وقت واحد . ويكفى جليس واحد . فأمره معــروف حتى لو حدث وتورط توفيق الحكيم . ومع ذلك فهو قادر جالس له بالمرصاد والاقناع .

وذلك ما حدث عندما بدأ تعارف نجيب محفوظ بالحكيم — بعد لحظتنا هذه بتسع سنوات عندما طلب مقابلته بعد [زقاق المدق] واترك لنجيب أن يحكى الباقى . فهو روائى أولا ، وصاحب قضــية ثانيا . وثالثا هو حريص على صداقة الحكيم وأمين له ولها ومازال :

.. — وبعد التحية والابتسام . قاللى توفيق الحكيم .. اتفضل .. وجلست .

الحكيم — [بعد ٧ أو ١٠ دقائق] .. تطلب ايه ؟ .. والا أسمع احنا معرفتنا حتبقى دائمة . مش كده ؟

.. — أرجو هذا !

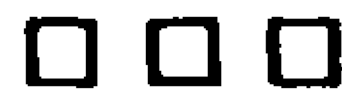
الحكيم — يعنى مش حنتقابل كتير هنا فى مصر وفى اسكندرية كمان بعدين فى الصيف ؟

... — آمل هذا !

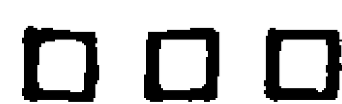
الحكيم — يبقى الطلب لزومه ايه ؟

نجيب محفوظ يصمت . يبهت . ولا يتعجب وانما مع كل التأدب يبتسم ليخفى تعجب هذا الاستهلال فى الحوار ، ليتابع الحكيم كلماته :

الحكيم — يبقى أحسن بقى كل واحد يطلب لنفسه . بدلا من انى اطلب والمرة اللى جاية انت تطلب وحاجات ملهاش معنى كده .. عاوز تشرب حاجة — انت اللى تطلب وانت اللى تدفع . واضح افتكر . ايوه يا أستاذ .. انا شايف ان روايتك فعلا عميقة خاصة فى مواقف : ..



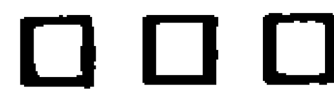
ويزوغ نظر الحكيم كل آن الى عبر الطريق .. الى واجهة البنك الأهلى. غير آبه النظرات الى الجمال الشارد الذى يخطو الرصيف من هنا أو هناك. ويضرب نجيب محفوظ كفا على كف .. تصور يا كمال ده كان أول لقاء . لكن الصراحة كويســـة مش كده . الله انت ما طلبتش حاجة لنفسك . وحياتك أطلب انت . علشان انا قايم دلوقت ورايه مشوار !!



ولا أبهت وانمــا عرفت بعضـــا من أسباب الاعجاب الذى يربط نجيب محفوظ بالحكيم . وكيف تأثر به من طول العشرة . أو هى « مشـــارب » تقـــاربت .

وقام نجيب محفوظ لا الى مشوار .. ولكن عندما لاحظ أن الباشا ابراهيم فرج قد حضر مع زميله مستشار النقض السابق فهيم الجندى . وأسرع الجرسون عندما لمح بالدفيع قادما .. واخذ نجيب محفوظ يغمز لى بعينه ويشاور لى — خفية عن انتباه الحاضرين — بأن احضر .. ورحبت اليه . فقال سعيدا هامسا بعد ان مال بكل راسه .. دى فرصة .. اطلب اى حاجة دى فرصة ، الطلبات مجانا هنا مدام دول حضروا . تشرب ايه ؟ وانتبه ذكاء توفيق الحكيم .. ليقول عاليا : ايوه يا استاذ كمال .. انت مطلبتش حاجة ودى أصول .. شوفه يا باشا .. ده ضيفنا هنا ايوه الأستاذ كمال الملاخ .. وصل النهارده .. النهارده والا امبارح . ودى اصول برضه تيجى امبارح ومفيش حد يشوفك الا النهاردة .. ايوه . تحب تطلب ايه على حساب الباشا ؟

ونتضاحك . وبالطبع لا قهوة تحضر .. الا اذا غمزت انا الجرسون بالشلن فى الخفاء !



وعود الى ذى بدء .

الى رصيف مقهى ريتز فى القاهرة .

وقد اتخذ الحكيم منه مجلسه اغلب العصارى او لحظات صباح .
انه يتمشى اليه .. فلا فلوس ولا بنزين مواصلات .. اذ انه تعود ان يقيم فى فنادق خاصة أو « بنسيونات » قريبة . اوفر .

واصبح هذا الركن من رصيف ريتز : صالون فكر . وان كان يجاوره محل صالون حلاقة . المهم كلها رؤوس . الاولى نظيفة من الداخل .والاخرى يأتى اصحابها لتسويتها وتنظيفها وتهذيبها من الخارج . وفريق بين العمق والسطح .

ويتجالس معه احيانا مع الحكيم — لا مع محل صالون الحلاقة — كبار مفكرى مصر ! عباس محمود العقاد مرة . ابراهيم عبد القادر المازنى مرة . سلامة مرسى لا يقابله هنا بالمرة وانما فى صالونات الصحافة فهو يقيم فى الفجالة .. وقد تعود ان يمشى المشوار من بيته حتى الجريدة . فهل معقول ان يمد طريقه برجليه الى الريتز ؟

ومع ذلك فهناك احمد الصاوى محمد وابراهيم ناجى وكامل الشناوى وعدد من فنانى البلد الكبار .. وغاد ورائح من جيل جديد . ينظر مع اللهفة .. متى يجلس مع واحد منهم ؟

. . . . .
. . . . .

ولكن كثيرا ما كان يجلس العقاد مع الحكيم .

. . . . .
. . . . .

واسال الحكيم عن رايه فى الثلاثة : فى العقاد وطه حسين والمازنى وبينهم سلامة موسى .. بعد ان راح الثلاثة ولم يبق لهم الا فكر مكتوب وذكرى عطرة .

□ يرد الحكيم :

العقاد فى نظرى رجـــل كريم وطيب القلب . ومن أدلة ذلك عندى هذه الحادثة : أنه فى أواخر الثلاثينات تألفت لجنة أدبية للتحكيم فى مســـابقة أدبية فى وزارة المعارف كان المحكمون : العقاد والمازنى وأنا . وتقررت لنا مكافأة : عشرون جنيها لكل منا .

عندئذ اقترحت أن يقوم العقاد بهذه المناسبة بعمل عزومة لنا والأصدقاء المقربين . وقبل العقاد عن طيب خاطر وعمل الوليمة . وليمة فاخرة قدم فيها ديكين روميين وليس ديكا روميا واحدا . وكل ذلك دون أن يخطر بباله أن يسأل زميليه اللذين قبضا نفس المكافأة .. لماذا هو وحده الذى يدعو ويعمل العزومة . وهما لا يفعلان شيئا غير مجرد الأكل . ولكنه كرمه الزائد وطيبته الغلابة رغم مظهره .

□ أما طه حسين فمن حكاياته معى .. أنه عندما انتخبت عضوا بالمجمع اللغوى من ٣٥ سنة ألقى طه حسين كلمة فى استقبالى . نفى عنى صفة البخل وأثبت أنى كريم . ثم زعم بعد ذلك أنى غاضب منه ومن كلمته لأنى اعتبرتها دسيسة ومقلبا لأن اعلانه أنى كريم ســـوف يغرى بى النـــاس ويطمع فى الأصدقاء ويطالبون بالولائم .

□ أما سلامة موسى .. فقد دعانى مرة على فنجان شـــاى . وما أن جاء ومعه اللبن حتى قال سلامة موسى انه لا يغلى اللبن أبدا حتى يحتفظ بكل مزاياه من الفيتامينات . فامتنعت عن اللبن قائلا انه اذا نهشت أمعاءه الميكروبات فكيف اذن ومتى يتمتـــع بمزايا الفيتامينات .. ولكن أثنى على سلامة موسى وعلى كرمه وخاصة عندما أهـــدى الى كتابا نفيســـا مجلدا أحســـن تجليد هو الكتاب المقدس ، الذى مازلت أحتفظ به حتى الآن ، وكما ترى فى مكتبى .

□ أما المازنى .. فمن حكاياته معى .. أنه دعانى الى ركوب سيارته الحديثة التى اشتراها وتعلم السواقة وساقها بنفسه . وفى ذلك اليـــوم الذى دعانى لركوبها كانت السماء ممطرة ووقفت الســـيارة فى منتصـــف الطريق . وصممت على عدم السير ولا الحركة . وهنا دعانى المـــازنى الى النزول من السيارة لمعاونته فى دفعهـــا وزقها بالتى هى أحســـن .. لتســـير .. ولعنت هذا اليـــوم الذى قبلت فيه هذه الدعوة لركوب هذه السيارة التى يقودها المازنى . اذ هطل المطر على الرؤوس . ولم يكن فى جسم المازنى الضئيل ولا فى عضلات الحكيم البخيل ما ينفع أو يشفع فى تحريك هذه السيارة وكانت أيضا بالصـــدفة وللكارثة من الطراز الضخم والوزن الثقيل . فتركت هذه السيارة اللعينة لصاحبها وانصرفت قائلا له : سأراك ان شاء الله عندما تكون لك ســـيارة أخـــرى من موديل آخر غير موديل [اللى يحب النبى يزق] .. مع ذلك ذهبت وجمعت له كل البوابين والمـــارين فى النـــاحية ليعاونوه فى زق هذه البلوى الثقيلة بين البلل وزحلقة الطين وصقيع البرد ولفح الهواء والريح والجهد الضـــائع . وأقسمت أن لا أقبل دعوة من المازنى . ومع ذلك كان منتجا وفير الانتاج . يحب الزملاء من الأدباء ويحبونه .

□□□

كيف دفع الجنيهات الخمسة!؟

□■□ .. ولكن ما راى العقاد فى توفيق الحكيم وحرصه المـــادى الذى يصفه بعض الخبثاء وانا لست واحدا منهم .. بالبخل :

ان العقاد لو كان حيا لحكى الكثير . ولكن اعــود الى مذكرات يومياته لاختار منها بعض ما كتب عن الحـــكيم . والعقـــاد مات من ٢٤ ســـنة [١٢ مارس ١٩٦٤] .

□ .. الأصابع الخمس والحواس الخمس والصلوات الخمس والسنوات الخمس ، والقارات الخمس والمحيطات الخمسة ، هى الخمسات الخالدات التى تمضى الأعوام بعــد الأعوام ، والأجيال بعد الأجيال ، وهى لا تزيد ولا يظن أحد انها قابلة للمزيد .

حتى أذن الله فزادت منذ أسبوع خمسة اخرى من الخمسات الخالدات التى سوف تتردد على كل لسان ..

وهى الجنيهات الخمسة التى دفعها الأستاذ توفيق الحكيم !

وقبل أن ندخل فى تفصيل هذا الحادث الجلل ، نسجل اليوم والساعة والدقيقة التى ولدت فيها هذه « الخمسة » الجديدة لانها جديرة بأن تسجل

للتاريخ كما تسجل الساعات التي تولد فيهـــا العوالم النـــادرة والمذنبات المرصودة والطوارق التى لا تخطر على بال فنقول باسم الله ومعونة الله انها ولدت عند سفح الهرم بمنزل الأستاذ الموسيقار محمد عبد الوهاب ، فى منتصف الساعة الحادية عشرة ، من مساء الاثنين التاسع عشر من شهر يونية ، لألف سنة وتسعمائة واربع واربعين سنة مرت بعد ميلاد المسيح والآن وقد شغلنا بهذا الواجب لحظة ، تركنا القارىء فيهـــا فاغرا فاه من دهشة العجب ...

نعود اليه فنسمعه يسأل ويكرر السؤال : دفعها الأستاذ توفيق الحكيم؟ اتقول دفعها الأستاذ الحكيم ؟ كيف بالله دفعها الأستاذ توفيق ؟ كيف بالله!

اى والله كيف ؟

هو نفسه لا يدرى الآن كيف ؟ وانا أيضا لا ادرى كيف ، ولا يدريها أحد من الحاضرين ، وقد كان هؤلاء الحاضرون غير قليلين من اصحاب العيون القوية ، والعيون الجميلة التى تحسن النظرات ولا تشك فيما تراه ، لولا انه خارقة من الخوارق التى تضلل العيون افقنا من الدهشة على الأستاذ توفيق الحكيم ملقى على كرسيه فى زاوية فى الردهة الطويلة ، يقلب كفيه ويقلب قبل ذلك عينيه عسى أن ترجع اليه الجنيهات الخمســـة بمعجزة سماوية كالمعجزة التى اخرجتها من حوزته ، لولا أن المعجزات لا تتوالى بهذه السرعة فى مكان واحد وفى ليلة واحدة ولو كانت « نقود » تعود الى مكانها من طول الألفة ، لو وثبت هذه الورقة ، من وراء الأكياس المغلقة وعادت الى وطنها العزيز فى لمحة عين ، ولكن النقود لا تكن بنت الدنيـــا الغادره وشبيهة أمها فى كل شىء ان حبسها طول الألفة فى مكان او منعها طول الألفة أن تتقلب بين فلان وفلان وقد كان ما كان ، فلا رجعـــة لمـــا كان ، وكيف ؟ اى والله قل لى مرة ثانية وثالثة كيف وكيف وكيف الأستاذ توفيق الحكيم لايدرى وانا والله لاادرى، ولكننا نستجمع الذاكرة من هنا وهناك، ونؤلف بين المتفرقات من اليمين والشمال ، ونسأل شهود الحادث ثم نعيد سؤالهم فيخلص لنا من جميع ذلك ان الحادث « قضاء وقدر ! » . وان عوامل التدبير التى دخلت فيه هى لولا قضاء الله وقدره مصادفات ، وان كانت من أقوى المصادفات براعة الفنانة الكبيرة ام كلثوم ومناورات الحرب التى اقتبست من احدث طرائف الميادين .

وجود الفن ، وجود التاريخ وقليل من الجو « الأسكتش » الذى يسيل فى الزجاجات ، ويندر حمله فى هذه الأوقات .

ها هو ذا صديقنا الأستاذ بين يدى الفنانة البارعة ، وها هى ذى الفنانة البارعة يلهمها الله الذى ألهمها ذلك الغناء الساحر أن تسأله : بكم تتبرع يا أستاذ لنقابة الموسيقيين ؟ ويظن الأستاذ انه المزاح بعينه لأنه لم يألف الجـد على هذا الأسلوب ، فيقول وهو لا يراجع مقـــاله : بما تشاءين ! بما تشـــاءين ؟

وقع السيد توفيق والله !

وهنا أسرع اليه عشرة أعداء .. فانهم ما كانوا ليبلغوا منه ما بلغه اولئك الأصـــدقاء الأعزاء فى لحظات معدودات . وابتدأت المناورات على خطة غير مرسومة ولكنها امضى الى الغرض من كل خطة مرســـومة ،

الأستاذ الصاوى يقول : انا اتبرع بمائة جنيه اذا تبرع الأستاذ توفيق بعشرة ، وهذا دفتر الشيكات . والأستاذ المازنى يقول :

لست من أصحاب الأطيان وليس معى دفتر شيكات ، ولكنى اتبرع بجنيهين عن كل جنيه يجود به السيد توفيق .

والأستاذ عبد الوهاب يخلى الميدان ويتشاغل بالمائدة والكراسى ، لكيلا يقال انه استدرج صديقه الى كمين مخيف فى ذلك المسكن الجميل ، وانه يصوب رصاصة الى القلب ... والقلب هو الجيب الذى على اليمين وكاتب هذه السطور يشترك فى المزايدة تارة بالجنيهات وتارة بالكلمات ! واخواننا الصحفيون وقد كانت منهم نخبة ممتازة فى السهرة يتأهبون على مقربة من التليفون لتحضير « الملحقات » فى منتصف الليل ، اذا وقع المحظور، أو وقع المأمول !

وينخدع صاحبنا الحكيم ، وتأخذه خديعة الفنان لطبعه فى التمثيل والمحاكاة فيحسب المسألة كلها مزاحا وامانا فى أمان !

فما أسرع ما يقول وهو مطمئن الى عاقبة المقال : طيب قبلت !

ولا يخذل الأستاذ ظرفه وخفة روحه فيلتفت الى صديقه الغادر ، احمد الصاوى ويقول له : هات دفتر شيكاتك !

فيغلب على الحاضرين ضحك ويزيده هذا الضحك طمأنينة الى طمأنينته، فيكثر من الكلام كما يكثر من الحركات والاشارات ، وهو لا يحسب مرة اخرى أقل حساب للعواقب والمفاجآت واذا بأول المفيقين من نوبة الضحك يقول للسيد توفيق : مالك ولشيكات الصاوى ؟ .. ثم ينظر الى الطاقية التى على راسه فيقول : أتلبس طاقية زيد لعبيد وطاقيتك انت على راسك

... — لا يا صاح هات دفتر شيكاتك انت !

... — ليس معى دفتر شيكات !

... — هات كيس النقود .

... — وليس معى كيس نقود وصدق الأستاذ فهو لم يكذب السائلين قط فى جواب .. ليس معه دفتر شيكات ولا كيس نقود .. وليست وعود الليل مما يذكر فى الصباح ولا سيما هذا الوعد الوبيل فقد نجا الأستاذ اذن من هول الساعة وزاده الأمل فى النجاة طمأنينة ثانية الى طمأنينة ثالثة رابعة الى طمأنينة خامسة الى طمأنينة سادسة . فأصبح مرة اخرى لا يبالى ما يقول لكن الساعة قد اعدت من قديم الأزل لأمر خطير واذا اعدت الساعة لأمر خطير نفذ المقدور و « جاءت لأهون سبب » كما يقولون فقبل الليلة بأيام معدودات علمت من صديقنا المازنى أن صاحبنا لا يحمل النقود فى كيس ولا فى جيب ، ولكنه يحملها فى علبة النظاره حيث لا يعلم سارق ولا طامع بأنها هناك ، وحيث لا يخطر لأحد أن يسرق نظارة لن تنفعه ولن تنفع شاريها بغير القياس المطلوب هذا فضلا عن الحكمة الاقتصادية الذهبية التى تحصل بثمن واحد على سلعتين مطلوبتين : كيس نقود ، وعلبة النظارة !

وياله من دليل جديد على قيمة النقود عند صاحبنا الحريص الأديب فهى والنظر عنده سيان ، وهى والبللور طريق النور !

فذكرت تلك اللحظة ما أنبأني به الأستاذ المــازني وناديت فيهم : لاتدعوه يفلت من أيديكم واطلبوا منه علبة النظارة !

وظن الحريص الأديب انني اقولها أعتباطا أو أقولها وانا اقصد النظارة التي لا تفيد أحدا من الحاضرين ، سارقين كانوا أم ناهبين ، أم متبرعين لنقابة الموسيقيين . فما أسرع ما قال : وهذه علبة النظارة ! ــ وهذه هي الخمسة جنيهات !

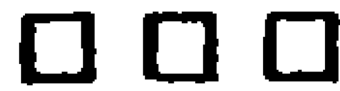
لم نعثر بها فورا والشهادة لذكاء الأستاذ الأديب . فقد فتحت العلبة فلم تظهر منهــا في أول الأمر غير النظــارة ومن وراء المسحة المعهودة ذلك المبلغ المرصـــود !

سحبه الشيطان حامل العلبة فخيل الينا اننا نشاهد حاويا من أمهر الحواة ، يخلق النقود والخيوط والمناديل من الهواء وهكذا نفذ قضاء الله ولا راد لمــا أراد .

ولا يسأل القارىء عن بقية السهرة ، فهي في غنى عن السؤال .

غنت أم كلثوم كأنها قبضت بيديها على كنوز سليمان الحكيم ، لا على خمسة من جنيهات سميه توفيق الحكيم ، وظننا انها كانت تتغنى بجمال تلك الجنيهات ، وان الأستاذ محمود بيرم انما نظم الأنشودة غزلا في تلك الجنيهات .

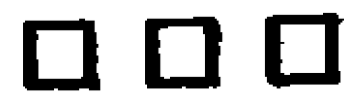
وكل يغنى على ليلاه وكانت ليلانا جميعا ولا نخص الحكيم وحده . تلك الخمسة الخالدة التي زادت المحيطات الخمسة والقارات الخمس وختمت في آخر الزمان قائمة الخمسات الخالدات وخلاصة اللبنة كلها اننا خرجنا شاكرين دهشين نقول للأستاذ عبد الوهاب اقسم بعد الآن وانت غير حانث أن بيتك هذا قد حصلت فيه معجزة من كبار المعجزات .



والآن ما العمل يا صديقنا ما العمل يا سيد توفيق وقد كان كل الذى كان ؟ عندي مشورة تذكرني بها قصة جنيهات خمسة كهذه الجنيهات كانت لصاحبنا القديم حافظ ابراهيم وقد كان حافظ ينفق المــال بغير حساب ، وأدركته الشيخوخة وليس في بيته ولا في مكان فوق الأرض أو تحتها مدخر لأكثر من اسبوع . ثم الحق بوظيفة في دار الكتب فأقسم على نفسه ليودعن من مرتبه نصفه على الأقل في مصرف أمين واقترب آخر الشهر فاذا النصف يهبط الى الثلث ، واذا الثلث يهبط الى الربع ، واذا الربع يهبط في أول الشهر الى خمسة جنيهات .

ويروى امام العبد رحمه الله والعهدة عليه أن حافظا توسط وتشفع حتى قبلوا منه الجنيهات الخمسة وديعة في بنك « الكريدي ليونيه » وان حافظا ذهب الى فراشه أول ليلة وهو لا يستقر عــلى الفراش من هذا الوسواس الجديد . ماذا يجرى في البنك يا ترى وفي تلك الجنيهات ؟ اذهب الى البنك يا حافظ ولا تسلم عينيك للنوم قبل ان تطمئن عليه وذهب حافظ

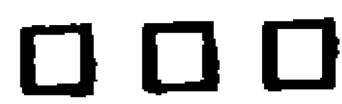
الى البنك ، يدور حوله ، ويعيد الدوران ، ولا يهون عليه ان يقتلع قدميه من ذلك المكان قبل أن يمتلىء قلبه بالاطمئنان حتى استراب فيه الجندى الحارس وليس فى ملابس الشاعر الكبير ما يدفع الريبة ، فسبق الى ظنه انه لص يحوم حول الأبواب والجدران ليتسلل اليها فى غفلة من الحراس !



وتلطف حافظ قبل ان ينهره الجندى الحارس بكلمة او بصيحة من صيحات الليل فمشى اليه وتودد له وقدم له سيجارة فاخرة وسأله : انت حارس البنك وحدك ؟

قال : نعم وحدى ؟

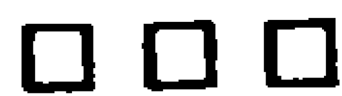
قال : وحدك بمفردك وفيه خمسة جنيهاتى ؟ .. سألتك بالله الا ماالخذت بالك من هذه الجنيهات ولا عليك من أموال أولئك المرابين وأصحاب الملايين!



ويخطر لنا ان نقابة الموسيقيين ستحظى من صديقنا الحكيم بمثل هذه العناية ومثل هذا الدوران بعد حادث يوم الاثنين الغابر بل يخطر لنـــا انه سيلزم النقابة لزوم أهل الصناعة وسيرفع عنايته بالموسيقى من مقام الهواة الى مقام المحترفين .

وحتى أصبح موسيقيا محترفا فله على النقابة حقوق يربح بها ولا يخسر، ويعتمد فيها على النقابة فى كل خصم وتنزيل من المشتريات والمعاملات .

وهو منذ يوم الاثنين الغابر من المشتركين العاملين .



ماذا لو حلقوا ذقونهم ؟

□■□ أن نفاجأ بسانت كلوزس أو بابا نويل .. وهو يهبط لنا من نافذه او مدفأة أو متسربا بشكل ما داخل بيوتنـــا حليق الذقن . فأعتقد أن هذا سيكون صورة أو هيئة خبر عالمى أشبه بالأسطورة .

سيتساءل أطفال العالم وآباؤهم وامهاتهم واهل بيوت أوروبا والأمريكتين وكندا واستراليا وعديد من الناس فى آسيا وافريقيا .. ايه الحكاية ؟ ولماذا ازال بابا نويل شعيرات ذقنه الطويلة جدا البيضاء جدا كلون ثلوج راس السنة وهو موعد ظهوره والاحتفاء به .. بل واحتفائه بالبشرية يحضر لها الهدايا الموعودة .. ويعلقها نيابة عنه الراشدون من افراد العائلة فى فروع شجرة عيد الميلاد .. حتى اذا ما صحا أطفالهم .. بناتهم وأولادهم .. صغارا وكبارا فسيجدونها ويفرحون بهـــا .

ولكنى اعتقد انهم لو رأوا صاحب الهدايا : بابا نويل .. وقد ازال ذقنته او ان احد ازالها له واختلفت صورته وهيئته .. فانهم سيتركون ماانتظروا من هدايا .. ويدفعهم الفضول لفتحها .. الى سؤال واحد . لمـــاذا حلق بابا نويل ذقنته !

نفس الحكاية بالنسبة لأهل الفن والأدب .. اذا ما فوجئوا بأن شكل : برنارد شو وتولستوى وتشارلس داروين وتشارلس ديكنز وفيكتور هوجو

ولينين وماركس وروادن وتولوز لو تريك ومايكل انجلو وليوناردو دافينشى وبن جونسون وتشايكوفسكى وانرو كرنيجى وابراهام لنكولن ...
وبالطبع لم اذكر ذلك الراهب الشرير الفاتن المفتون : راسبوتين . تصوروا لو حلقوا ذقونهم .. كيف ستبدو صورهم لنا . وقد طبعت فى الذاكرة ..

نفس الشىء لابقراط ابو الطب وللفلاسفة سقراط وافلاطون وأرسطوتاليس لقد أصبحت شعيرات ذقونهم قسماته تؤكد ملامحهم العتيقة ! تماما كتلك الـ « سكسوكة » المثلثة الصغيرة التى كانت تمتد من تحت عرض شفة شكسبير السفلى حتى وسط ذقنه ! .

ثم لماذا لا نترك عقدة الخواجة .. ونصل الى التاريخ العربى فنجد ذقونا ثابتة لاغلب من اشتهر ونبغ من امثال : ابن المقفع وابن الهيثم وابن باجة وابن بطوطة وابن حنبل وابن خلدون وابن رشد وابن زهر وابن سينا وابن طفيل وابن عربى وابو العتاهية وابو العلاء المعرى وابو نواس والادريسى والأشعرى والبستانى والبخارى والبيرونى والجاحظ والخوارزمى والرازى والشافعى والغزالى والفارابى والفردوسى والكندى والمأمون والمتنبى والمسعودى والمنصور وجابر بن حيان وجلال الرومى وحافظ الشيرازى وخالد بن الوليد وصلاح الدين الأيوبى الذى ثبت قواعد المذهب السنى فى مصر وقضى على الانشقاق الفاطمى وموسى بن نصير وطارق بن زياد فاتحا الأندلس وعمر الخيام .. وهو يفكر فيداعب ذقنه .. ثم يستوحى الكاس شعرا .. او يفكر اكثر ليحل مشكلة رياضة الجبر .. وهارون الرشيد .. الذى اشتهر بليالى الأنس والاسراف وبقضائه على البرامكة!!

ولو فضلت اعد .. لما بقيت صفحات بيضاء فى هذا الكتاب .
ولكن اصل الى ما اريد .. أن : توفيق الحكيم فعلها بالعكس مرتين !

مرة عندما عاد من باريس بعد ان زهق من هذا التطور المادى الذى حدث وفوجىء به .. عندما ذهب اليها فى وظيفة جديدة اقبل عليها للتغيير ولم تدم به الا شهورا وبعد ذلك ابدى رغبته فى أن يتركها ويهجر باريس عائدا الى مصر .

وفوجىء من يعرفه بأنه هبط الى مطار القاهرة ، حليق الشارب ، أين « شنب » توفيق الحكيم . وبالطبع كان يبدو اصغر عمرا .
ولكن لمحة من ملامح وجهه ضاعت .
ولم يرض توفيق .. بأن يستمر التساؤل ، فأطلق شاربه من جديد كثيفا كما كان . كان ذلك ١٩٦٠.
وتمر ٥ سنوات

لنفاجأ بأن توفيق الحكيم قد انتهز فرصة وجوده فى الاسكندرية فترك لشعيرات ذقنه العنان كل العنان .. يداعبها هواء البحر وتطول وتكاد هيئته المعروفة للناس : تتغير بعض الشىء !

— لماذا كان هذا ؟
لا احد يعلم بالضبط .
ولا أعتقد انه قصدها .

ولكن المسألة هكذا . استراح ان يترك ذقنه تنمو بعيدا عن عيون تعرفه .. ويبعد عن اجابة يتلوها بعد كل سؤال عنهـــا ؟

هل كان كسلا. أم مجرد أنه أراد أن يقطع الملل فاتجه الى غير المألوف . أم تقليعة . وكان ذلك ١٩٦٥ . واستمرت ذقن الحكيم تطول وتطول طوال ٣ شهور . وفجأة اختفت . وحلقها وعاد الى كامل هيئته الى القاهرة !

واذا حسبنا الحكاية وفرا واقتصادا وبخلا فى الحد من استعمال حـــد الموسى . يوما بعد يوم ! لكان الرد ولكنه شاء ان يحلق شاربه فى لحظات غيابه عن مصر يوما بعد يوم . وهذا انفاق . اذن هى التعــادلية فى واقع الحكيم !

. . . . . .

. . . . . .

واذا كان لكل عبقرى لمحة او لمحات غير مالوفة .

فادبينا الحكيم : اعقل العباقرة فى جيلنا ، هذا اذا قسناه مثلا بروائى فرنسا : الكسندر دوماس الأب [٦٨ سنة] الذى عاصر بداية لمعة اسم نابليون فى باريس ، واشتهر بملحمته : [الفرسان الثلاثة] و [الكونت دى مونت كريســـتو] و [زهـــرة التوليب الســـوداء] و [الفيســكونت دى براجيلون] .. ومذكراته بين العديد جدا من أعماله .

انه لم يذق القهوة فى حياته . على الأقل الحكيم تعود ان يشرب فنجـــانا [صغيرا] منها كل صباح . ولا يهم من يدفع لحظتها : الباشـا ابراهيم فرج فى الاسكندرية صيفا او نجيب محفوظ شتاء .. عندما يحضر ليصبح كل [ظهر] على توفيق الحكيم فى مكتبه .. ثم يطلب نجيب محفوظ فنجان قهوة للحكيم .. ولا يقتسمه معه . انما يطلب نجيب محفوظ كوب ماء لنفسه [*] صحة . والله الدنيا حر . تحب تشرب قهوة يا كمال.. والا تأخذ واحد مية. يقولها نجيب محفوظ ــ وهو البخيل المستتر الآخر فى عالم ادبنا الحديث !

واعود الى : دوما الأب [دوماس] الذى لم يدخن ولم تعرف شـــفتاه سيجارة او سيجارا .. فقد كان له ميل غريب عند الكتابة والتدوين .. ليس كما كان يفعل فيكتور هوجو .. الذى كان يقف بقامته المديدة يجلس على منضدة عالية امامه وكأنها منصة ! ولكن دوما تعود أن يقعد على مقعد، بحيث يسند كتفيه الى وسائد طرية ويمد يده ليكتب على ذراع المقعد .

ومع ذلك فهو كتوفيق الحكيم .. لا يقبل على الحبر العادى ليكتبه.وانما بالأقلام الملونة .

الحكيم تعود ان يكتب بالقلم الرصاص ، حتى يسهل « كشط » اى كلمة لا تعجبه ــ بالأستيكة ــ حتى لا يخسر ورقة ! ومن الطبيعى عنده ان يكتب على الوجه التـــالى للورقة . بينمـــا تعود اهل الكتابة والتاليف للكتب او للصحافة ان يكتبوا ويملأوا وجها واحدا من كل ورقة ، حتى يسهل لجامع الكلمات او طابعها سرعة الجمع والمتابعة .

وهكذا كان يفعل دوما الأب . لا حذرا ولا حرصا على ثمن الورق . فقد كان مسرفا . وانما كان شديد العناية بألوان الورق واقلامه يتنوع كل منها حسب اتجاهه الأدبى .

اذا صاغ — شعرا — فانه يكتبه على ورق اصفر وبقلم ملون .

واذا كتب رواية — فانه يدونها على ورق أزرق وبقلم مختلف اللون عن قلم الشـــعر .

أما اذا ما سطر مقالا صحفيا أو بحثا لجريدة او ما شاء له من تعليق فان **الورق الوردي** .. هو الذى يبحث عنه ليكتب وبقلم مختلف اللون عن اللونين الأولين !

واذا كان دوما الاب قد ترك عديدا من الاعمال الادبية حتى يقال انه اعطى للورق اكثر مما أعطى هـ . ج . ويلز وبرنارد شو وكيلنج مجتمعين .

وصحيح أن دوما .. بدأ حياته من سفح الموهبة فقيرا . لدرجة انه اضطر فى شـــبابه الأول أن يصنع بنفسه هيئة قبعة من ورق .. ليحضر عرض مسرحيته الأولى . لكن سرعان ما أصبح مليونيرا . جمع٣ ملايين‌جنيه ! ومع ذلك عرف العوز والفقر .. حتى الجوع .. عندما كبرت به أيام عمره .. لولا عون ابنه الكسندر دوما الصغير [٧١ سنة] الذى كان يسانده ماليـــا من دخله خاصة بعد أن الف الابن رائعته : [غادة الكاميليا] ومن السخرية أن الموقف — حالة والده المـــالية — قد أوحت اليه بأن يؤلف [مشـــكلة النقود] . وذلك قبل رواية [الابن الطبيعى] !

على أى حال لم يعرف عن توفيقنا الحكيم .. الا انه امسك بالعصـــا بعد أو قبل القلم . ولكن دوماس الأب أمسك بالسيف والمسدس ليقول هل من مبارز .. اذ اشترك على الأقل فى ٢٠ مبارزة .. خلال مغامراته النســـائية !

وبالطبع هناك فارق بين شذوذ العبقرية التى اوصلت بلزاك وديكنز الى السجن .. لماطلات فى الدفع .

بلزاك الذى كان يتحايل على مادة وفلوس الحياة .. لعلها تاتى من اى نافذة او باب . لدرجة انه اقبل على مشروعات وهمية منها التعدين فى جزيرة .. جزيرة سردينيا .

على الأقل توفيق الحكيم .. يهجر مجلسه أو يترك مقعده كل مســـاء ليرقد فى سريره خالى البال .. لا الوفاض . ولكنه ينام ملء جفنيه . ولكن ما بالك اذا رأينا أن بلزاك اصبح فى بعض ايامه يخاف أن يفتح الباب .. حتى لا يجابه دائنا !

وعلى ذلك راح بلزاك .. اذا ما جـــاءه دخـــل جـــديد ممـــا يؤلف ويبرع .. فانه يبـــذر لدرجـــة الســـفه . مثـــلا .. ان يشترى قصرا من ثري باريسى . يتفق معه على ثلث مليون جنيه .. ويدفع له عربونا فقط .. وتبقى قابلنى بعدها !!

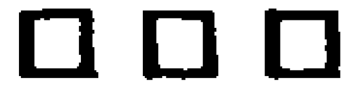
اذن لا نعجب قليلا ولا كثيرا اذا عرفنا أن بلزاك تعود أن يغير صفحات وفصولا من كتاب له .. لدرجة انه يكاد يعيد تأليف رواية أو كتاب من جديد .. حين يقبل على تصحيح أخطاء قليلة معدودة اثناء البروفة قبيل الطبع بأيـــام !

ثم .. هل هناك داع لمقارنة .. فى بساطة مظهر الحكيم زيا نظيفا ولكنه واحـــد أغلب الأمر . على الأقل من ناحيـــة اللون .. على ما كان يرتديه

تشارلس ديكنز فى الوان براقة وسلاسل ذهبية وخواتم مرصعة .. على الاقل لم يفعل الحكيم ما كان يفعله ديكنز عندما كان يتعمد أن يقزز المجتمع من حوله .. لحظة غداء أو عشاء .. عندما يخرج من جيبه مشطا ، يهذب به شعيرات ذقنه ويسوى به شاربه ! ؟

ولم يفعل توفيق الحكيم ان راح ليغير ملابسه ويرتدى زى « البحارة » مثلا مثل ديكنز ليفاجىء صاحبه .. بأن يقفز من نافذة حديقة بيت صاحبه الى داخل داره لزيارته .. زيارة عادية !

السبت معى اذن فى أن توفيق الحكيم مع كل مظاهر اتزانه ووقار تفكيره ومظهره هو أعقل عباقرة زمانه بين أهل الفكر فى عالم الأدب والفن . ؟



واذا كانت بعض ظواهر الموهوبين أو تصرفاتهم تتسم بالغرابة .. وعلى سبيل المثال تعود عميد لغتنا الجميلة : د. طه حسين ، أن يزور مفتتحا معارض الفنانين التشكيليين: متفقدا لوحات المصورين منهم والتماثيل والأعمال الخزفية للمثالين فيهم . فانه كان ينصت كل الانصات لكل شرح ووصف كل قطعة حسب ما يشرحها ويصفها له صاحب المعرض حينئذ . وليس مهما نور الرؤية بالنسبة لطه حسين ولكنى اعتقد انه فى اصراره وعناده هذا هو سبب واحد .. هو اظهار تقديره وتشجيعه لحركة الفن فى مصر ومن بينها الفنون التشكيلية وهى الحركة التى أثارها مثال مصر محمود مختار وويصا واصف رئيس مجلس البرلمان وتحت قبته فى بداية العشرينات لبعث فنانين مصريين للاستزادة من دراساتهم الفنية فى أوروبا . فقد كان طه حسين يرى فى اثينا قديما وباريس حديثا : قبلة الحضارة المعاصرة [وفات طه حسين عظمة مصر القديمة وهو معذور فى ذلك لانه تأثر بدراساته الباريسية التى تؤكد الخط الأوروبى ، وكان بعض غلاة المترمتين هناك يحاولون اسناد كل فرع للحضارة الى اليونان العتيقة . وفاتهم وفاته أن الأصل هو النبع . هو مصر وفينيقيا وآشور وبلاد ما بين النهرين قديما ، قبل ان تشرق شمس الحضارة قادمة من مصر او غاربة عنها لحظة ان طلعت تشرق فوق ربى جبال الأوليمب ومقدونيا وهضبات وجزر اليونان . وعن منف وطيبة اذن اخذ العالم الى بيلوس ونينوى وعن الأربع تحركت الى اثينا الى روما . ثم كان التقدم الذى حرصوا على تطويره فكانت لهم اوروبا الحديثة وعنها اخذ العالم المتمدن .. بكل ما فيه من عناصر وقيم هى رجع الصدى لحضارتنا] .

واعود الى طه حسين واهتمامه بالفن والفنون ، على الوانها المختلفة من مسرح وغناء وصورة وتمثال الى جانب جوانب الفكر . نجده ينبه مواطنيه فى عنف لا هوادة فيه ، الى أهمية الفن للوطن والمواطن . فينتهز فرصة الحديث عن ممثلة المسرح الفرنسى وأعجوبته : سارة برنارد ، بعد ان استمع اليها وهى تمثل فى باريس ذات ليلة ثم بعدها واكثر من ليلة .. فيكتب رأيه فى كتابه : [من بعيد] .. واسأل نفسى : متى يتاح لمصر نابغة كسارة برنارد ، أو على أقل تقدير متى يبلغ اهل مصر الرقى العلمى والخلقى ما يمكنهم من أن يقدروا نابغة كسارة برنارد لم تنبغ فى السياسة ولا فى الدين ولا فى العلم انما نبغت فى الفن . وفى فن هو سىء الحظ جدا عند المصريين . نبغت فى التمثيل الذى يزدريه أكثر المصريين ويفهمه قليل

من المصريين ، على غير وجهه ولا يفهمه حقا بين المصريين الا نفر يكادون يحصـــون !!

ويستمر طه حسين ابن مغاغة الذى سافر لتوه الى القاهرة .. ومنها الى باريس عاصمة الجمال والنور فى مطلع قرننا العشرين . فيبهر . يبهره كل شيء . ويعود مطرقا — وملحا — على ابواب مصر ان تفتح نوافـــذ ثقافتها الى ما يجرى — نابضا — فى عالم نعيشه . وان نصحو من غفوة قرون وسطى كادت تزحف على القرن الماضى لولا عدد من مواهب الرجال والنساء .. الذين اخذوا مسئولية ان تتحرك لترى شعاع المعرفة والفن .. ليس مهما قادما من أين . ولكن أن نمشى اليه لنعيش مع الفكر المتفتح والفن الرفيع . لنلحق بالركب .

وهكذا فعل قبله : رفاعه الطهطاوى [٧٢ سنة] عندما اختاره باشـــا مصر وواليها محمد على : ليرافق البعثة التى اختارها من شباب مصر الى باريس اماما لها ولهم . وذلك من ١٦٥ سنة فترك طهطا الى القاهرة ومنها أبحر الى فرنسا فبهرته باريس فكتب عنها وأهلها كتابا اختار له عنوانه العجيب زماننا الساخر زمانه [تخليص الابريز الى تلخيص باريس] !

واذا تركنا قضية هل نأخذ ثقافتنا من بيئة شخصيتنا أو لا ننتظر حتى نتطور ونستوردها جاهزة مهما كانت غريبة عنا بعض الشيء ؟ فان هذا موضوع .. ليس هنا سطور طرحه وبيانه ثم الوصول الى هدف واضح فيه . فليس هكذا نأخذ المسائل سريعا لنناقشها على السطح فى ومضة أو طرفة عين .

ولنعد الى مظاهر الغرابة عند أهل النبوغ والموهبة .. لا نبعد عن أدباء فرنسا : جوستاف فلوبير ومونترلان وبول كلوديل ولويس بوول وريمون

آبيليو ومن قبلهم الشاعر رامبو ، والبير ج.د. موباسان [٤٣ سنة] والذى كان يخاف الموت الى حد العذاب وكان موجسا متطيرا مخيفا يتعايش مع الرعب . كان يكره أن تنشر له صورة ! واتخذ من المراة عدوا .

مرة كنت أتحدث مع الصديق الأديب د. نويل عثمانوف : مدير عـــام المراكز الثقافية السوفيتية فى مصر ، عن بخل أو حرص توفيق الحكيم . وكان عثمانوف قد قدم رسالته فى الفكر والأدب العربى عن توفيق الحكيم فى جامعة موسكو .. وقلت : مداعبا . ان للبخلاء نوادر فى كل زمان ومكان .. يا ترى فى الأدب الروسى القديم ؟

فقال عثمانوف .. ان عندهم أديبهم ايفان كريلوف . والى جانب بخـــله .. فانه كان يحكى بالرمز عن البخلاء وكيف أن أول خياله قد اتخذ من الطير والحيوان .. ساحة لمـــا يريد أن يحكى : العبرة . فهناك الحكمة الروسية : يفقد البخيل كل شيء لهثا وراء كل شيء !

اذ كتب كريلوف تحت عنوان البخيل والدجاجة : كان لأحد البخلاء دجاجة تبيض له صباح كل يوم بيضة من ذهب . كلما يراها لامعة تحت أول شعاع لشمس النهار .. يكاد يطير فرحا من السعادة — هو لا الفرخة ! — لمـــا تحمله له هذه الدجاجة من رصيد يومى . هو مثل غطاء الذهب . بل هو الذهب ذاته !

لكن طبعه أوحى اليه بأن يذبح هذه الدجاجة . لكى يحصل على وفـــرة البيض مرة واحدة .. جشعا غير منتظر قدوم الغد وما بعد الغد . وبالطبع ماتت الفرخة فى الحال ولم يبق له شيء ينتظره سوى الندم !

وهي حكاية من أدب الأطفال والطفـولة .. ولكنهـا تروى في الـريف السوفيتي للحد من الطمع والجشع لا الكف عن الحرص والبخل .
كما أن هناك قصة [الثعلب] لذات الكاتب الذي يروي : اراد ثعـلب أن يشرب من خلال فتحة انكسرت من البحيرة بعد ان جمدها صقيع البرد . وطال شربه للماء . فالتصق مؤخر ذيله بالصقيع نظـرا لنزول مزيد من الجليد على المكان . وكان على الثعلب لحظتها ان يفقـد بعض شـعيرات معدودة من ذيله . ليخلص نفسه . ولكن بخله او حرصه جعله يعـاند ويكابر . قال لنفسه سأنتظر قليلا حتى يذوب الجليد . لكن الجو سـاء اكثر . تزايد سقوط الثلوج . زاد بالطبع التصـاق ذيل الثعلب . الذي شاءت الصدفة ان يستمع لعوائه ذئب كان قريبا . انقذني .. بأي ثمن . فما كان منه الا ان قضم له كل ذيله المكسو بالفراء .. حتى يخلصـه . وهكذا خسر الكثير في سبيل القليل !

أما عن الظواهر الغريبة لادباء السوفيت وشـعرائهم ، فيروى عن : سـيرجي يسينين وفلاديمير ، ومايا كوفسـكي ــ والروس يضـعونهم في الصف الأول لشعرائهم وذلك في الفترة ما بين ١٩٢٥ حتى ١٩٢٧ ــ وهي الفترة التي قضاها توفيق الحكيم في اول زيارة له في باريس ــ .. يرون عن س . يسينين مظاهر عديدة لتشائمه وكيف كان متقلبا وهـو الذي اشتهر بغراميات خاصـة لراقصـة الباليه العالمية ايزيدورا دونـكان ، والتي حضرت اليه من امريكا لزيارته في الاتحاد السوفيتي كما سافر لها الى أمريكا .

انتحر يسينين في عز شبابه [٣٠ سنة] بأن قطع شرايين يده بعد ان ترك قصاصة ورق صغيرة خط عليها :

ان يحيا الانسان فما هو الجديد ؟
أما عن الموت فليس اجدد من الموت .

□ □ □

كان مايا كوفسكي : [٣٧ سنة] انسانا واضحا ولذلك ما كان اكثر اعـدائه .

من ٥٨ سنة أطلق الرصاص على راسـه . ومات منتحر .
قال يوما لقد مات بوشكين بالرصاص ، في مبارزة وكان له من العمـر ٣٧ سنة حينئذ . وانه ايضا سيموت بالرصاص وفي مثل عمر بوشكين . وقد أراد أن لا يخيب ظن ما تنبأ به لنفسـه فقتلها !

□ □ □

واعود لأترك الروس والأدب والأدباء لاقفز مرة واحـدة الى هـولندا وفنانها : فان جوخ .. المتفرنس ، بعد ان هجرها وراء دفء الشمس .. الى باريس ثم جنوب فرنسا .
الا نذكر كيف امسك بالموسى وقطع اذنه اليمنى .. ليهديهـا الى حبيبة غـادرة ! ولم ترفق بحاله بل هزات منه !
فما كان منه الا ان ذهب ليخلد حبه الفاشل واذنه التي قطعها فرسـم وجهه مضمود الجراح ملتفا بالشاش الأبيض !

□ □ □

أين الأمم المتحدة ؟

□■□ .. الدوامات الفكرية التي دارت ومازالت تعلـــو وتهبط وتدور حول رفض فيلسوف فرنسا الروائى : جان بول سارتر [٥٩ سنة] وقتئذ ــ لجائزة نوبل وقيمتهـــا [٥٠ الف دولار] التى اهدتهـــــا له الســـــويد فى اكتوبر ١٩٦٤ .. وسبب الرفض الذى اعلنه هو أن الجـــائزة تحـــرج اتجاهــــه ومبداه السياسى والاجتماعى والفكرى ، عندما يختلط بمبادىء هيئة الجائزة السويدية : نوبل .

هذه الدوامات التقت مع توفيق الحكيم . فأسأله عن رايه فى كل ماحدث .. فيرد توفيق الحكيم وأصابع كفه اليسرى تسند راسه الهـــادىء الملامح بينما عيناه تنظران ساهمتين الى بعيد :

ــ انى أوافق بول سارتر واؤيده تماما فى موقفه للاعتبارات التى اعلنها عندما رفض جائزة نوبل التى اهدتها له السويد .

ويستطرد توفيق الحكيم :

ــ ان موقف سارتر من رفض جائزة نوبل ، وكذلك باسترناك قبله من اضطراره الى رفضها ، يثير اليوم سؤالا هو : .. هل يستطيع كاتب حـــر فى عصرنا له آراؤه ومذهبه واتجاهاته ومواقفه ان يتقبل جـــائزة من دولة أجنبية لها وضعها السياسى والاجتماعى ؟ !

وهذا السؤال يجر الى سؤال آخر هو : « هل جائزة نوبل اصبحت فى عصرنا ، او هى فى سبيل ، أن تصبح غير ذات موضوع ؟ » .

ذلك أن العالم اليوم — كما يقول ت . الحكيم — يعيش مجتمعا دوليــا مختلفا كل الاختلاف عن المجتمع الدولى فى أوائل هذا القرن .

فالعالم يعيش الآن فى مجتمع تشرف عليه « الأمم المتحدة » . ولا يقبل أى اشراف حتى الفكرى المحض من دولة واحدة بالذات .

لذلك يقترح توفيق الحكيم :

أن تقوم الأمم المتحدة بمهمة جائزة نوبل .

ثم يقول الحكيم :

— ان مثل هذه الجائزة العالمية لو انها كانت تصدر عن الأمم المتحدة ، وكان المحكمون فيهــا ينتمون الى مختلف الدول ويمثلــون مختلف الأمــم والأجناس ، لكان الوضع بالنسبة لســارتر وباسترناك قد تغــير فى أكثر نواحيه ، ولكانت اكثر الاعتراضات التى ابديت قد زالت .

ذلك أن المحرج بالنسبة لكتاب وشعراء ومفكرين مثل سارتر وباسترناك هو أن جائزة نوبل تصدر عن دولة واحدة لها وضعها السياسى والاجتماعى وعن محكمون ينتمون الى هذه الدولة وحدها .

ومثل هــذا الوضع فيه احراج مزدوج ! فهو احراج للــكاتب الحــر واحراج لموقف الدولة نفسها التى تمنح الجائزة ، ولموقف رعاياها المحكمين.

ثم يتساءل ت . الحكيم .

— فهل يمكن بحث هذا الاقتراح الذى يجعل مبدا الجائزة الدولية متمشيا مع روح واوضاع العصر الذى نعيش فيه ؟؟

الحكيم يصعد الى القمر

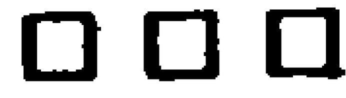
□■□ .. وفوق سطح مركب .. يتجه توفيق الحكيم مع حسين فوزى جنوبا ..فوق نيل مصر.. وهدفهما ان يزورا آثار النوبة أثناء عملية انقاذها قبيل ان تزحف اليها وترتفع مياه بحيرة سد اسوان العالى .. الذى كان يقام عام ٦٤ خلال زيارتهما للمنطقة . انه يعود ليكتب : [انى حى] ويقدم [شمس النهار] مسرحية من ٣ فصول و ٥ مناظر .. ثم فجأة ينشط من جديد لينشر : [مصير صرصار] .. [الورطة] .. [تنبؤات] .

انه يغير اسلوبه ايضا . يحاول التجديد . فى الأفكار لا الألفاظ فى الأصل لا القالب . فى العمق لا السطح . انه يحاول أن يقول ان شقاوة عصفور الشرق خاطف حبات الثقافة والفكر من كل نبت . هل تذوب وراء تزمت الخبرة والسنوات . ولكن هل من مواجهة الحاضر . من مواجهة الشباب. هل يختفى دفء القلب .

انه ينشر [رحلة الربيع والخريف] ثم [سجن العمر] .. الذى يحدث دويا بصراحته المتناهية فى وصف والديه .. واثر والده ووالدته .. التى تعيش وقد جاوزت التسعين ولحظتها بل وقبلها بقليل من يوم أن جـــابه ابنها الأديب الكبير محنته الأدبية التى طلع منها فائزا فى أواخر الخمسينات. فانها طلعت لأول مرة تحكى عبقرية ابنها وكيف .. وكيف . وبدات تنشر لها المجلات احاديث مصورة . عن طفولة ابنها وكيف تعلم وسافر وابحر

وعاد الى مصر ليلمع . ويلمع ولكل لامع حساد .
حتى وهى فى ريفها وفى خريف عمرها .. قوية . قوية كما كانت فى مطلع شبابها . لها الكلمة الأولى .

وتطلع شمس ١٩٦٦ بعد ان قدم الحكيم : [مصير صرصار] فى فصلين و [الورطة] فى ٥ فصول و [ليلة زفاف] .



ولكن العدو .. يتطاول على حدودنا .

انها الحرب توشك ان تهب على ارضنا . على ساحتنا .
انها سادس حرب سيشهدها توفيق الحكيم .. الحربان العالميتان الأولى والثانية .. ثم حرب فلسطين .. فعدوان السويس الثلاثى — ثم يتتبع جهاد شبابنا على ارض اليمن — ثم هذه الحرب التى احس بها .. وبقدومها .

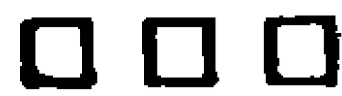
فى ٢٦ مايو ١٩٦٧ يبعث الى الحكيم بكلمة خطها بقلمه لانشرها :
« .. اريد أن اسهم معكم بنصيب فى المعركة ولن اكتفى بالقلم.
ما من احد فى حاجة الى قلمى الآن . والكل ملتهب بالحماس .
ومهما يكن من حرارة كلماتى فان ما يملأ قلوب شعوبنا وجنودنا من عزم واصرار وايمان بعدالة قضيتنا لأقوى من الكلمات .
اريد ان اكون مفيدا بعض الفائدة .

اريد ان اعمل بيدى شيئا اشارك به فى المجهود العام .
اريد عملا يدويا مناسبا لقدرتى وسنى .. !!

حتى ولو كان مجرد صنع علبة حلوى او تغليف طعام مرسل الى الجبهة .

لقد بعثت ببرقية الى السيد الرئيس فى بدء العدوان الثلاثى عام ١٩٥٦ اطلب حمل السلاح . وكنت وقتئذ قد جاوزت السن الملائمة لذلك . واليوم بالطبع لم يعد فى الامكان مع الاسف ان اطلب سوى العمل اليدوى الذى يشعرنى بأنى مواطن يقوم بما يقدر عليه الى جانب الملايين الناهضة للذود عن حقوق الوطن المقدس » .

توفيق الحكيم



ويعود الحكيم : شاعرا .

ان عناصر العدوان .. تهز مشاعره .. كلما قربت المعركة . فانه يبعث لي بأبيات نشرتها فى « من غير عنوان » على الصفحة الأخيرة فى عدد الأهرام الصادر فى صبيحة المعركة . فى ٥ يونيو ١٩٦٧

يا من تحملون سيوفا اعطونى سيفا

فعدو بلادى على بابنا

يا من ترفرف عليكم الاعلام

حارسين لأعتابنا

خلفكم رابضة قلوب

كل قلب هو قلب اسد

والى جانبكم تقف شعوب

اخوة واشقة وضمائر كالنهار

فاذا القى الباطل فى وجه الشمس الغبار

فبالله الذى نفسى بيده

وبالنيل الذى يجرى فى العروق دما

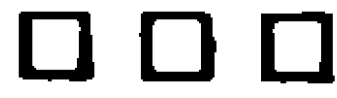
وبالطفل الذى ينظر لغده

لسوف ترون المقعد يقفز من مقعده

والشيخ يفجر من شريانه نهرا

والأخرس يطلق بلسانه شعرا

توفيق الحكيم



وتستمر ارهافة الشعر عند الحكيم .

فما أن يسمع بنبأ حزن له .. حتى ارسل لى ابياتا يعبر فيها عن مصرع مارتن لوثر كينج : زعيم السود فى أمريكا .

وكان زمنه فى ١٧ ابريل ١٩٦٨

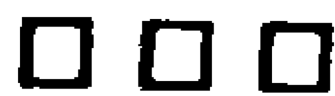
انه هنا يدافع عن حقوق الانســـان . وطهارته وايمـــانه ومبـــادئه .. وسط وحشية الغاب . وحشية الرجل الأبيض !

« لون الانسان ».. هو عنوان قصيدة قصيرة استوحاها توفيق الحكيم من مصرع زعيم الأمريكان السمر : د. مارتن لوثر كنج (٣٩ سنة) الذى فاز بجائزة نوبل للسلام . ولكن أين السلام وسط موجة تعصب الأبيض ضد الألوان ؟

عنـــد الانســـــان

الحصان هو الحصان

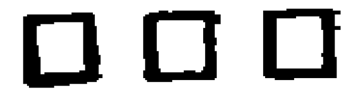
ابيض كان او أسود كان



وعند الانســــان

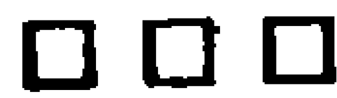
الزهر هو الزهر

اصفر كان او اسود كان

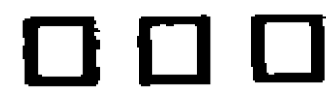


وعنــد الانســـان

الانسـان ليس بانسان
اذا اختلفت الألوان !



□ ولا يبعد الحكيم : اديبا .. عن الأحداث .
ان الانســان فى طريقه الآن الى القمر .



ويكثر الكلام عن القمر والوصول اليه .

ان نحو ٤٠٠٠ مليون نسمة هم سكان أرضنا .. يتحدثون عن غزو انسان الكرة التى نحيا عليها.. للقمر . انه سينفسح من أجواء الفضاء.. الى اللاجاذبية. ومنها الى مدار القمر .. ليهبط عليه . ثم يمشى ثم يقتطع منه جزءا يعود به الى عالمنا ليضعه تحت العدســات .. ليبحثوا أمر هذا القمر العجيب .. الذى يؤثر على مياه شواطئنا مدا وجزرا . يؤثر على حيض النسـاء وعلى جنون بعض الناس وأعصابهم .. ثم هو انيس العشاق . آه يا ليل يا قمر . ثم اليس هلاله رمزا لبداية شهر . اليس تمامه استدارة مثل وجه الحبيب .. أهل الهوى يا ليل . ووحيا للشعراء . ومنبرا مثيرا للساهرين المجهدين والملاحين . والمسافرين . اليس القمر بدرا فى عتمة السماء .. يضيؤها ويعكس علينا ونسا وسعادة بعد أن يبدد الوحشة ليعلو بالضياء .

انه يكتب فى ٢٧ يونيو ١٩٦٩ : [أهل القمر] .. يقدم لهــا ..
« فى عام ١٩٥٧ ظهرت مسرحية [رحلة الى الغــد] ، من وحى انطلاق اول صاروخ للفضاء الخارجى . واليوم والانسان على وشك الهبوط فوق سطح القمر .. يتجه التفكير الى كتابة مسرحية تستلهم هذا الحدث » .

ويطلع الحكيم علينا بقمره . أو بـــ [أهل القمر] .

ان الذين وصفوا الحكيم بأنه يعيش بمنأى عن الأحداث وانه قابع فى برجه العاجى . ظلموه .

انه مثل عقربى الساعة .. يظهر حبيسا بين ميناء سطحها الذى يخبىء عمقا فيه عالم ــ يشغى بالتروس .. وبين زجاج يحمى العقربين .. ومع

ذلك فالعقــارب ــ تشعرك بالزمن وتدق وتلف .. وانت لا تحس بهما الا اذا تطلعت الى ساعتك. بل هى تتحرك وانت نائم. وانت ساهم ذاهل وانت مجهد بعد عمل وانتاج نهار . او سهر ليل .. ان عقل الحكيم يدور ليس فى الفــاضى .. كما يبدو لك وانت تراه سارحا .. وانما يلف فى المليان . فى واقع الدنيا وما حولها وما فى فضائها !

انه هنا .. ليس الهام فى ملكوت الشعراء .. سارحا مع بنات افكاره بل مع هذا الحدث .. الذى سيحدث .

فيصور كائنات القمر .. يتحدثون عن هؤلاء البشر القادمين من عالم بعيد اسمه « الكرة الارضية » !

ان الحكيم يتصور المشهد الأول :

[على سطح القمر .. اهل القمر فى شبه اجتماع طارىء .. انها اجســام غير مرئيــة للأعين البشرية .. ومن باب الافتراض والرغبة فى التجسيد يمكن. أن نجعلها ترتدى البياض او الاخضرار أو الزرقة الصافية أو الوردية النورانية. . او أى شىء من هذا القبيل . فى جو معطر بموسيقى خفيفة جدا تكاد لا تسمع ، موحية بكائنات شــفافة هائمة كالفراشـــات .. وهى فى اجتماعها غير منتظمة فى مواضعها .. فيها المرتفع كأنه فوق فوهةبركانمنطفىء، وفيها المنخفض فى السفح ، وفيها الهائم فى الفضـــاء .. هــذه الكائنات ليس فيها بالطبع اسماء تميز أحدها عن الآخر ولا مراتب ولا وظائف ولا صفات خاصة .. لذلك فان الحوار بينها غير مميز هو الآخر بأسماء ولا بشخصيات وهذا هو الحديث الدائر بينها فى هذا الاجتماع] .

ثم يبدأ الحكيم حوارا يتصوره بين كائن اول وكائن ثان وكائن ثالث .. الكائن الأول : عما قليل يصلون الى هنا ! ..

الكائن الثانى : اذن يجب أن نرتب كل شىء بوضوح .. انها اول مرة يأتى الى هنا أحد من هؤلاء .

□ □ □

ويستمر الحكيم فى خياله . تصور مختلف تماما عن ذلك الذى تصوره الاديب الفرنسى جول فيرن [٧٣ سنة] والذى مات مع مطلع هذا القرن عام ١٩٠٥ .. والذى تصور وتخيل الطائرات الصاروخية والمطــاردات الفضائية والمائية فى جوف المحيطات .. والقنبلة الهيدروجينية ...

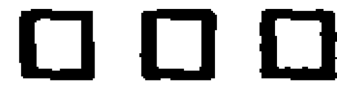
وخيال الحــكيم كان مختلفا أكثر عن تلك « العلمية » التي راح اليها الأديب المفكر البريطـــانى هـ.ج. ويلز والذى عاش ٨٠ سنة حتى مات فى ١٩٤٦ .

□ □ □

وبعد أن ينتهى الحكيم من روايته عن القمر .. تلف بمسرحية التى بدأها ولم يتمهـــا ..

بعد ٣٣ يوما .. كان ان صعد الانسان فعلا الى القمر . اذ بدأت كل الدنيا تستمع الى النبأ المثير .. الذى بدا وكأنه اسطورة الزمان المعاصر.. الذى حقق وجسد كل خيالات الماضى :

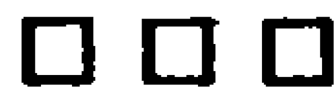
[نيل آرمسترونج : كان أول انسان تطأ قدماه سطح القمر فى ٢٠ يوليو ١٩٦٩ . الساعة العاشرة صباحا والدقيقة ٥٦ والثانية ٢٠ .] .



ان انطلاق الانسان من ارض الى ارض.. مجتازا زرقة الفضاء.. ليعود اليها .. انما دليل حركة .. ان الحكيم كبر به العمر الآن . ومن الطبيعى ان يشعر بصراع الأجيال . انه يسأل نفسه عن روح العصر .. فيجيب نفسه : « ان الاجابة ليست بسيطة والراى عندى أن نتلمسها فى ابرز الدلالات . ولا شك أن أهم ما يدل على روح العصر سرعة الايقاع وصخب الحركة . ذلك أن العام الواحد من عصرنا الحاضر تقع فيه من الأمور والأحداث وتتم فيه من الاكتشافات والمغامرات ما كان يتم من قبل فى اكثر من مائة عام . لم يعد عصرنا عصر الجلوس والتأمل ، بل عصر التفكير المتحرك وانعكس ذلك على الشباب الذى فتح عينيه فوجد نفسه فى قلب العصر الجديد فلم يطق جلوسا ولا هدوءا .. انه يريد ان يتحرك مع العصر المتحرك من موسيقى متحركة صاخبة ، لا أن يسترخى مسمرا فى كرسى نصف مغمض فى موسيقى ثابتة متأملة . انه لا يريد مجرد الاستماع بل يريد ايضا المشاركة . لا يريد أن يبقى فى مكان بل يطمح الى الانطلاق فى كل مكان . ويكتشف الأرض سيرا على الاقدام و قافزا الى سيارة مارة ، او منبطحا على ظهر سفينة عابرة ، لا يقف أمام عائق من خلو الجيب او خوف المخاطر او رهبة المجهول . ان اهم مظهر للشباب اليوم هو أنه استشف بغريزة خفية اعظم رؤى المستقبل وهى « وحدة العالم » فالكرة الأرضية الواحدة المتحدة اذا نظر الانسان الى الفضاء وهو خارجها يراها الشباب كذلك من داخلها .. فاتحدوا جميعا الابيض والأسود والأصفر فى كثير من الأذواق والأهداف والمثل العليا للانسان .

كان القرن الماضى قرن التأمل الجالس

اما القرن الحالى فهو قرن الفكر الراكض »



نصف قرن فات

□■□ .. اننا الآن فى ٤ مارس ١٩٦٩ .. جامعة القاهره من تحت اجراس برجها الرنانة تعلن وهى تحتفل بـ ٥٠ سنة على : توفيق الحكيم اديبـــا .

شاب نحيف : كثيف شعره الأسود يطل من تحت قرص الطربوش الذى يضغط على راسه .. وقد استرسل بعض منه ليحدد على جانبى وجهه بالطول سوالف هى ليست موضة العصر .. بقدر ما هى سمة فنـــان رأى ان يطلق لذاته حرية التعبير .

والشباب فى سنوات شبابه الأولى ومع ذلك فان : عصـــا قد التزمت بذراعه أحيانا أو بين اصابعه يهزها وهو سائر فى طريقه .. ساهما الى بعيد .. الى مستقبل الرواية والمسرحية وحوار صامت بين ابطال خياله وبينه .. تجول وتصول . بل .. تثور .

كانت البلاد يومها على أبواب ثورة شعب : ثورة ١٩١٩ والكل ضـــد مستعمر يحاول أن يفرق . والبلد كلها تحاول أن تتحد .

وكان صاحبنا الشاب سعيدا . لانه الليلة . سيقدم شيئا من الفـــكر الى النـــاس .

توفيق الحكيم : كان اسم صاحبنا أما اسم روايته فكانت : [الضيف

الثقيل] !! ولعل فى الاسمين رمزا للمؤلف والرواية لقد كان توفيق بالفعل: حكيما رغم صغر عمره وقتئذ . أما مسرحيته : فكان عنوانها كناية عن موضوعها . والثقيل كان ذلك المستعمر الذى استمرأ الضيافة ؟ !

ويمر زمن يقلب صفحات ٥٠ سنة .. لتصدر لتوفيق الحكيم اكثر من ستين مسرحية وأكثر من رواية وقصة قصرت أم طالت فهى تحكى للفكر عن الفكر الواعي واهدى الوطن فيما اهدى : [عودة الروح] . و [يوميات نائب فى الأرياف] .

وهذا الأسبوع تكمل الـ ٥٠ سنة : تاريخا .

وتقيم جامعة القاهرة : [مهرجان توفيق الحكيم] للمناسبة ابتداء من ٢٧ مارس الحالى . كل كلية فيها تختار مسرحية من رواياته لتمثلها . وتتقدم ببحث عنها .

واسأل : الحكيم الكبير . وقد ظل شعره كما هو وان كان البياض قد غزا اغلبه وثار على الطربوش فخلعه ليطلق للفكر عنانه العريض .. — نصف قرن ؟

ويرد توفيق الحكيم .. والعصا الى جانبه ليست مجرد شيء متعلق بذراعه .. وانما هو متعلق بها يستند اليها . كلماته ليست سريعة وانما من العمق يجترها الى لسانه الذى ينطلق فى هدوء .

.. — نعم فى خلال ثورة ١٩١٩ كتبت مسرحية « الضيف الثقيل » وهى أول مسرحية لى بالحجم الكامل للمسرحية . اذ قبل ذلك التاريخ كنت قد كتبت مشاهد تمثيلية قصيرة نمثلها بأنفسنا فى جماعة هواة اشباعا لهوايتنا ولعلها دون أن اشعر كانت مرحلة التجريب والتدريب للوصول الى مرحلة المسرحية الحقيقية فى « الضيف الثقيل » وكانت ترمز الى معنى الاحتلال فى صورة عصرية انتقادية . والموضوع يدور حول محام مستقر فى مسكنة ومكتبه لأنه كان يتخذ من المسكن مكتبا لعمله وقضاياه . واذا بضيف يهبط عليه قائلا انه سيقيم اقامة مؤقتة لا تزيد عن يوم واحد فاذا به يقيم شهرا كاملا . ويمد ضيافته الى أجل غير مسمى ولم تنفع فى الخلاص منه حيلة ولا وسيلة . بل انه لم يكتف بالاقامة غير المرغوب فيها بل تعدى ذلك الى التدخل فى عمل المحامى وانتحال شخصيته فى غيابه ومقابلة الزبائن الجدد باسمه وقبض مقدم الأتعاب . فهو اذن احتلال واستغلال واحدهما يؤدى الى الآخر دائما .

.. — لم تمثل بالطبع هذه المسرحية .. فالمعنى فيها واضح خاصة والثورة قائمة والرقابة على المسارح فى اشدها ولم يكن عندى غير مخطوط واحد بخط اليد . لأن الآلة الكاتبة لم تكن وقتئذ متداولة . وهذا المخطوط أرسل لقلم المطبوعات وهو جهة الرقابة يومئذ . ولم اعرف ما جرى له حتى الآن ؟

.. — ؟

.. — كانت المسرحية كوميدية ساخرة بالطبع ! وموضوعها يوحى بذلك . وكم تمنيت أن تكون هذه المسرحية الأولى تحت يدى اليوم لأعرف

ماذا كتبت . واتأمل ذلك الوليد الأول الذى تاه منى عقب ولادته ولا أمل فى رؤيته .

.. ــ لماذا هى كوميدية وليست تراجيدية ؟!

.. ــ الواقع انه سؤال جيد . ربما كانت طبيعية شخصية . وربما كانت سليقة فنية تخشى أن ينقلب الجد الرصين الى خطابة رنانة مملة وخاصة أيام الثورات . وانى أذكر كلمة لأحد النقاد الانجليز نشرت فى لندن عام ١٩٤٧ بمناسبة صدور الترجمة الانجليزية ليوميات نائب فى الأرياف قال فيها انه فى أجواء الظلم لا تكفى الشفقة كما لا يجدى الغضب على الظالمين وان السخرية اللاذعة هى سلاح الهجوم الذى يحقق أهداف التنبيه والتحذير والاصلاح .

.. ــ ؟

.. ــ نعم فى مسرحياتى الستين التى كتبتها فى خلال نصف قرن تجد أنواعا بعيدة عن الكوميديا وقريبة من الجد والتفكير . كل نوع رهن بظروفه . هل نستطيع أن نقول مثلا انه فى ظروف الظلم والاضطهاد تظهر السخرية . وفى ظروف الهدوء النسبى يظهر التفكير ؟ .. وهل نستطيع أن نطبق ذلك على الأمم فى تاريخها الطويل ؟ .. هل يمكن القول ان الجد الصارم فى الفن الفرعونى مثلا كان فى أيام الاستقرار النسبى وان السخرية والنكات فى أيام المظالم والاضطرابات هذه مجرد تساؤلات وافتراضات تحتاج الى بحث ودراسة . واذا صحت جاز القول ان طبيعة أرضنا تنبت الفكر والنكتة معا .

.. ــ ؟

.. ــ فى ثورة ١٩١٩ كان كل شخص يستخدم سلاحه . من يحسن الخطابة خطب . ومن يحسن السخرية سخر . والجميع يربطهم شعور واحد . هو أن الثورة قد فجرت فى الجميع ينبوع حياة جديدة. طال الظن بأنه جف واندثر من زمن بعيد . كما أزالت التراب عن شخصيتنا التى كانت تضيع منا فى لفائف الاحتلال الطويل وجعلتنا كلنا نكاد نفرك عيوننا وننهض وكأننا نبعث من رقاد عميق .

.. ــ عودة الروح ؟!

.. ــ مثلا

.. ــ هل تعتقد أن الأجيال الجديدة اليوم تستطيع أن تدرك دور ثورة ١٩١٩ فى توضيح شخصية الأمة وما نتج عنذلك من مراحل كياننا القومى حتى اليوم ؟

.. ــ عما قليل تكون ثورة ١٩١٩ قد بلغت نصف قرن من عمرها ولعلها فرصة للتذكير بدورها فى بلورة هذه الشخصية الواعية لأمتنا كلها . وبوحى هذه الشخصية وضعت أسس قوميتنا فى الفكر والأدب والفن والاقتصاد والسياسة والمجتمع .

. . . . . .
. . . . . .

□ ولكن طلاب جامعة القاهرة الذين احتفلوا بمرور خمسين عاما على انتاج توفيق الحكيم المسرحي عاتبون عليه لأنه لم يحضر هذه الحفلات . وكان أملهم أن يجتمعوا به ويجتمع بهم في هذه المناسبة وقد ابلغه المشرفون على المهرجان وعلى راسهم د. عبد الحي الليثي رائد اللجنة الفنية بالجامعة ومصطفى كامل حسن مدير النشاط الفني بها عتبهم عليه .. فكان رده :

.. — ما من شيء يملؤني بالأسف مثل حرماني فرصة الالتقاء بشباب الجامعة . لا لأشكرهم على اهتمامهم بي وعلى الجهود التي بذلوها بأمانة واخلاص في دراسة وعرض مسرحياتي — مما استحقوا عليه تقدير الجميع

— وحسب ، وانما لمجرد الاتصال ذاته بهذا الجيل الصاعد الذي أرى فيه رمزا للتقــدم والطموح .

وكان من واجب جيلنا نحن ان يكون البادىء بهذه الرغبة والتطلع الى ملاقاتهم وفهمهم . ولكنهم سبقوا بالفضل وكانوا البادئين والراغبين في معرفتنا وفهمنا ، صانعين ذلك في اطار كريم من الاحتفال والتكريم ..

وربما كان ذلك ايضا من مزايا الشباب

فانهم بنشاطهم وتطلعهم الى المعرفة الكاملة لابد لهم من هــذه الرؤية الشاملة للطريق كله من الماضي الى الحاضر . وهم في تأهبهم للوثوب الى المستقبل لابد لهم من لفتة للماضي . وذلك أن قوة الوثب الى الأمام تحتاج الى خطوة الى الوراء لتثبيت الأقدام . أما نحن الذين لم يصبح لهم من المستقبل الا القليل المشكوك فيه فان رغبتنا في دراسة جيل الغد والاتصال به تقف في سبيلها معوقات من ضعف الصحة أو المحافظة على الباقي منها .

وكان من جراء ذلك اني لاعتيادي الاعتكاف وعدم الخروج في المساء منذ سنوات لم استطع المجازفة بالخروج ليلا لحضور الحفلات .

على انه يسعدني في كل الأحوال ان اجتمع بالشباب نهارا ، كلما ارادوا ذلك . واني اكرر لهم الشكر وسأحمل دائما في نفسي لهم — ولمـــا قاموا به في هذا المهرجان الذي كرسوه لي — اجمل الذكر والعرفان .

□□□

الحكيم يغنى لأم كلثوم !

□■□ .. ويظل الحكيم حائرا فى فضاء الكون بين قمر يخطوه الانسان .. لا أحد يطلب منه فيه دفعا وبين أرضنا الذى فوجىء الحكيم فيها ، بسيدة الغناء أمامه — ظهر ذات يوم شتاء ١٩٧٠ — فى مكتبه بالأهرام :. تهلل وجهه . ترك مقعده وقف محييا لهذه المفاجاة ، مرحبا بها .

— .. دى زيارة حلوة .. يا سلام ايه المفاجأة الحلوة دى .. اتفضلى. وجلست أم كلثوم .. مبتسمة .

ويحاول توفيق الحكيم ، بعد أن جلس .. — واضعا اصبعين من كفه اليسرى تحت خده .. مبتسما بشفتيه ، مستغربا بعينيه .. ملامحه كلها تعكس أن عقله يفكر بسرعة صاروخية .. عن السبب !! سبب زيارة أم كلثوم ، المباغتة ؟ ثم يبتسم من جديد — كأنه يخفى أن حساباته الالكترونية .. لم تصل الى السبب بعد أن قلبت كل الاحتمالات . ! ثم يتمتم بصوت مسموع :

.. — حاجة عظيمة والله .. خطوة عزيزة . مش كده والا ايه ؟

أم كلثوم توفر على توفيق الحكيم رحلة الحيرة .

.. — .. باختصار كده أنا باجمع تبرعات نهديها .. عيديات لأبناء المهجرين .. فى العيد ده . وكل سنة وأنت طيب .

.. — مهو احنا طيبين . ؟ مش كده والا ايه !

.. — عاوزة . ؟ حتتبرع بكام ؟

.. — أيوه برضه .. بس يعنى .. مهو بأه .. أصل الحكاية ! ؟

.. — حتتبرع بكام . مهو انا مش حا اطلع الا لمـا تطلع المحفظة؟!

.. — بس لزوم المحفظة ايه .. أصل .. بس .. أصل الحكاية شوق يعنى جنيه واحد .

.. — ازاى بس ده .

.. — طيب اثنين جنيه .. مهو مش أكثر من كده ؟

توفيق الحكيم يمد ذراعه يضعه فى جيب سترته الداخلى يخرج المحفظة [لونها يدل على عمرهـا المديد] وفى حرص يفتحها .. أم كلثوم تسـاعده فى اخراج ما يمكن .. مشادة فى حوار لطيف ينتهى بان يخرج توفيق الحكيم كل ما فيها [٧ جنيهات] غير فكة تاكسى العودة . !

هكذا قال الحكيم معتذرا عن دفع « الفكة » وهو الذى تعود أن يعود مع أحد الصحاب .. أو ماشيا فى حالة تغيبهم !

ام كلثوم تبتسم عندما تسمع توفيق الحكيم يقول لها :

.. — خلتينا [متبرعين] .. على آخر الزمن !

واسأل توفيق الحكيم عن أول مرة تبرع فيها ؟

أم كلثوم — تؤكد — أن هذه هى المرة الأولى ..

توفيق الحكيم — يحاول أن — يصحح بأنها ثانى مرة .. أول مرة كانت منذ ٢٠ سنة عندما تبرع بـ ٥ جنيهات .. مناولة — أم كلثوم — لمعهد الموسيقى .

ويخرج توفيق الحكيم الى مبنى الأهـرام يجمع مع أم كلثوم .. يتحدث نيابة عنها مقنعا كل من يقابله فيجمع ١٢٤٠ جنيها .

وما ألمع بريق عينيه وهو يتطلع الى هذه الفلوس بين يديه !!

□ □ □

عودة الروح إلى الحديد !

□■□ .. منذ ايام كنت اخطو داخل : (غابة من حجر) متعجبا لكل عظمة الماضى وانا ارنو الى نقوش : قاعة أعمدة الكرنك . وقد قدت من حجر ضخم : قطعه المصرى القديم من : جبل . نقله . اقامه . شكله . حفر عليه ونقش حكايا للايمان وللزمن ثم لونها وتركها .

عند صرح مدخل ابهاء القاعة يقابلنى زميل عمر : شيخ خفراء معابد الكرنك : العملاق الشيخ عبد الله ابو الوفا : اســأله عن الصحة ؟ يرد ابو الوفا : ضاغطا كالفولاذ على يدى : حديد . والحمد لله ، حديد .

لحظتها اسرح بخاطرى .. عبر صروح الكرنك وطريق الكباش .. الى النيل .. الى صور طافت بخيالى : صور تتتابع لفيلسوف فرنسا الوجودى : جان بول سارتر ومؤرخها الحديث مثقفها : أندريه مارلو .. يصعد كل منهما الجبل . جبل القرنة عند غرب سماء الأقصر على قدميه .. ماشــيا فوق الزمان مشدوها بحضارتنا صاعدا اليها بالقرب من الدير البحرى ليهبط من على وادى الملوك ليزور مأخوذا : جوف الجبل . وأتعجب فعمر السنوات لا تحده الحضارة بل تجذبه .

واقطع ٦٧٠ كيلومتر . الى الشمال : عائدا .

اعود من الماضى والبعد .. الى الحاضر والقرب .. لأرى الصور تكاد تتقــارب . تتواكب . وان فرقت بينها ٤ آلاف سنة .

منذ لحظات كنت على ذات الشاطىء الشرقي للنيل .. ولكن في غابة اخرى . حمراء . من حديد ومساحتها ١٥٠٠ فدان . على بعد ضئيل من حلوان . نفس مياه النيل التي تركتها في الأقصر سافرت مبحرة . أراها الآن وصلت . اهرامات ترتفع من صلب وحديد . شباك من مواسير وكبار وحدايد ومداخن وكهرباء وورش ومحولات ودرفلة وافران وجلخ وفحم كوك واسلاك معلقة وصاج يجرى لامعا يتلوى تحت ضغوط وانتاج لـ ٢٣ الف عامل ومهندس . ضجيج . شرار احمر ابيض . أصفر ذهبي . وهج انهار صغيرة وكأنها نار جهنم الحمراء تملؤها . أنهار زهر حديد سائل يجرى . ان جهنم لها نفع . لو طهرناها . اننا سنبنى بالحديد مصرنا .. المستقبل . كما بنينا بالحجر ماضينا الذى عرفنا فيه التعدين والصناعة كشفنا عن مناجم النحاس ومنه استخرجنا البرونز . وصنعنا الذهب والفضة ومزيجهما « الالكترون » والرصاص و .. و ... وصنعنا .

جاءني احساس بأن الزمان الذى غفل قد صحا . قام بعد نعاس طال . وتذكرت [أهل الكهف] واحدث من رواه : رواية .. وأسأل نفسى أهى [عودة الروح] ؟ ... ولكن لماذا لا أسأل صاحبهما وقد خرج ذات المشوار ليرى ويعترك ويتواجد مع الحدث الصناعى الكبير . ان توفيق الحكيم لا يقبع في برج عاجي كما يتصور عديدون . ان مئات الآلات تموج بالنبض تدوى من حولنا :

يرنو : الحكيم الى عينى . وقد طفرت الفرحة من عينيه ، يستمع الى .. — لاحظت أنك تقف صامتا وسرحت بفكرك .. شردت الى بعيد وانت تتأمل هذه المنشآت الضخمة ما الذى يدور في خاطرك الآن ؟ أهو هرم سنفرو — والد خوفو — فوق ربا الشاطىء البعيد عبر النيل ؟ وكيف أقامه في الجاهلية الأولى انساننا المصرى القديم ؟ .. أم هذا الانسان الجديد ؟

الحكيم — يدور في خاطرى شىء قلب ظنونى . وغير هواجسى التى كانت تخالجنى من قبل . فقد كنت أظن هذا المشروع الكبير لمجمع الحديد والصلب مظهرا أكثر منه حقيقة ، وأن قيمته العملية لنا في الوقت الحاضر هى من قبيل الدعاية والاعلام . لذلك جئت استوضح الأمر وأسأل القائمين على تنفيذه في مساوئه قبل محاسنه .

ويتطلع اليهم : الحكيم ، من جديد .. ليقول .. حضرت اسألهم عن جدوى ما ينتجون من الناحية الاقتصادية ؟ وهل سعر طن الحديد لو استوردناه يكون أرخص أو أغلى من الحديد المحلى فأجابوا بصراحة وشجاعة ان سعر الحديد المستورد ارخص بالطبع . ولكن الفرق ليس باهظا لأن الدفع سوف يكون بالعملة الصعبة ، فى حين أن الحديد المحلى سيدفع بعض تكاليفه بالعملة المحلية . انى اسألهم امامك : هل هدفكم هو التصدير لهذا الحديد المحلى بتكاليفه هذه في الأسواق العالمية المتنوعة ؟ فأجابوا أيضا في صراحة ان الهدف الآن هو سد حاجة الطلبات المحلية ولابد من مضاعفة الانتاج لسد هذه الحاجة وحدها . انها اجابات معقولة

ولكن هذا المجمع ليس مشروعا محدودا . انه مثل ترس الساعة كل نبضة منه تدير عديدا من التروس والعقارب والأغراض المختلفة . فعشرات من الشركات والمصانع تعتمد وتعمل وتدور بدوران مصنع الحديد والصلب . انه القلب فى جسم الصناعة القومية .. وعندما اقول الصناعة لا اقصد الناحية الاقتصادية وحدها . هناك اهم من ذلك فى نظرى . هو الهيكل البشرى . واظنك لاحظت معى أن هذا الهيكل البشرى الضخم من الوف العمال حولنا أمام الآلات والأفران وأحاديثهم معنا وخبراتهم فى عالم جديد علينا هو عالم الصناعة الكبرى .. ان منظرهم يوحى الينا بأن هذا هو البناء الحقيقى لمصر المستقبل : البناء البشرى الخلاق .

.. — اذن .. أهذه : [عودة الروح] ؟

الحكيم — نعم . ما كنت اظن ان كلمتى هذه فى [عودة الروح] : (ما اعجبه شعبا صناعيا غدا) .. يمكن أن تتحقق فى مدى ٤٠ سنة . ان العامل الصناعى مثل العامل الزراعى قد أصبح فى حياتنا حقيقة واقعة . ان فرحتى بعمال الصناعة من اصغر عامل الى اكبر مهندس ، وهذا الاخلاص والاصرار فى وجوههم وقلوبهم قد ملانى ثقة بالمستقبل فى هذا الجو السياسى المكفهر .

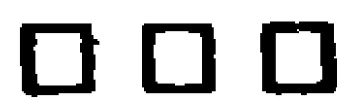
.. — اثر رحلتنا عليك يا حكيم مصر .. فى [غابة الحديد] ؟

.. — خرجت من هذه الزيارة برأى وعقيدة .

أما الرأى فهو أن الدولة تسىء الى مكاسبها اذا لم تناقشها أمام الجماهير بعقولها ، أو على الأقل من يمثلون الجماهير فى المجالس العامة ، وقبل أن يعرض على الناس كل شىء بما فيه من مزايا ومساوىء ويترك لهم قليلا من وقت وتتاح لهم فرصة الموازنة ليروا الأمور من وجوهها وزواياها المختلفة ليكون للرأى الأخير : قيمة الاقتناع ، ويتكون لدى الشعب رأى عام مسئول ، يحمل عن الدولة بعض تبعات القرار المصيرى الخطير .

أما العقيدة : فهى أن مصر لو ترك لها عشرة اعوام فقط تعكف فيها على نفسها تعمل وتخلق وتصنع وتبنى فانها كفيلة بأن تقفز قفزة من قفزاتها المعجزة لا تفيدها هى وحدها ، ولكنها تنفع — أيضا شقيقاتها من الدول العربية . فمصانع مصر وبنوكها ومؤسساتها وجامعاتها وعلومها وفنونها وادابها وفنادقها وملاهيها وعقولها وقلوبها .. كل ذلك ملك للعرب جميعا وليس لنا وحدنا .

ولكن هل تترك الظروف لمصر هذه الأعوام العشرة دون أن تشغلها بما يعرقلها ! .



الحكيم يكتب لنفسه خطاباً !

□■□ ... وتستمر فكرة صراع الأجيال . الصمت أو الحركة . الخطوة البطيئة .. أو الاندفاع الصاروخى .. كل هذا يناقشه الحكيم ولا يهدأ : انه يتصور ان هناك من اسمه ق . م.. يكتب له رسالة ويرد عليها . ومن عجب أن الرسالة الأولى بقلم ق.م. هى بقلم الحكيم نفسه الذى يرد على هذا التحدى .. فيبدأ أولا برسالته التى لا يدفع فيها مليما واحدا ولا قرشا واحدا .. للبريد .. ما فعله .. انه مد يده الى قلم ثم الى ورق . الى ورقتين!

□ .. ابونا توفيق الحـــكيم

كدت اقول جدنا . لكنى رحمتك .. فأنا شـــاب فى السادسة والعشرين . وانوى ازعاجك حبتين . اكتب لك بعد أن سمعت من يقـــول بعـــد نشر مسرحيتى « لزوم ما لا يلزم » فى الأهرام الاسبوع المـــاضى ، انى متأثر بك فى الحوار . وللحقيقة والتاريخ أؤكد انى لم اقرأ لك حرفا واحدا . لا كسلا او استهتارا . ولكن اعتقادا ومبدأ . هو التنفس فى الهـــواء الطـــلق . لا الاختناق فى جو المتاحف . لا تؤاخذنى . انا صريح . هل تعرف شعور جيلنا نحو جيلكم ؟ انا أقول لك بكل صراحة : انه شعور قاصر ينتظر بفروغ صبر انتهاء وصاية وصى يختلس ويبدد أمواله ! .. الأموال هنـــا يعنى

المستقبل نرجوكم . **نرجوكم ادخلوا متاحفكم بسرعة ! .. ولكم علينـــا ان ندخل عليكم من حين لحين ننفض عنكم التراب ! ..**

منكم من فعل ذلك مشكورا . طه حسين مثلا اخذها من قصيره وسكت . ولكنك انت مازلت تتاوح .. **هل تعتقدون حقا ان من كان فى الســبعين او الثمانين يمكن ان يكتب ويطرب من فى العشرين او الثلاثين ؟ ! . اذا حدث هذا فمعناه ان الجيل الشاب مشلول . متوقف عن النمو محنط . مختــوم على عقله وعينيه واذنه بالشمع الاحمــر . ومنقوش على الختم التــاريخ والامضاء . بمعرفتكم طبعا . فلا يسمح لنا ان نفكر ونرى ونســمع الا من خلال عقولكم وعيونكم وآذانكم ! .. اذن انتهى الكون بالنســبة الينــا . فلا افكار ولا اشكال ولا انغام غير تلك التى اوجدها لنــا الماضى . يعنى لا مستقبل : لان المستقبل حجرتم انتم عليه . عقولنا . عيوننا . آذاننا . كل حواسنا . محبوسة عندكم فى المجلس الحسبى ! .. متى الافراج ؟ ..**

هل غضبت ؟ مزق الخطاب اذن . وعندك سلة المهملات . هذا ما اتوقعه ولا يهمنى ما دمت لا تعرفنى . انا مصر على عدم ذكر اسمى . لسبب واحد هو عدم اتهامى بأنى شاب متسلق يسعى الى الشهرة.لكن يمكن أن تعرفنى فقط منذ الآن بالحرفين «ق.م» وليسرح خيالك فأكون مثلا : قاسم منصور أو قدري محفوظ او قلدس ميخائيل أو قرشى مصطفى او قشلان مفلس .. ودمت للمخلص :

ويرد الحكيم على نفسه بعد يوم ..

□ .. الى الاديب ق . م

عزيزى الاستاذ ق . م

لم أمزق خطابك ، بل طلبت نشره . وبادرت بالرد على خلاف عادتى . لانى افهم شعورك وشعور جيلك . وهــو بالفعــل كما وصفت . على الاقل بالنسبة الى طائفة كبيرة منه . ليس فى بلادنا وحدها بل فى اكثر بلاد العالم اليوم . والموضوع خطير ويستحق التعليق والمناقشة والتوضيح . لانه يتعلق بقضية المستقبل ، ومن يملكه ومن يصنعه ومن يستطيع الحجر عليه ؟ **وانا معك ومع جيلك اذا كان جيل الماضى يريد حقا ويستطيع ان يحبس المستقبل فى قفص . حتى ولو كان القفص من ذهب. لان الحبس هو الحبس دائما.ولكن المسألة لماذا تصورون جيلنا بانه جيل سدنة واوصياء وسجانين ؟ ! . ولماذا لا ترون ما فى ايديكم الآن من تحرر واعتزاز ؟! كم منكم يقبل اليوم يد والده فى السر او العلن ؟! . لقد كنت مدير ادارة فاذا دخل والدى مكتبى انحنيت على يده اقبلها امام الحاضرين .. كم منا يجبركم اليوم على التوقير والتقديس . لعلك سمعت عن الشاعر : لامرتين . لقد جاءه يوما اديب شاب، فقابله بفتور. فلما سئل فى ذلك قال:لان هذا الشاب عندما رآنى لم يضطرب ويرتج عليه !** . ولعلك قرات ما رواه الشــاعر الشاب هاينى بعد زيارته لجوته العظيم . لقد ظل فى حضرة جوته ساعة يتحدث اليه دون أن يعنى جوته بالنظر اليه او الرد عليه .. ها هنا تصبح مطالعة المــاضى مفيدة . لانها تطلعك على مدى الخطوات التى قطعت فى سبيل حاضرك ، وترشدك الى بقية الطريق نحو مستقبلك . وان الهواء

الطلق الذى تريده لن تقدره حق قدره الا بعـــد أن تعرف جو المتـــاحف .
انا معك فى ان الخطا كل الخطا ان نجعل آثار المـــاضى تكبلنا باغـــلالها .
علينا دائما ان نضع كل تحفة قديمة فى موضعها من الزمان والمكان . وهذه غلطتكم انتم دائما يا شباب الأجيال الجديدة،تنظرون الى الافكار والآثار السابقة منفصلة عن الوقت والظروف والملابسات التى نشات فيها . . وعندما تجدون هذه الأفكار والآثار لا تساير تماما اتجاه عصركم انهلتم عليها باللوم ورميتم بها وراء ظهوركم ، فى حين أنها كانت فى وقتها وبيئتها خطوات متقدمة بالنسبة الى ما سبقها . بهذه الدراسة لكل ما هو قديم فى تاريخه تحيطون بحلقات السلسلة الفقرية لوجودكم الفكرى والفنى . على انى لم افهم ماذا تقصد بالوصاية والمجلس الحسبى ؟ ! اذا كان المقصـــود هو الضغط الاجتماعى فى شئون الأخلاق والسلوك فهذه مسالة يجب ان تناقش بحرية وصراحة وسعة صدر بينكم وبين التربويين ، وتطرح فيها اعتبارات الاختلاف بين العصور والأجيال .

اما اذا كان المقصود محيط الفكر والأدب والفن ، فهنا أريد ان اسالك : هل هناك ضغط من أحد يحول بينك وبين ما تريد من خلق وتجديد ؟ ! مهما يكن من قوة الضغط فان انفجار الفكر والفن أقوى . والمفكر او الفنان فى كل زمان ليس سوى زهرة تنفجر من بين الصخور القديمة . انها تجـــد بالطبع المقاومة دائما من هذه الصخور ، ولكنها دائما تظهر . وجيلكم لابد يظهر ويثمر بما فى جوفه من عصارات جديدة . اطرحوا اذن من رؤوسكم فكرة الوصاية والحجر ، وانطلقوا أحرارا بعيون جديدة تنظر الى عالمكم الجديد . واذا رجعتم الى النظر فى أعمال جيلنا فليكن همكم أن تعرفوا ماذا تم وماذا بقي عليكم أن تتموا وما نوع الظروف التى أنتجت عمل السـابقين ، وما نوع الظروف التى يجب أن تنتج أعمالــكم .

اما دعوتك الى التعجيل بدخولنا المتحف ، فثق انها دعوة مستجابة. هذه طبيعة الأشياء لكن اصبروا قليلا وترفقوا ولا تتبرموا بنا ، ولا تضنوا علينا ببعض انفاس باقية نرسلها على الورق او فى الهـــواء ، قبـــل ان يبتلعنا الصمت الأخـــير . .

ت. الحـــكيم

عند السفح؟

□■□ .. ترى كيف كان يحلم ويتمنى الحكيم فى عيد ميلاده قبل السبعينات بسنة .

.. تعود الناس أن يلتقوا بضوء شمعة أو اكثر يطفئون شعلتها ، أو يهنئوا بكلمة كلما هل عيد ميلاد جديد .. يفرض سنة جديدة على أعمارهم !

توفيق الحكيم ـ الذى يعيش الآن عيد ميلاده الـ ٨٩ فى هدوء .. لا يشيخ . انه فكر ورواية ومسرح . اكثر من جسد . والفن والفكر .. شعلة خالدة لا تنطفىء . وبالطبع لا تشيخ . انها تضىء لذات الجيل . جيله واجيال من بعده تجىء .

توفيق الحكيم .. بدا ككل شاب . واخذ يكافح فى طريق رحلة عمره .. وبدأ القلم يضىء له الطريق . طريق الفكر ، ويتحول الى احلام تتجسد على خشبة مسرح او فى كتاب . او قصة ، تنتقل من خلال عوالم خيال تراها بصيرته من خلال فكره .. وفلسفة يحياها وحده . تؤلف وجها هادئا سارحا ، يكاد يكون غائبا .

واسال شيخ الادباء :

.. ـ عند السفح .. ماذا حلمت ؟

... — حلم الشباب شيء جميل ومثير . وذلك الشاب الذى كنت اعرفه فيما مضى باسم حسين توفيق الحكيم كان نحيل الجسم أسود الشعر يرسل البصر الى الأفق البعيد ، كأنما يريد ان يهتك حجب الغيب يطالع ما خط فى « لوح » قدره .

ولكن القدر فيما خيل له ما كان قد خط حرفا واحدا فى اللوح : انما وقف ممسكا به ينتظر .. ينتظر الرسم الذى خطه الشاب لحياته . نعم لقد كان ذلك الشاب قد وضع لحياته شبه خريطة واضحة المعالم دقيقة التفاصيل . كان قد طرح مهنة المحاماة والقانون من ذهنه ليمضى فى حمل القلم ويقول للناس اشياء يعتقدونها قد تنفعهم . وما كان يريد غير ذلك ولا يطمح فى حياته لشىء آخر . فلا الجاه العريض كان يغريه ولا مفاتن الحياة كانت تستهويه ولا الثراء كان يجذبه أو يقنعه أو يرضيه . وعندما يضع انسان لحياته خطة فان القدر يأخذ وينفذ .

ولكن القدر ساخر والويل من التعرض لسخريته . وهو يحب السخرية دائما من أولئك الذين يتوهمون انهم قادرون على أن يضعوا لحياتهم الخطط الدقيقة . كل ذلك لا يمنعنا من أن نحلم فى أيام الشباب . وقد حلمنا ..

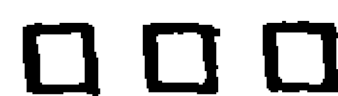
.. — وخلال رحلة العمر ؟

.. — رحلة العمر الطويل قد علمتنا اشياء . علمتنا أن سفينة الرحلة مهما نحسن صنعها ونضع فيها ادق الأجهزة فان هناك بحرا متلاطم الأمواج احيانا الى حد مخيف . ولكن اخطر شىء فيه هو الرياح.تلك التى لا يمكن التنبؤ بها وباتجاهها . فأنت تحكم سيرك فى أحسن اتجاه فاذا ريح تأتى من حيث لا تدرى تقذف بك وباتجاهك الى اتجاه آخر يبعدك عن هدفك . وعندئذ تحاول ان تصحح وضعك على الخريطة فيستغرق ذلك منك جهدا ووقتا لم يكن فى الحسبان . كثير من رجال الفكر والأدب والفن اذا سألتهم عن رأيهم فى رحلة عمرهم أجابوا أن حسابهم اختل قليلا او كثيرا فى برنامج عملهم أو على الأقل فى القيمة التى كانوا يحلمون بها لأعمالهم . ان رحلة العمر ليست نزهة خلوية ولا هى رحلة بحرية فوق يخت يتهادى على ماء صاف . وحتى اذا تيسر ذلك كله أو بعضه لعدد قليل من رجال الفن والأدب فان المشكلة دائما هى حاصل الرحلة ونتيجتها التى لا يمكن ان ترضى صاحبها . ولو سئلت عن رحلة عمرى لقلت لك اتمنى أن تبدأ الرحلة من جديد لا فى أولها بل على الأقل من ٥٠ أو ٤٠ سنة حتى اعيد صياغة برنامجها وأحقق ما كنت أحلم به . ولكن هيهات .

.. — وما الذى تراه من حولك .. وانت على القمة ؟

.. — هذه القمة لا اراها . كل ما أراه هوّ حياة خلفى لا أدرى هل كانت مجدية حقا أم ذهبت عبثا . ولكنى أرى من حولى أجيالا عظيمة فيها عصارة خلاقة أنبتت ثمرا طيبا ممتازا وأعتقد أنها هى الآن التى تسير ببلادنا الى المستقبل الذى طالما حلمنا به ونحلم دائما . وكل ما ارجوه لها أن يجنبها القدر متاعب الرياح المعاكسة وان يجعل بحارها هادئة صافية.

واترك توفيق الحكيم .. والقلم فى يده . فالفكر لا يشيخ وانما يكبر مع الزمن ليضىء اكثر واكبر .



وبسمة ربيع

□■□ الكلام والحديث مع توفيق الحكيم : رائد الرواية المصرية وقمـــة كتاب الحوار فى العربية : لا يمله مستمع ولا يشبع منه قارىء . . ميـــاه بئر لا قرار لها لا تنضب من اعماقها . تنبع لتروى . وتجتر لتعطى . وتفكر لتضىء . . وتلتهب فى وقار العمر المصقول : تقدم تجربة فـــكر وعمر . . لجيل مع الربيع ينمو ويزدهر . قرأ له ضمن ما يقرأ . . كتابه : (رحـــلة الربيع والخريف) .

وفى بساطة الكلمات : يجري حوار . أسئلته نقط . واجاباته حروف : وتوفيق الحكيم : يستعد لرحلة صيف يقضيها على شاطىء الاسكندرية ــ بعد أسابيع ــ متطلعا الى الأزرق . . وراقصاته من أمواج البحر تعـــلو وتهبط . . وتنثنى .

. . ــ . . . . ؟

. . ــ المقصـــود بالربيع هنا هو ربيع العمر . والعجيب فى الأمر انى فى ربيـــع العمـــر لم أكن ألتفت الى ربيع الطبيعة لم اكن أنظر الى أوراق الكتب . اما الآن فقد تغير الحال واصبحت اشتاق الى تأمل الطبيعـــة . ولعل الشجرة فى الخريف تذكر أوراقها الخضراء فى الربيع بالشوق والحنين .

.. ــ الربيع فى مصر ؟ مع الأسف ! الطبيعة فى بلادنا شحيحة فى أردية الربيع لكأنهـا تخشى أن تظهـر فى أردية زاهيـة الألوان فتـأتى رياح الخماسين بغبارها وعفارها وتعكر صفوها . فهى تترك الربيـع يرتدى الغبار والعفار الى أن يدخل الصيف فجأة فيزيل كل شىء بأنفاسه الحارة .

.. ــ .... ؟

.. ــ نعم لا يوجد ربيع فى مصر . ولعل ذلك قد اثر على الشعر . ولعل الشـعر فى مصر غالبا أقرب الى الحكمة والعقل وتأمل النفس والنـاس اكثر من تأمل الطبيعـة والتغنى بها . وربما كان فى الريف بعض جمال الربيع . ولكنا نشعر دائما ان بعض هذا الجمال من غرسنا نحـن ومن زرع أيدينا فى الحقول فى اخضر البرسيم وابيض : زهرات الفول ... أكثر مما هو من صنع الطبيعـة فى غابات تسـكنها الطيور والأيائل ، وتلال تكسوها الخضرة وجبال تتوجها الثلوج .

.. ــ .... ؟

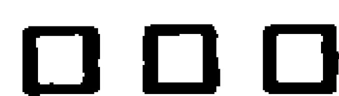
.. ــ حقا يوجد النيل . ومتعتى اليوم اذا صفا الجـو ان استنشق الربيع من صفحات النيل وانا أمشي كل صباح على الكورنيش أتوكأ على عصاى . ولكن النيـل جميل فى كل فصول السنة . فهو لا يخص الربيع وحده بحسن المنظر .. حتى فى أيام الشتاء يبدو جميلا فى حلته الرمادية الرجراجة بالموج الخفيف .

.. ــ .... ؟

.. ــ خير الفصول عندى : الخريف .. فى بلادنا : الربيع : الحقيقى هو : الخريف لا حر ولا برد ولا تراب . وليس لدينا أشجار يتساقط ورقها الذابل فيوحى بالكآبة . الخريف فى كل بلاد العالم أو اغلبها فصل كئيب . الا فى بلادنا . فهو عندنا فصل منعش . واذا كان الربيع يأتى فى البـلاد الأخرى بموكب من الزهور فان ربيعنا وهو الخريف يأتى بموكب من الطيور . الطيور المهاجرة مثل السـمان والقمرى والبط نراها فى السـماء آتية فى جماعات تتراقص كمجموعة الباليه وفى مقدمتها رئيسها كأنه الباليرينا الأولى .

.. ــ .... ؟

.. ــ حقا فى راى البعض ان لمصر ثلاثة فصول فقط الصيف والخريف والشتاء . اما الربيع فهو شىء كنهاية الشتاء وبداية الصيف . اى اننـا ما نكاد نلحظ اختفاء البرد حتى نجد انفسـنا دخلنا فى الحر . ربما كانت هناك اشـياء طفيفة تذكرنا بالربيع هى ظهور الملانة الخضراء والفراولة الحمراء وزهر البنفسج وزهر المشمش . ولكننا ما نكاد نلحظ ذلك حتى يسرع ويختفى لتظهر بشائر البطيخ والشمام . وهى عما قليل : تظهر .



على جناح عصفور

□■□ .. ويعود الى الحكيم .. بعـــد صراع افكاره .. حول تلاقى الأجيال لا تصارعها للبقاء أو على البقاء .. وانما يصـــل الى المشاركة حلا سعيدا .

ويعـــود من رحلات الفضاء ورحلات العقل .. الى رحلات الجســد والذكريات .

انه يطير الى اوروبا وبالذات الى باريس ثم الى لندن . يعود ويرجع ليحكى كيف أن باريسه غير باريس ؟

باريس التى عاشها ٣ سنوات مع بداية الربع الثانى للقرن العشرين .. كان عمره حينئذ ٢٧ سنة .

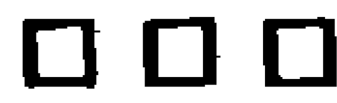
أما فى هذه الرحلة فالرقم يختلف . يتبادل . ينعكس رقماه بل ويزيد سنه . انه الآن ٧٣ سنة عمرا .

يعود ليبدأ ما يكتبه عنها : [على جناح عصفور] . فكرة هذه الرحلة قديمة . لقد عرض على القيام بها منذ سنوات . وكنت فى تكاسل وتخاذل وأؤجل القضية من عام الى عام مخترعا شتى الحجج . الى ان فكرت أخيرا فى هذه المرحلة من عمرى . وأيقنت أن كل عام يمضى تزداد بى السن تقدما والصحة ضعفا . فلن أحتمل بعدئذ السفر . وحزمت أمرى وقمت أنفض الغبار عن همتى .. لكن ما هو المطلوب منى ؟

قيل لى الأمر بسيط .

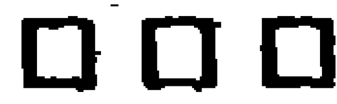
انها رحلة انطباع عابر لأول رحلة لك الى أوروبا قمت بها فى الماضى . ولرحلة اليوم التى تقوم بها فى الحاضر .. ولكن الأمر ليس سهلا فقد مضى نحو نصف قرن بين الرحلتين . فصور الماضى كادت تزول من راسى . أما الحاضر فانى أواجهه بنفس شاخت وفقدت الكثير من روح الشباب وانطلاقته وحماسته ودهشته .

ولكن سأحاول . وابدأ فأعتصر راسى لاستخلص منه ذلك الشريط من الذكريات ، الذى أخشي أن يكون قد بهت ، وأحلق من فوق جناح عصفور لأشمل بنظرتى السريعة ، ما كان وما يكون . أما ما كان فهو يوم فى مطلع العشرينات . فى هذا القرن .. يوم صيف . شهر يوليو فيما اذكر . وضعت قدمى على سلم باخرة .. تذهب بى الى فرنسا ..



ويستمر توفيق الحكيم يحكي .. كيف كان .. وما الذى أصبح مما كان.
الصور تختلف . وأن تتابعت .
ولكن الانسان واحد .
الزمان يجرى والأفكار تتحرك . ولكن الطبع واحد .
الم يقل هو نفسه : « املى اكبر من جهدى ..
وجهدى أكبر من موهبتى ..
وموهبتى سجينة طبعى ..

ولكنى أقاوم .. »



ولكن هل تغير طبع الحكيم .. اعنى الحكيم بخيلا .. ابن برج الميزان .. الذى يلتزم بالاتزان أغلب ايامه .. ويندفع فى قلتها اندفاعا .. ما يلبث ان يسيطر عليه حتى ولو بعد وقت .

والآن يدخل على صديقى الشاعر صاحب الصوت المميز الرخيم الساحر فاروق شوشة ..

ماذا تكتب ؟ وعن من ؟

يسمع جوابى ثم يصمت لحظة ويسألنى .. ولكن ما سبب [الحيرة] التى تتراءى لنا أحيانا عندما نراه . عندما نرى المفكر الحكيم .. هل لنشأته وتأثير والديه .. أم لبيئة نشأ فيها ثم نفر عنها ؟

ويكون جوابى : انه .. الميزان .. ان كفتى الميزان تتأرجحان دائما .. ان لحظة تعادلهما هى لحظة الوزنة فقط . وما أقلها وقت . ولكنهما دائما يتحركان .. ان الحكيم هو ابن برج نفسه . برج الميزان . هو كالبحر .. أمواج بين كر وفر . بين انخفاض وارتفاع وعلو . ثم هو آخر الأمر .. ذلك الهادى المتباسط الأزرق .

الذى يبدو كالحصير .. مخبئا لآلئه فى أصدافها .. فى غور الفكر العميق.

ان الحكيم يرى نفسه [داخل] نفسه .. بينما هو على السطح هادىء الملامح .

يبدو [خارجها] .. سارحا تائها حتى عن بعض الحوار والحديث .
ولكن البحر مهما تغيرت صورته الحيرى .. فهو البحر دائما ..
والحكيم عندى هو الحكيم دائما. .مهما قلت وقدمته للناس : الحكيم بخيلا.
فلا هو بالبخيل ولا هو بعدو المرأة .

□ واذا كانت كلماتى تلهث الآن نحو النهاية .
والقارىء فى حيرة من أمر توفيق الحكيم .
ينتظر بعد الاتهام والدفاع .. حكما .
والمداولة قبلت كل حيثيات كل ما جاء من اقوال وشهود ودفوع ..

فانى أرى الحكيم لم يكن بخيلا بادىء أمره .. وانما هو كان حريصا كل الحرص على أن لا يضيع وقته ولا ماله وله من المسئوليات .. فانه أعطى خلال الـ ٨٩ سنة التى عاشها للمسرح والفكر العربى .

واعطى صحافتنا كلاما يقوله ليعيه الناس . وجعل ذكاءه أن يتحدث عنه الناس .. فى تقليعات ابتدعها فكانت اشبه بالغرابة فى وقت بدأت فيه واستمرت .

ولا تحكم على مجتمعنا الماضى مثل الحالى . مجتمع باشاوات وقصور وفوارق اجتماعية هائلة ومتباعدة .. ومع ذلك أن يتحدث وكيل نيابة أو رئيس تحقيقات أو مدير عام او وكيل وزارة .. منشى الياقة والقميص « مبرم » شنباته الى فوق عاوجا الطربوش النسر الأصيل .. ان يتحدث من خلال عصاه أو حماره الى الناس . فهذا كان حدثا وعجبا .
ثم هو آخر الأمر ان حرصه على مال . .فلأنه لم يعتمد على وظيفة دائمة تكون سنده فى الحياة . وهو ابو العيال ورب أسرة .. وقبلها كان عليه ان يتحرك فى حرية الجرىء ومن يمد اليه مالا الا قلمه .

وقلمه كان يكتب ويعكس ايرادا لا من أجل مال . ولكن من وحى الفن ورسالة الأدب .

أما اذا كان حقيقة عدوا للمرأة .. فانه يقول هذا وقد ارتدى قناعا .. لأنه من وراء هذا القناع . أحب . وأحب . وأحب . وأحب . وأحب المرأة. أحب ٤ نساء اعترف بهن فى حياته . وأحب شريكة عمره ووحى فنه خلال ٣٥ سنة .

ولكن هل هو فعلا كما قلت واقول وسأقول عنه ؟
هل يمكن مثلا أن يقاس توفيق الحكيم بأديب فرنسا ومعاصره نصف عمره الأول « أندريه جيد » .. الذى كان يضطر ضيفه أن يدفع الحساب او البقشيش عنه ؟ !

بعدما يتحرك الداعى أندريه جيد — بعد تناول الطعام عشاء أو غذاء — الى داخل المطعم المتواضع وكأنه اضطر لدفع حاجة عنده .
ويغيب ولا يعود . دون اذن او اشارة حتى من أو الى صاحبه !! حرصا على بضعة فرنكات ثمنا لعشاء !

هل يمكني مثلا ان اقيس حرص المـــال وقيمته عند الحكيم بما كان عند آخرين من أصحاب المواهب وشذوذ جمع المـــال ؟ هل وصل الحكيم الى ما فعله أديب الانجليزية : وليم شكسبير ، عندما رفع قضية ضـــد صديق له استلف منه ٢ جنيه فقط .. ثم ماطله فى ردها اليه ؟

ابـــدا .

وانما الحكيم فى نظرى وتقديرى : [استحلاها] .. لو صح هذا التعبير كمادة يسخر بها من المـــادة ويهزأ بالمـــألوف والمتعارف عليه !

لقد بدأها [تقليعة] .. يقلد بها فى سن الطفولة بطلا أمامه . والده . الرجل الأول فى حياته . حرص والده الذى طالما سمع منه وعنه .. أرقاما وحسابيات واحصائيات ومقاسات وجزئيات وأوزانا وابعادا .. وأمتارا طولها كذا وعرضها كذا وأحجاما وعرضها كذا كذا .. ورهونات وكمبيالات وشيكات وديونا وفلانا لم يدفع .. والأحسن يدفع بالتى هى أحســـن . والا فالقضاء .. سمعه وهو يضرب ويطرح ويقسم فى عالم الرياضيات على الورق قبيل اختراع الكمبيوتر .

اراد ان يقلد فى سن التقليد والطفولة .

من منا لم يقلد « السوبرمان » الذى تخيله صغيرا ؟

ولمـــا كبر بعض الشيء وتغلب عليه عالم الفن الذى عشـــقه من تأثير والدته : التى تحب الحياة والسيطرة عليها .. استطاع أن يحلق فى اجواء بعدت به عنهما ولكنه ظل للفن وللفكر أمينا .. أما للمال فأصبح حريصا . وليس شحيحا .

ان البخل فيه ليس طبعا ولكنه تطبع .

ومع ذلك فالحرص فى صرف المـــال فى تصورى أحسن من الاسراف الذى انا فيـــه .

وكثيرا ما حاولت ان اتخذ من الحكيم قدوة ومثالا . ولكن الطبـــع يغلب التطبع .

وأعود وأسأل نفسى . نعم أن القرش الأبيض ينفع فى اليوم الاسود .

ولكن لمـــاذا لا اتفاءل ؟

والتفاؤل طبعى وطريقى وجسرى الى غدى .

وأعود لأسأل نفسى .. هل للكفن جيب واحد ولو صغيرا ؟

لكن الاسراف الذى فى دمى .. يبدو أنه تطاول اليك . عفوا . اعنى أنى أسرفت فى اخذ وقتك لقراءة كل هذا عن رجل اعجبت به ومازلت على الوفاء له . أوده .

وأسرفت فى أن اجعلك تدفع كل هذه القروش ثمنا لتعرف كيف تحرص على مالك مثلما فعل أديبنا الكبير وانا اقدم لك عنه : [الحكيم بخيلا] .



نحو المائة

□□ ولكل كتاب بداية ونهاية .

.. وتمر مياه تترقرق هادئة أحيانا ، متدفقة مندفعة احيانا مع نهر النيل تحت سماء القاهرة .

لكن نهر فكر : توفيق الحكيم ، لا ينضب له قرار . لقد ســكبه على ورق .. ومازال يسعى ويكتب . بل هو لا يتخلى اسبوعيا عن الكتابة .. رغم ما يجابه جسده من آلام وما يحمله لسانه من شكوى وانين . أحيانا بعد أن احتفل بالثمانية والثمانين عمرا .

تمر الأيام تعد الشهور والتى تتعدد الى سنوات .. يدخل فيها الحكيم : محاربا مدافعا عن بعض أفكاره . وهكذا كان عراكه بعد أن نشر رأيه فيما كان وما يوده أن يكون فى كتابه [عودة الوعى] .

ثم فقد والدته المسنة وزوجته ثم ولده وحيده اسماعيل .واصبح الآن قابعا فى شقته المطلة على نيل جاردن سيتى مع وحيدته واحفاده الثلاثة والمشرفة على راحته ومطبخه : « منصورة » ، بعد أن عاصرت سنوات نجاحه وشباب قلمه و .. كادت تصبح عضوا من أسرته .

تحولت الطبعة الأولى — الحكيم بخيلا — الى مسلسل اذاعى ناجح اخرجه : سمير عبد العظيم ولحن مقدمته وموسيقاه التصويرية : محمــد عبد الوهاب .

ثم رأى المخرج حلمى رفلة .. ان يحول هذا الكتاب الى فيلم روائى سينمائى .. واتجه الى باريس ليختار أماكن تصويره لكنه مات هناك . وكان حلمي رفلة حذرا . فقد رجاني أن نزور الحكيم بالأهرام .. ودفع له ٥٠٠ جنيه ليأخذ ورقة موقعة منه أنه لا يمانع فى عنوان الكتاب أن يصبح فيلما .. لأن حذر حلمى رفلة .. جعله يخاف أن يرفع عليه أحد من ورثة الحكيم قضية .. وهنا ضحك الحكيم مرحبا بالشيك وأعطاه فورا ما طلب وكان المفروض ان يدعوه حلمى رفلة .. للتصوير فى مقدمة الفيلم فى الأماكن التى كان يقطنها فى العاصمة الفرنسية أو المقاهى أو دار الأوبرا والمسارح التى كان يتردد عليها .

لكنه الأجل .

وتمر الأيام وتعد الشهور والسنين .. ويأتى عيد الميلاد الـ ٨٨ لتوفيق الحكيم فى ٩ أكتوبر ١٩٨٦ . وأمر عليه .. وبينما أنا فى طريقى اليه مارا بالدور السادس فى مبنى « الأهرام » ، سمعت زعيقا وصياحا صادرا من مكتب نجيب محفوظ والذى كنت أبغى زيارته ايضا كما تعودت ظهر كل خميس .. وبعد انتهاء موسم الصيف ، والذى سافر لوحده الى الاسكندرية دون توفيق الحكيم ، هذه السنة ، وربما السنة التى قبلها حيث قضى الحكيم فترة علاجه التى طالت شهورا مع النقاهة فى مستشفى « المقاولون » فوق ربوة الجبل الاحمر المطل على شمال شرق القاهرة .

ما ان فتحت باب مكتب نجيب محفوظ .. الا وجدت زميلنا الأديب الشاعر : ثروت أباظة ، هو المتحدث ونجيب محفوظ يمد راسه وعنقه نحوه وقد مد كفه الأيسر ليسند اليه اذنه اليسرى ، ليتابع ماعلا واعتلا من درجات الصوت . والحديث المبتسم الزاعق يجمعهما !!

واعتلى صوتى صوتهما .. فالمكتب الذى تستند اليه جلسة نجيب محفوظ : يبعده عنى مترا .

سألت عن سبب الخناقة .

قال نجيب ضاحكا .. لا . لا أبدا .. دحنا بنهزر؟ ؟! اصلى يا سيدى ودنى اليمين دى خلاص . ايوه تقدر تعتبرهاخلصت والأمل الباقى فى ودنى الشمال دى وهى يعنى اقل من نص .. نص !! وانا حتى مش قادر أتابع حلقات مسلسلاتنا العربية التليفزيونية .

هنا اجبته : طيب ما انت محفوظ ؟ يعنى ربنا رحمك من المتابعة واغلب الأمر لا يلازمها النجاح والمنطق الفكرى .. انما المط والتمطيط لمزيد من الفلوس للمخرج وأهل الفن وكاتب الحوار .. و .. و ..

يتضاحكان .. وهنا يتابع نجيب محفوظ ما بداه .. ليقول لى .. على كل حال .. أصبحت الآن من متتبعى الأفلام والحلقات الأجنبية

التليفزيونية .. لانى باقدر اقرا الترجمة .. فى حين لا استطيع مصاحبة نطق الحوار ولا صوت الموسيقى المصاحبة ! .

جلست اضحك معهما على حوار « الطرشان » .. وكيف أن الانسان لا يأبه للصحة .. حتى يحتاج اليها .. وكيف أن الصحة تاج على رؤوس النـــاس ..

زعقت صائحا بنجيب محفوظ : انا عندى فكرة .!

نجيب : يشب بعنقه وراسه وكفه وراء اذنه نصف السليمة : ليهتف .. فكرة اية يا كمال .. اسمعنى بها يا اخويا .

اقول : انا رايت تليفزيون صـــغير جـــدا فى رحلتى الأخيرة فى الولايات المتحدة . التليفزيون بسماعتين . وهو وشاشته فى حجم الـــكف أصغر من الترانزستور وأرفع .. وتقدر تخلى واحد من اصحابك او اصـــدقاء ثروت يشتريه لك من هناك .. واستعماله سهل فى تصورى ان تضــع سماعتيه فى اذنيك .. وانت جالس امام شاشة التليفزيون العادى الكبير فى البيت وسط العائلة .. فانك سترى الصور المتتابعة مع السرد على الشاشة الكبيرة .. وتستمع من خلال الاســـلاك الممتدة من التليفزيون اللى فى حجم الكف ثم ان ثمنه مائة دولار واللى أخويا « رجائى الملاخ ».. كان حيشترى لى واحد . وأنارفضت ، لأنه لا حـــاجة لى به .. الا فى مشاوير السفر . وهنا يهمنى أن انام او اغفو او اتأمل او اقرأ كتـــابا او مجلة .. شىء معين مسلى !!

هنا زعق صديقنا ثروت اباظة بصوته الجهورى المشهور به ولـــكنه ازاد نبرته . انا — اى انه ثروت — مســئول عن ايجـــاد مثـــل هـــذا التليفزيون اللى فى حجم كف اليد .. بسيطة !

ثم اقسم ثروت على ذلك وعلى هذه المروءة المسبقة . تقفز الأمل على ملامح نجيب محفوظ فازداده بشرا وسرورا وحبورا .

هنا تذكرت الموسيقار العظيم بيتهوفن .. وكيف حرمه القدر من متعة الاستماع والاستمتاع حتى بسيمفونياته .. ابتداء من الرابعة .. ثم توغل مع اعماق الصـــمت بداية من السادسة ، وهكذا كان يرى الأيدى تصفق ولا يسمع للالات رنينا ولا نغما .. اى ان القدر حرمه من ذاتية فنه .. الذى اصبح بسببه مخلدا .

ويا لعجب الدنيا ، وما فيها من متناقضات ..

□□ توفيـــق الحـــكيم : كان على موعـــد دائم مـــع نجيب محفوظ واحسان عبد القدوس ويوسف جوهر وثروت اباظة وكاتب هذهالسطور.. ومن يأتى الى مكتبه من اصحاب أو اصدقاء أو شباب الصحافة والأدب واهل القلم : كل خميس .. وهو ونجيب محفوظ يتباعدان عن جرســـون القهوة .. وليه الاسراف وتضييع قروش والحرص على المال أحسن وينفع فى الغد السعيد ومسئوليات البيت . وما اكثر الموضوعات التى تتناولها الألسن والشفاه .. تقطعها أحيانا نكتة متفائلة .

مجلس هذا الصالون : كان يبدأ عادة فى الحادية عشرة وينفض سامره حوالى ٣ بعد الظهر .

وان كان توفيق الحكيم حتى عامين ماضيين يحضر يوميا الى مكتبه يفض البريد .. ويقابل من ضرب له موعدا .. أو يقرأ .

لكنه بداية من خروجه من المستشفى الذى كان قد دخله منذ سنتين .. بعد عن « الاهرام » فترة دورة النقاهة التى قضاها فى شقته المطلة على النيل بالقرب من فندقى شبرد والنيل . معه فقط كريمته بعد أن جاءت من الاسكندرية مع أطفالها الثلاثة وراعية البيت منذ زمن طويل: «منصورة» وقليل جدا من الأصدقاء المعدودين يترددون عليه : نهارا .. أو مجرد اطمئنان على الصحة ، بعد رنين تليفون .

لكنه بعد فترة طالت قرر الحكيم .. أن يعاود حضوره الى صالونه فى الدور السادس من « الأهرام » ولكن مرة كل أسبوعين أى يغيب خميس ليحضر الخميس الذى يليه .

استمر الحكيم على التزامه .. الا الشهرين الأخيرين .. بدأ عدم الانتظام .

لم يحضر منذ شهر اسأل عليه تليفونيا .. لكن تليفونه مشغول .

الى أن حضر الى .. الى مكتبى مساعده الذى يلازمه ويساند حضوره الى « الأهرام » من منزله فى جاردن سيتى . دخل وقال لى بعد تحية الصباح ان توفيق الحكيم قد حضر ، اترك قلمى على مكتبى واصعد اليه وأدخل الى مكتبه المفتوح الباب .

بسرعة شاهدت نصف بهجة تطل من ملامحه ليست مثل كل البهجة التى أراه بها كلما التقينا فى الـ ٤٣ سنة الأخيرة !! .

أردت أن اطرد من ملامحه ذلك النصف الآخر من السأم .. قلت له : .. كل سنة وانت طيب يا توفيق بك ..

يرد الحكيم : .. طيب .. طيب على ايه ؟

انا باعيد عليك .. على عيدك القادم عقبال كل سنة وباذن الله على طول بعد المائة .. وابتسمت متابعا : الحكاية دى بتفكرنى بالكاتبة الأثرية : مرجريت مورروى .. التى كتبت عنوان كتاب لها .. فكان : (كتابى الأول بعد المائة) وقد عاشت بعد المائة عدة سنوات .

يبتسم الحكيم .. ولكن سرعان ما ضاعت ابتسامته ، التى تعودت عليها من يوم أن عرفته لأول مرة منذ ٤٣ سنة .

ليقول لى الحكيم : .. الحكاية ما اصبحتش .. ان الشيخوخة بدأت تتجاسر . ودنى اليمين : عطلت زى ما أنت ملاحظ .. والشمال اصبحت نص نص !!

أرد عليه صائحا دون أن أعى حتى يسمعنى — وهنــا تذكرت حوار الطرش الذى كان بين نجيب محفوظ وثروت أباظة — منذ ساعات .. لكن يا توفيق بك بيتهوفن كان كده واوحش وترك سيمفونياته التسع الخالدة المهم فكرك وذاكرتك وقلمك .. امسك الخشب .

يقول الحكيم : .. دول بقى .. العقل واللسان .. استمرا بالأدوية .. لأنى فى الواقع اداوم على دواء — هايدروجين — وطبيبى د. عبد الحى اسماعيل .. يتابعنى فى ان اتناوله ٣ مرات يوميا .. وانا حريص على ذلك . والدواء ده يوصل الدم الى شرايين المخ الدقيقة .

ثم يسكت الحكيم .. ليبحث عن مظروف متوسط ، وفيه أحدث نشرة على هيئة كتيب أصدره النــاشر : ماكميلان .. وهو الرئيس الفخرى لمؤسسة النشر ، وكان رئيسا لمجلس وزراء بريطانيا واخذ الحــكيم : ينظر بعينيه المجــردة — دون الاســتعانة بأى نظارة أو مكبر — لنمنمة مطبوعة بأصغر بنط طباعى — والذى نطلق عليه بنط ٧ — حيث تظهــــر المطبوعات العالمية الجديدة لدار النشر .. وامامها اسم المؤلف .. اخذت منه الكتيب وتطلعت الى ذات الصفحة .. فوجدت .. أن الناشر انتهى من ترجمة وطبع : (عودة الوعى) بالانجليزية كتابا جديدا لتوفيق الحكيم.

اخذت اتذكر زيارة ماكميلان لمراكب الشمس .. وكان قــد تعــدى التســعين عــاما . يوم جــاء لزيارة مصر وهو الذى توفى عن ٩٣ سنة فى بداية ١٩٨٧ — .. وكان يمشى بمنتهى الصحة ويســأل فى منتهى دقة الفكر وهو يتفرج . ولا انسى .. حين دعانى د. عبد القــادر حــاتم للغداء مع ماكميلان فى نادى التحرير بالقاهرة .. أنه كان يصاحبه شاب تعــدى الاربعين من عمره . فلما ســألت ماكميلان .. هامسا .. اهو سكرتيرك الذى يصاحبك .. ضحك وقال : انه حفيدى .. وقد اعطيت له مسئولية دار النشر .. ومازلت اذكر .. كيف كان اهتمام الحفيد .. بأخبار الكاتب الكبير : محمد حسنين هيكل .. وكتبه الجديدة وكان ذلك من ٣ سنوات مضت .

سنوات عمر الــكبار ؟ !!

□□ يرد الحكيم : دول يا سيدى بيمشوا . مشكلتى أن ســاقى . رجلى تعبت .

... — طيب ما تتمشى فى البيت ؟

... — انا بأعمل كده احيانا مستندا الى من يصــاحبنى . هو اللى نفع : لطفى السيد وقد عاش ٩٤ سنة . كان بيتحرك .

... — نعم انا فاكر .. انى تعودت على رؤيته كلما ذهبت الى حديقة فندق بريفاج الاسكندرية .. كان دائما يضع عباءته الرمادية الفضفاضة على كتفيه .. يتطاير بهــا الهــواء . يبدو وكأنه احــد رواد القــرون الوسطى .. وهو خارج من الفندق عائدا الى داره ومن حوله الصحاب.. جلساء جلسته .. وكلهم يقاربون عمره .

طيب ما الوالدة . والدتك عاشت اكثر من ١٠٠ سنة .

هنا يضحك الحكيم ليصحح لى . وانا « اتاوح » .. وهو يصر . ويقول لى دى والدتى أنا ، وأنا ادرى .. ايه ؟ . يا سيدى والدتى عاشت ٩٠ سنة ووالدى كان عمره ٦٥ عندما مات واخى اللى اصغر توفى عن ٥٨ سنة .

أحاول أن ادفع التفاؤل الى جلستنا . اقول له : عندنا : برناردشو ..

يرد توفيق الحكيم : ايوه . برنارد شو مات وعمره ٩٥ سنة بحادث .. وكان المفروض — علميا — أن يعيش اكثر من كده .. ولكن هكذا كانت مشيئة الله .. اذ وقع برنارد شو ، وكان غاوى يقلم فروع شجر حديقة بيته وهو فى هذه السن الكبيرة .. ولكنه فقد اتزانه ووقع واصيب بكسر .. وانت عارف أن الكسر للشيوخ هو : الموت العظيم . لأنه فى هذه السن ... لا تلتئم الكسور بسهولة !

أسأل الحكيم . لأغير جو القتامة التى كانت على ملامحه حتى تنسحب عنه بعيدا :

... — ترى كيف تنصح الجيل أو شباب اليوم .. وانت على القمة ؟

... — يا ترى كم عدد أحفادك .. اللى هيحتفلوا معك بعيد ميلادك ٩ اكتوبر ؟!

تردد الحكيم وقتا .. ثم قال .. انهم ٣ أحفاد .. أما حكاية الاحتفال.. فلا أعتقد .

... — أقول لهم اجتهدوا ، فى أن تكون كل لحظة من حياتكم فيها نفع لبلادكم .

ان أكبر كارثة تؤلم الانسان هو أنه يشعر أن حياته قد طالت ووصل الى الشيخوخة المهدمة المعطلة لحياته .. و .. ويتأمل حياته الطويلة التى كانت وهو فى كل الصحة .. عبر الشباب والكهولة الى ان وصل الى هذا العمر الطويل . فاذا به يرى فجأة انه لم يصنع شيئا نافعا . اى قسوة وأى لعنة يشعر بها هذا الشيخ .. فى أواخر حياته التى أضاعها هدرا كما لو كانت حفنة تراب فى يده . أو قبض الريح .. وهذا شعورى الآن فلا تفعلوا مثلى !!

... — ولكنك يا توفيق بك اعطيت مصر مسرحها الحديث .. وفكرك المنبثق من عوالم الفن وحرية الراى ومتعة السرد من خلال خفة الدم وعمق الثقافة والاسقاط الروائى فى عز سنوات قحط الحرية وقسوة الطغيان . ان كتبك التى تعدت الستين .. تأثرنا بها وأجيال قبلنا وبعدنا تاثرت بك. ان حياتك ذلك العمر المديد باذن الله — مازالت تعطى اسبوعيا فى «الأهرام» وفى صالونك مهما تباعدت اجتماعاته .

ضاحكا معه متضاحكا : .. الا تنصحهم بقيمة المال وفوائد : «البخل».

هنا يبتسم الحكيم — والذى كان يرتدى بذلة بدت كالجديدة ولو انه كان حريصا أن يصف لى أنها قديمة ، ولكنه لا يقبل كثيرا على ارتدائها ولهذا تبدو هكذا . وهل ترى فى نصيحتى لو قلتها .. نفعا ؟ !!

من جديد أسأل الحكيم عن : التفاؤل ؟

□□□

يقول لى وقد تزاحمت الهموم البيضاء على ملامحه : .. نعم .. اتفاءل بكل ما يشعرنى بأنى : اقترب من النوم الطويل ، الذ لحظة عندى الآن هى: لحظة النوم . فأنا أجلس لأنام . نومى كثير ولكنه للأسف متقطع طوال النهار ، ولكن ما يخيب املى هو اليقظة من هذه الراحة .. وأنا أتصور أن السعادة التى ستأتى أن انام ولا استيقظ . الشيخوخة اصبحت صديقتى. أنا لا اقبل على مشاهدة التليفزيون الا قليلا ، فأنا لا اسمع بوضوح .. لست بقادر على متابعة الروايات والأحاديث .. مبعرفش بيتكلموا بيقولوا ايه .. والا بيصفقوا على ايه ؟ !

من هذا انتقل اهتمامى الى الشىء الأجنبى على شاشة التليفزيون .. اقرأ الترجمة وأنا متابع لحركة الصورة .

رنين تليفون يقطع الحديث .

النمرة غلط ..

... — لا . لا .. يا توفيق بك أنا عاوزك تتفاءل . شوف الشمس طالعة ازاى ؟ ده طه حسين .

يقاطعنى الحكيم : أيوه أنا عارف انا عايش أكثر من طه حسين .

... — طه حسين عاش ٨٤ سنة . تماما مثل : أبى العلاء المعرى . وان كان الفارق الزمنى بينهما ١٠٠٠ سنة . وعبــاس محمود العقاد : عاش ٧٥ سنة .. وكان سلامة موسى : يتمنى دائما أن يعيش مائة سنة.. ولكنه مات وله من العمر ٧٣ سنة .

... — وكان احمد لطفى السيد .. يروح المجمع فى عز البرد ويمشى وله من العمر أكثر من ٩٤ سنة .. ولكن ان الثمانين وقد بلغتها أحوجت سمعى الى ترجمان .. الذى خفت منه ليس السمع .. ولكن العقل . وقد أحوجت عقلى الى ديدبان ، علشان يمنع التخريف بعد أن أوغلت فى الثمانين بضع سنين ، دخلت البحر العميق للشيخوخة . سمعى وأقدامى : ضعفت، أما عقلى فلا . وأرجو أن يفدينى قلمى من التخريف ولذلك اعتمادى على القارىء المتسامح الذى يتسامح فيما لا أعجبه .

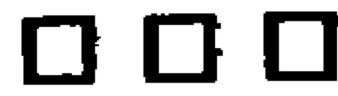
لا تصدقوا هذه الاكذوبة

□□ .. ثم اتفاءل بهذه الأكذوبة التى صدقتها وصدقها كثيرون غيرى.. وهو أن : الغد افضل من اليوم .. واليوم افضل من الأمس .

من خرافات الانسان التى اخترعها : هو الاستبشار والأحلام الكاذبة .

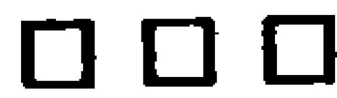
الأمس لا يمكن ان يعــود . ولا يمكن ان نعتبره اقل ولا اقبــح من اليوم والغد .

والدليل على ذلك .. انى ذهبت الى باريس وانا فى أواخر السبعينات وأوائل الثمانينات .. وحزنت حزنا كبيرا عندما وجدتها : ليست هى باريس الأولى التى عشتها فى العشرينات !! ولكنها أصبحت باريس السياحية .. فيها كل شيء لاجتذاب الناس الأمريكان والألمان .. حتى أصناف الأكل فى مطاعمها لم تصبح باريس الفرنسية . فقد تحولت باريس : عاصمة الجمال والفن والنور .. التى عاشها شبابى الى حانوت سياحى للأجانب .. لكن اين هذا من الذى رأيته وتعايشت معها فيه .. أيام زمان !!



هنا جال بخاطرى .. حين أشعر — ولأول مرة فى حياتى مع الحكيم .. بجو يبعد فيه الأمل ويقرب اليه اليأس .. مقولة جواتا بوذا (٨٠ سنة) والذى عاش ما بين ٥٦٨ و ٤٨٨ ق.م .

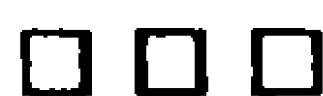
ان فضائل الانسان : اربعة : أولها الصدق . ثم : الألم والم الفراق .. وعذاب الوحدة !!



لكن أخرجنى عن فلسفة : بوذا .. عودة روح التفــاؤل الى ملامح توفيق الحكيم .. عندما دخلت الى مكتبه .. زائرة شابة لها : رشاقة فينوس ، وابتسامة ايزيس : سامية النظرة .

وابتسمنا .

وخرجت لأول مرة مهموما .. من عنده . ويمر ٢٠ أسبوعا .. وافاجأ بأزمة حادة تصاحب صحة الحكيم فى ١٥ ابريل ١٩٨٧ . هبوط فى القلب. واغماءة طويلة . نقلوه الى المستشفى وبعد ٣ أيام عاد الى الوعى .. ثم يرجع الى بيته بعد ان قلق عليه أهل مصر .. مبتسما وهو يطل على نيلنا الخالد .. المتدفق مع العطاء .



وتدهورت صحة : توفيق الحكيم .. فى مايو ويونيه .

ينتقل الى القصر العينى ومستشفى السلام .

ويعود الى بيته . لتتداعى صحته المعتلة من جديد . ويفضل هذه المرة ان يرقد فى مستشفى المقاولين ، فى جناحه الذى استقر به ٦ شهور من ٣ سنوات عندما تدهورت صحته وساءت لأول مرة .

وكأنه كان على موعد مع النهاية .. التى كان يتمناها : مع الموت .

الصحافة المصرية والعربية تتابع صحة : توفيق الحكيم .

الملك فهد : خادم الحرمين .. يوجه للحكيم دعــوة ليستشفى فى اكبر المراكز الطبية فى السعودية ويشكره الحكيم واعدا بالزيارة بعد ان يتم علاجه فى القاهرة .

فى العاشرة من مساء الأحد ٢٦ يوليو ١٩٨٧ . ترنحت نبضات قلب شيخ رواة مصر وعملاق ادبها وفكرها المسرحى .

اسلم الروح والى جانبه كريمته : زينب .

وهو الذى كنا سنحتفل معه بعيد مولده الـ ٨٩ فى ٩ اكتوبر ١٩٨٧ .

اصدرت رئاسة الجمهورية المصرية بيانا رسميا نعت فيه توفيق الحكيم الى الشعب .

ظهر ٢٨ يوليو .. جرت مراسم تشييع جثمان توفيق الحكيم : عسكريا ورسمياً وشعبيا فوق عربة مدفع وموسيقى القوات المسلحة تتقدمه ووراءه رجال الدولة وقلة من فنانينا وعدد من ادبائنا !!

ثم ينقل بطائرة الى الاسكندرية ليحتضنه ترابها ــ حسب وصيته ــ الى جانب والديه بجوار زرقة البحر .. الذى ولد بجانبه من نحو ٨٩ سنة هى سنوات عمره .

□□□

وينسدل ستار عن رفات العملاق : الحكيم .

لينفتح عن سيرته العطرة .. امام الأجيال .

□□□

من مطبوعات
مركز الأهرام للترجمة والنشر

□ **كتب دينية:**

* الحج - عبادة العمر	إعداد مركز الأهرام للترجمة والنشر
* التدين المنقوص	فهمى هويدى
* الفاروق عمر بن الخطاب	عبد الرحمن الشرقاوى
* نحل العسل فى القرآن والطب	د. محمد البنبى
* الله فى العقيدة الاسلامية	أحمد بهجت
* القرآن مأدبة الله للعالمين	الشيخ أحمد حسن الباقورى
* معانى القرآن بين الرواية والدراية	الشيخ أحمد حسن الباقورى
* قراءة فى وثائق البهائية	د. بنت الشاطىء

□ **ومن سلسلة تقريب التراث:**

* إحياء علوم الدين للإمام الغزالى	إشراف ومراجعة
* الحكم العطائية لابن عطاء الله السكندرى بشرح النفزى	د. عبد الصبور شاهين

□ **كتب سياسية:**

* سنوات بلا قرار	الدكتور محمد الفرا
* لمصر لا لعبد الناصر «الطبعة المصرية الكاملة»	محمد حسنين هيكل
* أمن مصر القومى فى عصر التحديات	محمد حافظ إسماعيل
* إيران من الداخل	فهمى هويدى
* ملفات السويس	محمد حسنين هيكل
* محاربون ومفاوضون	كمال حسن على
* نحن والعالم ونحن وأنفسنا	إبراهيم نافع
* انطباعات مستفزة	د. يوسف إدريس
* المأزق العربى	المحرر / لطفى الخولى
* خريف الغضب	محمد حسنين هيكل
* آفاق التسعينات	ابراهيم نافع
* بقايا ذكريات	الشيخ أحمد حسن الباقورى

- كتب فى الأدب والشعر:

* قصص قصيرة	لطفى الخولى
* فوق الحلال والحرام	إحسان عبد القدوس
* العتب على النظر	د. يوسف ادريس
* كانت صعبة ومغرورة	احسان عبد القدوس
* فى الوقت الضائع	توفيق الحكيم
* المجموعة الكاملة	فاروق جويدة
* رباعيات / الأغانى / أزجال صحفية / أشعار العامية المصرية	صلاح جاهين
* طرائف دبلوماسية	السفير جمال بركات
* المجانين لا يركبون القطار	لطفى الخولى
* مسافر على الرصيف	محمود السعدنى
* عرابى زعيم الفلاحين	عبد الرحمن الشرقاوى

- كتب فى مجال الاجتماع والتاريخ والعلوم:

* شهود العصر	الأهرام ١١٠ مقالات و ١١٠ أعوام
* معجم الأمثال العامية مع كشاف موضوعى	أحمد تيمور باشا
* ثورة الفكر فى عصر النهضة الأوربية	د. لويس عوض
* سرقة ملك مصر	محسن محمد
* مذكرات صائم	أحمد بهجت
* إيدز «مرض نقص المناعة المكتسب»	د. محمد صبور

- كتب للأطفال والنشىء:

* فيقدم لهم المجموعة التالية من المؤلفات التى تتضمن المعلومة المفيدة والتسلية الراقية ووسائل تنمية الإبداع

- سلسلة علماء العرب:

* ابن النفيس «مكتشف الدورة الدموية الصغرى»	
* ابن الهيثم «عالم البصريات»	سليمان فياض
* البيرونى «عالم الجغرافيا الفلكية	سليمان فياض
* جابر بن حيان «أبو الكيمياء»	سليمان فياض
* ابن البيطار «عالم النبات»	سليمان فياض
* ابن بطوطة «رحالة الإسلام»	سليمان فياض
* ابن سينا «أبو الطب البشرى»	سليمان فياض
* الفارابى «أبو الفلسفة الإسلامية»	سليمان فياض

□ **موسوعة جوفى الرياضية:**

* السباحة والغطس / الألعاب الأوليمبية / ألعاب الأطفال ترجمة: نجيب المستكاوى

□ **ترقية المهارات والخيال:**

* ألوان ألوان — حسين أبو زيد
* ألوان ألوان ـ حول العالم — حسين أبو زيد
* ألوان ألوان ـ حيوانات أليفة — حسين أبو زيد
* ألوان ألوان ـ حيوانات الغابة — حسين أبو زيد
* ألوان ألوان ـ من الطيور النادرة — حسين أبو زيد
* ألوان ألوان ـ من الزهور — حسين أبو زيد
* تعال نصنع — حسين أبو زيد
* رحلة صيد — شاكر المعداوى
* حكايات أعجبتنى — يعقوب الشارونى
* حكايات عربية وإسلامية «جزءين» — علية توفيق ـ رسوم: كمال درويش
* حوار بين طفل ساذج وقط مثقف — أحمد بهجت

□ **العلوم:**

* الموسوعة العلمية الأولى للأطفال — ترجمة: د. محمد أمين سليمان
* طرائف والت ديزنى بالكمبيوتر — ترجمة: د. أيمن الدسوقى
* ميكى يسأل ويجيب — ترجمة: د. أحمد فؤاد باشا

□ **ومن المعاجم والموسوعات يقدم لك:**

* معجم مصطلحات الحاسبات الألكترونية — إعداد مركز الأهرام للترجمة والنشر
* الموسوعة المصورة للشباب — ترجمة: د. محمد أمين سليمان
د. أحمد فؤاد باشا

رقم الإيداع بدار الكتب
١٩٨٨ / ٤٣٢٨

مطابع الأهرام التجارية القاهرة ـ مصر



كمال الملاخ

- أهدته مصر : جائزة الدولة لأدب الرحلات وجائزة الدولة التقديرية للفنون والجائزة التقديرية لأكاديمية الفنون .
- اكتشف (مراكب الشمس) و (أول كوبرى فى التاريخ) وأعاد إقامة أقدم مسلة فى مصر . وأول مصرى معاصر يرمم أهرام مصر وأبو الهول وبرج العرب وجزيرة (فيله) فى نيل النوبة وأعاد (فورم) الأشمونيين واشترك فى المادة العلمية للصوت والضوء لمناطق أهرام الجيزة والكرنك وفيله ، وفى إعداد متحف الأقصر ، والنوبة وتطوير المتحف المصرى .
- عضو المجلس الأعلى للفنون والآداب . وعضو مجلس إدارة هيئة الآثار . وعضو تحكيم بينالى الأسكندرية وهيئة مهرجانات السينما . وهيئة التفرغ . وأستاذ غير متفرغ للدراسات العليا فى كلية الفنون الجميلة وفى جامعات : الاسكندرية والزقازيق والقاهرة . ومحاضر بالجامعة الأمريكية . ومحاضر فى الجامعات العالمية عن آثار مصر وحضارتها وعضو رقابة السينما والمسرح والمصنفات الفنية . ورئيس جمعية : كتاب ونقاد السينما فى مصر وأوجد مهرجانات السينما الدولية فى مصر .
- صاحب ٢٥ فيلما تسجيليا ثقافيا بعضها عرض فى مهرجانات عالمية للسينما . أحدثها (الاصابع) عرض فى (ليبيزج) و (كان) و (برلين) .
- له ٣٢ كتابا : منها (صالون من ورق) و (النار والبحر) و (حول الفن الحديث) و (٥٠ سنة من الفن) و (صقر الحرية) و (سويسرا) و (حكايات صيف) و (التيه) و (هؤلاء دخلوا التاريخ) و (بيكاسو : المليونير الصعلوك) الذى أعده وأخرجه سمير عبد العظيم مسلسله طوال شهر لاذاعة الشرق الأوسط . وقد أعيد طبعه مرتين ونفد خلال شهر واحد .

صدر للمؤلف كتابه : قاهر الظلام (عن حياة د . طه حسين) الذى ترجم إلى الصينية والفرنسية ، وأصبح فيلما روائيا . كما كان كتابه « ذهب توت عنخ آمون » الكتاب المباع الأول فى الولايات المتحدة ١٩٧٩ ، وترجم إلى لغات . وأيضا له كتابان : « كنوز النيل » أصدرته كودنشا باليابانية ونيوزويك بالانجليزية ، وكتاب : « القاهرة » بالانجليزية والفرنسية والايطالية والألمانية .

مركز الأهرام للترجمة والنشر
مؤسسة الأهرام
التوزيع فى الداخل والخارج : وكالة الأهرام للتوزيع
ش الجلاء - القاهرة

مطابع الأهرام التجارية القاهرة - مصر